
ذئاب في ثياب حملان
مختصر
قصة الأصولية الأمريكية
INRI
إميل أمين
دار المريخ
http://kotob.has.it

ذئاب في ثياب حملان

مختصر قصّة الأصوليّة الأمريكيّة

إميل أمين



دار المريخ للنشر - القاهرة - 4 شارع الفرات - المهندسين - الجيزة
هاتف : 3376579 / 7609971 + (0020) - فاكس: 7609457 - رمز بريدى : 12411

رقم الإيداع : 2005 / 11409

تدمك : 977- 5420- 44- X

لوحة الغلاف للفنان : أحمد شوقي

جمهورية مصر العربية - 4 شارع الفرات - المهندسين - جيزة

تليفون : 3376579 / 7609971 (00202) فاكس : 7609457

البريد الإلكترونى : Email: marspub@hotmail.com

«احتـرزوا من الأنبياء الكَذَبَة الذين يأتونكم في ثياب الحملان.. ولكنهم في الداخل ذئاب خاطفة»

السيد المسيح

(متى ٧ـ١٥)

الإهداء

إلى أنتوني ومريم

ابناي ؛ أبناء الحياة ، اللذان هما مني ولكنهما ليسا ملكاً لي ، واللذان لا يعرفان ما أنا كاتب اليوم ، ولكن فيما بعد سيعرفان . . .

المؤلف

المحتويات

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

المقدمة

(قديما قالت جماعة الفلاسفة «**إن التفكير شقاء**» وقالوا «**إن التفكير يذهب بمتعة الوجود**» . وآخرون تساءلوا : «**سعادة بلا وعي أو وعي بلا سعادة**» . ثم إن الفكر نفسه يبقى عند أرسطو موضوعا للتفكير .

مهما يكن من أمر ، فإن عملية التفكير هذه ، إنما تبغي الوصول إلى الحقيقة مهما يتكلف الباحث عنها جهداً وعناء ومشقة . فقد كلفت نفسه هذه المصاعب ، وارتضيت روحه رحلة الآلام ، وقبلَ جسده الإنهاك في سبيل الوصول إلى الحقيقة المجردة الخالصة التي لا تبغي إلا وجه الخالق وهو الحق بذاته .

بهذه الكلمات قدمنا للعدد الأول من صحيفة «**الحقيقة**» ، التي قُدِّر لنا أن نُصدرها في الولايات المتحدة الأمريكية منذ نحو سبع سنوات ، وها نحن مرة أخرى ، نجد أنها جديرة بأن نستهل بها هذا العمل ، الذي نسعد أن نقدمه لقارئ المكتبة العربية .

في الثامن عشر من شهر أغسطس/ آب من عام 1995 ، كانت الخطوط الجوية الإيطالية تحط برحالها في مطار جون كيندي في نيويورك ، بعد أن كُتب لها النجاة من عاصفة فوق الأطلسي ، كادت تذهب بها وبمن عليها . لكن العمر كان فيه بقية ، وسبحان من بيده مقدرات الموت والحياة .

كانت الرحلة قادمة من أوروبا ، حيث قضيت هناك سنوات طوالاً في فرنسا ، في باريس عاصمة النور ، وقبلة المفكرين والباحثين من أدباء وفلاسفة وإعلاميين . سنوات اختلط فيها الماضي بالحاضر . كان الماضي مليئا بالبحث والدرس في تاريخ الفكر الأوروبي ، وخاصة أعلام فرنسا ، وعلى رأسهم «**إميل زولا**» الكاتب الفرنسي المبدع ، والذي تيمُناً به ، أطلق والدي عليَّ اسمه بعد أن

كان يفضل اختيار اسم علي أو مصطفى ، تيمُناً بعملاقي الصحافة في مصر **علي أمين وتوأمه مصطفى أمين** . لكن صراع المطلقات ، وحديث الأصوليات ، وذهنية الدرب الواحد التي كانت ولا تزال سائدة في عالمنا الشرقي ، حالت دون ذلك ، وأحسب أنني كنت سأكون فخورا بذلك لو قدر لي وحملت اسم علي أو مصطفى تيمُنا بأي من الراحلين العظيمين . لكن لا بأس ، فإميل زولا أيضا كاتب فرنسي مبدع .

ومن **زولا** كانت الرحلة تنطلق **لفولتير** ، الملك الحقيقي للقرن الثامن عشر في أوروبا ، ذلك لأنه من بين جميع الرجال والنساء الذين عاشوا في تلك الحقبة المضطربة ، لم يكن هناك أنصع من فولتير صورة في ذاكرة الناس ، وأحظى بقراءتهم الكثيرة لأعماله ، وأبقى تأثيرا فيهم إلى اليوم.

ومرورا على **چان چاك روسو** ، والتأمل طويلا في نظرية العقد الاجتماعي ، والتطلع إلى فكرة نظام عالمي يربط الخليقة كلها في عقد واحد من المبادئ والمثل والقيم والأخلاقيات ، ثم التوقف عند **مونتسكيو** وكتابه الخالد «**روح القوانين**» .

وإذا كان للفكر السياسي باع الأسد في هذا التكوين ، فقد كان للأدب أيضا نصيب وافر ما بين «**أحدب نوتردام**» و«**بؤساء**» فيكتور هيجو ، مرورا بـ «**الفرسان الثلاثة**» لإلكسندر ديماس الأب ، حتى «**غادة الكاميليا**» . ويضيق الموضع والموقع بذكر أمهات الآداب الفرنسية . لكن في هذا كله ، كان الفكر الديني حاضرا من خلال اهتمام خاص بعلوم الأديان المقارنة ، والبحث في الكتب المقدسة ، لكن بعين غير تلك التي نشأنا وتربينا عليها في بلادنا ، ذلك أن النقد أو إعمال العقل ، كانا يعدان جريمة كبرى . وعلوم اللاهوت القديمة ، كانت كثيرا حجر عثرة في طريق إعمال العقل في النقل ، رغم أن أساسيات هذا الفرع من العلوم الدينية هو إعمال العقل بالتفكير في الحقائق الإيمانية ، وليصبح الناتج هو علم اللاهوت ، كما كان يرى معلم أوروبا الأول اللاهوتي والعلامة **توما الأكويني** .

وفي رحلة البحث والدرس ، كان أن تعثرت قدماي بكتاب «**تأملات في الثورة في فرنسا**» للكاتب الفرنسي الشهير «**إدموند بيرك**» والذي يرى فيه أنه كل

خير في اتباع من سلف ، وكل شر في الانسياق وراء من خلف ، وإن الحريات من الأمور التي تتوارث وتنتقل من الأجداد إلى الأحفاد دونما حاجة إلى ردها إلى ما يُسمى بحق عام .

وقد أطلق **بيرك** صيحته المشهورة التي قال فيها «**نحن محكومون بالموتى**» . مما يعني أن البشرية لا تستطيع أن تخطو إلى الأمام ، إلا إذا ألقت نظرة إلى الوراء ، نظرة رابطة وليست نظرة عابرة إن جاز التعبير .

لذا ، فإن الرجل كان يستخف بالإبداع وينظر إليه على أنه ثمرة الأنانية ، أما الوراثة عنده فهي مبدأ المحافظة ، كما أنها مبدأ الاتصال بين الأجيال ، كما يرى الفيلسوف المصري الكبير الدكتور **مراد وهبة** .

وفي تقديري ، كانت كلمات بيرك هي العامل المحفز لي للبحث في قضية الأصولية ، خاصة في الجزء الذي يتعلق بالأصولية المسيحية .

وإقرارا بالحق ، فإنني لا أزعم أنني قصدت الولايات المتحدة الأمريكية بهدف البحث في قصة الأصولية الدينية الأمريكية ، التي كانت بداياتها تتجلى في الأفق ، بل كان وراء الرحيل من أوروبا العجوز ـ على حد تعبير رامسفيلد وزير الدفاع الأمريكي ـ المُتَهكم ـ إلى أمريكا الصبية الفتية ، أسباب أُخر ، لعل أهمها كان الهوى والجنون ، وإن كنت أحمد الله أنني قد برئت من الهوى ومن الجنون ، لكن بعد رحلة طويلة من الشقاء والمعاناة ، لم يخفف من وحدتها وعزلتها إلا ملاك جديد ظهر في حياتي ، وكان السبب في نجاحي هناك ، ولا يزال الدافع الأكبر لنجاحات أخرى قدرها المولى عز وجل لعبده وهي زوجتي العزيزة .

وعبر نحو سبع سنوات قضيت معظمها كباحث ومحلل وناشر لصحيفة ، كانت الفكرة التي بين يدي القارئ قد اكتملت ، وكان الحق يوجب أن أشرح للقارئ العربي ـ في كلمات بسيطة وعبارات بعيدة عن الجزل أو الصنعة التي بها كثير من التكلف ـ ما الذي حدث في الولايات المتحدة الأمريكية عبر تاريخها غير الطويل ، وكيف آلت سياستها إلى ماهي عليه الآن .

وهنا يلزمني القول ، إن هناك نوعين من الإصدارات قد تناولا هذه القضية من قبل ، إلا أن **الأول** منهما كان أبحاثا أكاديمية مغرقة في التخصص ، ودون أن نبخسها قدرها ، فإن موقعها الطبيعي في مراكز الأبحاث والدراسات والجامعات المتخصصة ومستخدميها هم الباحثون في ذلك الفرع من العلوم .

فيما الثاني ، كان عبارة عن عرض سريع لقضايا مختلفة تتداخل فيها الأصولية الدينية الأمريكية بالتاريخ الأوروبي القديم ، مع إغراق القارئ في مصطلحات ومفاهيم ، كثير منها تشوبه شائبة عدم الفهم الديني الرائق ، وينقصها التسلسل الزمني والفكري الذي يقود القارئ درجة درجة للوصول إلى رسم صورة واعية شبه كاملة لما هو حادث الآن .

وقد كان أن اختمرت الفكرة على أن تَطلَع للقارئ العربي أقرب ما تكون إلى القصة أو الرواية ، سمها ما شئت ، راعينا فيها التسلسل الزمني والفكري للأحداث من جهة ، والوضوح والدقة إضافة إلى البساطة وعدم التعقيد من ناحية أخرى . وهدفنا الرئيسي هو القــارئ الباحــث عن الحقيقة ، دون تهوين أو تهويل ، وكذلك دون اختصار مُخلٍ أو تطويل مملٍ .

وبحال من الأحوال ، أقر بأنني لم أستطع كثيرا أن أكون حياديا جهة أمرين ، أحسب أنني رضعتهما مع ثديي أمي ، **الأول** : هو إيماني **بعروبتي وقوميتي العربية** . **والثاني** : لا يتعارض مع الأول ـ على الأقل في تقديري ـ وهو **مذهبي الكاثوليكي** ، ذلك لأنني أحسب أن الكنيسة الكاثوليكية ـ وكما يقول المؤرخ الأمريكي الأشهر **وول ديورانت** في موسوعته الخالدة ـ هي أعظم مؤسسة بشرية عرفها التاريخ .

لذا ، فإن البحث في **الأصولية الأمريكية** ، توقف كثيراً عند **الدور اليهودي** ، ومن ثم **الإسرائيلي** في تاريخ الولايات المتحدة الأمريكية ، وفي نظرتي لهذا الدور ، كان **الاتجاه القومي العربي** هو **الاتجاه الكاثوليكي** المذهب ، هو الذي يشرح دون أن يُجرِّح بمشرط الإيمان بالقضية التي هي العروبة والإخلاص للمذهب الذي هو الكاثوليكية .

ودون محاولة للتأثير على القارئ قبل أن يتصفح هذه الرواية ـ القصة ، فإنني أتوقف معه هنا في هذا التمهيد ، أمام ما يسمى بنبوءة **فرانكلين** التي نراها تتجلى اليوم أمام أعين العالم عن هذا الدور اليهودي .

يقول **بنيامين فرانكلين**(*) وهو من آباء **الاستقلال الأمريكيين** ، ومؤلف ومخترع ودبلوماسي ، ويُسمى بالأمريكي المتمدين الأول ، محذرا من خطر اليهود على الولايات المتحدة :

«لأكثر من ألف وسبعمائة عام ، ظلوا يندبون حظهم التعيس في أنهم أخرجوا من أرضهم الأم ، ولكن أيها السادة إذا أعاد العالم المتمدين لهم اليوم فلسطين ، فإنهم سيجدون حالا أسبابا ملحة لكى لا يعودوا إلى هناك . . لماذا ؟

لأنهم مصاصو دماء ، ومصاصو الدماء لا يستطيعون العيش على مصاصي دماء آخرين ، إنهم لا يستطيعون العيش فيما بينهم ، إذ إنهم يجب أن يعيشوا على المسيحيين أو على الشعوب التي لا تنتمي إلى شعبهم .»

ويتابع بقوله : «إنهم إذا لم يمنعوا من دخول الولايات المتحدة الأمريكية بواسطة الدستور خلال مائة عام على الأقل ، فإنهم سيتدفقون على هذه البلاد بأعداد وبشكل سيمكنهم من حكمنا وتدميرنا ، بتغيير شكل حكومتنا التي من أجلها قد أرقنا نحن الأمريكيين دماءنا وضحينا بحياتنا ، وبتغيير خصائصنا وحريتنا الشخصية» .

ويصل فرانكلين إلى نتيجة حتمية وهي أنه : **إذا لم يُطرد اليهود خلال مائتي عام ، فإن أبناءنا سيعملون في الحقول لإطعامهم ، في حين يقبع هؤلاء في مكاتب حساباتهم يفركون أيديهم فرحا ، إنهم يجب أن يطردوا عن طريق الدستور** .

(*)وثيقة بمعهد فرانكلين ـ ولاية فلادلفيا ـ خطاب ألقاه بنيامين فرانكلين أثناء الاحتفال بوضع دستور الولايات المتحدة الأمريكية سنة 1789 ، أمام المجلس التأسيسي الأمريكي «يعتبر بنيامين فرانكلين أحد الآباء المؤسسين لأمريكا بالإضافة إلى توماس جيفرسون وجورج واشنطن وآخرين . وقد عاش عمراً مديداً لأنه ولد عام 1706 ومات عام 1790 . وكان عاملاً في إحدى المطابع أولاً قبل أن يصبح أحد علماء عصره المشهورين وأحد آباء الأمة الجديدة التي ستهيمن على العالم» .

وقد يقول قائل : وما علاقة هؤلاء بالأصولية التي تعيشها الولايات المتحدة الأمريكية ؟

نقول : إن الفكر الأصولي اليميني والجماعات المحافظة الجديدة ، لم تنشأ إلا من خلفية الاختراق اليهودي للفكر المسيحي ، ولكي لا نطلق التعميمات ، فإننا نشير إلى أن هناك قطاعات لم تُخترق بعد ، لكن بحال من الأحوال ، إذا سارت الأمور على هذا النهج ، فإنها سنوات قليلة ونرى المطلق يتحكم ويحكم ، والنسبي يتضاءل وينسحب من على الخريطة السياسية الأمريكية التي هي أقرب إلى الخريطة الأمبراطورية في الأيام الحالية .

أما الصراع الحادث الآن ، هو صراع بين المطلقات والنسبي «**من ليس معنا فهو مع الإرهاب**» هكذا قالها **جورج بوش** صراحة في بدايات حملته العسكرية منذ بضع سنوات في إشارة إلى أن أصوليته الجديدة لا مجال للتعددية فيها ، أو للرأي الآخر من حولها . فتعددية المطلق هي تعددية زائفة ، لأن المطلق بحكم تعريفه واحد لا يتعدد ، وإذا تعدد فصراع المطلقات حتمي ، وهو ما آلت إليه صراعات الأصولية الأمريكية اليوم .

وتُساير هذا القول نتائج الأبحاث التي أجريت على هذا الصراع في مجتمعات متباينة ، وهي أن الصراعات الاقتصادية تدور على الخيرات القابلة للقسمة ، وهي لهذا صراعات قابلة للتفاوض ، ومن ثم من الميسور حلها ، وعلى الضد من ذلك ، الخيرات التي لا تقبل القسمة ، فإنها لا تقبل التفاوض وصراع المطلقات من هذا القبيل .

ويبقى اضافة إلى هذا البحث في الأصولية الأمريكية ، إننا أضفنا ملحقاً للكتاب يتناول عدة قضايا أصولية دينية حول عدة موضوعات ، هي حديث الماضي الممتد في الحاضر ، بدءا من مقولة **شعب الله المختار** وأرض الميعاد مرورا بقيام دولة إسرائيل ، وهل هي من الله أم لا ؟

وكان أن عرجنا على موضوع الساعة من بناء **هيكل إسرائيل** ، وهدم **الأقصى** ، وصولا إلى **مصر** الكيان الذي يسري في دم كاتب هذه السطور حباً

خالصاً صافياً رقراقاً كماء النيل العذب رغم سنوات الغربة ، ومشاعر الاغتراب . أقول وصولا إلى الأحقاد الدفينة تجاه مصر بين فكر اليمينيين الأمريكيين ، وأحقاد الإسرائيليين الغابرين والحاليين .

ومن منطلق **النسبي لا المطلق** ، أعتبر هذا الكتاب محاولة لإلقاء ضوء ساطع على منطقة مظلمة وتزداد إظلاما يوماً بعد يوم ، لا أدعي له الكمال ، ذلك لأن الكمال صفة المطلق ، ومحاولات الإنسان دائما تقع في إطار النسبي ، لكن يحدونا الأمل في أن تكون محاولتنا هذه اجتهاداً من النوع الذي يقول عنه عميد الأدب العربي طه حسين «**إنه يُولّد نوعاً من الرضا الذي يَعقب القيام بالواجب ،** وذلك الشعور بأن المرء على مستوى الرسالة التي كُلِّف بها رغم المصاعب التي يواجهها» .

فماهي قصة الأصولية الأمريكية ؟

هذا ما سنعرفه في فصول هذا الكتاب ، وليغفر لنا الله كل تقصير ، وهو ولي التوفيق .

إميل أمين

القاهرة في 2004/9/11

الفصل الأول

لوثر أبو كل أصولية

- من هو مارتن لوثر؟
- دعوة لوثر التي قسَّمت أوروبا
- اليهود أصدقاء لوثر
- لوثر ينقلب على اليهود بعد اختراقهم لفكره الجديد
- بداية الصراع الديني في أوروبا

الفصل الأول

لوثر أبو كل أصولية

لا يمكن بحال من الأحوال، أن ننظر إلى قضية الأصولية[*] في المسيحية، والتي ستقودنا لاحقا إلى طرق أبواب الأصوليين الجدد، الذين خرجت من عباءتهم جماعة المحافظين الجدد، دون الرجوع أولاً وقبل كل شيء، إلى منبع الأصولية المسيحية الحديثة، وزعيم حركة الانشقاق والتمرد على الكنيسة الكاثوليكية في بدايات القرن السادس عشر .

إنه **مارتن لوثر**، المولود سنة 1483 في إيسليبن Eisleben بمقاطعة ساكس الألمانية Saxe، في عائلة وضيعة، عاش طفولة خشنة، وأصغى مذعورا إلى قصص حافلة بالشياطين والجنيات . وفي سنة 1505 على إثر صدمة نفسية سببها خوفه من الموت والهلاك، دخل دير نساك القديس أوغسطينس في إيرفورت Erfurt، وعاش فيه عيشة الناسك الخشنة، وعقب إتمام الدراسات الفلسفية واللاهوتية رُسِّم كاهنا، ثم عُهد إليه تدريس الكتاب المقدس في جامعة فيتنبرغ . كان أمينا في بدايات أيامه في حفظ القوانين ، لكنه مع ذلك، لم يتمتع بسلام النفس، إذ إنه لم يستطع أن يتحرر من الشهوة ومن الميل إلى الخطيئة .

(*) لفظ الأصولية مشتق لغويا من أصول، وهو ترجمة للفظ الإنجليزي Fundamentalism وهو لفظ إنجيلي مشتق من لفظ آخر هو Foundation بمعنى أساس ، يقول إشعياء النبي **«ها أنا ذا أؤسس في صهيون حجرا، حجر امتحان، حجر زاوية كريما أساسا مؤسساً»** (أشعياء 16:28)

وحسب صورة رسمها له **لوكاس كراناخ** وهو في الثالثة والأربعين من عمره ، يبدو لوثر بديناً إلى حد ما ، صارم القسمات ، له شعر مُجَعّد لا يزال حالك السواد ، وأنف ضخم ، وعينان سوداوان لامعتان . قال خصومه إن الشياطين تظهر فيهما للعيان .

ووجد لوثر في الغفرانات فرصة لإعلان ما اكتشفه من استنتاجات لاهوتية حسب رأيه . إذ كان علم اللاهوت في ذلك الزمن يقول بأن الله يعمل ما يطيب له ، فَيُخلِّص بعض الناس ، ويُهلك البعض الآخر . وذات يوم وجد لوثر جوابا عن قلقه في رسالة **القديس بولس** إلى أهل روما «**إن الإنسان يبرر بالإيمان ، بمعزل عن أعمال الشريعة**» (روم 28/3/) . فالإنسان لا ينال الخلاص بفضل ما يبذله من جهود ، بل الله هو الذي يجعله باراً بنعمته وحدها . ويبقى الإنسان خاطئا ، لكن الله يأتي فيخلصه من يأسه .

أما عن أصل قصة الغفرانات ، فقد كان الرهبان الدومينيكان ينادون بالغفران ، وهو إعفاء من العقوبات الزمنية التي استوجبتها الخطيئة في أنحاء ألمانيا لتغطية نفقات رئيس أساقفة مايانس Mayence . إذ كان عليه أن يدفع رسوما لأنه يجمع بين ثلاث أبرشيات ، وللإسهام في بناء كنيسة القديس بطرس في روما ما جعل لوثر يلصق القضايا الـ 95 على باب كنيسة قصر فيتنبرغ .

وحتى ذلك الوقت ، كان لوثر كثير الاعتدال في تهجمه على المقام البابوي ، ولم يفكر في القطيعة مع روما ، لكن القضايا الـ95 أحرزت شغباً كبيرا في أنحاء ألمانيا وأوروبا . اتهم لوثر في البلاط البابوي على إثرها ، وعلى مدى ثلاث سنوات ، حاول بعض أعضاء رهبانيته وبعض الموفدين من روما أن يحملوه على الرجوع عن أقواله ، لكن الجدال أيقظ روح القومية الألمانية ، وكانت تلك الشرارة الأولى التي أشعلت لهيب أعمال السياسة من خلال المنطلقات الدينية المسيحية ، والتي ستتبلور فيما بعد لتصل إلى ما هي عليه الآن .بدا لوثر كبطل شعبي مستاء من الوسائل التي يستخدمها البلاط الروماني في جباية الضرائب ، ومن تكدس الأموال التي تمتلكها الكنيسة في ألمانيا ، وطال تمرد لوثر حتى حرمه البابا في

كانون الثاني / يناير سنة 1521 والحرم هنا بمعنى نفي صفة ووسم الكهنوت عنه، وتجريده من صلاحياته الدينية، وحكم بطرده من الإمبراطورية، فاختفى سنة 1521 . وفي خلوته نقل الكتاب المقدس إلى اللغة الألمانية ضارباً عرض الحائط باللغة اللاتينية التي كانت تستخدمها الكنيسة الكاثوليكية، لكنه سرعان ما سيطلب لوثر من أتباعه ومريديه العودة إلى اللغة العبرية عما قريب .

يقول وول ديورانت في موسوعته الخالدة «قصة الحضارة» المجلد الثاني عشر، في الفصل التاسع عشر : إن لوثر انزلق إلى الزواج محتفظا بالفكرة السائدة في القرون الوسطى، والتي تذهب إلى إن الجماع أمر آثم حتى في الزواج . وبلغ به الشطط في العداء للكنيسة أنه ندد بحياة البتولية والتبتل، باعتبارهما انتهاكا لسنة الله التي تقضي بالتناسل والتكاثر، وكان يعد طريقة البشر في التناسل منافية للعقل بعض الشيء، ورأى أنه «**لو استشارني الله في الأمر لأشرت عليه بأن يستمر في خلق جيل من البشر بتشكيلهم من الطين مباشرة كما خلق آدم**» .

وفي وسط الجلبة التي أثارتها آراء لوثر، انقسمت ألمانيا بين الذين معه والذين عليه . كانت دوافع أنصاره متنوعة، فالأشراف وجدوا ضالتهم في الاستيلاء على أراضي الكنيسة، والفلاحون انتهزوا الفرصة باسم المساواة بين البشر أمام الله للثورة على سادتهم الذين يستغلونهم، فنشبت حرب طاحنة (1524-1525) .

استولى القلق على لوثر، لأن جميع هؤلاء الناس كانوا يدعون العمل بحسب ما تقتضيه كلمة الله، ولم ينجح لوثر في تهدئة الفلاحين، فدعا الأسياد إلى تقتيل المتمردين . وهنا كانت دعوة لوثر قد فرغت من أي قيمة روحية وهو الميراث الذي سيتركه لمن يخلفوه، وفي غمرة الغضب غير المقدس، يأتي هجومه وأتباعه على أحد أديرة الراهبات، والذي عُرِفَ لاحقا بالدير الأسود كناية عن اغتصاب العذراوات من الراهبات فيه، وكَان أن تزوج بواحدة منهن تدعى كاترين بورا، وعن هذا الزواج يقول : «**إنه على الرغم من أنف الشيطان والبابا واستهزاء بجميع الذين ذهب بهم الجنون إلى حد نهي رجال الأكليروس عن الزواج**» . أما عن أخطائه الواضحة للعيان ـ كما يراها ديورانت ـ فقد كانت الفخر

الذي يشيع في وسط تعبيراته الدائمة عن التواضع . وكان عقيديا ضد العقيدة ، مفرطا في الحماسة ، لا يبدي أية مجاملة لخصومه ، ويتشبث بالخرافات ، في الوقت الذي يسخر فيه من الخرافة ، ويندد بالتعصب ويمارسه في الوقت نفسه .

والحق ، إن لوثر لم يكن قدوة للصلابة أو مثلا على الفضيلة ، ولكنه رجل جمع متناقضات الحياة ، وإنسان مزقه بارود الحرب ، وقد اعترف قائلا : «**لم أكن أتوانى عن الانقضاض على خصومي بلسان حاد ، ولكن ما فائدة الملح إذا لم يكن لاذع الطعم ؟**» .

أما عن البابا ، فبلغ به الجنوح والجموح ، لأنه يتصور أنه ضد المسيح أو المسيخ الدجال ، واصفا المراسيم البابوية بأنها قذارة وروث ، والأساقفة بأنهم ديدان وهراطقة كفرة وقردة جهلة .

وتحدث عن الرسامة الكهنوتية فقال : «**إنها بمثابة دفع إنسان بشارة البهيم في سفر الرؤيا**» .

ولنا أن نتصور إلى أي حد كان المستمعون إليه يجدون متعة في هذا العبث . وقد قال : «**إن الجزء الوحيد من جسم الإنسان الذي اضطر البابا إلى إعفائه من رقابته هو المؤخرة**» . ويطول المجال هنا للحديث عن جامات غضب لوثر التي صبها على البابا والبابوية ، مما يذكر بتعليق الإمبراطور جوليان الذي جاء فيه «**ليس هناك حيوان مفترس أشد ضراوة من عالم لاهوت غاضب**» .

كان لوثر يدعو السماء لأن تصب النار والكبريت على مخالفيه في الرأي ، كالذي قضى على سدوم وعمورة ، ويضيف : لا يمكنني أن أصلي «**تبارك اسمك**» دون أن أكمل أن «**يلعن اسم البابوية**» ، وإذا كان لابد من أن أهتف ليأت ملكوتك ، فإني مضطر إلى أن أضيف : «البابوية ملعونة رجيمة هالكة لا محالة» .

ويعترف الكردينال جاسكيه العلامة قائلا :

« **إن بعض الوعاظ وكتاب الرسالات من طائفة المحافظين ، كانوا يضارعون لوثر من هذه الناحية**» . وليلاحظ القارئ هنا إلى أي حد يتشابه الخطاب

الإعلامي اللوثري في جوهره مع خطاب المحافظين الجدد ، خاصة ريتشارد بيرل ودافيد فيروم وما سواهما ، خطاب اللعنات والويل والثبور وعظائم الأمور ، ناهيك عن حديث الإبادة والقضاء المحكم على دول محور الشر .

والواقع أنه مهما يكن من أمر لوثر العقائدي والشخصي ، فإن الأمر هنا ليس محل بحثه أو الحديث عنه ، ذلك إن هذا مكانه المباحثات العقائدية ، لكن مجمل الهدف من التطرق إليه ، هو الوصول إلى إيضاح مقدار العداء الذي كان يكنه للبابا والبابوية رمز المسيحية ومركزها العالمي في ذلك الوقت .

والبديهي أيضا ، أن كلنا يعلم مقدار العداء الذي كان ضاربا جذوره بين المؤسسة الكاثوليكية ويهود الشتات في العالم كله ، وإذا أيقنا أن تسعة أعشار هؤلاء كانوا يعيشون في أوروبا ، لعلمنا إلى أي حد كان لهؤلاء مصلحة وثيقة في دفع لوثر خطوات إلى الأمام في عدائه ذلك ، لأنه أي صديق أفضل لهم من عدو البابا الشيطان الأعظم في يقينهم والقائم على المؤسسة الدينية التي ترى أنهم بنو قتلة الأنبياء .

وهكذا كان الاختراق الأول ، والذي تستتبعه ولا شك اختراقات كُثر أخرى ليس آخرها ما نراه في الإدارات الأمريكية المتعاقبة في العشرين سنة الأخيرة .

كان المسيحيون الأوروبيون في بعض مراسم صلواتهم التي يسترجعون فيها ذكرى صلب السيد المسيح في القرنين التاسع والعاشر والحادي عشر الميلادي ، وخاصة سكان بعض المدن الفرنسية منهم ، لديهم تقليد خاص بهم في هذه المناسبة ، ويعتبرونه جزءا مهما من الطقوس الشكلية ، وهو إحضار يهودي أوروبي إلى الكنيسة أثناء الاجتماع ليصفعه أحد النبلاء المسيحيين أمام الجمع ، إحياء لذكرى الضرب والإهانات التي تعرض لها السيد المسيح على أيدي اليهود(*) .

(*) لاحظ هنا التغيير الذي سيحدث لاحقا في أوروبا حيث سيعتبر العداء للسامية جريمة لا تغتفر . (راجع روجيه جارودي ـ الأساطير المؤسسة لدولة إسرائيل ـ دار الشروق 1998) .

في هذا الجو المليء بالعداء لليهود ، ظهر لوثر محاولاً تقويض أساسات الكنيسة الرومانية قائدة العداء المعلن والمتوارث من جيل إلى جيل تجاه كل ما هو يهودي في أوروبا .

وفي خضم المعركة المحتدمة مع البابوية ، قدر لوثر من منطلقات عدائية سياسية واقتصادية وإيديولوجية ، أن التقرب من اليهود أفضل له ، فانتقد موقف السلطة البابوية منهم ، والتعامل معهم على أنهم « **كلاب لا بشر** » حسب تعبيره ، وكتب حول هذا الموضوع كتابه الأول ذا الدلالة الواضحة ، والذي أصبح فيما بعد أحد الشعارات الأساسية لليمين المسيحي ، أو ما أطلق عليه المسيحية الصهيونية ، وهو تعريف غير دقيق ، وسنأتي على تفصيله لاحقا وهو كتاب «**عيسى ولد يهوديا** » .

يقول لوثر ، سوف أسوق النصوص الواردة في الكتاب المقدس التي تدل على أن يسوع المسيح كان يهوديا ، ولد من امرأة عذراء ، **ولعلي بذلك اكتسب بعض اليهود لاعتناق العقيدة المسيحية** ، ومما لا جدال فيه ، إن هم لوثر الأعظم لم يكن تنصير اليهود بقدر ما كان كسبهم إلى صفه بما لهم من حضور مالي ، خاصة ضد البابا ، لكنه كان يستخدم غطاء الجذب للكنيسة وللمسيحية ليلقي اللوم على البابوية والكنيسة الكاثوليكية . إذ يقول : «**إن التعامل الفظ الذي تمارسه الكنيسة ضد اليهود ، هو الذي ينفرهم من المسيحية ، ويجعلهم يفضلون البقاء على دينهم**» . بل يتمادى في تبريراته المغرضة مضيفا : «**إنه حتى حينما يقرر بعضهم اعتناق المسيحية فإنه يجد نفسه تحت طغيان الكنيسة وابتزازها فيندم على هجر دينه الأصلي**» .وفي طريقه لاستمالة اليهود إليه ، يغالي في الترف والتقرب ، إذ يذهب إلى أن الحمقى منا ـ أعني الباباوات والقسس وعلماء الدين ذوي القلوب الفظة ـ تعاملوا مع اليهود بطريقة جعلت كل من يأمل أن يكون مسيحيا مخلصا يتحول إلى يهودي ويخلص إلى نتيجة مفادها ، «**أنني لو كنت يهوديا ورأيت كل هؤلاء الحمقى يقودون ويعلمون العقيدة المسيحية ، فسأختار على البديهة أن أكون خنزيرا بدلا من أن أكون مسيحيا ، ذلك لأنهم تعاملوا مع اليهود على أنهم كلاب لا بشر**» ، ويؤكد على أنه لو تعاملنا معهم «**بقانون محبة المسيح لا بقانون البابا**» ، فإن العديد منهم سيتحول إلى مسيحيين مخلصين . إلا

أن أهم ما جاء في كتاب لوثر هو قوله مخاطبا عموم مسيحيي العالم بقوله : **«قبل أن نتفاخر بموقفنا ، يجب أن نتذكر أننا مجرد أميين أغراب وأباعد ، أما هم فأقارب وبنو عمومة وأخوة للرب»** . وما لاشك فيه أن طرح هذه الفكرة بتلك الصورة في كتاب لوثر ، إنما تعني أنه وقع تحت تأثير تضلعه بالعهد القديم والنصوص العبرانية الأخرى ، مما دعا لازدحام المشاعر والمواقف من اليهود في عقله وقلبه للتحول من الحقد الدفين إلى المحبة الهوجاء .

وفي قمة التطرف الذي سيورث لأتباعه من المحافظين الجدد ، وهؤلاء لا نقصد بهم رجال السياسة أو الإدارة الأمريكية أي إدارة فقط ، بل ينسحب اللفظ على مفكرين وإعلاميين ورجال دين مسيحي من أتباع التيار البروتستانتي . في قمة هذه المغالاة يقول لوثر : **«إننا كالكلاب ـ أي المسيحيين ـ الذين لا مكان لهم سوى تحت المائدة لالتقاط الفتات الذي يتساقط من على موائد أربابنا اليهود ، وأن ذلك هو أمر حددته طلاقة القدرة الإلهية منذ القدم ، فهم السادة ونحن العبيد»** .

وفي السياق الطبيعي لحركة التاريخ ، كان لابد لهذه الأفكار من أن تؤثر في المسيرة التاريخية لأتباعه من رجال الدين البروتستانت ، حتى أصبحت عندهم اليوم تعني أمورا جدية قادت العالم إلى ما نراه الآن من طروحات تصادمية ، وأصبحت تعني عندهم ضمن ما تعني ، أن اليهود هم المرجعية الوراثية إن جاز التعبير للسيد المسيح ، وأنهم أهله ، ومن هذا المنطلق فلهم ذمة وحرمة خاصة بسبب ذلك ، تقتضي دعمهم وخدمتهم وتطييب خواطرهم ، كما ورد في العهد القديم .

بل إن ما ذهب إليه لوثر إنما يرد عن اليهود تهمة سفك دم السيد المسيح ، وإنهم أبناء الرب شأنهم شأن المسيح نفسه .

والأخطر في طروحات لوثر ، أنه يؤكد أن اليهود هم الشعب المختار كما يدعون هم أنفسهم ، ولابد من قبول ذلك ، بل إن القول بأن المسيحيين قد احتلوا تلك المكانة بمجيء المسيح هو قول مردود عليه . وفي طريقه لتدعيم عقيدتهم الخاصة ، وجد لهم الغفران في رفضهم للمسيحية ، مشدداً على نصح كل امرئ

ورجاءه له أن يعامل اليهود برفق ، وأن يفقههم الكتاب المقدس ، والنتيجة الحتمية لذلك كما توقعها لوثر أن يجيئوا إلى المسيحية زرافات ووحدانا .

لكن أحلام لوثر تكسرت على صخرة الأطماع اليهودية وأيديولوجيتهم الاختراقية منذ فجر المسيحية حتى الساعة ، وهو ما قد أخذ من عمر لوثر أكثر من عشرين سنة حتى يدرك ذلك(*) .

كان السيف في تلك السنوات قد سبق العزل ، وكانت التركة البغيضة للأفكار المسيحية المتهودة قد أتت أكلها .

ولعل لوثر قد أدرك أن البروتستانتية كانت في بعض مظاهرها عودة إلى الدين اليهودي ، وذلك في رفضها للرهبانية والعزوبية المفروضة على رجال الكهنوت ، وتشديدها على العهد القديم والأنبياء والمزامير ، وتبنيها لأخلاقيات جنسية أشد صرامة ، وقد خاب أمله عندما لم يقم اليهود بحركة مماثلة نحو البروتستانتية ، وساعده عداؤه لتقاضي فائدة على الأموال على أن ينقلب ضد مقرضي الأموال من اليهود ، ثم ضد اليهود بصفة عامة .

وعندما نفى جون الأمير المختار اليهود من إقليم ساكسونيا عام 1537 ، رفض لوثر التماسا يهوديا للتوسط في الأمر . وفي كتابه «**حديث المائدة** »جمع لوثر بين «**اليهود والبابويين**» ووصفهم بأنهم تعساء كفرة ، وأن الطائفتين جوربان صنعا من قطعة قماش واحدة .

واستغرق لوثر في سنواته الأخيرة في نوبة غضب جامح ضد اليهود ، وندد بهم في كتابه المعنون « **اليهود وأكاذيبهم** » والذي يُعد من أشد الكتب ضراوة وهجوماً على اليهود وأبعدها أثرا في النفسية المسيحية المعادية لهم ، لذا يمكن اعتباره أولى الكتابات المعروفة ـ بما أُصطلح عليه ـ «**بضد السامية**» ، ووصفهم بأنهم «**أمة من أناس غلاظ كفرة متكبرين خبثاء ممقوتين**» . وطالب بإشعال النار في مدارسهم وهياكلهم حتى تتقوض دعائمها قائلا :

(*) ما بين إصدار لوثر كتابه الأول «**عيسى ولد يهوديا**» عام 1523 وإصداره لكتابه «**اليهود وأكاذيبهم**» سنة 1544 نحو واحد وعشرين سنة ، عاش فيها لوثر بين مد وجذب مع اليهود في أوروبا

«ادعوا كل من يستطيع أن يُلقي عليهم كبريتا وزفتا ، وإذا كان في وسع أحد أن يقذفهم بوابل من نار جهنم فإنه يحسن صنعا لو فعل هذا ، وهذا ما يجب عمله كرامة لربنا وللمسيحية حتى يرى الله أننا مسيحيون حقا» .

ويمضي في منظومة الكراهية لليهود بعد الحب المتقد في قلبه نحوهم مضيفا **«ولتحطم بيوتهم ، وتدمر أيضا ، ولتنتزع منهم كتب صلواتهم وتلمودهم وكتابهم المقدس بأسره أيضا ، وليحرم على حاخاماتهم أن يلقنوا الناس تعاليمهم بعد ذلك من الآن فصاعدا ، وإلا عوقبوا بالإعدام ، ولتغلق في وجوههم الشوارع والطرق العامة ، وليحرم عليهم الاشتغال بالربا ، ولتؤخذ منهم كل أموالهم وكل ما يكنزون من الذهب والفضة ولتوضع في الحفظ والصون ، وإذا لم يكف هذا كله ، فليطردوا من البلاد كما لو كانوا كلابا مسعورة» .**

وهكذا يبدل المواقع ، بعد أن كان المسيحيون هم الكلاب ، واليهود هم الأرباب كما سبق وأكد بكامل العزم واليقين . والشاهد أن موقف لوثر الأول الداعم لليهود واليهودية ، قد تجلى في ما يعد الحدث الأكبر في عودة العلاقة بين المسيحيين واليهود من خلال ترجمة الكتاب المقدس إلى اللغة العبرية ، ولعل هذا الأمر جدير بالتوقف عنده ، ذلك لأنه سيقدر له تأصيل الجذور اليهودية فيما بعد ، بسبب إعادة اكتشاف بعض المفاهيم الكتابية العبرية . وفي الترجمة إلى اللغة العبرية ، أعاد المسيحيون قراءة العهد القديم بعين مختلفة عن سابقتها ، مما جعل الفرصة سانحة للتفسير والتأويل الديني بما يتلاءم وخدمة الأغراض الدنيوية للجماعات اليهودية التي كانت تعيش في أوروبا في ذلك الوقت . وكما يرى البعض ، فإن في هذه الفترة الزمنية كانت القراءة على أساس الإيمان الشخصي للمسيحيين لا على أساس التوجه الرسمي للكهنوت الكنسي ، مما أدى إلى الزعم بإعادة اكتشاف الجذور اليهودية للمسيحيين ، وفي ترجمة لوثر للكتاب المقدس عن اللغة العبرية دلالة على أنه قد أضحى أداة في يد اليهود الذين قدم لهم كل مرتخص وغال في سبيل الحصول على مباركتهم لحركته . والدليل الذي نسوقه على هذا ، هوَ أن لوثر كان يتهم دائما الكنيسة الكاثوليكية بأنها ترفض تعليم اللغات العلمية من منطلق أن جميع الهرطقات كانت قد نبعت

من هاتين اللغتين (أي العبرية واليونانية) ، لذا فإن البابوية قد رفضت أي علاقة بالنص العبري للتوراة فيما جاء هو بأول ترجمة تعيد العلاقة الوثيقة مع يهود عصره من خلال لغتهم الأم ، وهو ادعاء غير صحيح بالمرة ، ذلك أنه لو وجدَ شيء صحيح في ترجمة لوثر ، فإنه قد أخذها من ترجمة أحد رهبان الرهبَنة الفرنسيسكانية ، وذلك قبل ظهور لوثر بجيلين تامين . ومعلوم أن لوثر كان يجهل العبرية التي لربما قد تعلم منها حروفها الهجائية أو بعض مبادئها الأولية لكن صلب الترجمة قد نحله نحلا عن العلامة الفرنسيسكاني **«ليرا نقولا»** المولود بنورماندي من أعمال فرنسا ، الذي التحق بالرهبنة الفرنسيسكانية التي أرسلته إلى باريس بعد أن أظهر تفوقاً علمياً ملحوظاً في إدراك العلوم والمعارف ، لاسيما علم اللغة العبرية ، وهناك أيقن بأنه لن يتوصل إلى مراده من ترجمة التوراة إلا بعد إتقانه للعبرية ، فضرب هناك سنين عديدة من سنة 1293 حتى 1330 ، باحثا في المتن الأصلي ، ومطالعا تآليف المفسرين ، حتى بدع في هذا الأمر . ولفظ ليرا يعني العود ، وهو أحد الآلات الموسيقية ، وهنا يرى العلامة اليسوعي(*) **«فان هام»** أن روح العجرفة هي التي وسوست للوثر أن يترجم الكتاب المقدس وهو لا يدرك العبرية ، لذا فإنه استعان بترجمات وتفسيرات العلامة «ليرا» المعبر عنه بالعود ، لذا فقد قال الهازئون بلوثر والساخرون بدعواه : **لولا العود الرخيم لما استطاع رقصا لوثر اللئيم .**

وغير **المشكوك فيه** ، أن ترجمة ليرا نقولا لم تكن تبغي شكلا من أشكال الهوى والغرام اللوثري لليهود واليهودية ، لكنها ترجمة تعمد إلى الموضوعية التي عرفتها الرهبانيات الكاثوليكية في أوروبا في القرون الأولى والوسطى من الألفية الثانية . حيث كانت الأديرة بمثابة الجامعات ومعاهد ومراكز البحث العلمي .أما ترجمة لوثر المنسوخة ، فإن الحال هنا يغني عن السؤال فيما وراءها .وإذا كان مارتن لوثر قد حمل على اليهود في نهايات أيامه بشكل ضار ، إلا أنه في إرادته للخلاص منهم كان أول من طرح فكرة عودتهم إلى فلسطين قبل ظهور الحركة

(*) اليسوعي نسبة إلى الرهبنة اليسوعية ، والتي أسسها القديس إغناطيوس دي لويولا عام 1540 ميلادية .

الصهيونية التي ولدت من بنات أفكاره ، وذلك بعد فشله في تنصيرهم وحتى تتحقق النبوءات الكتابية كما ادعى لاحقاً ، وهذا ما سيقودنا إلى الفصول القادمة(*) .وفيما بعد سيقدر للفكر اللوثري أن يشكل دعوة متجددة للبحث في الجذور العبرانية ، وهو استنتاج يسبق المقدمات ، لكن تقتضيه الصورة البانورامية التي نعرض لها .

ومن مصادفات القدر ، أن يجد هذا الفكر الجديد أرضاً خصبة جديدة تمثل أرض الموعد الثانية ، كما يحلو للبعض أن يطلق عليها ، أي الولايات المتحدة الأمريكية التي بدأت ومنذ الستينيات في البحث عن الجذور والتمحيص في الهوية الخاصة بها ، والممتدة عبر التاريخ ، خاصة وأن انتصار إسرائيل في عام 1967 مقارنة بهزيمة أمريكا في فيتنام ، جعل المسيحيين الأمريكيين يعيدون البحث عن أصولهم العبرية حتى يلتصقوا بالشعب المنتصر .

وفي هذا يقول الباحث الديني الدكتور رفيق حبيب : «**إن ذلك كان من منطلق أنهم فسروا انتصار اليهود على أنه عون من الله ، وفسروا هزيمتهم في فيتنام على أنها عقاب من الله ، وأنها دليل على أن الله ليس معهم ، لذلك يحاول الأصوليون الأمريكيون اليوم الالتصاق باليهود كشعب الله المختار ، لكي ينالوا تأييد الله لهم**» .

والحادث ، أن هذا الفصل قد حاول أن يعطي صورة مختصرة غير مخلة إلى حد ما ، هي جهة الرجل الذي يمكن أن نطلق عليه **أبو الأصولية المسيحية ، والجد الأعظم للمحافظين الجدد عبر الزمان** . وقد أردنا فيه تبيان العلاقة الوثيقة التي ربطت بين اليهود وبينه ، والتي ستكون منطلقاً للأسوأ الذي لم يأت بعد ، والذي سيقدر لرجاله من بعده أن يشعلوا النيران اعتمادا على مرجعيته التي قال عنها يوما ما « **كم أود أن أنفث صاعقة ضد أعدائي ، وأن تكون كل ريح صاعقة ، ولسوف ألعن وأنتهر الأفاقين حتى أثوى في لحدي ، لأنني لا أستطيع أن أصلي دون**

(*) راجع البعث العالمي العظيم ـ هنري فنش ـ لندن 1620 .

أن أصب اللعنات في الوقت نفسه . . . وأنني لا أعمل أبدا على خير وجه إلا عندما استلهم الغضب ، ذلك أنني أستطيع عندما أكون غاضبا أن أكتب وأن أصلي وأن أعظ على خير وجه ، لأن مزاجي بأسره يستثار وإدراكي يزداد حدة» .

هل يشتَّم أحدكم رائحة مشابهة لهذا الحديث في واشنطن العاصمة ؟

ومَنْ استمع إلى كلمات مماثلة من الحفيد الأصغر بوش الابن ترادف ما قاله الجد الأعظم لوثر ؟ .

الفصل الثاني

أوروبا اليهودية وبداية المد الأصولي

- انطلاق دعوة لوثر في جميع دول أوروبا
- اليهود يجدون في لوثر ضالتهم المنشودة
- بداية القول بعودة اليهود إلى فلسطين
- الكاثوليكية ضد رجوع اليهود إلى فلسطين
- تأثير اليهود على حركة الإصلاح الديني

الفصل الثاني

أوروبا اليهودية وبدايات المد الأصولي

انطلقت دعوة لوثر من ألمانيا إلى العديد من الدول الأوروبية المجاورة لها ، خاصة سويسرا ، وأدرك يهود أوروبا أنهم أمام فرصتهم التاريخية للولوج إلى داخل الفكر المسيحي وبقوة تكفل لهم تحقيق مآربهم التي عجزوا عنها طوال مئات السنين بكل السبل ، وهنا فإنه لابد من وقفة نتطلع فيها إلى حال اليهود في أوروبا قبل لوثر وحالهم بعده ، وكيف أن الرجل كان المفتاح السحري لهم ، والمعول الذي طالما أجهدوا أنفسهم في السعي إليه ، لتحطيم مقر الكثلكة في روما المدينة المقدسة .

ولنأخذ **إسبانيا على سبيل المثال** ، لنعرض لحال اليهود هناك ، وهؤلاء لم يعانوا ما عانوا إلا لخديعتهم المتواصلة تجاه المسيحيين ، بإظهار قبولهم الإيمان المسيحي إلا أنهم في الباطن ، كانوا أشد الناس كراهية للمسيح والمسيحية ، وأكثرهم حيلاً ودسائس ، فكانت **محاكم التفتيش** .

كان الغرض الأساسي من محكمة التفتيش(*) هو محاربة العقائد التي نشأت في أوروبا ضد الدين المسيحي ، ومن أجل ذلك ، عملت على إرهاب جميع المسيحيين المحدثين والقدامى على السواء ، ليتمسكوا بالسُنة الظاهرة على الأقل ،

(*) تاريخ الكنيسة ـ الآب جان كمبي ـ دار المشرق ـ بيروت

على أمل أن يُقضى على الهرطقة في مهدها ، ولإرغام الجيل الثاني أو الثالث من اليهود المعمدين كي ينسوا يهودية أسلافهم ، لكن ذلك كان أضغاث أحلام ، ذلك لأن اليهود كانوا يعنفون المتنصرين منهم ، لإعادتهم إلى اليهودية .

ويُحكى أن الطبيب الخاص للملك فرديناند ملك إسبانيا واسمه «**رباس ألتس**» كان يهوديا مُعَمدًا ، علّق في رقبته كُرة ذهبية تحتوي على صورة له على هيئة فيها تنجيس للصليب ، مما دعا فرديناند لإحراقه .

ووقعت في أيدي الملك الإسباني رسائل نَصح فيها زَعيمٌ يهودي في القسطنطينية رئيسَ الجماعة اليهودية في إسبانيا بأن يَسرق ويدس السم للمسيحيين كلما استطاع إلى ذلك سبيلا .

و**كثرت الاتهامات لليهود** ، بأنهم يخطفون أبناء المسيحيين ، خاصة من الأطفال ليستعملوا قلوبهم في إعداد شعيرة سحرية دُبِّرْت لتؤدي إلى هلاك جميع المسيحيين ، والقضاء الكامل على المسيحية . وقد مَهدّت هذه الاتهامات وأمثالها في نفس الملك فرديناند ، ولدى الرأي العام إلى المطالبة بإجلاء اليهود غير المعمدين عن إسبانيا ، ولم تكن كلمة إجلاء إلا كلمة مهذبة ، والأصل أنها طرد ، وإن قدر للحاكم الإسباني في ذلك الوقت الإبادة لفعل .

وفي هذا التدليل السريع ، يمكن استقراء حال اليهود في جميع الدول الأوروبية ، لكنهم سرعان ما وجدوا في لوثر الضالة المنشودة التي سَتُثَبِّتْ جذورهم في الأراضي المسيحية الأوروبية .

ويبقى في مشهد يهود إسبانيا أمر سيكون ذا فاعلية جوهرية في قادمات الأيام جهة البحث عن أرض موعودة جديدة ـ أمريكا فيما بعد ـ .

ذلك لأنه في 30 مارس 1492 ، وقَّع فرديناند وإيزابيلا مرسوم نفي اليهود غير المعمدين أيا كانت أعمارهم أو أحوالهم ، فانسحب مئة ألف منهم ناحية البحر ، وزعم الربانيون منهم بأن الله سيهديهم إلى أرض الميعاد ، وذلك بأن يفتح لهم معبرا في البحر كما فعل لآبائهم في القديم ، وانتظر المهاجرون أو المطرودون

الذين خرجوا يملؤهم الأمل بأن يتفرق الماء ويسمح لهم بالعبور إلى أفريقيا دون أن تبتل أقدامهم ، لكن هذا لم يحصل ، فلما انجاب عنهم الوهم ، دفعوا الأجور الباهظة للنقل بالسفن ، وفرقت العواصف أسطولهم الذي كان يتألف من خمس وعشرين سفينة ، وردت ست عشرة منها إلى إسبانيا ، حيث آثر الكثير من اليهود اليائسين التعميد على مخاطر البحر ، وهو تعميد تحت الضغط والترهيب ، وكانت نتائجه نفوساً مليئة بالكراهية للمسيحيين وللمسيحية ، حاملة بذرة الحقد تجاه الأمميين محافظين في داخلهم على الأصول اليهودية . وفي الخارج يطلق عليهم بالاسم مسيحيين ، وقد عُرف هؤلاء «**بالمتنصرين من الخارج**» وما أقربهم في الفكر الإسلامي بجماعة «**المؤتلفة قلوبهم**» . ورغم سنوات الدياسبورا أو الشتات الطوال الذي عاشه اليهود في العالم منذ عام 70 ميلادية حتى القرن السادس عشر ، تاريخ ما اصطلح على تسميته بعصر الإصلاح الديني ، كان حلم العودة يراود يهود العالم ، حتى إن التحية المعتادة في الأعياد كانت «**كل عام وأنت بخير ، والعام القادم نحتفل بالعيد في أورشليم**» .

أما عن الكنيسة الكاثوليكية المهيمنة على مقدرات الأمور في أوروبا في ذلك الزمان ، فقد كانت ترى أن اليهود لاحق لهم بالمرة في العودة إلى أورشليم ، لأنهم طُردوا منها وتشتتوا في العالم بسبب رفضهم للسيد المسيح وقتلهم إياه(*) فالله طرَدهم بداية إلى بابل ، ثم لاحقا شتتهم في جميع بقاع الأرض ، وانتهى إلى الأبد فكر «**الأمة اليهودية**» ، لذلك فإنه في الكاثوليكية ليس لليهود أي مستقبل جماعي في أرض فلسطين . أما خلاصهم الروحي فلا يكون إلا بالارتداد للمسيحية . أما فيما يختص بالنبوءات المتصلة بعودة اليهود إلى فلسطين ، فقد أشار إليها القديس أوغسطينوس «حوالي 400 ميلادية» بأنها قد جرت وانتهت يوم قام قورش ملك فارس بإعادتهم إلى فلسطين فعلا ، حيث تحقق ذلك في

(*) كان هذا هو السبب الرئيسي الذي دفع اليهود للاتحاد الوثيق بلوثر من أجل الخلاص من سلطة البابوية التي كانوا يعتبرونها العدو اللدود لهم ، والتي ترفض فكرة أرض الموعد ثانيا .

القرن السادس قبل الميلاد ، ولم يستخدم مسيحيو الاتجاه الأوغسطيني خاصة لفظة صهيون ، بل عمدوا إلى إطلاق تعبير «المدينة المقدسة» على أورشليم .

ومردود ذلك ، أن أوروبا قبل مارتن لوثر ، كانت لا تعتبر أن اليهود هم الشعب المختار ، وكما تقول الكاتبة الأمريكية هيلاري بولوك تحت عنوان« **اليهود**» (المطبوع في مدينة بوسطن عام 1992 ص 210) : **«إن أوروبا كانت تعتقد بأن الله إذا ما اختار اليهودي لأمر ما ، فإنه للعنة ، فاليهود كانوا يعتبرون من الآثمين المارقين ، ويوصمون بأنهم قتلة السيد المسيح ، ولم يكن هناك ذرة من توارد عاطفي مع المجد القديم للجنس العبري ، كما لم تكن بارقة أمل في إعادة بعث اليهود روحيا وقوميا ، ولم تكن هناك أدنى فكرة مسيحية تقول بتملك اليهود لفلسطين»** .

كانت إسرائيل مجرد ديانة بل ديانة ودنيا ، ولم تكن هناك أية فكرة يمكن لها أن تُعطي لإسرائيل صفات قومية ، إلى أن ظهر لوثر الذي يعد المسؤول من الناحيتين التاريخية والدينية عن إعداد التربة الأوروبية - إن جاز التعبير - لتقبل الفكر اليهو - مسيحي بدءا من تصوره الأولي لله سبحانه وتعالى ، الذي كان يرى انه يهودي وهو عنده صاحب جبروت وانتقام ، يهلك البشر بالطوفان ، ويحرق مدينة سدوم الفلسطينية بالنار والكبريت ، ويوم القيامة في لاهوته شديد الهول . وعندما يسأله أحد المشككين أين كان الله قبل أن يخلق العالم ، يجيبه بعصبية الفلاح الألماني ، لقد كان يبني جهنم للأرواح الشريرة من أمثالك . كانت دعوة لوثر قد بدأت تسري في أوروبا حاملة معها كل ما يتعلق بالطروحات العبرانية التي حاول أن يتراجع عنها لاحقا ، لكن الوقت كان قد هرب من بين يديه ، فقد التف حوله بعض تلاميذه كميلانكتن (1497-1560) ومن أشهر هؤلاء زونجلي (1484-1531) الذي أُطلق عليه الرجل الثالث في الإصلاح ، والذي قاد حربا أهلية في سويسرا بسبب فكرة الإصلاح ، ومات في ساحة القتال . أما فرنسا ، فكانت على موعد مع جان كلفن 1509-1564 الذي لم يكن من رجال الدين المسيحي مثل لوثر وزونجلي ، بل كان علمانيا ، وقد قدر لهذا الرجل أن يكون الدعامة الرئيسية لتأسيس الكنائس المشيخية في أوروبا القديمة ، التي ستتبلور عنها لاحقا الاتجاهات اليمينية اليهودية في الولايات المتحدة الأمريكية .

وناهيك عن وضع «كالفن» أولى لبنات التنظيم داخل كنيسة جنيف ، التي ستصبح الإشعاع للكنائس المنشقة المتعددة لاحقا ، فقد أسهم في التأصيل التعليمي والعلمي لأفكار الانشقاق ، من خلال تأسيس مدرسة جنيف سنة 1559 لتدرس فيها جميع المواد من الابتدائي إلى التعليم العالي ، فقصدها كثير من الأجانب لدرس العلوم اللاهوتية ، وأصبحوا المسؤولين عن الكنائس البروتستانتية ذات النهج الكالفيني ، وبذلك يكون قد قدم للحركة الإصلاحية الشمولية والسلطة ما كانت تصبْوا إليه .

أما الانتصار الأكبر في تقديري ، فكان في اختراق الجزر البريطانية الأكثر نفوذا في ذلك الوقت ، والأقوى تأثيرا سياسيا على صعيد العالم الأوروبي والتي سيقدر لها لاحقا أن تكون مركز الإشعاع اليهودي في أوروبا والداعم الأول لقيام دولة اليهود .

كان سبب النزاع الذي قام بين مملكة انجلترا والكرسي البابوي مسألة زواج ، ذلك أن الملك هنري الثامن لم يحصل من البابا على حكم بفسخ زواجه من كاترينا الأرغونية D'aragon الإسبانية(*) الأصل ، التي لم تنجب له إلا بنتا فطالب الإكليروس «أي رجال الدين» الإنجليز بمنحه إياه أي الفسخ ، وأعلن نفسه رئيس الكنيسة في انجلترا سنة 1534 ، وأعدم الذين ظلوا أوفياء لروما كتوماس مور والأسقف فيشر وكثيرين آخرين ، إلا أن هنري الثامن حافظ على جوهر الإيمان الكاثوليكي ، ولما كان وريثه إدوار السادس ما زال قاصرا (1547-1553) ، فقد تغلغلت الأفكار الكالفينية إلى البلاد ، واعتنقت اسكتلندا المذهب الكالفيني ، وحصلت الكنيسة الإنجيلية الاسكتلندية (المشيخية) على نظامها الأساسي الرسمي سنة 1560 ، وأعظم منظريها هو جون نوكس(1514-1572) الذي أقام عدة مرات في جنيف لدى كالفن . أما أيرلندا فرفضت رفضا باتا الإصلاح الذي حاولت انجلترا أن تفرضه .

(*) من المعروف أن الكنيسة الكاثوليكية الرومانية وحتى الساعة لا تسمح بالطلاق حتى في حالة علة الزنا ، ذلك لأن ما جمعه الله لا يفرقه الإنسان حسب المفهوم الكاثوليكي .

ولو أضفنا ما جرى في هولندا ،حيث أصبح المذهب الكالفيني دين الدولة ، لرأينا إلى أي مدى امتد التأثير اللوثري في جميع أرجاء أوروبا ، بما يحمله من فكر مناهض للكنيسة الكاثوليكية ، خاصة جهة التنظير لليهود واليهودية ودولتهم المزعومة .

ورغم أن الكنيسة الرومانية قامت فيما بعد بنهضة إصلاحية داخلية ، بل إن الأمر وصل إلى حد أن بعض الأمراء الكاثوليك استعادوا السيطرة على بعض المناطق التي امتد إليها الزحف الانشقاقي فيما سمي آنذاك «**بالإصلاح المضاد**» ، إلا أن الأمر كان قد خرج من بين أيديها ، ذلك لأن للأفكار أجنحة تحلق بها بعيدا ، خصوصا إذا وجدت من ينشرها ويساعد على ترسيخها في العقول .

والواضح أن العرض السابق - وهو في تقديري استعراضي - لا يكفي بحال لتبيان مدى انتشار هذا الفكر ، إلا أن المردود من ورائه هو الإشارة إلى أن الأصولية قد بدأت تضرب بجذورها في جميع أرجاء العالم القديم في ذلك الوقت ، وكان لليهود واليهودية الحظ الوافر في تحقيق نجاحات على حساب الانشقاقيين الجدد الذين سيتحولون بعد عدة قرون إلى المحافظين الجدد .

يقول وول ديورانت في «**قصة الحضارة**» المجلد الثالث عشر ، الفصل الثاني والثلاثين «إن تأثير اليهودية بلغ ذروته في الإصلاح الديني ، ومن الوجهة الدينية لهؤلاء كان هذا الإصلاح رجوعا إلى أصل العقيدة البسيطة والأخلاق الصارمة في صدر المسيحية اليهودية ، ذلك لأن عداء البروتستانتية للصور الدينية والتماثيل على سبيل المثال ، كانت دعوات تتفق وشريعة موسى التى تحرم التماثيل والمنحوتات ، فيما احتفلت بعض الفرق البروتستانتية بيوم السبت مثل اليهود ، كما أن إنكارهم لدور وأهمية مريم العذراء وإكرامها وليس عبادتها وإكرام القديسين ليقترب كثيرا من التوحيد الصارم عند اليهود ، كما إن ارتضاء القساوسة الجدد للزواج ومباشرة الجنس ، جعلهم أشبه بأحبار اليهود منهم إلى الكهنة الكاثوليك ، حتى أن نقاد رجال ما اصطلح على تسميته بالإصلاح الديني اتهموهم بالتهود ، وسموهم أشباه اليهود أو أنصافهم ، وهنا يقول كارلستاد نفسه

إن ملانكتون أراد أن يرجع إلى موسى وشريعته وضم كلفن تهمة التهود إلى آثام «سرفيتس» السيئة ، وسلم الإسباني بأن دراسته العبرية أثرت عليه في مناقشة لاهوت التثليث ، وأعاد حكم كلفن في جنيف إلى الأذهان ، تسلط الكهنة في إسرائيل القديمة ، واتهم زونجلي بأنه متهود ، لأنه درس العبرية مع اليهود ، وبنى كثيرا من عظاته وتعليقاته على النص العبري للتوراة ، واعترف بأنه مفتون باللغة العبرية . وعنها يقول :**«لقد وجدتها لغة مقدسة فوق كل ما يعتقده الناس ، لغة مهذبة رشيقة جليلة ، وعلى الرغم من فقرها في عدد الكلمات ، فإن أحدا لا يشعر بهذا النقص ، لأنها تستخدم حصيلتها من الألفاظ بأساليب شتى ، والحق أني قد أجرؤ على القول بأن الإنسان إذا أدرك جلالها ورشاقتها ، لوجد أنه ليس هناك لغة أخرى تستطيع أن تعبر عن الكثير بمثل هذا العدد القليل من الألفاظ ، وبمثل هذه التعابير القوية ، وليس ثمة لغة مثلها غنية بأساليب التصوير المتعددة الجوانب ، الزاخرة بالمعاني ، وليست هناك لغة مثلها تبهج القلب وتنفذ إليه بسرعة»** .

ولعل ما تقدم يفيد بأنه قد سبق السيف العزل ، إذ كان موقف لوثر الأول المؤيد لتبشير اليهود ، علامة حاسمة في عودة العلاقات بين اليهود والمسيحيين ، بعد أن كان العداء الديني قد أدى إلى فصل عنصري جاء في أول الأمر طوعا ، ثم بات قسرا ، وانبثق عنه إنشاء أول حي يهودي في سنة 1516 ، وأبرز هذا الفصل العنصري الاختلافات في اللباس ، وطرق الحياة والملامح والصلاة والكلام . وشجع هذا التباين على عدم الثقة والخوف المتبادلين بين الطرفين ، وولد هذا الخوف كراهية ، وحول اليهود ما ألفوا من منع زواجهم من المسيحيين مفخرة لهم ، وتمخض اعتزازهم بجنسهم عن تباهيهم بأنهم سلالة ملوك قد حكموا إسرائيل ألف سنة قبل ظهور السيد المسيح .

أما المسيحيون فقد احتقروا اليهود على أنهم كفرة غرباء لا يؤلفون . ويروي توماس مور قصة سيدة تقية صُعقت عندما علمت أن السيدة العذراء كانت أصلا يهودية ، فاعترفت بأنها لن تستطيع بعد ذلك أن تكن **«لأم الله»** ما كانت تكنه لها من حب من قبل .

لكن هذا كله قد تغير بعد منعطف لوثر التاريخي كما تقدم ، باعتبار اليهود مثلهم مثل غيرهم جزءا من غير المسيحيين .

كانت التغيرات تأخذ طريقها بالفعل ، فخلال الزمن المطلق عليه الإصلاح البروتستانتي المزعوم ، بدأت علامات على إعادة تهويد المسيحية بسبب إعادة اكتشاف بعض المفاهيم الكتابية العبرية ، فقد أكد المصلحون على أهمية العودة إلى الكتاب المقدس كمصدر رئيسي وحيد للوحي المسيحي .

ومعنى ذلك ، أن التيار البروتستانتي المنشق ، أعاد المسيحيين للكتاب المقدس ، مما جعل العهد القديم **(التوراة)** مادة للقراءة والتفسير الديني مرة أخرى . وفي هذه الفترة ، كانت القراءات تتم على أساس الأرضية اللاهوتية التي ترى أن الإيمان الشخصي هو الذي تُفسر على ضوئه كلمات الكتاب المقدس وليس توجيه وتعاليم الكنيسة ، وهو ما جعل الطريق مفتوحا أمام اكتشاف الجذور اليهودية للمسيحيين . وقد كان هذا بداية التهويد في الفكر المسيحي المخترق لدى التيارات البروتستانتية على اختلاف مللها ونحلها ، وليس في الفكر المسيحي المستقيم .ومما لاشك فيه ، أن ترجمة الكتاب المقدس وإتاحته لكل مسيحي كي يقرأه بنفسه ، أعطت الكثيرين فرصة للاطلاع على سفر من أعقد الأسفار فهماً ، وهو سفر الرؤيا[*] والذي تعده المسيحية سفر الفكر الاسكاتولوجي ، أي فكر الأيام الأخيرة وقيام الساعة .

وفي هذا السفر يحتاج المرء إلى فكر لاهوتي خاص لمحاولة فهمه من منطلق أنه مجموعة من الرموز منها ما كان وتحقق من قبل ، ومنها ما يتعلق بتحقيق النبوءات في الزمان ، وكذلك جاءت فيه الرؤية النهائية لحياة الإنسان على الأرض . وقد كان هذا السفر مدخلا وأساسا نظريا لنظرية الملك الألفي التي ستقودنا لاحقا إلى الفكر الداعم لقيام دولة إسرائيل .

(*) ستتعرض بالتفصيل في ملاحق الكتاب لسفر الرؤيا ، والذي يطلق عليه «**أبو كاليبس**» اضافة الى تفسيرات أحد كبار شراح السفر المعروف باسم «**ابن كاتب قيصر** » ويعد سفر الرؤيا اليوم حجة الأصوليين في عالمهم الفكري .

وهنا يقول شفيق مقار في مؤلفه المتميز للغاية «**المسيحية والتوراة**» : «إنه كما انتقلت عدوى البروتستانتية إلى هولندا من ألمانيا انتقلت تلك العدوى إلى بلدان إسكندناوية أخرى ، وخاصة السويد والدنمارك . وفي كل تلك البلدان واكب الانتصار البروتستانتي وانتشار ترجمة الكتاب المقدس إلى اللغات الوطنية ، وجعله في متناول شعوبها على أوسع نطاق ، وفتح الأبواب على مصاريعها أمام هجرة اليهود من البلدان الكاثوليكية ، تحول واضح وصريح ومتصف بقدر كبير من الزهو عن الجزء المسيحي الأقل حجما وشأنا من ذلك الكتاب المقدس ، وانكباب على جزئه الأكبر والأهم أي العهد القديم ، وكانت لذلك آثاره البعيدة المدى والبالغة العمق» .

ومما لاشك فيه ، أن تلك الآثار هي التي نعيش إرهاصاتها اليوم ، فقد فتحت ترجمة الكتاب المقدس إلى اللغات المحلية وجعله في متناول عامة الناس الباب أمام العهد القديم ، كما أصبح مكونا مهماً من مكونات العقلية الغربية عامة ، والأمريكية خاصة ، كما سنرى بشكل مفصل لاحقا . وقد أشاع هذا معرفة لم تكن ميسرة من قبل بتاريخ العبرانيين ومعتقداتهم وشرائعهم وبأرض فلسطين التي لم تطل صلتهم بها إلا لبضعة قرون من تاريخهم الطويل .

وقد نتج عن هذا النهج الكتابي أن باتت قصص العهد القديم المغذي الرئيسي للعقلية الإيمانية البروتستانتية ، بما في تلك القصص من أمثلة للإنسان الأعلى أو السوبر مان ، في موسى فاتح البحر ، وشمشون قاهر الفلسطينيين ، وإيليا ذابح أنبياء البعل الأربعة آلاف في يوم واحد ، إلى آخر قصص المطلقات التي لا تتسق مع نسبية العقل ، فتحدث الأصولية بسبب عدم التفكير في النسبي بما هو نسبي ولكن بما هو مطلق .

وقد بات المنشقون الجدد وأتباعهم من خلفهم من كثرة قراءتهم وتكرارهم للعهد القديم ، أنهم اعتبروا يسوع المسيح مؤسس المسيحية التي ينتمون إليها مجرد نبي آخر من أنبياء العهد القديم لدى اليهود ، ولم يعد ينظر إليه من خلال المنظور اللاهوتي المسيحي الذي ترى به المسيحية ، منظور الدوجما الذي آمنت به وأقرته المجامع المسكونية العديدة طوال التاريخ الكنسي .

لم يعد العهد القديم إذن المترجم من العبرية كما ادعى لوثر ، أحب كتاب إلى قلوب المحتجين فحسب ، بل أضحى مرجعهم الرئيسي ومصدرهم الموثوق به الذي استمدوا منه معرفتهم بالله ، ومعرفتهم بالتاريخ ، ولم تعد روايات الكتاب المقدس خاصة العهد القديم ، مجرد أحداث قابلة للبحث من المنظور التاريخي أو البيولوجي أو الأخلاقي ، بل أضحت معيارا حقيقيا بوصفها التاريخ الحقيقي لله والعالم .

وفي هذا الإطار الفكري المنحول ، استطاعت البروتستانتية أن تقطع شوطا كبيرا في خدمة اليهود من خلال محاولة إفراغ مسيحية يسوع المسيح الداعي للحب والسلام والرحمة من محتواها الرئيسي ، وهو أن الله يحب الإنسان ويرسل ابنه الوحيد لفدائه إلى العودة بها إلى المفهوم اليهودي حيث يهوه هو الكائن الإلهي الأسطوري المسيطر والمهيمن على مقدرات الحياة بسلطته المطلقة وعنفوانه غير المحدود .

ولم يكن غريبا في سياق ذلك ، أن تلقى جماعات المحتجين والمنشقين من البروتستانت في جميع ربوع أوروبا ترحيبا حارا وقلبيا من زعامات اليهود المدنية والدينية ، وهو ترحيب وصل إلى حد اعتبار حاخامات اليهود ظهور لوثر وانتشار دعوته علامة مؤكدة على قرب مجيء المسيح المنتظر ، في حين هاجمته الكنيسة الكاثوليكية باعتباره مخربا يهوديا ، أو على الأقل شبه يهودي مخربا للمسيحية حتى بعد أن استفاق لاحقا .

ومع ظهور المطبعة في ألمانيا كان لجوتنبرج (*) أثره البارز في دعم ذلك الاتجاه الذي أطلقوا عليه الإصلاح ، إلا أنه في باطنه لم يكن إلا تيارا تخريبيا وطابورا خامسا ، إذ عملت تلك المطابع أول ما عملت على نشر العلوم والروايات التاريخية التي تحمل نقدا للأسفار المقدسة ، وشجعت على انتشار روائع الوثنيين كما يقال ، وساعدت على أن يصل الفلاسفة من أصحاب البدع والهرطقات إلى

(*) كان الكتاب المقدس أول كتاب يقوم «يوحنا جوتنبرج» بطباعته .

رجل الشارع ، وأن تدخل هذه المطبوعات إلى بيته من منطلق كاذب وهو الإيمان بقدرات العقل المطلق ، ولعل انجلترا تحديدا كانت المهد والحاضنة الأولى لنشأة حركة التهويد للمسيحية . ففي القرن السابع عشر ، حيث أعاد الأطهار «البيوريتانيون» اكتشاف التراث اليهودي ، واهتموا باللغة العبرية ، لذلك نجد في كتابات السياسيين الإنجليز ومنذ القرن السابع عشر ، الكثير من التعاطف مع اليهود ، كما نجد دعوة لإعادة اليهود إلى فلسطين ، على أساس أن فلسطين هي الأرض التي عاش فيها اليهود زمن المسيح ، وسيقدر للمتطهرين الجدد هؤلاء ، أن يكونوا حملة الراية في الأرض الجديدة الموعودة أرض الميعاد الأمريكية ، حتى أن أحفاد هذه الحركة هم الذين قاموا على المؤسسات التعليمية الأمريكية على أسس من التراث اليهودي وهو ما سنفرد له فصلا كاملا لاحقا .

والمؤكد أن لوثر وكما ألمحنا من قبل ، قد هاجم في نزق شيخوخته وخرفه اليهود ، وكأنه لم يتعلم منهم شيئا وليس ثمة إنسان بطل في رأي دائنه كما يقال ، لذا فقد أفرغ وابلا من الحجج ضدهم على أساس أنهم قد أبوا أن يرتضوا المسيح إلها ، وأن ما عانوه طوال حياتهم منه أثبت غضب الله عليهم ، وأنهم دخلاء على أراضي المسيحيين ، وأنهم كانوا وقحين في ثرائهم القائم على الربا ، وأن التلمود أجاز الخداع والسرقة والسلب وقتل المسيحيين ، وأنهم سمموا العيون والآبار وذبحوا أطفال المسيحيين ليستخدموا دماءهم في الطقوس الإسرائيلية .

وفي شيخوخته أيضا ، نصح الألمان بإحراق بيوت اليهود ، وإغلاق معابدهم ومدارسهم ، ومصادرة ثرواتهم ، وتجنيد رجالهم ونسائهم في أعمال السخرة ، وأن يخير جميع اليهود بين اعتناق المسيحية أو قطع ألسنتهم ، وفي عظة ألقاها قبل موته بوقت قصير ، أضاف أن الأطباء اليهود كانوا يتعمدون تسميم المسيحيين .

ومن هذا المنطلق ، يعد البعض لوثر مؤسساً من مؤسسي العداء للسامية ، وأول من كان له أثر في نشوء النازية في ألمانيا .

ورغم محاولات البعض من أتباعه الدفاع عنه ، من منطلق أنه كان حسن النية ، إذ أراد إرجاع اليهود إلى المسيحية ، إلا أنه في الأصل لم يكن إلا عاملا لقاعدة المعاملات شبه الحربية في العلاقات «**عدو عدوي صديقي**» وليس أشد عداوة وضراوة للمؤسسة الكاثوليكية من اليهود ، وليس أقربهم أصدقاء إليه لكنه اكتشف لاحقا أنه كان واهماً ، إلا أنه عندما عاد لينتقص منهم ومن مفهوم شعب الله المختار من خلال التعارض التاريخي ليهود يومه عن يهود الآباء العبرانيين ، كان قطار حياته قد وصل إلى محطته الأخيرة .

وفي إطلاق لوثر للأصولية اليهودية في أوروبا أطلق الجني من القمقم ، ولم يستطع لوثر أو أتباعه من بعده رده ثانية .

ويرى جمهور المفكرين أنه رغم تزامن عصر النهضة الأوروبي مع عصر أولئك الذين تشدقوا بالإصلاح الديني ، فإن أولئك الإصلاحيين لم يخطوا بأوروبا إلى عصر أرقى ، بل تراجعوا إلى بدايات القرون الوسطى بانتقاصهم من قيمة العلم ومساواتهم بين الفلاح الأمي . وكوبرنيكوس واضع النظريات العلمية الفلكية ومناقشاتهم عقائد اللاهوت بروح غاية في التزمت التوراتي ، وإيقافهم حركة النهضة في ألمانيا ، وعلى مدى جيل كامل شغلوا المطابع بكتبهم المعادية لحرية الفكر والفلسفة والأدب الإنساني الحر على حد سواء .

وما جرى هو أنهم خطوا بأوروبا إلى تكريس مفهوم الأصولية التي وجدت فيها اليهودية واليهود فرصة للاختراق والسيادة والريادة في الأرض القديمة من العالم ، أما حديث أرض الميعاد الجديدة ـ أمريكا ـ فَحدِّث عنه ولا حرج .

الفصل الثالث

إرهاصات ما قبل الصهيونية

- ظهور فكرة إسرائيل الجديدة
- بداية الحديث عن فلسطين أرض الموعد ثانية
- إعادة بعث اليهود روحياً وقومياً
- الكتاب المقدس يصل إلى العامة بعد العلماء فقط
- إحياء اللغة العبرية وبداية أوروبا المتهودة

الفصل الثالث

إرهاصات ما قبل الصهيونية

لم تكن أوروبا يوماً ما في تاريخها ، حتى ظهور حركة الإصلاح الديني المزعومة ، مستعدة أبدا لتقبل الحضور اليهودي . ولم يكن في الفكر اللاهوتي للكنيسة ـ بأي شكل من الأشكال ـ حضور لدولة إسرائيل ، لكن هذا الحال تغير شكلا وموضوعا في أعقاب حركة لوثر وأعوانه .

وبكلمات أشد وضوحا وأكثر سطوعا ، فإن فكر الكنيسة الكاثوليكية الذي عبرت عنه من خلال مجامعها المتعددة قبل الإصلاح ، لم يكن يشير من قريب أو بعيد لإمكانية عودة اليهود إلى فلسطين ، ذلك لأن رابطا ما لم يكن موجودا على ساحة الحياة اللاهوتية بين اليهود وبين أرض فلسطين .

وفي هذا الإطار ، كان ملافنة الكنيسة الكاثوليكية يرفضون التفسير الحرفي للتوراة ، ويفضلون بسط المفاهيم المجازية على الرؤى والتنبؤات التوراتية .

كانت الكنيسة الكاثوليكية تنظر إلى «**الشعب المختار**» نظرة روحية ، وترى أن الكنيسة المقدسة هي شعب الله المختار ، الذي حل محل الشعب العبراني ، الذي حلت عليه اللعنة والغضب ، لذا فإن أي حديث في كتب موسى والأنبياء المعروفة باسم التوراة ، والتي كانت تشير إلى عودة بني إسرائيل إلى فلسطين ، لا تنطبق على اليهود ، بل على الكنيسة المسيحية مجازا . أما اليهود فإنهم حسب مفهوم الكنيسة الرومانية الرسمي كانوا قد اقترفوا ذنوبا كثيرة طوال مسيرتهم التاريخية ، كان آخرها رفضهم للسيد المسيح وقتلهم إياه ، لذا فإن الله هو الذي

طردهم في السابق من فلسطين إلى بابل ، عاد ثانية وشتت ما بقى منهم في دياسبورا ، امتدت لألفي عام تقريبا ،وبذلك فإن كيانا ما يدور حول فكرة «**الأمة اليهودية**» لن يكون له وجود ثانية ، وليس لليهود مستقبل قومي جماعي ، لكنهم كأفراد يستطيعون أن يجدوا الخلاص الروحي بارتدادهم إلى المسيحية . هكذا كانت تعتقد الكنيسة الكاثوليكية .

وانطلاقا من هذا المفهوم ، فإن ما جاء من نبوءات حول عودة اليهود ثانية إلى فلسطين ، كان يُفهم على أنها العودة الأولى للإسرائيليين من المنفى في بابل ، وهو ما قد تحقق على يد قورش الإمبراطور الفارسي ، الذي أمر بعودتهم إلى بلادهم في القرن السادس قبل الميلاد ، لذا فإن أي مفهوم لاهوتي ، وأي مستقبل لإسرائيل ، كان يضع في الاعتبار فكر« **إسرائيل الجديدة**» أي شعب الله المختار من قبل الإيمان بالمسيح يسوع وكنيسته الوريث الشرعي والحقيقي للوعود الإلهية ، أما الذين رفضوه من خاصته ، فكان مآلهم الضياع بين الأمم ، فيما حظيرة إسرائيل الجديدة أي الشعب المسيحي هو الذي أصبح وارثا للمواعيد الإلهية التي صارت تحمل معنى رمزياً لا حرفياً ، وقد كانت هذه هي فكرة القديس أوغسطينوس في كتابه De civitate Dei أي «**مدينة الله**» ، التحفة الأدبية الخالدة للفكر اللاهوتي للكنيسة الكاثوليكية ، والذي كتبه في القرن الخامس الميلادي . وفي مدينة الله يرى أوغسطينوس الكنيسة تجسد مملكة الله على الأرض ، لذا فإن هذا الفكر العقائدي ظل هو الرأي السائد في المسيحية تجاه النظرة إلى اليهود ، وضياع مملكتهم حتى القرن السادس عشر ، وكانت النتيجة الحتمية لذلك في فترة العصور الوسطى ، أن فصل اليهود المعاصرون عن العبرانيين القدامى ، وتبعا لهذا المفهوم ، فإن فلسطين كانت الوطن المقدس روحيا الذي أورثه السيد المسيح لأتباعه المسيحيين ، ولم تكن القدس توصف بأنها صهيون اليهودية ، بل مدينة العهد الجديد المقدسة .

وفي هذا الجو الروحي المعبق بالرفض لليهود ، تشير المؤرخة اليهودية بربارة توخمان(*) الى أن العداء لليهود قد تصاعد بشكل مضطرد ، وبلغ أوجه في

(*) تاريخ الكتاب المقدس والسيف ـ بربارة توخمان ـ لندن 1957

الفترات التي سبقت الحروب الصليبية ، بل إن بعض المؤرخين الآخرين يشيرون إلى أن المحاربين الصليبيين المسيحيين ، هم أول من بدأ المذابح اليهودية وهم في طريقهم إلى فلسطين ، فيما شهد عهد الحروب الصليبية كذلك بداية نظام الأقليات وبالتالي عزلة اليهود عن المسيحيين .

وفي عبارة إجمالية ، يمكننا وصف المشهد الأوروبي بأنه كان قبل عهد لوثر وجماعته رافضا لفكرة الشعب اليهودي المختار ، ولربط هذا المفهوم بالعودة إلى الأرض التي طرد منها ، وأن الاختيار في عهد النعمة ، أي العهد الجديد عهد السيد المسيح ، هو اختيار للنقمة واللعنة لا للبركة والنعمة ، ولم تكن جماعة اليهود إلا جماعة المارقين قتلة الأنبياء الذين وصفهم السيد المسيح بأنه سيأتي عليهم كل دم زكي سفكوه «**من دم هابيل الصديق إلى دم زكريا بن براشيا الذي قتلوه بين الهيكل والمذبح**» .

لم تكن هناك كما تقول أيضا ريجينا الشريف في مؤلفها الرائع « **الصهيونية غير اليهودية** » ، ذرة من حب عاطفي للمجد القديم للجنس العبري ، ولم تكن هناك بارقة أمل من إعادة بعث اليهود روحيا أو قوميا ، ولم تكن هناك أدنى فكرة عن تملك اليهود لفلسطين . كانت الصهيونية غير اليهودية غائبة تماما عن أوروبا في العصور الوسطى ، ولم يكن هناك أي تطلع لإحياء الروح القومية لإسرائيل قبل ظهور حركة الاحتجاج والانشقاق اللوثرية التي شكلت الزلزال بالنسبة للمفاهيم المسيحية التي استقرت حتى القرن السادس عشر في أوروبا .

وفي تقديري ، إن بداية التأصيل للبعث اليهودي القومي ، كان من خلال ادعاء حركة الإصلاح الموهوم ، بأن اللغة العبرية(*) هي اللسان المقدس ، واللغة التي أوحى الله بها لشعبه ، وهو ما أدى فيما بعد إلى أن الحروف العبرية قد أخذت طريقها إلى الطباعة ، ولم تعد اللغة العبرية مقصورة على دارسي التوراة ،

(*) يذكر هنا أن اللغة التي كان يتحدث بها السيد المسيح ومعظم الرسل والتلاميذ كانت الآرامية وليست العبرية .

بل انتقلت إلى العامة من المسيحيين الذين بدأوا في دراسة أدب بني إسرائيل ، حتى أضحت اللغة العبرية مسألة ثقافة واسعة كماهي مسألة دين ، وسرعان ما تحولت معرفة هذه الكتب بلغتها الأصلية والتبحر في عالم الفكر العبري الذي لم يكن مكتشفا من قبل .

ولتبيان زيف ما ادعاه لوثر من أن الكنيسة الكاثوليكية ، كانت تجبر المؤمنين على مطالعة ترجمة الفولجاتا فقط ، كما أنها جعلت من قراءة الكتاب المقدس حكرا على رجال الإكليروس . نقول : إن هذا ادعاء مزيف أراد به تبرير الاختراق العبري للكتاب المقدس من خلال إرجاع النصوص إلى أصلها العبري ، ذلك أن الكنيسة الكاثوليكية قد صدقت علناً على الترجمات المترجمة إلى اللغات غير اللاتينية ، مثل ترجمة الكولي الألمانية ، وترجمة السيد كينريك الإنكليزية ، وترجمة السيد مارتيني الإيطالية ، وترجمة الأب دي فيفو البولونية ، وترجمة الأب غلير الفرنسية وغيرها من الترجمات التي حثت المؤمنين على مطالعتها .

والحاصل أنه إذا كان ذلك كذلك ، فأي هدف كان لوثر يريد تحقيقه من الادعاء على الكنيسة الكاثوليكية بأنها قد رذلت كل الترجمات خلا الفولجاتا ؟ .

بل إن اتهام جماعة الإصلاح تلك للكنيسة الكاثوليكية بأنها كانت تحرِّم استخدام اللغة العبرية أو اليونانية وأنها كانت تطلق على دراسة تلك اللغات «**تسلية الهراطقة**» لم تكن إلا من قبيل مزايدة لوثر على اليهود للحصول على دعمهم لحركته الانشقاقية .

أما الثابت حسب تاريخ الكنيسة الكاثوليكية المقدسة ، فهو أن الكنيسة قد صدقت على الترجمة المعروفة بالفولجاتا لدقتها ، لكنها مع ذلك ، تركت للترجمات الأصلية كاليونانية والعبرانية والسريانية كل اعتبارها وقوتها ، لأن هذه الترجمات هي «**الميزان**» الذي توزن به كل الترجمات الأخرى ، بما فيها الفولجاتا ، أيضا ، وإلى هذه المتون «**العبرية واليونانية**» تستند الكنيسة إلى صحة عقائدها الدينية التي تسد من خلالها أفواه الهراطقة .

وفي ظل المد الانشقاقي اللوثري في ألمانيا، كانت انجلترا على موعد مع هنري الثامن الذي أراد أن يُخضع الكنيسة الكاثوليكية لأهوائه في طلاقه من زوجته، وفي رفض البابا لهذا الطلاق، جاء ما لم يخطر على بال أحد، حيث أصدر أمره الملكي سنة 1538 إلى كل كنائس انجلترا بإنهاء ما أسماه بالوصاية الكهنوتية على «**الكتاب المقدس والعمل على تفسيره**»، ومكن كل فرد من المؤمنين من الاطلاع على نصوص أسفاره المقدسة وتفسيرها لنفسه التفسير الذي يمليه عليه عقله وضميره، عملا على إنهاء سلطة الكنيسة .

وكما يرى الكاتب الويلزي جون بوونير، فقد كان هذا الأمر الملكي في انجلترا التي ستنجب «**بلفور**» لاحقا، بداية لإصابة الشعب الإنجليزي «**بهوس العهد القديم**»، وهو هوس قال الكاتب إنه جعل الإنجليز غير قادرين على ممارسة الدين إلا من خلال كل ماهو مُشرَّب بالمشاعر اليهودية، وكل ماهو نتاج للمخيلة اليهودية .

والواقع هنا، أن ملك انجلترا في إصداره أمره السابق لكنائس بلده بجعل الكتاب المقدس متاحا لكل وأي فرد منَ الشعب الإنجليزي كيما يقرأه ويرجع إليه ويستمد منه تبعا لفهمه الخاص أسس معتقداته ومعظم معلوماته التاريخية . وبعد ثلاث سنوات من حلوله محل بابا روما رئيسا أعلى لكنيسة إنجلترا كان مستفيدا على الصعيدين السياسي والمالي من مبادأة الرأسماليين الناشئين في بلاده الذين كانوا يريدون حسب زعمهم الفكاك من سطوة الكنيسة، والتطلع إلى الخلاص من قبضتها على الأرواح والعقول . لكن واقع الحال أنها كانت محاولة للتخلص من نظام المساهمة المالية المنصوص عليها في قوانين الكنيسة المعروفة بالعشور المقدسة عن كل ما يتحقق من أرباح نتاج عمل الإنسان وخيرات الأرض، لذا فإن هذه تمثلت في تشجيع وتمويل عملية ترجمة الكتاب المقدس المترجم أصلا للإنجليزية . لكن هذه المرة من خلال إيصاله إلى العامة الذين وجدوا فيه بفعل روح الانشقاق عودة إلى الجذور العبرانية .

وفي عودة كنيسة انجلترا للانشقاق على الكنيسة الرومانية، كانت تلتقي مع

الاتجاه الاحتجاجي المعروف باسم البروتستانتي ، حول فكرة إقامة الحقيقة الدينية على أساس الفهم الشخصي ، دون فرض قيود على التفسيرات التوراتية ، فكان كل من أتباع المنشقين حرا في دراسة الكتاب المقدس ، واستنتاج معنى النصوص التوراتية بحرفيتها لابروحها ، وأصبح التأويل الحر البسيط هو الأسلوب الجديد في التفسيرين الرمزي والمجازي .

والحقيقة هي أنه لم يكن اليهود يحلمون بهذه الفرصة التاريخية لإعادة إحياء النزعات التوراتية خاصة بعد أن نظرت الكنيسة إليهم على أنهم أصحاب دور قد انتهى ، وأن اختيار الله لهم في العهد القديم كشعب مختار ، لم يكن إلا تمهيداً ورمزاً للعهد الجديد الكامل الذي سيقطع في المسيح والذي سيعلن عنه بالوحي الكامل كلمة الله المتجسد . وعن هذا يقول أرميا النبي : «**ها إنها تأتي أيام يقول الرب اقطع فيها مع آل إسرائيل وآل يهوذا عهدا جديدا فاجعل شريعتي في ضمائرهم ، واكتبها على قلوبهم ، وأكون لهم إله ، ويكونون لي شعبا ، وجميعهم سيعرفونني من صغيرهم إلى كبيرهم يقول الرب** » (أرميا31:31-34) .

أما بولس رسول الأمم ، فيقطع عليهم العهد القديم ، ويعلن عن العهد الجديد الذي تم في إقامة المسيح ، وهو العهد الجديد بدمه ، كما أشار في رسالته الأولى إلى أهل كورنتوس ـ الإصحاح الحادي عشر(*) .

وفي هذا السياق ، لم يعد العهد القديم أكثر الآثار الأدبية شيوعاً بين عامة المنشقين المحتجين فحسب ، بل إنه أصبح مصدر المعلومات التاريخية العامة ، وكانت هذه هي الفترة التي بدأت فيها عملية التزوير التاريخي .

وقد وجد التزوير الصهيوني الحالي للتاريخ الذي يدعى «**حقا تاريخيا**» في فلسطين مادته المسيحية في التمسك بحرفية الكتاب ، وأخذ التاريخ الشامل

(*) يطلق على بولس رسول الأمم ، ذلك لأنه حمل رسالة السيد المسيح ، أي رسالة الإنجيل إلى أهل روما وإلى قطاعات كبيرة من أهل آسيا دون التركيز على أهل اليهودية أو السامرة فقط حتى لا يجعل لهم أولوية على غيرهم من المؤمنين من بقية الأمم .

لفلسطين يُقلّص بشكل تدريجي إلى أن اقتصر على القصص المتعلقة بالوجود اليهودي وحده ، وأصبح الأوروبيون مهيأين للاعتقاد بأنه لم يكن هناك في فلسطين إلا اليهود ، والقصص التاريخية الواردة في العهد القديم .

ومن هذه الركيزة ، جاء انطلاق التعليم في كثير من أوجهه ليتكون أساسا في دول عدة في أوروبا من قراءة الأدب التوراتي بصورة أساسية .

لذا ، فقد أخذت الأجيال اللاحقة من الأوروبيين تعتبر فلسطين الوطن اليهودي ، فلا هجرة سوى هجرة إبراهيم إليها ، ولا وجود لمملكة غير مملكة داؤد التي سبقتها ، وتلتها ممالك كثيرة . ولم يعد الناس يذكرون من الثورات إلا ثورة المكابيين ، وكان يبدو أنه لاوجود للشعوب الكثيرة التي استوطنت وعاشت في فلسطين ، مع أن معظمها عاش فترات أطول من اليهود .

وفي إدانة واضحة ، يمكن القول : إن هذا التلاعب بالتاريخ لم يكن إلا بدعة من بدع فترة الإصلاح الديني الموهوم .

وإذا كانت اللغة ـ كما يقول علماء الاجتماع ـ هي روح الأمم والشعوب ، فإن إحياء العبرية كان إشارة الانطلاق إلى أوروبا اليهودية التي تغيرت نظرتها شكلا وموضوعا لليهود . فبعد أن كانوا هم القتلة والزنادقة والمحكوم عليهم بالعيش في الجيتو ، وأول من تسلم رؤوسهم للمقاصل ، وتحرق دورهم ، وتخرب مشاريعهم صار الإعجاب الجديد بالعبرية كلغة يقترن في أذهان كثير من المجموعات المسيحية الوليدة بإعجاب بالمبادئ والقيم اليهودية . وقد أدى الإعجاب بالماضي اليهودي إلى احترام اليهودية المعاصرة ، وكان من نتائج ذلك أن ازداد التسامح جهة اليهود في كل الأراضي الواقعة تحت النفوذ السياسي البروتستانتي كما يتضح من حالة الأراضي المنخفضة التي كانت تحت حكم أسرة «**ناسو أورانج**» حتى أن إمستردام الهولندية كانت تعرف في القرنين السادس عشر والسابع عشر بين يهود أوروبا بأنها القدس الجديدة .

ومع الخبرة الطويلة التي اكتسبها اليهود من حِلّهم وترحالهم في جميع بقاع

الأرض ، عرفوا جيدا كيف يستغلون تلك الفرصة التاريخية للسطو على العقلية المسيحية إن جاز القول . ولم يقف الأمر عند هذا الحد ، بل استطاعوا في مهارة وحنكة عاليتين أن يجعلوا الروح العبرية تتسرب إلى الفنون والآداب ، وأن تترك بصماتها ـ سواء الإيجابية أو السلبية ـ على الحضارة الأوروبية ، فقد أصبح رمبرانت ومعاصروه من الفنانين ، يرسمون ويحفرون مناظر من الكتاب المقدس ، وبخاصة العهد القديم . ولذا فإنه ليس من الغريب أو المستغرب أن تكون اللوحات الأشهر لأوروبا بعد لوحات **مايكل أنجلو** التي خص بها كنيسة القديس بطرس في الفاتيكان . تلك اللوحات التي تشير إلى عبور موسى النبي للبحر الأحمر وخروجه منتصرا مع جماعة بني إسرائيل من مصر ، وغرق فرعون وجنوده في اليم .

أما في الحياة الأدبية ، فقد حلت سير الآباء الأولين من إبراهيم وإسحق ويعقوب وصموئيل وشمشون وداؤد وسليمان محل الدراما التي كانت سائدة في أوروبا وقتذاك ، وانصب التركيز على العهد القديم كمصدر للتعاليم الخلقية أكثر منه مصدرا للعقيدة والدين .

وما أبعد هذا المشهد عن ذلك الذي وصفه **يوسيفوس** المؤرخ اليهودي لحال شعبه في أوروبا قبل ظهور التيار المحتج واختراقهم له . يقول يوسيفوس : «إن التمييز العنصري ضد اليهود لم يكن أسوأ إهانة لحقتهم ، فقد كانوا أكثر أمنا وسعادة فيما بينهم وسط الجمهور الذي يضمر لهم العداء ، والفقر أمكنهم أن يتحملوه لأنهم كانوا قد ألفوه لعدة قرون ولم يكن خاصا بهم ، أما أنكى الجراح ، فقد كان الباعث عليها هو الشارة أو الزي المميز الذي دمغهم بأنهم محتقرون منبوذون بين الناس» .

ويضيف : «كانت شارة اليهودي بمثابة إغراء للصبية المتشردين بإهانة حامليها وقذفهم بالأوحال ، وإيحاء لجموع الرعاع الحمقى بالانقضاض عليهم وإساءة معاملتهم ، بل حتى قتلهم ، كما هيأت للطبقة العليا فرصة نبذ اليهود ونهبهم أو نفيهم وأسوأ من هذا العار الخارجي أثر الشارة في اليهود أنفسهم ، فقد

اعتادوا أكثر فأكثر على مركزهم الخارجي ، وأصبحوا أكثر فأكثر لا يعنون بحديثهم ، لأنهم لم يسمحوا لهم بارتياد دوائر الثقافة ، أما فيما بينهم ، فإنهم يفهمون بعضهم بعضا برطانة غامضة ، وفقدوا كل تذوق للجمال ، وإحساس به وأصبحوا إلى حد ما حقراء ، كما أرادهم أعداؤهم أن يكونوا» .

لكن هذا كله قد تغير شكلا وموضوعا إلى غير رجعة ، حتى أصبح الحضور اليهودي جزءا من طقوس العبادات والصلوات في الكنائس التابعة للمنشقين . ولم يكن يوم الأحد إلا ذكرى تتجدد فيها ذكريات آباء إسرائيل الأولين ، وأمجاد الله كما يدعون في حياتهم ، حتى إن أحدهم قال : «إن كل يوم أحد كان يعيد إلى ذهن الأوروبي تاريخ حياة رجال هم «**مفخرة كل البلاد**» أي تاريخ رجال بني إسرائيل دون سواهم من الشعوب»(*) .

أما الأثر الذي أعده أقوى وأبلغ أثر ، والذي ترك أثره لاحقا حتى الساعة ، فهو التحول الذي حدث في جوهر العقيدة المسيحية ، كما كانت الكنيسة الرومانية تفسرها عبر العصور فقد تزيا المحتجون في جميع الربوع الأوروبية بزي العهد القديم ، وجعله المرجع الأول ، وهو ما أتينا على ذكره آنفا . لكن الإضافة تأتي في إطار أن باب التفسير الشخصي لآيات العهد القديم ، قد جعل من اللاسلطة القوة الوحيدة المتسلطة على فهم المؤمنين الجدد لمعاني الأسفار المقدسة ، وإذا أضفت إلى ذلك استخدام اللغة العبرية باعتبارها لغة الله المقدسة التي خاطب بواسطتها شعبه المختار ، والتي أضحت المرجع الرئيسي للغة رجل الدين الجديد ، فإن البديهي أن قصص التوراة وأحداثها تصب كلها في قالب كلمة واحدة هي «**إسرائيل**» ومع ترسيخ هذا المصطلح في عقول الأوروبيين أصبحت إسرائيل لفظة ومعنى ومبنى جزءا من التراث الجديد لأوروبا المسيحية المتهودة في جزء كبير منها على الأقل وليس فيها كلها بالمعنى المطلق .

(*) كان التحول اللوثري قد فعل فعله ، ذلك لأن هؤلاء قد تناسوا قضية «إنهم بنو قتلة الأنبياء وأنهم بعينهم الذين طالبوا بيلاطس بقتل يسوع صائحين اقتله اقتله دمه علينا وعلى أولادنا» .

وهنا ، فإنه لابد من التأكيد على أن الإنسان ينشأ على الإيمان بما يلقن منذ الصغر من مفاهيم دوجماطيقية مطلقة ، وفي حال أوروبا الجديدة كان المفهوم يتعلق باليهود على أساس أنهم شعب الله المختار ، وأنهم انطلاقا من وعود الله وحديثه وعهوده ، هم شعبه الأثير وأمته المفضلة من قبله تعالى على باقي العالمين .

لكن الإضافة اللوثرية لم تكن تنسحب على بني إسرائيل من العبرانيين الذين عاصروا موسى ويشوع وداؤد وسليمان حتى إبراهيم وإسحق ويعقوب ، لكنها كانت تنطلق لتشمل وتعم يهود عصرهم ، بدءا من منتصف القرن السادس عشر ، وبالتبعية إذا كان الوعد ينسحب على هؤلاء كأحفاد وورثة ، فإن الوعد بالأرض المقدسة يمتد أيضا لهؤلاء ، وهذا هو حجر الزاوية الذي رذله اللوثريون ليصير رأسا للأكاذيب ، ومنطلقا للمؤامرات التي تعرضت لها الأراضي المقدسة وتتعرض لها حتى الساعة في فلسطين ، ذلك لأن إله إسرائيل هو الذي قطع العهد على نفسه «**أقسمت بذاتي**» لذا فإن ربط اليهود في العالم بأرض فلسطين ـ حسب تلك الرواية ـ هو ربط إلهي لا يدحض ولا يحول ولا يزول حتى قيام الساعة .

ومما لاشك فيه ، إن هذا الفكر قد لقى رواجا عند اليهود ، لأنه يتفق أيضا معهم فيما يتعلق بانتظارهم لمجيء المسيا المخلص . فيما كان اللوثريون ومن لف لفهم يعملون على تهيئة الأمر لعودة المسيح . وأيا كان الأمر من عودته أو مجيئه فقد التقى الطرفان على ضرورة الرجوع إلى الأراضي المقدسة حتى تتحقق النبوءة المقدسة ، وهذا ما سيقودنا إلى الحديث عن إنجلترا والدور الذي لعبه البيورتانيون هناك حتى قيام دولة إسرائيل .

كان لوثر ـ وبكل المعايير كمؤسس وزعيم لحركة الإصلاح الموهومة ـ مسؤولا إلى حد بعيد عن ظهور مناخ القرن السادس عشر الروحي والديني الجديد ، الذي أوجد أرضا خصبة للأفكار الصهيونية الأولى ومما يؤكد ذلك ، أن لوثر في شقي حياته كان دافعا لليهود إلى الأمام جهة الاعتزاز بقوميتهم ، فإذا كان

في النصف الأول يصفهم بالأسياد وبقية العالم المسيحي بلفظة الكلاب ، فإنه في النصف الآخر من حياته ، الذي بدا فيه قاسيا عليهم بسبب الأنباء التي وصلته من أن اليهود كانوا يجمعون الأنصار لعقيدتهم من خلال حركة المسيحيين المتشددين في مورافيا بدلا من أن يرتدوا للمسيحية . ففي النصف الثاني أيضا كان لوثر أول من نادى بقيام دولة لليهود ، إذ يقول في كتابه «**اليهود وأكاذيبهم**» : «من الذي يحول دون اليهود وعودتهم إلى أرضهم في يهوذا »؟

ورغم أن دافعه سلبي ، ذلك لأنه على حد قوله مجيبا «**لا أحد . . إننا سنزودهم بكل ما يحتاجون إليه لرحلتهم لا لشئ إلا لنتخلص منهم . . إنهم عبء ثقيل علينا وهم بلاء وجودنا**» رغم ذلك ، فإنه قد خط للتأصيل العبراني لإسرائيل في الكتاب المقدس الذي أرجعه إلى لغته العبرية ، وكذلك من خلال دعوته لطرد اليهود إلى أرض يهوذا .

ولعل خط العهد القديم هو الذي مكن «لدافيد بن جوريون»(*) من القول **بأن كتاب المسيحيين المقدس ، يشكل أقوى وأفعل حجة ملكية تثبت أحقية اليهود في حيازة تلك الأرض ، كل تلك الأرض** .

وعلى ضوء الوعد المزعوم « **حدودك يا إسرائيل من الفرات إلى النيل**» يمكن أيضا فهم الاطمئنان الصهيوني إلى نوعية النتيجة الحتمية لصراع الشرق الأوسط ، التي أفصح عنها **موشى ديان** عندما سئل عن السبب في أن دولة إسرائيل تبدو غير مستعدة إطلاقا لتعيين الحدود التي تقبل بها ، إذ قال «**ولماذا نعين حدودا وعندنا التوراة**» أي أن تلك الحدود قد تحددت سلفا منذ البداية في التوراة كلام الله لشعبه العبراني القديم والحديث .وفي إقرار لوثر الأول لليهود بالسيادة ، كان من الطبيعي أن تزيد رقعة التسامح في العديد من الدول الأوروبية التي تشهد وجودهم مما كان له أفضل الأثر على حياتهم ، ولم يعد اليهود هم المنبوذون أو

(*) أول رئيس وزراء لدولة إسرائيل ، وصاحب الصيحة الأشهر «لا قيمة لإسرائيل دون القدس ، ولا معنى للقدس دون وجود الهيكل» .

الدخلاء الوحيدون ، إذ واجهت جماعات بروتستانتية متعددة نفس المصير الاستبعادي والإقصائي من الحياة العامة الأوروبية ، وللمرة الأولى أيضا منذ مئات السنين ، لم يعد اليهود أشد الأقليات الدينية اضطهادا ، لكن الأهمية القصوى في تقديري لحركات الاحتجاج والانشقاق عن الكنيسة الكاثوليكية الأم كانت في التأكيد على شخصية اليهود كأمة ذات تاريخ وحضارة ورساله وأنبياء ووعود إلهية ووطن منتظر وأرض مغتصبة من قبل العرب ، كما ادعوا بذلك ولم يعودوا جماعة كنيسية «**نسبة إلى الكنيس**» محل عبادتهم ، أو كنيسة كالكنائس الأخرى أو أصحاب عقيدة أو أيديولوجية خاصة بهم .

وفي تشجيع المنشقين لنشر العهد القديم خاصة ، وبسط أوراق التوراة في صورتها الأصلية دون تفسيرات كنسية ملزمة ، حدثت ثورة في الفكر المسيحي البروتستانتي ذلك أنه أتاح لبعضهم أن يضفوا على الكتاب المقدس صبغة سياسية .

لم يصبح إذن اليهود في أوروبا هم جماعة الرعاع أو الخوارج ، وتوقفت التقاليد التي كانت تحقر من شأنهم ، ومهدت السبل للأفكار الصهيونية التي تتحدث عن عودة البعث إلى الأمة اليهودية ، وخرجت إلى الأقطار التي يتواجدون فيها أفكار عن أن فلسطين وطن أصيل لليهود ، وهي الأفكار التي وجدت ـ فيما بعد ـ من يساندها بالوعود البشرية بعيدا عن الوعود الإلهية المزعومة .

وعندما تصبح العقائد والدوجماطيقيات تتلى كفروض إيمانية من على أعلى المنابر ، ساعتها ينتشر الإيمان بها بما لا يوقفه حد أو يحده سد ، وهو ما حدث للصهيونية غير اليهودية في القرن السادس عشر ، حين أصبحت المعتقدات الدينية جزءا من طقوس الكنائس المنحولة الانشقاقية تلك ، ومن ثم شاعت في الحياة الثقافية اليومية . وكان للحركة الوليدة رجال مرموقون في كل البلدان ، وعبر فترات التاريخ التي عاصرت وأعقبت حركة الاحتجاج ، مما جعل الفكر العقائدي اللاهوتي يتحول إلى أيديولوجية سياسية للغرب المعاصر ، وهنا كانت الطامة الكبرى .

الفصل الرابع

انجلترا والبيوريتانيون

- زمن سيطرة الفكر اليهودي
- ما هي البيوريتانية وعن ماذا تعبّر؟
- دور البيوريتانيين في التأصيل لدولة إسرائيل
- عودة اليهود إلى انجلترا ثانية
- التفكير في تهجير اليهود جدياً إلى فلسطين

الفصل الرابع

انجلترا والبيوريتانيون

لماذا كانت النهضة اليهودية والانطلاقة الأعظم أثراً لها من أراضي الجزر البريطانية ؟

هل جاء **وعد بلفور** من فراغ أم نتاج تراكم موروثات عقائدية قادت من لايملك أن يمنح من لا يستحق ؟

يقول دافيد جورج رئيس الوزراء البريطاني ، والذي أعلنت بلاده وعد بلفور «**ربما اعرف عن ملوك بني إسرائيل أكثر مما أعرف عن ملوك انجلترا**» . والمؤكد أن هذه المعرفة إنما جاءت كنتيجة طبيعية لوصول« **النهضة العبرية**» كما أطلق عليها البعض بأفكارها التي تبلورت صهيونيا لاحقا ، ووصلت الذروة في عهد ما عرف بالثورة البيوريتانية في انجلترا في القرن السابع عشر .

ماهي البيوريتانية وعن ماذا تعبر ؟

في بساطة يمكن القول إنها حركة تمثل أشد أشكال الحركات الانشقاقية تطرفا ومغالاة ، وهي الوريث الشرعي **للكالفينية** التي ترجع إلى جان كالفن(1564-1509)(*) الذي يمثل الجيل الثاني للإصلاح الموهوم ، وهو الجيل الأشد ضراوة ،

(*) ولد جان كالفن في Noyon بفرنسا ، ويعد الرجل الثاني بعد لوثر في التأصيل لحركات الانشقاق عن الكنيسة الرومانية الكاثوليكية .

ذلك لأنه لم يصنع الإصلاح بل وطده ، لم يكن كالفن من رجال الإكليروس شأن معظم رجال لوثر الأولين ، بل كان علمانيا . ومن جهة أخرى كان فرنسيا ، في حين أنهم كانوا من الألمان .

وقد نشر كالفن باللاتينية لخدمة أتباعه كتيباً لخص فيه الخطوط العريضة التي يتميز بها فكره الديني وعنوانه «**إنشاء الدين المسيحي**» وترجم إلى الفرنسية بعد إضافات من المؤلف . وتعاقبت الطبعات بعد أن زيد عليها في كل مرة ، حتى شكلت في عام 1559 أربعة مجلدات جعلت من الكتاب خلاصة علم اللاهوت البروتستانتي . وأسهم في انتشار مذهبه إنشاء مدارس في جنيف تدرس فيها العلوم من الابتدائي حتى التعليم العالي ، فقصدها كثير من الأجانب لدرس العلوم اللاهوتية ، وأصبحوا المسؤولين عن الجماعات البروتستانتية ذات النهج الكالفيني وبذلك يكون كالفن قد قدم للحركة المنشقة الشمولية والسلطة .

إلا أن بعدا جديدا لا يتعلق بالعقائد الدينية ، كان حلقة الوصل بين كالفن وأتباعه ويهود أوروبا عامة وانجلترا خاصة ، وهو إقراره بأن الإقراض بالفائدة المعروف بالربا أمر مشروع ولا يخفى على أحد ما لهذا الطرح من هوى في نفوس اليهود في جميع أصقاع المعمورة الذين ألفوا هذا اللون من ألوان النشاط التجاري غير المشروع ، ولذلك يرى فيه بعض المؤرخين أنه أحد الدعاة إلى النظام الرأسمالي .

كان فكر كالفن مغاليا في النظر إلى حرفية الكتاب المقدس(*) من جهة ، ومقدسا ومكرسا بهوس للعهد القديم من جهة ثانية ، مما جعل من جماعة البيوريتانيين يجمعون بين اتجاه حب الخير لليهود والنظر إليهم على أنهم خلفاء العبرانيين القدامى . وقد وجد هذا الفكر أرضية خصبة له في الجزر البريطانية . وهو التعبير الذي كان يُستخدم للدلالة على الإمبراطورية البريطانية لاحقا .

(*) ترى مدرسة اللاهوت النظري الحديث أن هناك أحداثاً وروايات متعددة في العهد القديم تحديدا هي صور تقريبية أو تمثيليه وليست حرفية مثل قصة الخلق الأول في سفر التكوين .

ومنشأ وجود الاستعداد لتقبله هو النزاع الذي حدث بين الكنيسة الرومانية الكاثوليكية الأم وبين الملك .

ورغم أن هنري كان محافظا على الإيمان الرسولي الكاثوليكي ، وإن كان بعيدا عن سلطة البابا ، فإن وريثه إدوارد السادس كان لايزال قاصرا (1553-1547) . لذا فقد تغلغلت الأفكار الكالفنية إلى الحياة المسيحية هناك .

وحين أصبحت ماري تودور ابنة هنري الثامن من كاترينا الأرغونية ملكة ، أعادت الإيمان الكاثوليكي ، وأعدمت أكثر من مئتي شخص . فلقبت بماري السفاحة .

لكن **إليزابيث الأولى** (1558-1603) أنشأت **المذهب الإنجليكاني** في صيغته النهائية ، وتمت ملاحقة الكاثوليك . وفي عهد إليزابيث احتدمت المعركة بشكل شديد الوطيس ، كانت فيها الروح الاحتجاجية المنشقة أشد حماسا وغيرة من أبناء الكنيسة الرومانية أي جهة الاتجاه الانشقاقي ، مما أعطى للبروتستانت الإنجليز في القرن السادس عشر الطاقة المحمومة لفكرة جديدة تناضل من أجل المستقبل ، على حين كان للكنيسة الكاثوليكية قوة المعتقدات والأساليب التقليدية المتأصلة في أعماق الماضي كما يرى وول ديورانت في الفصل الأول من الجزء الأول من المجلد السابع من موسوعته الخالدة «**قصة الحضارة**» .

لم تنتصر إليزابيث على البيوريتانيين المتأثرين بكالفن ، والذين زاره بعضهم في جنيف بوصفهم لاجئين ، كانوا يشعرون أن اليزابيث الثانية لا تزال تحتفظ ببعض الولاء لكنيسة روما وإن لم تعلن ذلك ، لذا فإنهم كانوا يرفضون أية رقابة من الدولة على الكنيسة ، وتمنوا أن تكون لديانتهم الرقابة على الدولة ، وقد أخذ اسم «**البيوريتانز**» يطلق عليهم بدءا من عام 1564 ، ومرده أنهم طالبوا بتطهير المذهب البروتستانتي الإنجليزي من كل الطقوس والعبادات غير الواردة في العهد الجديد من الكتاب المقدس ، بل عوضا عن ذلك ، استمسكوا بنظريات القضاء والقدر واللعنة الأبدية ، وأحسوا أنه لا مهرب من الجحيم إلا بإخضاع كل ناحية

من نواحي الحياة للدين والأخلاق . وكلما قرأوا الإنجيل في أيام الأحد المقدس المهيبة في بيوتهم ، كاد يتوارى شكل السيد المسيح المحب للسلام ، الذي يعطف على الضعفاء ، ويرحم الخطاة ، ويبشر منكسري القلوب ويعدهم بالتحرر من السبي الروحي . كان هذا المشهد يتوارى أمام رب الجنود القوى الجبار القاهر في الحروب ، المحب للانتقام «**يهوه**» ـ اسمه كما جاء في ذكر سفر التكوين ـ ومن ثم سفر الخروج لموسى النبي وبقية أسفار العهد القديم .

ومن منطلقات البيوريتانيين هذه ، فتحت البروتستانتية الأبواب على مصاريعها أمام تيار متعاظم من التهويد لا للفكر المسيحي فقط بل وللعقل والضمير الإنساني في الدول التي شهدت الحركات الانشقاقية . فالحياة اليومية لرجل الشارع قد تشبعت بمفاهيم اليهودية ومعتقداتها من خلال التركيز البروتستانتي على الأشكال الثقافية التوراتية الواردة في أسفاره المتعددة مما جعل منها معيارا للفن والأدب والثقافة .

أما في مجال اللغة ، فقد أسهم تيار التهويد في إعلاء شأن اللغة العبرية على كل اللغات الوطنية الحية ، انقيادا وراء فكر بأن تلك اللغة هي اللسان المقدس الذي تكلم الله به مع آدم ونوح وإبراهام وكل أولئك الأسلاف اليهود ، كما أنها اللغة التي أوحى بها الله إلى موسى فأنزل عليه التوراة والناموس .

وفي هذا الإطار ، فإن يهود أوروبا عامة ، وانجلترا خاصة ، قد أصابوا نجاحا عظيما من وجهة نظرهم في معركتهم ضد المؤسسة الكاثوليكية العدو الأول والأزلي لهم ، ذلك أنه في إعلاء شأن اللغة العبرية كانت المواجهة للغة اللاتينية التي أقرت كلغة للكتاب المقدس من قبل الكنيسة الرومانية . وفي هذا الإعلاء اللغوي كان الإعلاء المنطقي للنهج العبراني الديني والاجتماعي والسياسي والتجاري ، وذلك من خلال النظر إلى الكتاب المقدس بحرفيته لا بروحه ، وهي الحرفية التي تلائم يهود أوروبا رغم الفاصل الزمني الشاسع والعلاقات المتحللة بينهم وبين يهود موسى .

وفي سيادة العبرية كانت الروح اليهودية تتغلغل في الكتابات الأوروبية الأخرى ، كما سنرى مع جون ملتون الشخصية الأدبية البيوريتانية(*) البارزة صاحب «الفردوس المفقود» . وقد وجد هؤلاء في العهد القديم **«مثالا سماويا للحكومة الوطنية ، ودلالة واضحة للقوانين التي يجب على البشر اتباعها ، وإذا عصوها فالعقوبة ماثلة للعيان وآنية»** .

لقد أصبح العهد القديم إذن هو الدستور الأوحد ، وكان أدبهم الوحيد ـ كما تقول ريجينا الشريف ـ وغذاءهم الفكري والروحي ومرشدهم وفيلسوفهم وصديقهم وحجتهم القانونية ومحكمة استئنافهم العليا ، وتبعا لهذه المعطيات ، تشكل فكر هؤلاء .

ومما زاد من الأمور سوءا ، أن البيوريتانيين الجدد هؤلاء ، لم يكونوا على بينة بحياة اليهود المعاصرين ، وهذا دفعهم إلى أن ينظروا إلى يهود العهد القديم على أنهم الآباء وإلى المعاصرين على أنهم الأبناء . لذا فقد جعلوا من العظات التي كانت تلقى على مسامع الشعب القديم نموذجا لحياتهم في العصر الحديث ، ومن هنا جاء تغلغل التعابير العبرية في الحديث الإنجليزي ، ووصلت المغالاة حد أن تصور كثير منهم أن الله لن يقبل صلاة أحدهم إن لم تكن باللغة العبرية لغة الكتاب المقدس . ولعل هذا ما عبر عنه جون ملتون ، حينما طالب بأن يتضمن منهج التعليم العام في المدارس الثانوية دراسة العبرية .

وليس بالعسير على القارئ : أن يستنتج نزعة هؤلاء في التخلي رويدا رويدا عن الروح المسيحية لتحل محلها العادات اليهودية بدءا من اتباع نصوص القانون القديم بدلا من اللجوء إلى فهم التعبيرات الروحية والقانونية الجديدة على ضوء فهم تعاليم الكتاب المقدس .

ويذكر تاريخ انجلترا أن مجموعة منهم يطلق عليهم اسم «**اللفلرز levelers**» وهي مجموعة جمهورية متطرفة قد طالبت بأن تعلن التوراة دستورا للقانون الإنجليزي .

(*) البيوريتانيون تعني الأطهار الأنقياء من لفظة Pure .

ولم يطل الوقت ، فقد انسحب الأمر سريعا على أسماء القديسين المسيحيين الذين كان الأوروبيون يطلقون أسماءهم على أولادهم ، وحتى هؤلاء انسحبوا سريعا من دائرة الأسماء لتحل محلها أسماء مقاتلين من بني إسرائيل وآبائهم ومنظريهم ، ولتكتمل الدائرة الاختراقية بأن يتحول الاحتفال الأسبوعي الذي كانت تقيمه الكنيسة كل أحد ذكرى قيامة السيد المسيح إلى السبت اليهودي(*) وليصبح السبت لاحقا يوم عطلة أسبوعية بِفعل التواجد المضطرد والنمو المتزايد للروح اليهودية .

وفيما ذهب البعض إلى هذا النحو ، ذهب آخرون إلى أبعد من ذلك ، فاعتنق اليهودية بعضهم على الملأ كما فعل جون تراسك وجميع أتباعه ، وبعض الشخصيات المهمة كالفنان والرسام الشهير إلكسندر كوبر ، أما الذين بقوا على مسيحيتهم فقد أخذوا ينظرون بعطف متزايد إلى أولئك الذين أطلق عليهم اسم شعب الله القديم .

كانت البذرة إذن قد بذرت والنبتة نبتت في التربة الخصبة وتعهدها البروتستانت الأوائل ثم احتضنها المتطهرون « **البيوريتانيون**» إلى أن جاء أوليفر كرمويل الذي حل البرلمان الطويل عام 1653 مستبدلا إياه بالبرلمان القصير المكون من القديسين فقط أي البيوريتانيين . وقد كان مجلس الدولة آنذاك مكونا من سبعين عضوا أسوة بعدد أعضاء السنهدريم أي المجلس الأعلى اليهودي القديم الذي حاكم السيد المسيح وحكم عليه بالصلب .

وإذا كان التاريخ يذكر **لإدوارد الأول** بأنه كان الرجل الذي طرد اليهود من انجلترا ، فإن اسم **كرمويل** يظل مقدسا حتى الساعة عند يهود العالم قاطبة ، ذلك لأنه هو نفسه قدر له أيضا أن يرجع اليهود ثانية إلى انجلترا وهو الرجل المهووس

(*) كان الفكر اللوثري وراء ظهور بدع غير مسيحية بالمرة مثل الادفنتست أو السبتيين أي الذين يعلنون على الملأ مسيحيتهم ، لكنهم في واقع الأمر يقدسون السبت اليهودي عوضا عن الأحد المسيحي والذين عرفوا لاحقا بالمتنصرين من الخارج .

دينيا بالرؤى التوراتية ، حتى إنه كان يرى أعداءه هم أعداء الله . فقد كتب ذات مرة إلى أحد قواده في غمار معركة كان يخوضها مشجعا إياه ومؤكدا له «**إن الله نفسه خصم لمن تقاتلهم ، فاذكر دائما أننا نقاتل في معركة الرب**» .

إلا أن تساؤلا يثور حول الغرض الحقيقي من وراء إعادة اليهود إلى انجلترا ، وهل كان دافعه الرؤى التي نراها منحولة جهة العهد القديم ، والتي كان يؤمن بها البيوريتانيون أم كانت هناك أسباب أخرى ؟

وهنا يجيب **شفيق مقار** في دراسته «**المسيحية والتوراة**» ، بأن الحمية الدينية لم تكن كل دافع **كرمويل** إلى تبني دعوة إعادة اليهود إلى انجلترا ، ذلك لأن الديكتاتور المشتعل بنار الإيمان التطهري قد فطن إلى أن نظامه مقضي عليه بالإفلاس والزوال ما لم يلق بالاً إلى المسائل الدنيوية الملحة التي من قبيل فك خزائن المال ، وهو ما لم يكن من سبيل إليه إلا باستعادة سيادة انجلترا على بحار العالم ، واستئناف ما كان قد انقطع من صلات تجارية مع المستعمرات خلال الجيشان الذي صاحب إطاحته بالنظام الملكي .

ويذكر المؤلف أن منافسي انجلترا القدامى وبخاصة في الأراضي المنخفضة مثل هولندا إضافة إلى إسبانيا والبرتغال قد اغتنموا فرصة التخلخل في أوضاع انجلترا إبان الصراع الطويل المرير الذي عُرف بالحرب الأهلية وملأوا الفراغ التجاري الذي أحدثه انحسار القوة البحرية الإنجليزية ، لذا فإنه من الطبيعي عندما شرع **كرمويل** في إصلاح بعض ما كان قد فسد أن يتصدى له أولئك المنافسون الأقوياء ويشتبكوا معه في سلسلة من الحروب التجارية الساخنة التي بدأت بالاشتباك مع البرتغال .

وبينما كانت انجلترا تخوض ذلك الصراع ، نشط المتطهرون الإنجليز ، دعاة السماح بإعادة اليهود في حملة إقناع مكثفة أنبتت مكاسب هائلة لاحقا .

على أن القدر الأكبر من النجاح الذي حققه منافسو انجلترا مع التجار الهولنديين ، نجم عن تآخي الهولنديين مع اليهود ومكافأة التجار اليهود للهولنديين على ذلك التآخي بالكثير من الصفقات والارتباطات التجارية بفضل

ما تمتع به أولئك التجار اليهود من روابط وثيقة نتيجة للصلات العائلية بشرق المتوسط وأمريكا الجنوبية .

ولما كان كرمويل كما يصفه المؤرخون منذ ظهر حتى اليوم «**منافقاً طموحاً أو قديساً سياسياً**» فقد استطاع أن يسخر الفكر البيوريتاني ليهيء الأرضية داخل بلاده لعودة اليهود عقائديا قبل الحديث عن التسهيلات المالية والحياتية التي هي الشغل الشاغل لليهود منذ زمن السامري وعجله الذهبي الذي سرقوا سبيكته من ذهب من المصريين حتى الساعة(*) .

أما عن الناحية العقائدية ، فقد اقترح كرمويل في 17 مايو 1641 إلغاء حكومة الأساقفة إلغاء تاما ، وأقر مجلس العموم البريطاني المشروع ، وفي أول سبتمبر من العام نفسه ، قرر أن تزال من كل الكنائس الإنجليزية الصور - التي يرى اليهود أنها تخالف الوصية الإلهية بألا تتخذ إلها منحوتا ، وأن يمنع في يوم الرب الأحد الرقص والألعاب الأخرى ، واجتاحت انجلترا موجة أخرى من تحطيم الصور المقدسة ، والقضاء على المعتقدات التقليدية ، فأزيلت أسيجة المذبح وأستاره ، وحطمت النوافذ ذات الزجاج الملون ومزقت الصور إربا .

وعاد مجلس العموم فأقر مشروعا بإقصاء الأساقفة في 23 أكتوبر ، فأهاب الملك باللوردات معلنا أنه قرر الاستشهاد في سبيل المحافظة على مبدأ الكنيسة الإنجليكانية ونظامها ، وقد كان . وضمن تدخله عدم إقرار المشروع ، ولكن الجموع المعادية منعت الأساقفة من دخول البرلمان ، ووقع اثنا عشر منهم احتجاجا أعلنوا فيه أن أي تشريع يُقر في غيبتهم يعتبر باطلا عقيما ، فأدانهم البرلمان وأودعهم في السجن ، وأخيرا أقر مجلس اللوردات قانون إقصاء الأساقفة في الخامس من فبراير عام 1642 ولم يعد الأساقفة يتخذون مقاعدهم في البرلمان .

(*) نقرأ في سفر الخروج أحد أسفار العهد القديم الخمسة الأولى في قصة خروج بني إسرائيل من مصر في الإصحاح الحادي عشر «أن الرب قال لموسى : **قل الآن للشعب ليطلب كل رجل من جاره وكل امرأة من جارتها آنية فضة وذهب» وكانوا قد حملوا الأواني الفضية والذهبية المسروقة معهم في رحلة الخروج .**

هكذا مهد كرمويل الطريق لليهود بإزاحة الكنيسة المقدسة من الطريق ، والحق أن التفصيلات أكثر من أن يُحاط بها في هذا العمل الذي نرمي من ورائه إلى تقديم إطار واسع وواضح ودقيق للفكر الاختراقي ، ولا نرمي منه إلى الإحاطة الشاملة الجامعة المانعة .

أما على صعيد الثروة مفتاح الثورة الآتية ، فقد كانت كلمة السر عند كرمويل هي «المارانوا» .

من هم «المارانوا»؟

تقول المؤرخة اليهودية بربارة توخمان : **إن المارانوا أو اليهود المتسترين ، كانوا أساسا من اللاجئين الذين هربوا من بغي محاكم التفتيش ، واستوطنوا بلداناً أخرى ، ظلوا فيها يهودا متسترين من خلال ممارساتهم العلنية للكاثوليكية ، في حين ظلوا يمارسون اليهودية سرا في بيوتهم .**

وكان عدد من عائلات المارانوا(*) قد استقر في لندن إثر طرد اليهود من إسبانيا في 1492 وفي زمن كرمويل كان بعض يهود «**المارانوا**» نشطاء في عالم المال والأعمال في انجلترا وقد كان من أبرزهم أنطونيو دي كارفاخال وهو تاجر غلال ظل من أكبر الموردين إلى جيش كرمويل إبان الحرب الأهلية التي عاشتها انجلترا .

كانت للرجل اليهودي أصلا ، الكاثوليكي رسماً ، أساليبه الخاصة في استرداد سبائك الذهب من مصادر إسبانية ، ولذا فإن سفنه استثنيت من أوامر الاستيلاء إبان حرب انجلترا والبرتغال وسمح له بالاستمرار في تجارته ، وبجانب التجارة الخارجية كان كرمويل يعاني من الافتقار إلى رأس المال فاتجه أمله إلى الحصول عليه من اليهود .

(*) يتفق هذا الحديث مع روايات متعددة خبرتها أوروبا عن إقحام أولاد هؤلاء في المدارس الاكليركية المسيحية التي تخرج رجال الدين المسيحيين من أجل محاولة ضرب وإفساد الأسس العقائدية للإيمان من الداخل .

ويبقى بعد ثالث عند كرمويل أراد أن يستخدم فيه اليهود كجسر يعبر عليه لإدراك مآربه الحربية والتجارية والسلطوية ، وهو استخدام اليهود في أوروبا عيوناً وآذاناً له من خلال شبكة الاتصالات البشرية التي كانت تتشكل منهم وتغطي أوروبا قاطبة .

وكشأن الصفقات السياسية في كل زمان ومكان ، مكن اليهود لكرمويل نجاحات اقتصادية ومالية فاعلة ، ومكن كرمويل لهم من علو شأن غايات أرادوها منذ زمن طويل ، كانت الصفقة أقرب ما تكون إلى مسرحية عبثية أبطالها من رجال المال والأعمال والعقيدة الدينية والجاسوسية ، وقام بحبكها وإخراجها جماعات اليهود المتسترون «**المارانوا**» .

ولم يطل الانتظار اليهودي لجني الأرباح وهم البارعون الذين علمتهم تجاربهم القاسية واضطهادهم في أوروبا أن يجعلوا ثرواتهم من النوع الذي يخف حمله ويعلو ثمنه ، حتى يتمكنوا من الفرار به في أسرع وقت .

كانت المكافأة ليهود بريطانيا مؤتمر «**وايت هول**» الذي عقده كرمويل سنة 1655 لبحث مدى قانونية إعادة اليهود إلى انجلترا ، وتدارس الأوضاع التي يمكن أن يتحقق ذلك في ظلها .

ولم يكن كرمويل بعيدا عن أعمال المؤتمر ، فقد اهتم أن يشارك بنفسه في أعماله بصحبة **منسي بن إسرائيل** الحاخام الأكبر لأمستردام ، الذي كان قد نشر كتابا بعنوان «**أمل إسرائيل**» وترجم إلى الإنجليزية ، ولاقى رواجا كبيرا بين عامة المتطهرين . ربط الحاخام فيه ببراعة بين مسيحانية المتطهرين الإنجليز والمسيحانية اليهودية الأصلية ، كما ربط بين التنظير اللاهوتي والتنظيرات السياسية .

أما النتيجة النهائية لمؤتمر وايت هول ، فلم تكن إقرار عودة اليهود إلى انجلترا فحسب ، بل التيقن والتوكيد على ضرورة هذه العودة .

ولعل أفضل ما قيل في هذه النتيجة ، هو ما ورد في كتاب «**المسيحية والتوراة**» من أن كرمويل بفتحه أبواب العودة ، كان يرسي أسس الاندماج

وليسهم بذلك إسهاما ضخما في بدء المسيرة المفضية إلى «**أبواب جهنا**» «**جهنم**» التي أكد الحاخام شمعون بن يوهاي في المدراش(*) أن كل أمم الأغيار ـ أي غير اليهود ـ صائرة إليها .

ولم يكن في تقديرات كرمويل أو حساباته الدينية أي بعد للرؤى الصهيونية المنحولة ، إنما كانت دوافعه سياسية وتجارية دونما أدنى شك في ذلك ، لكن المكاسب اليهودية كانت قد ترسخت ، ومسيرة العودة إلى انجلترا لم تكن إلا إرهاصات للحديث عن إسرائيل الجديدة والعودة إلى فلسطين أرض الوحي ، وهو ما سنعرض له في الفصل القادم ، ذلك لأنه كان من المستحيل أن يتشرب المرء بتاريخ العهد القديم وأن يسترجعه كوحي سماوي ويعيش معه كمرشد يومي ولا يحترم الشعب المسؤول عن ذلك كله ، وهكذا أخذت فكرة الشعب اليهودي المختار تلعب دورا متميزا في الفكر الإنجليزي البيوريتاني ، والنظام القائم ويبقى مشهد دخول منسي بن إسرائيل مدينة لندن قادما من امستردام في الأذهان ، حيث إنه سيشكل قريبا الدفعة الأولى للوعد المشؤوم ويصف بوبكين في بحثه عن الجذور المسيحية الصهيونية ـ مجلة كونتشن 1993 المشهد فيقول : «**أقيمت الاحتفالات ، وأطلقت الكنائس العنان لأجراسها ، وبسط منسي أمام كرمويل رسالة مؤثرة كان قد بعثها إليه حاخام القدس ناثان شابيرا ، وفي الرسالة ما يكفي عن عذابات من أسماهم «شعب الله» الذي يكابد ألوان الاضطهاد على يد المسلمين**» .

ثم طفق يشرح لكرمويل مآثر الكومونولث الإنجليزي في مساعدة اليهود وفضائل تجميع هذا الشعب في فلسطين .

وقبل أن يغادر منسى بن إسرائيل مدينة لندن عام 1655 ، كانت حملة التبرعات ليهود القدس تفوق كل التوقعات من شعب إنجليزي عُرِف عنه الحرص في الإنفاق .

(*) كتبت المدراش ما بين عام 100-300 ق . م وهي دراسات عقائدية في العهد القديم أي التفسير التقليدي اليهودي للتوراة .

ويضيف : كان هناك إجماع يشبه الهيستريا في لندن بأن المسيح نفسه حل في الحاخام اليهودي ابن إسرائيل ، وأن دخوله لندن وركوبه الحمار في بريستول يعيد إلى الأذهان دخول السيد المسيح إلى أورشليم ومعه الحواريون ينشدون ثم يتوجونه ملكا على اليهود (*) .

أما **لورنس إبستن** في مؤلفه «**نداء صهيون**» فيذكر ما اعتقده الكثيرون من أهل لندن من أن كرمويل يهودي ، وأنه كان قاب قوسين أو أدنى من بيع كنيسة القديس بولس الى يهود زمانه ومكانه ، أما الباعث على هذه الشائعة فهو سلوك كرمويل نفسه العملي حين عمد إلى حماية **جيمس تايلو** أحد زعماء طائفة الكويكرز من محاكمة برلمانية كادت تودي برأسه ، إذ شبه الحاخام منسي بن إسرائيل بالمسيح .

أما المؤرخة اليهودية **بربارة توخمان** ، فتؤكد في مؤلفها « **الكتاب المقدس والسيف**» على أن اهتمام كرمويل باقتراح منسي بن إسرائيل ، هو نفسه الذي جعل لويد جورج يهتم باقتراح حاييم وايزمان بعد عشرة أجيال وهو اعتقاد مشترك يتضمن بأن اليهود قادرون على تقديم العون في أوقات الحرب . ومنذ عهد كرمويل أصبح أي اهتمام بريطاني بفلسطين يعتمد على دافعين متلازمين ، دافع الربح سواء أكان تجاريا أم استعماريا أم عسكريا ثم يأتي الدافع الديني الموروث من الكتاب المقدس .

والشاهد أن البيوريتانيين بحال من الأحوال ، قد توقفوا عند عبرانيي أزمانهم ، فوجدوا أن الإيمان بموجب تأويل شخصي لا يمكن استكماله إلا بتمجيد يهود العصر ، على أنهم من نسل إبراهيم التاريخي ، ورغم أن كرمويل كان قليل الميل لمغامرات العقل الديني ، إلا أن صديقه وعضو مجلس عمومه المقرب الشاعر **جون ملتون** كان في المركز منها . ومع ملتون وقبله مستشار الملك القانوني **هنري فنش** كانت الدفقة المسيحية التي تغترف من التوراة بأصلها العبري تنتشر في ربوع العالمين القديم والجديد .

(*) كان هذا اليوم المعروف باسم أحد الشعانين ، أي المسرورين قبل أسبوع واحد من مطالبة اليهود بصلب السيد المسيح .

ويذكر مائير فيريت في المجلد الثامن من مؤلفه «**رد الاعتبار اليهودي في الفكر البروتستانتي الإنجليزي**» أن عالم اللاهوت الإنجليزي توماس برايتمان لا يعد الأب الروحي لبعث اليهود في انجلترا فحسب ، بل في أصل عودتهم إلى فلسطين . إذ يرى أن الله يريد عودة اليهود إلى فلسطين ليعبدوه هناك ، وأن الله نفسه يفضل أن تتم عبادته في هذا المكان دون غيره من الأمكنة ، ويؤكد على أن اليهود كشعب سيعودون ثانية إلى فلسطين وطن آبائهم الأولين .

ورغم أن اللغة العبرية تضاءلت أهميتها لاحقا في الحياة الإنجليزية ، بدءا من عام 1651 لكنها لم تفقد جاذبيتها بالنسبة لكثير من المسيحيين المتعاطفين معها . ومع موت كرمويل في 3 سبتمبر 1658 بدأت البيوريتانية في التقهقر كحركة سياسية ، خاصة بعد عودة آل **ستيوارت** للحكم عام 1660 إلى أن قضى عليها نهائيا في عهد الثورة التي أطلق عليها الثورة المجيدة عام 1688 ، ورغم ذلك فإن الأثر الذي تركته كان أصعب من أن يُحصر أو يحد أثره ، وليس أدل على ذلك من التنبؤات التي أوردها هنري فنش عضو البرلمان والمستشار القانوني لملك انجلترا في كتابه المعنون «**البعث العالمي العظيم**» حينما تنبأ باقتراب حلول العودة واستعادة اليهود للسلطان الزمني ثم بتأسيسهم إمبراطورية على نطاق العالم كله ، وهي تنبؤات يطلق عليها self prophecy أي التي تعمل على تحقيق ذاتها ، بغض النظر عن حقيقتها من عدمه ، وإن كانت في الغالب الأعظم قراءات ونبوءات منحولة .

أما و . بارون ، ففي كتابه «**تاريخ الديانة والمجتمع اليهودي**» فيقول عن فنش بأنه «**ظل يعبر عن إيمانه بالمستقبل الزاهر المعد لليهود في الخطة الإلهية**» ولذلك ظل طوال حياته يحث الأمراء المسيحيين على جمع قواهم لاسترداد إمبراطورية الأمة اليهودية .

ومن ضمن بل إن أهم ما قاله فنش في البعث العالمي « **إن اليهود سوف يعودون إلى وطنهم ، وسيعمرون الأرض كما عمروها من قبل ، وسيعيشون بأمان ويبقون هناك إلى الأبد ، ولن يكون هناك فضل بين الأسباط العشرة وبين السبطين الآخرين ، بل يؤلف الجميع مملكة غاية في الازدهار**» .

وإذا جاز تلخيص الأمر في كلمات قليلة ، فإننا نقول بأن البيوريتانية قد اختلفت عن التيار الذي أراد أن يقيم منظومة العبرية المسيحية ، رغم أن الأخيرة كانت محصورة في انجلترا وحدها ، فيما البيوريتانية امتدت إلى جميع أرجاء أوروبا ، حيث كانت الحركات الانشقاقية قد ثبتت أقدامها في ألمانيا اللوثرية وسويسرا الكالفنية ، وكذلك في الأراضي المنخفضة هولندا وبلجيكا ولوكسمبورج . أما في فرنسا فكانت الهيجونتية وكلها عقائد بروتستانتية معدلةعن الأصل شيئا ما وقد جمع هؤلاء رابط واحد ، هو أن اليهود قد أضحوا علامة بارزة في أدبياتهم ، ووجد الأخيرون في أتباع المذاهب الإصلاحية المزعومة أعداء جدداً لأعدائهم التقليديين الملك الإسباني والجالس سعيدا على كرسي مار بطرس البابا الروماني (*) .

لقد كان القرنان السادس عشر والسابع عشر الأرض الخصبة التي بذرت فيها الأصولية المنشقة جذور الصهيونية في أوروبا المسيحية ، وكانت انجلترا هي قلب الصهيونية النابض ، وأوروبا من حولها الأطراف كل حسب ما قدر له أن يدعم إسرائيل الجديدة حسب التعبير التوراتي المزيف .

(*) يعد القديس بطرس كبير الرسل هو مؤسس كرسي روما ، أي مؤسس الكنيسة الكاثوليكية في مدينة روما ، حيث استشهد أيام الإمبراطورية الرومانية ، لذا فإن الكرسي يطلق عليه كرسي القديس بطرس .

الفصل الخامس

مولد إسرائيل الجديدة

- إسرائيل تولدُ من رَحِم البروتستانتية المنشقة
- المصالح الأوربية وراء إعادة اليهود إلى فلسطين
- بدايات الحديث عن نظرية الملك الألفي
- صراع أوروبي داخلي من جراء اليهود
- المسيحية الإنجليزية تصبح أكثر يهودية

الفصل الخامس

مولد إسرائيل الجديدة

«استيقظي يا انجلترا ، استيقظي ، فأختك القدس تناديك . لماذا ينام هؤلاء المؤمنون كالاموات ويغلقونها عن جدرانك القديمة » .

لعل تلك الكلمات التي خاطب بها وليم بليك اليهود ، تعبر عما نود أن نوجزه في هذا الفصل ، وهو فكرة «المولد» ، مولد دولة إسرائيل من رحم البروتستانتية المنشقة على اختلاف مللها ونحَلها ومن جميع الأرجاء الأوروبية التي وجدت طريقها إليها ، لكنها أجمعت فيما يبدو على توكيل انجلترا تحديدا في القيام بهذا العمل غير المشروع .

ولم تكن هذه الوكالة من فراغ ، ذلك لأن الاعتقاد الإنجليزي كما يقول «كليفورد لونجلي»(*) في دراسته القيمة المعنونة «الشعب المختار . . . الأسطورة التي شكلت انجلترا وأمريكا» كان يعتقد بأن أمتهم اختارها الرب . . وأن هذه الأمة المختارة ورثت مهمة إسرائيل القديمة وهي نشر الحضارة البروتستانتية في أركان الدنيا الأربعة . . وأولئك الذين قاوموا إنما يقاومون إرادة الرب ، ويمكن إزاحتهم أو استئصالهم .

ولم يكن من العسير على اليهود هناك بعد أن أرست البيوريتانية مراسيها على شواطئ الجزر البريطانية ، وألقت بحمولها الفكرية ، أن ينطلقوا لتحقيق

(*) الشعب المختار ـ كليفورد لونجلي ـ القاهرة 2001 .

الهدف الأعظم الذي راودهم نحو ألفي عام ، من الدياسبورا في جميع أرجاء المسكونة .

كانت نصوص تتويج ملوك انجلترا فرصة خالدة لتوقر في نفوس هؤلاء ما يجب أن يكون ، ذلك لأن طقس التتويج كان يبدأ بقراءة من مزامير داؤد النبي الخاصة ببني إسرائيل بوجه عام والقدس أورشليم على الخصوص . تقول القراءة من المزمور رقم 122 «**فرحت بالقائلين لي إلى بيت الرب نذهب . تقف أرجلنا في أبوابك يا أورشليم . أورشليم المبنية كمدينة متصلة كلها حيث صعدت الأسباط ، أسباط الرب شهادة لإسرائيل ليحمدوا اسم الرب ، لأنه هناك استوت الكراسي للقاء كراسي بيت داؤد . إسالوا سلامة أورشليم ليسترح محبوك ، ليكن سلام في أبراجك وراحة في قصورك** » .

ومما لاشك فيه أن انجلترا لم تكن في سعيها العقائدي الذي سيتجه لاحقا وكما سنرى إلى اعتبار نفسها صاحبة مهمة مقدسة في عملية بعث اليهود وإعادتهم إلى أورشليم كخطوة نحو تحقيق وعودة المسيح المنتظر ، نقول لم تكن خالصة النية لوجه الحق الديني ، وإن كان الدافع الديني في الأصل من العوامل الرئيسية التي وقفت وراء الأمر ، لكن الواقع يشير إلى أنه كان هناك العديد من العوامل الأخرى كانت بمثابة الفعل الأقوى والمحرك الأساسي نحو تحقيق هذه الغاية وهي الأطماع والمصالح الاستعمارية .

وإذا أردنا الحديث عن شكل وصورة هذه الأطماع ، فإن الأمر سيعود بنا إلى الصراع الإنجليزي الفرنسي ، وهو صراع استعماري معروف على منطقة الشرق الأوسط ، ذلك أنه إثر احتلال فرنسا لمصر عام 1799 استشعرت بريطانيا المخاطر التي تهدد مصالحها خاصة بعد ظهور **إعلان نابليون** في الصحف الرسمية الفرنسية والذي جاء فيه كما ورد في كتاب «**الصهيونية غير اليهودية**» لريجينا الشريف(*) «من نابليون القائد الأعلى للقوات المسلحة للجمهورية الفرنسية في أفريقيا وأسيا إلى ورثة فلسطين الشرعيين :

(*) «**الصهيونية غير اليهودية . جذورها في التاريخ الغربي**» ـ ريجينا الشريف الجزء الرابع من المقدمة ـ عالم المعرفة الكويت 1985 .

«أيها الإسرائيليون ، أيها الشعب الفريد الذين لم تستطع قوى الفتح والطغيان أن تسلبهم اسمهم ووجودهم القومي ، وإن كانت قد سلبتهم أرض الأجداد فقط» . . ويمضي نابليون في خطابه قائلا : «إن مراقبي مصائر الشعوب الواعين المحايدين ، قد أدركوا ما تنبأ به هؤلاء بإيمانهم الرفيع من دمار وشيك لمملكتهم ووطنهم . أدركوا أن عتقاء الله سيعودون لصهيون وهم يغنون ، وسيولد الابتهاج بتملكهم لإرثهم دون إزعاج فرحا دائما في نفوسهم كما يقول أشعياء النبي» .

ويستمر نابليون في شحذ همم أولئك الذين تاجر بأحلامهم العقيدية ليصل إلى القول : «سارعوا إن هذه هي اللحظة المناسبة ، حيث أرسلتني العناية الإلهية على رأس الجيش الفرنسي لأجعل من القدس مقرا لقيادتي ، سارعوا باستعادة حقوقكم ومكانتكم بين شعوب العالم تلك الحقوق ـ كما يقر نابليون ـ التي سلبت منكم لآلاف السنين وهي وجودكم السياسي كأمة بين الأمم وحقكم الطبيعي المطلق في عبادة يهوه طبقا لعقيدتكم علنا وإلى الأبد» .

والواقع أن قلة قليلة تلك التي تدرك أن نابليون بونابرت كان أول رجل دولة يقترح إقامة دولة يهودية في فلسطين قبل وعد بلفور بنحو 118 سنة ، حتى أن وايزمان الرئيس الإسرائيلي قد وصف نابليون بأنه «أول الصهيونيين الحديثين غير اليهود» .

ولا يهمنا حديث نابليون هذا ،رغم أهميته في تأصيل الجذور اليهودية في أوروبا ـ لذاته ـ بل لقراءة موقف انجلترا العدو التقليدي اللدود من ورائه ، إذ سعت انجلترا إلى تشكيل جمعية فلسطين في لندن عام 1804 ، ثم كانت توسعات محمد علي والي مصر وسيطرته على بلاد الشام وراء استشعار بريطانيا للخطر الكبير الذي يتهدد مصالحها الإمبراطورية باعتبار بلاد الشام على طريق مستعمراتها في الهند .

ولأسباب استعمارية أخرى ، اندفعت بريطانيا بكل قوتها للاستئثار بمشروع توطين اليهود في فلسطين انطلاقا من قناعتها التامة بأن من شأن مثل هذا المشروع

أن يشكل حاجزا بشريا في وجه توسعات محمد علي ، كما سيكون ضمانا لأمن مواصلات الطرق إلى مستعمراتها الشرقية باعتبار أن اليهود سيكونون أداة مخلصة لها في المشرق العربي .

وكان وراء دفع بريطانيا لتحقيق هذا المشروع الاستعماري ، التقاء المصالح بين كل من موسى مونتفيوري اليهودي البريطاني واللورد شافتسبري واللورد بالمرستون وزير الخارجية البريطاني آنذاك وغيرهم .

حتى أن بالمرستون ودون الانتظار لموافقة الدولة العثمانية ـ المنشغلة في نزاعها مع محمد علي ـ قام بإنشاء أول قنصلية بريطانية في القدس عام 1839 لأسبابه الاستعمارية البحتة ، وفي الحادي عشر من أغسطس عام 1840 يكتب بالمرستون إلى سفير بريطانيا في القسطنطينية يحثه على إقناع السلطان بتشجيع اليهود على العودة والتوطن في فلسطين .

وكما تذكر صحيفة التايمز اللندنية في السابع عشر من أغسطس من نفس العام حول إرجاع اليهود «**لم يعد اقتراح وضع الشعب اليهودي في أرض آبائه بحماية الدول الخمس مجرد فكرة ، بل اعتبارا سياسيا جادا** » .

وبعد هذا التاريخ بعام واحد ، تأسست أول أسقفية إنجليكانية بروتستانتية في القدس ، أي عام 1841 ولنمضي مع اللورد بالمرستون وزير الخارجية الإنجليزي الذي تولى الوزارة عام 1830 الذي يعلن في عام 1847 أنه بإمكان أي يهودي في أوروبا يعاني من أي اضطهاد طلب الحماية من القنصل البريطاني في فلسطين .

ومن تصريح بالمرستون السابق حتى وعد بلفور المشؤوم في الثاني من نوفمبر عام 1917 ، مسافة زمنية ليست بالقليلة ، جرت فيها مياه كثيرة وغزيرة ما بين الإمبراطورية العثمانية المريضة ، وازدياد تنافس الدول الاستعمارية الكبرى مابين 1860-1880 مثل فرنسا وإيطاليا والنمسا وروسيا القيصرية للاستيلاء على مزيد من المستعمرات من خلال الحصول على امتيازات في ولايات الدولة العثمانية إلا أن انجلترا هي التي فازت في هذا السباق المحموم لإنشاء كيان لليهود في فلسطين ، وهكذا تبرعت بريطانيا بما لا تملك لتعطيه لمن لا يستحق .

ومما لاشك فيه، هو أننا عرجنا على هذه المنعطفات التاريخية السياسية لا لشيء إلا للتأكيد على المحصلة النهائية للفكر الانشقاقي البروتستانتي الذي ضرب أوروبا، ولسنا هنا في معرض البحث التاريخي عن الوقائع والأحداث في نشأة دولة إسرائيل، لكننا في الأصل نتساءل عن الجذور الدوجماطيقية التي تحولت في اتحادها مع المصالح السياسية إلى واقع حال سيؤثر على أرض الموعد الجديد - أمريكا - وهي بيت القصيد كما يقال، والغرض الأصلي من هذا العمل(*) .

يقول جون ملتون في قصيدته الشهيرة «**الفردوس المستعاد**» الذي يتحدث عن عودة إسرائيل «**لعل الله يعرف الوقت المناسب جيدا ، سيذكر إبراهيم ، وسيعيدهم نادمين وصادقين ، وسيشق لهم البحر وهم عائدون مسرعين جذلين إلى وطنهم ، كما شق البحر الأحمر ونهر الأردن عندما عاد آباؤهم للأرض الموعودة ، إنني أتركهم لعنايته وللزمن الذي يختاره**» .

وما أيسر على الفكر العقائدي أن يشق طريقه إلى القلوب والعقول حتى لو كان فكراً ملتوياً ومعوجاً، لذا فقد كان لابد من البحث عن المفتاح الذي يمكن لليهود من امتلاك لباب أولئك المسيحيين الذين ستخترق معتقداتهم الإيمانية بعد تمردهم على الكنيسة الكاثوليكية الرومانية، ولم يكن سوى محاولة الحصول على هذا المدخل من قلب الكتاب المقدس من منطلق «**من كلامك تتبرر ومن كلامك يحكم عليك**» وقد كان أن حكموا زورا وبهتانا .

كانت ترجمة الكتاب المقدس إلى اللغات الأوروبية المتعددة بعد الرجوع إلى الأصل العبري كما ادعى لوثر، قد جعلت من المتاح والمباح الاطلاع على جميع آثاره وأسراره، وبصورة خاصة كان لسفر الرؤيا الذي كتبه يوحنا المعروف بالحبيب أو اللاهوتي أو الرائي ما بين سنة 97-98 ميلادية في جزيرة بطمس النصيب الأكبر من الاهتمام، باعتباره السفر المختوم أو الممنوع من القراءة . أما عن

(*) الدوجما في أصلها اليوناني كلمة تعني القاعدة أو المبدأ ولا تعني الحقيقة . ولكنها استخدمت بعد ذلك للتعبير عن قرارات المجامع المسيحية المعبرة عن الحقيقة المطلقة والتي يلزم منها أن من ينكرها يتهم بالكفر والهرطقة . راجع «**الأصولية والعلمانية**» - مراد وهبة - دار الثقافة، القاهرة، 1995 .

هذا السفر ، فإنه يمثل رؤية يوحنا لمستقبل الأيام وللأحداث المعدة قبل قيام الساعة ، فيما يعرف مسيحيا باسم «**علم الاسكاتولوجي**» وما أصعب التفسير الحرفي وأبعد عن الحقيقة ، خاصة في هذا السفر الذي يكثر فيه الحديث عن أورشليم الأرضية ، وتلك السمائية وعن أورشليم الجديدة وعن قصة الفداء والخلاص وهي جلها تقع في دائرة القضايا اللاهوتية الشائكة حتى على ملافنة الكنيسة وعلماء اللاهوت الأفذاذ .ومهما يكن من أمر ، فقد وجد اليهود في هذا السفر ضالتهم المنشودة وتحديدا في نظرية الملك الألفي .

ماذا تقول نظرية المُلْك الألفي ؟ .

نقرأ في الإصحاح العشرين من سفر الرؤيا ليوحنا اللاهوتي(*) يقول : **ثم رأيت عروشا مُنح الجالسون عليها حق القضاء ، ورأيت نفوس الذين قتلوا في سبيل الشهادة ليسوع ، وفي سبيل كلمة الله ، والذين رفضوا أن يسجدوا للوحش ولتمثاله ، والذين رفضوا علامته على أيديهم وجباههم ، وقد عادوا إلى الحياة وملكوا مع المسيح ألف سنة ، هذه هي القيامة الأولى ، أما بقية الأموات فلا يعودون إلى الحياة حتى تنقضي الألف سنة ، ما أسعد وأقدس من كان لهم نصيب في القيامة الأولى ، لن يكون للموت الثاني سلطة عليهم ، بل يكونون كهنة لله والمسيح ، ويملكون معه ألف سنة** «(رؤ 20 -6:2) .

هذا هو متن نظرية الملك الألفي ، أما الهوامش حولها فكثيرة ، نجدها في كتابات العهد القديم التي تمتد في أسفار أشعياء وحزقيال ودانيال ، وقد آمن بها جماعة الألفيين إيمانا حرفيا ، ومن خلال هذا الإيمان يرى أولئك أن تاريخ العالم مسجل في العقيدة ومقسم لمراحل ، وأن المرحلة الأخيرة هي المرحلة الألفية ، ولذلك فإن اليهود سوف يعودون وتقوم حروب بين الخير والشر بعد صعود المؤمنين إلى السماء حتى ينجوا من نيران الحرب ، ثم تنتصر قوى الخير بقيادة المسيح ، ويعود المؤمنون إلى الأرض ليحكم المسيح ألف سنة كاملة حكما

(*) آخر أسفار العهد الجديد ، ومؤلفه هو القديس يوحنا اللاهوتي التلميذ المحبب والمقرب من السيد المسيح ، وقد كتبه في جزيرة بطمس بآسيا سنة 97 ميلادية حسب شراح ومؤرخي الكتاب المقدس .

أرضيا .لكن كيف يعود المسيح إلى الأرض ليملك الألف سنة؟

لابد للعودة من أن تكون حيث يجب ، أي في الموضع والموقع اللذين شهدا مجيئه الأول وقيامته وصعوده ، أي في الأرض المقدسة في فلسطين .

هكذا كان المدخل ، إذاً ليس للمسيحيين من حل إذا أرادوا تهيئة الحال والمجال للعودة الثانية سوى العمل على إعداد المسرح لقيام الوطن لليهود في فلسطين ، أرض رسالة المسيح في الماضي ، وهي ذات الأرض التي سيظهر عليها لاحقا ويحكم الألف سنة المزعومة .

وكما النار التي تسري في الهشيم ، انتشر هذا الفكر الألفي من انجلترا البيوريتانية إلى بقية دول أوروبا . **ففي هولندا** كانت الألفية البروتستانتية صفة مميزة للأيديولوجية الهولندية الكالفنية ، فازدهرت الطوائف المتهودة خلال القرن السابع عشر ، وبلغت ذروتها في تأييد أدعياء المسيح .

أما في فرنسا ، فكذلك كان نصيبها من أولئك المؤمنين بالعصر الألفي السعيد ، وبخاصة بين الهجنوت في المناطق الجنوبية (والهجنوت هم البروتستانت الفرنسيين والكلمة تعني المتحالفين HUGUENOTS) وافراً وكان ممثلهم البارز هو إسحق دي لابيرير (1594-1676) الذي كتب «**دعوة اليهود**» ودعا إلى إحياء إسرائيل بتوطين الشعب اليهودي في الأرض المقدسة .

أما المانيا اللوثرية وجارتها اسكندنافيا ، فقد كان لهما نصيبهما الوافر من الإيمان بالعصر الألفي السعيد ، فقد كانت **هامبوج** الواقعة شمال ألمانيا الموطن الأسطوري لليهود في القارة الأوروبية ، وكان هذا الميناء ثالث مكان مهم بعد لندن وأمستردام يأوي إليه اليهود الإسبان والبرتغاليون الفارون من محاكم التفتيش .

كما أن هامبورج كانت مركزاً لحركة التقوية الألمانية التي استغل مؤسسها فيليب جاكوب سبتر (1635-1703) كتابات لوثر الأولى حول المسألة اليهودية من **أجل تعزيز حب السامية كوسيلة لإغراء اليهود باعتناق المسيحية**(*) قبل عودتهم

(*) كان لهذه الدعوة ، دعوة اليهود لاعتناق المسيحية تهدف لعودتهم أخيراً بعد ذلك التاريخ ، تتمثل في كتاب «**چورج بوش الجد**» ، حيث كانت هذه الدعوة محور كتتابه ومحور أدب الرؤيا .

إلى فلسطين ، لكنه كان يدعو كذلك إلى تفهم واحترام اليهود الذين يؤثرون التمسك بدينهم ، وفي هذه الأجواء جاءت كتب مثل **«أخبار سعيدة لإسرائيل» لبول فلجنهارد** لتؤكد أن عودة المسيح المنتظر ، ووصول المسيح اليهودي ، هما حدث واحد ، وأن علامة ظهور المسيح اليهودي المسيحي هي عودة اليهود الدائمة إلى وطنهم الذي منحه لهم من خلال وعده القاطع لإبراهيم وإسحق ويعقوب .

وكان من أثر الاختراق الفكري لمنظومة الحكم الألفي السعيد ، أن فكر بعض المنظرين مثل **« هولجربولي»** في حث ملوك أوروبا على القيام بحملة صليبية جديدة لتحرير فلسطين والقدس من الكفار وتوطين اليهود وارثيها الأصليين الشرعيين ووصل به الأمر إلى أنه في عام 1696 قدم خطة مفصلة إلى ملك انجلترا وليم الثالث طالبا منه أن يعيد احتلال فلسطين ويسلمها لليهود لإقامة دولة خاصة بهم .

ووصل الأمر بالبعض إلى أن هاجم المسيحيين بقوله **«أيها المسيحيون الوثنيون ، إنكم تسمحون لمعلمين مزيفين وبخاصة روما بأن يقنعوكم بأن الله حرم اليهود من الميراث وطردهم وإنكم إسرائيل المسيحية صاحبة الحق في امتلاك أرض كنعان إلى الأبد »** .

كان ما تقدم هو بذور الصهيونية في أول أشكالها التي ظهرت كنتاج طبيعي لعصر الانشقاق والاحتجاج البروتستانتي الموهوم ، وفي ظل حالة الاضطراب التي عاشتها أوروبا وبخاصة خلال حرب الثلاثين عاما (1618-1648) وما بعدها ، راجت التوقعات المتعلقة بنهاية الأزمان بين كل الطبقات الاجتماعية وفي كل الدول .

ولعل المؤرخة اليهودية **بربارة توخمان** في كتابها BIBLE AND SWORD **«الكتاب المقدس والسيف(*)»** قد صدقت حين قالت : **«إن الأوضاع صارت**

(*) السيف في العهد القديم كان حاضراً سواء استخدم لخدمة الدعوة في بني إسرائيل أو تعرضهم له من خلال الجوييم أي الأغيار وبالإجمال حالة الحرب التي عاشوا فيها ولا يزالون حتى الساعة .

بالمسيحية الإنجليزية لتصبح أكثر يهودية في بعض جوانبها من المسيحية الأوروبية بشكل عام ، وقد أضفت عليها الروح التوراتية للديانة الإنجليزية منذ عهد الإصلاح الديني المزعوم مسحة عبرية لامسحة سامية» .

والمقطوع به أيضا أن أوروبا في أزمتها ، وجدت في الهروب إلى الأساطير اليهودية مخرجا نفسيا كإسقاط لحالة الكبت التي تعيشها ، وقد غذت اليهودية بأساطيرها المنحولة هذا الاتجاه ، إذ تقول إحدى رواياتهم عن خراب الهيكل :

«وبينما ألسنة النيران تلتهم الهيكل ، صعد ثلاثة من شباب الكهنة إلى سطحه وقذفوا مفاتيح بيت يهوه صوب السماء ، فامتدت يد من السماء وأمسكت بالمفاتيح ، وعندئذ صاح الكهنة الثلاثة : حتى متى أيها السيد حتى متى»؟

فأجابهم صوت سماوي قائلا **«ليس لأكثر من يومين اثنين يا أبنائي»** ، وإذ ذاك أدركوا أن نفي الشكينة وشتات إسرائيل سيطولان لألفي عام ، لأنه مكتوب في سفر المزامير لداؤد النبي **« إن ألف سنة في عينيك مثل يوم أمس بعد ما عبر وكهزيع من الليل»** وقالوا أمام يهوه **«ياسيد العالم كيف سيمكن لإسرائيل أن تحتمل العذاب لألفي عام»** ؟

فقال لهم **«انظروا ها إني أعطيهم من سوف لايرونه ، لكنهم سيشعرون طيلة الوقت بأنه موجود ، أعطيهم من سوف لا يرونه لكنه سيظل دائما آت ، من سيبحثون عنه بين البرص على أبواب روما ويبحثون عنه في القبة الذهبية للعش السماوي ، لكنهم لن يعثروا عليه إلا في داخل قلوبهم ، ها إني أعطيهم من لن يكون لكنه سوف يصلب عودهم ويقيم أودهم ها إني أعطيهم المسيح»** .

وكم كانت أوروبا المتألمة المثخنة بجراح الحروب والاقتتال لسنين طويلة ، في حاجة إلى هذا «**المسيح المثل أو المسيح القدوة**» لذا فإن عقيدة المسيح المحارب المنتظر التي كانت إحدى أهم دعائم اليهودية وأشد أساطيرها ترسخا وأقواها أثرا ، قد انتقلت إلى نفوس مسيحيي أوروبا الذين نهجوا نهج لوثر ومن معه من منشقين ، وهؤلاء لم يكن أمامهم من طريق سوى دعم من يؤمنون بأن هناك

مخلصا سوف يأتي فيفدي شعب إسرائيل وينقذه من عذاب المنفى ، ويقوده عائدا إلى أورشليم ليفرض منها حكم السلم على كل أمم الأرض ، ولم يعد الأمر بعد ذلك مجرد أحاديث ومناظرات ، بل تخطاه إلى مرحلة الاعتراف الشعبي العام .

فها هي صحيفة «**كوارتلي ريڤيو**» العريقة في انجلترا في ذلك الوقت ، تنشر مقالاً لأبرز أعضاء حركة الإنجيليين الجديدة الوليدة في انجلترا الداعين إلى العودة إلى اليهودية وهو اللورد «**إيرل شافتسبري**» (1801-1885) والذي يطلق عليه مبشر المبشرين ، والمعتبر شخصية رئيسية في الصهيونية غير اليهودية .

أما المقال فهو عن «**دولة وآمال اليهود**» ، وفيه لخص فكرته عن العودة اليهودية .

ماذا يفيد هذا المقال ؟

يفيد بوضوح وجلاء بينين ، أن قيام واحدة من أكثر المجلات نفوذا بنشر مقال يؤيد عودة اليهود ، دليل آنذاك على التأييد الذي لم يعد مقتصرا على مجموعات دينية معينة ، بل تعداها إلى الاعتراف الشعبي العام . وفي هذا المقال عبر شافتسبري عن اهتمامه بالجنس العبري ، وعارض بشدة فكرة الخلاص والدمج ، بحجة أن اليهود سيبقون غرباء في كل مكان إلا فلسطين .

وهنا ، فإن الطرح الألفي يعود للظهور ثانية ، مرسخا جذوره ، فاللورد شافتسبري المنشغل حتى أذنيه بعودة اليهود إلى وطن لا يشعرون فيه بالغربة ، رأى في العودة هذا البعد الروحي الذي حاول أن يقنع به أنداده من الإنجليز المتنفذين في البلاط الملكي ، ويتمحور في أن «**اليهود ليسوا مستحقين للخلاص ، بالرغم من أنهم متعجرفون سود القلوب ومنغمسون في الانحطاط الخلقي والعناد والجهل بالإنجيل ؟**» .

هل هناك طامة كبرى أشد من ذلك ؟

في تقديري لا ،

ذلك أنه على الرغم من أن اللورد شافتسبري يدرك إدراكا جيدا الموبقات التي يتصف بها هؤلا اليهود ، إلا أن سيطرة منظومة الفكر الألفي هي التي جعلته يرى من عودة هؤلاء إلى فلسطين أمراً مكملاً ومتمماً للنبوءات التي ستأتي لاحقا بالمسيح المخلص .

كان هذا هو المنطلق الذي جعله المؤيد الرئيسي لخطة العودة من المنظور الروحي ، حتى قبل أن تجد الخطة آذانا صاغية في أوساط المؤسسة البريطانية التي كانت الأهداف الاستعمارية تأخذ بلباب قلبها وعقلها في ذلك الزمان ، بل إن ذاك المنطق كان عنده أشد رسوخا واقتناعا من ذاك الذي وجد عند البيوريتانيين الذين سبقوه ، لذا فإن إيمانه قد حتم عليه الاقتناع بأن الوسيلة البشرية قد تحقق أهدافا سماوية وهو المبدأ الذي لم يكن مقبولا لدى غالبية اليهود آنذاك .

ويقدر للمذهب الألفي هذا لاحقا ، أن يضرب جذورا أشد في أوروبا حين ينادي بأن على المؤمنين الصلاة والانتظار حتى يأتي المسيح ، ولذلك فإن الألفيين رفضوا حتى العمل على إصلاح المجتمع ، لأن كل إصلاح لن ينفع ، والحل الوحيد مع عودة المسيح ، وهذه هي النزعة الألفية السلبية الانعزالية والتي ظهرت في القرن التاسع عشر في أوروبا مرورا بسنوات النصف الأول من القرن الحالي ، وقد كان الألفيون الأوائل من مؤيدي الصهيونية ، حتى وإن كان تأييدا سلبيا ، فإن عودة اليهودية وقيام دولة إسرائيل تمثل علامة آخر الزمان وهي بالنسبة للألفيين علامات على قرب قدوم الألف عام السعيدة .

ومن هذا التراث الفكري الألفي ، يقول الدكتور **رفيق حبيب في** كتابه «**المسيحية والحرب . . قصة الأصولية الصهيونية الأمريكية**» ظهر تيار جديد منذ الستينيات من القرن العشرين ، وهو تيار مؤمن بالملك الألفي ، ولكنه اختلف عن الألفيين السابقين عليه ، لأنه نادى بأنه ليس على الألفيين الصلاة انتظاراً للألف عام ، بل العمل بكل الوسائل لتحقيق الألف عام ، أي إعداد المسرح حتى يصبح مؤهلا لقدوم المسيح .

وهذا الاتجاه هو الذي تمادى في تأييد إسرائيل ، ومدها بالسلاح والمال ، وتأييد

حقها في الأرض من النيل إلى الفرات ، وحقها في غزو لبنان ، بل وفي جزء كبير من دول المنطقة الأخرى ويمثل هذا الاتجاه التيار الأصولي الصهيوني المعاصر وهو بالفعل الحليف الأول لدولة الاحتلال الإسرائيلي .

والشاهد أن الصهيونية قد بقيت حتى منتصف القرن التاسع عشر مقتصرة على غير اليهود ، إذ كان أولئك الذين اختاروا مناصرة الشعب اليهودي وحقه في العودة إلى فلسطين ، يفعلون ذلك بدافع شخصي ، وليس بالتعاون مع الشعب اليهودي . ويشير المؤرخون الصهيونيون الحديثون إلى أن غير اليهود من أمثال **بالمرستون ومنفورد وغولر وتشرشل** كانوا يؤذنون بمجيء الحركة الصهيونية الحقيقية ، ولكنهم كانوا أكثر من مجرد رواد لهذه الحركة ، إذ كانوا صهيونيين عن عقيدة إيمانية ، حتى وإن كانت منحولة ومزيفة ـ كما سنوضح ذلك في الفصول التالية ـ كما أن تلك العقيدة كانت هي شغلهم الشاغل ، ومن خلالها وجدت المبادئ الصهيونية الأساسية في العالم من خلال فكرة وحدة الشعب اليهودي ، وفكرة الارتباط الذي لا تنفصم عراه بفلسطين على أمل العودة إليها .

لذا يحق القول إن بالمرستون ورفاقه الصهيونيين قد أدركوا كلتا الفكرتين واستخدموهما قبل أن ينسبهما اليهود لأنفسهم بعشرات السنين .

وفي إطار الأرض الخصبة المحروثة جيدا ، والمسمدة بالصهيونية غير اليهودية ، هيأ **وعد بلفور**(*) موقفا أخلاقيا ومبررا معقولا ، ولم يكن الانتداب البريطاني على فلسطين فيما بعد ، أكثر من الاعتراف الحتمي بحقيقة واقعة ، وكان وعد بلفور داخلا في الانتداب البريطاني على فلسطين ، الذي عهد به المجلس الأعلى للقوات المتحالفة في سان ريمو عام 1920 ، كما منحتها عصبة الأمم ذلك الحق عام 1922 من أجل الهدف المحدد وهو «**إقامة وطن قومي للشعب اليهودي في فلسطين**» .

(*) لم يكن بلفور إذن هو صاحب الدعوة الأولى ، ولكنه استخدم كبوق ليعلن فقط نتاج سنوات طوال من العمل وراء الستار من أجل وجهة واحدة وحيدة يتجة إليها الركب هي أورشليم القدس التي تأصلت في نفوس الشعب الإنجليزي .

وهكذا تولد إسرائيل الجديدة في الثاني من نوفمبر 1917 ، عندما أعطى من لا يملك ذاك الذي لا يستحق .

وقد يتساءل القارئ لماذا هذه الفصول الخمسة السابقة ؟

الإجابة أنها هي التي تهيئ الذهن في الإطار التاريخي والديني للارتحال غربا إلى أرض **الموعد الجديدة** ، إلى الأراضي المكتشفة وراء البحار والمحيطات ، والتي سيقدر للمهاجرين الأوائل إليها أن يسيطروا على مقدرات الأمور في العالم ، ليقيموا الإمبراطورية الأمريكية التي نشهدها اليوم .

لذا فإنه ، دون الرجوع إلى الخلفية السابقة ، لم يكن من اليسير أو المفهوم إدراك لماذا تضحي الولايات المتحدة بمصالحها من أجل إسرائيل كما تقول الكاتبة الأمريكية **غريس هالسل** في كتابها « **يد الله** » .

وبعيدا عن إجابات هالسل ، فإن الواقع يشير إلى أن الولايات المتحدة منذ ظهورها ، دخلت في تشكيل بنيتها ، وفي صنع روحها مؤثرات عبرانية بالغة الفعالية ، لا من غلبة عنصر البروتستانتية الأنجلو ساكسونية فحسب ، بل ومن دخول اليهود كشركاء مؤسسين في تكوين أمتها وتحديد مسارها .

الفصل السادس

اكتشاف أرض الموعد الجديدة
«أمريكا»

- الباعث الديني وراء اكتشاف أمريكا
- اليهود الإسبان يمولون رحلة كريستوفر كولمبس
- الاستيلاء على الأرض الجديدة «أمريكا» باسم الملك والمسيح
- العبور من أوروبا إلى أمريكا مثل العبور من مصر إلى أرض كنعان
- اليهود واليهودية تؤصل جذورها في الأرض الجديدة

الفصل السادس

اكتشاف أرض الموعد الجديدة

ربما لا يدرك الكثيرون أن اكتشاف العالم الجديد المتمثل في أمريكا بشمالها وجنوبها ، إنما كان الباعث الديني عاملا مؤثرا ومهماً فيه ، فقد أدى فشل الحملات الصليبية إلى ضرورة اكتشاف أمريكا ، وكانت لسيطرة الأتراك على شرقي البحر المتوسط وما اقترفه العثمانيون في القسطنطينية والأسرة الملكية المناهضة للمسيحية في فارس وتركستان من إغلاق الطرق البرية ، ومنع المرور فيها سبباً في جعل الطرق القديمة للتجارة بين الشرق والغرب باهظة التكاليف ومحفوفة بالمخاطر ، وتشبثت إيطاليا وفرنسا ببقايا تلك التجارة على الرغم من كل عوامل التثبيط من ضرائب الطرق والحرب ، ولكن البرتغال وإسبانيا كانتا بعيدتين جدا في الغرب ، وكان من الصعب عليهما الاستفادة من مثل هذه الاتفاقات ، ولم تكن مشكلتهما تحل إلا بالعثور على طريق آخر ، وقد وجدت البرتغال طريقا حول أفريقيا ولم يعد أمام إسبانيا إلا أن تجرب حظها في المرور غربا .

ولم يكن ظهور كريستوفر كولمبس إلا فتحا جديدا سيقدر له أن يغير لا من جغرافية العالم فقط ، بل ومن إيديولوجياته ومستقبل أمره .

كان المال هو كل ما يحتاجه كولمبس لتحقيق مغامرته الكبرى ، أما الشجاعة فكانت متوافرة ، وقد سجل كولمبس في وصيته التي حررها قبل أن يقوم برحلته الثالثة عبر الأطلنطي إنه من مواليد جنوة ، لكنه عاش في إسبانيا وقام برحلاته البحرية لحساب ملك إسبانيا .

ويرجح المؤرخ الأمريكي **وول ديورانت** أن يكون أجداد كولمبس من اليهود الإسبان الذين اعتنقوا المسيحية ، وهاجروا إلى إيطاليا ، والدليل القوى على أن الدم العبري يسري في عروق كولمبس ، هو ميله وحبه الشديدان لليهود على حد قول ديورانت .

والأصل أننا لا نبحث في الأسباب التي دعت إلى اكتشاف العالم الجديد ، بقدر تطلعنا إلى اللمسات الأولى للحضور الديني في الأرض الجديدة .

أما المشهد الأول والذي سيقدرله أن يرسم الخطوط وينسج الخيوط لهذه القارة ، فيرويه كريستوفر كولمبس يوم وصوله إلى الأرض الجديدة ، ولنلاحظ هنا إلى أي مدى كان الوازع الديني حاضرا ، منذ أن وطأت قدما الرجل الأبيض على تلك الأرض الموعودة لاحقا .

يقول كولمبس «قبل الفجر وفي الساعة الثانية صباحا من اليوم التالي والقمر بدر تقريبا ، صاح رودر يجوي تيريان ، القائم بالحراسة : **الأرض** . . **الأرض** ، **أخيرا هاهي الأرض**» وعندما أقبل الفجر رأوا جماعة من الوطنيين العراة على الشاطئ وكلهم معتدلو القامة .

واستقل القباطنة الثلاثة قاربا بصحبة رجال مسلحين جدفوا بهم نحو الشاطئ ، وركبوا وقبلوا الأرض وحمدوا الله ، وأطلق كولمبس على الجزيرة اسم **سان سلفادور** ، أي المخلص المقدس ، واستولى عليها باسم فرديناند وإيزابيلا ملكي إسبانيا وباسم المسيح .

استقبل المتوحشون ـ سكان الأرض الأصليون ، كما أطلق عليهم ـ مستعبديهم في المستقبل بدماثة المتحضرين ، وكتب أمير البحر كولمبس قائلا : «مادمت قد عرفت أنهم قوم يمكن تحريرهم وهدايتهم إلى أبينا المقدس عن طريق الحب لا القهر ، فلكي نكسب صداقتهم أعطيت لبعضهم قلانس حمراء وللبعض الآخر خرزاً أو أشياء أخرى كثيرة تافهة القيمة سرتهم كثيرا ، ولقد ظلوا أصدقاء أوفياء لنا وهذه أعجوبة» .

ولعل الرسالة الواضحة في المشهد السابق ، هي الحكم باسم الإله ، واستخدام سياسة الجزرة الأمريكية والعصا في آن واحد ، فمن لم يأت معه الخرز والأشياء التافهة كانت الغدارات ـ البنادق والمسدسات ـ الأوروبية تجدي فيه وعلى حد قول كولمبس «**إنهم أناس غير حاذقين في استخدام الأسلحة ويمكن إخضاعهم بخمسين رجلا ، وحملهم على القيام بكل ما يريده المرء**» .

وعبر نقلة تاريخية وجغرافية طويلة يتساءل المرء عن أسباب الغزو العبراني للأرض الجديدة المكتشفة ، وكيف سادت هذه الروح في كنعان الجديدة معلنة مولد القومية اليهودية التي ستتبلور لاحقا في شكل الصهيونية بعد أكثر من قرنين ونصف قرن على يد هرتزل .

أما الإجابة الشافية الوافية فتطول بنا ، لكنها بدون اختصار مخل أو تطويل ممل ، فإنها تعود إلى زمن احتدام الصراع في انجلترا بين البيوريتانيين الذين سيطرت عليهم الروح اليهودية ، هؤلاء الذين هتفوا في انتصارهم على ملك انجلترا شارل الأول بنفس نشيد الهتاف الذي أعلاه العبرانيون عند عبورهم للبحر الأحمر بعد مطاردة فرعون لهم : «**يمينك يا إلهي عظيمة جدا ، يمينك يا إلهي تحطم العدو ، بقوة ذراعيك سحقت العدو الأثيم . وأرسلت روح غضبك ليصيروا مثل الهشيم**» .

ومن جهة أخرى ، كان الملكيون يقفون لهم بالمرصاد للثأر منهم بعد زوال غمة كرمويل حامي حمى البيوريتانيين وعودة النظام الملكي ثانية ، ورد لهم كيل الاضطهاد التطهري كيلين ، كما يقول شفيق مقار في مؤلفه المتميز «**المسيحية والتوراة**» .

ويصف **ويليام كينينجهام** في كتابه عن نمو الصناعة والتجارة في انجلترا ، حال هؤلاء المتطهرين فيقول «**إن اتجاههم هو لنبذ الأخلاقيات المسيحية واستبدالها بعادات يهودية واتباعهم لحرفية تقنين عتيق ، بدلا من الإصغاء لما يمليه الوعي السليم المستمد من تعاليم ديانتهم**» .

كانت النكسة التي تعرضوا لها في انجلترا ، قد جعلت من هذا البلد ـ بالنسبة لهم ـ بمثابة المنفى الذي وجده العبرانيون في مصر ، واعتبروا أن المكابيين هم المصريون ، ليس هذا فحسب ، بل عدوهم أيضا أبناء آدوم وأبناء مواب وأبناء بابل أعداء بني إسرائيل الألداء ، لذا فإنه كان من الطبيعي التطلع إلى العبور إلى أرض كنعان الجديدة ، وقد جاءت لهم في صورة أمريكا الجديدة .

ولما كان كرمويل نفسه في أوج مجده الجمهوري رغم تطهريته ، قد وجد نفسه في صراع مع المترفين من المتطهرين الذين سعوا إلى الإطاحة به بحجة أنه لم يكن متطهرا بما فيه الكفاية ، وأنه كان عقبة في وجه إقامة «**مملكة القديسين**» ، فإنه كان من الطبيعي أن يستحيل التعايش بين النظام الملكي وأولئك المتهوسين .

لقد رأى هؤلاء أن أمريكا هي أرض الميعاد ، وأن عليهم الهجرة إليها كما هاجر بنو إسرائيل سابقا .

والهجرة هنا هي رجاء وأمل ، وبالنسبة لهم كان الإيمان هو الدافع إلى الرجاء ، فالفرد يعيش على رجاء القيامة والحياة الآخرة بالنسبة للمسيحيين عامة ، لكنه عند هؤلاء رجاء المملكة المسيحية المنتظرة بالنسبة للمؤمنين بالملك الألفي الذين يوقنون بصيرورة العالم أجمع إلى المسيحية ، ومن ثم مجيء المسيح وحكمه معهم ألف سنة .

وقد وجد المتطهرون الأوائل في أمريكا أرض الميعاد التي سيقيم فيها الله للمؤمنين وطناً ومملكة للخير . وهذه الرؤية الدينية التي جعلت من الأرض الأمريكية أرضاً لها طبيعة دينية خاصة ، هي التي جعلت المهاجرين الأوائل من الأطهار يتميزون بحالة إيمانية خاصة ، فأرض الميعاد لأصحاب الميعاد ، لذلك بدا يظهر بين الأمريكيين الأوائل شعور بأنهم شعب مختار أو مميز . وهذا الشعور ما كان له أن يتأكد إلا من خلال التوحد مع الشعب اليهودي كتصور كتابي ديني وكشعب يوجد بالفعل .

لقد رأى الأطهار الأوائل من أنفسهم شعباً يهودياً جديداً أو امتداداً للشعب اليهودي .

ولم تأت هجرة المتطهرين إلى العالم الجديد في مسار واحد ، إنما سارت في اتجاهين مختلفين بما يشبه الكماشة . ففي الوقت الذي كان فيه أولئك يتوجهون إلى أمريكا ، كان **اليهود المارانوا** الذين تظاهروا باعتناق المسيحية قد اتجهوا إلى أمريكا الجنوبية هرباً من محاكم التفتيش في إسبانيا والبرتغال .

وبإطباق ذراعي الكماشة ، غزت العبرانية ، ممثلة في التهود البيوريتاني من جانب ، وفعل يهود أمريكا الجنوبية (*) من جانب ثان لتضحى القارة الجديدة مجتمعا مخترقا من قبل الفكر اليهودي ومن بعده الفكر الصهيوني .

كان المتطهرون واقعين تحت التأثير السحري إن جاز التعبير ، لهوس العهد القديم ، وكتابات موسى ، ورحلة الشقاء والعناء التي خاضوها خاصة في مصر ، وتيههم أربعين سنة في برية سيناء ، وقد كانتت أوروبا بالنسبة لهم كمصر أرض العبودية ، أما تلك الأراضي فهي أورشليم الجديدة .

وفي خطبته الشهيرة على ظهر السفينة «**أرابلا**» التي حملت المجموعة الثانية من المتطهرين إلى خليج ماساشوستس سنة 1630 شبَّه جون وينتروب من كانوا على ظهر مركبه بكل من الناجين من الطوفان على فلك نوح ، وبمن بعثوا أحياء من عظام نخرة في رؤيا حزقيال مضيفا : «**إنهم سيكونون الأسلاف الجدد للجنس البشري الجديد بعد أن تكون أوروبا قد قضت عليها خطاياها**» .

وبعده بوقت قصير ، ألقى صموئيل ويكمان ـ أحد كبار رجال الدين البروتستانت في أوج ازدهار التطهرية ـ موعظة في يوم انتخابات عامة ، أكد فيها للمستوطنين المتطهرين أن أورشليم كانت ، لكن نيو إنجلاند هي الموجودة الآن وهم « اليهود» كانوا ، لكنكم أنتم الآن شعب الله وعهد الله معكم ، فضعوا اسم نيو إنجلاند مكان اسم أورشليم .

وبدءا من هذا التاريخ ، تأصل لدى المهاجرين الأوائل قناعة أنهم هم الورثة

(*) هؤلاء كانوا قد حطوا رحالهم منذ فترة أطول بكثير ، وقد جاءوا هربا من أوروبا التي كانت لا تنفك تذيقهم صنوف العذاب .

الحقيقيون ، وأنهم إن لم يكونوا اليهود الحقيقيين ، فإنهم الصورة الأصلية لأولئك ورثة الملكوت ، إضافة إلى كل ما تعهد به الله لهم في العهد القديم .

وفي مدينة بوسطن بماساشوستس ، كان تأسيس مركز جديد للمتطهرين الجدد بمثابة النواة التي عليها ستقوم «**مملكة الله على الأرض**» . ويعبر عن ذلك القس جون كوتون في موعظته لتأسيس المستعمرة بقوله « **إن الرب حين خلقنا ونفخ فينا روح الحياة أعطانا أرض الميعاد «أمريكا» ، ومادمنا الآن في أرض جديدة فلابد من بداية جديدة للحياة ، نعمل فيها من أجل مجد بني إسرائيل ، هذا الشعب المختار**» .

ومن جهته ، يصوغ جون وينتروب في عظته الحديث عما يمكن أن يسمى العهد الأمريكي على منوال العهد بين إسرائيل ويهوه في سيناء ، فيكرر على مسامع المهاجرين من البيوريتانيين ما قاله موسى للإسرائيليين « **إنكم مقبلون على الأرض التي حلف الرب لآبائكم إبراهيم وإسحق ويعقوب أن يعطيهم إياها**» ثم أخبرهم بأن كل مصير أمريكا ومن فيها مكتوب في هذا العهد الذي أعطاهم فيه ربهم « **الأرض التي حلف أن يعطيها لآبائهم إبراهيم وإسحق ويعقوب**» .

كان الكتاب المقدس ـ كما يقول كليفورد لونجلي في مؤلفه «**الشعب المختار**» الجزء الأول ـ الفصل الثالث ـ في الحقيقة هو كتاب الثوريين في المستعمرات الأمريكية عندما اتسع النزاع مع البريطانيين حتى وصل إلى نقطة اللاعودة .

ولم يتضح هذا على نحو أفضل من اجتماع الكونجرس القاري الأول الذي اجتمع في سبتمبر 1774 عندما باتت الحرب وشيكة ، وعندما وصلت أنباء قصف المدفعية البريطانية لبوسطن إلى فلادلفيا حين قام القس جاكوب دويتشي بقيادة الصلاة في المجلس .

لم يكن جاكوب من البيوريتانيين ، لكنه اختار نصاً يمكن من فهمه القول بوضوح أن أمريكا تجند الكتاب المقدس(*) في صفها في الصراع القادم ، إذ يضع

(*) قضية توظيف الدين لخدمة الأغراض الاستعمارية قديمة قدم وجود الإنسان ، حتى قبل ظهور رسالات التوحيد وهو ما قاد لاحقا إلى الأصوليات الدينية .

أمريكا مكان إسرائيل ويطلب بأن يدافع عن أمريكا اليوم كما دافع أمس عن بني إسرائيل .

اختار دويتشي المزمور الخامس والثلاثين ، والذي يقول فيه داوُد «**خاصم يارب مخاصمي ، قاتل مقاتلي ، أمسك مجنا وترساً وانهض إلى معونتي . واشرع رمحا وصد تلقاء مطاردي . قل لنفسي خلاصك أنا ليخسر وليخجل الذين يطلبون نفسي ليرتد إلى الوراء ، ويخجل المتفكرون بإساءتي ليكونوا مثل العصافة قدام الريح ، وملاك الرب داحرهم ، ليكن طريقهم ظلاما وزلقا وملاك الرب طاردهم**» .

وينتهي المزمور بتذكر أن الذين اختارهم الرب لا ينالون مكافأتهم بالنصر على أعدائهم فقط ، وإنما بالرفاهية ، ولكن عليهم في مقابل ذلك أن يبقوا مؤمنين :

«**لا تسكت يا سيد ، لا تبتعد عني ، استيقظ وانتبه إلى حكمي ياإلهي وسيدي إلى دعواي ، اقض لي حسب عدلك يا رب يا إلهي ، فلا يشمتوا بي ، ولا يقولوا في قلوبهم هه شهوتنا ، لا يقولوا قد ابتعلناه ليخز وليخجل معا الفرحون بمصيبتي ليلبس الخزي ، وليقولوا دائما ليتعظم الرب المسرور بسلامة عبده ، ولساني يلهج بعدلك اليوم كله وبحمدك**» .

وبافتتاح الكونجرس القارئ سنة 1774م بتلك القراءة والصلاة التي أعقبتها ، قدمت أمريكا نفسها بصورة رسمية في مكان بني إسرائيل ، وبذلك تطرد انجلترا من هذا المكان ، وتدعم الزعم البيوريتاني في هذا الشأن ، بحيث يضم المستعمرات الثلاث عشرة جميعا ، وقد كان ذلك الامتياز هو حجر الزاوية الذي شيد أمريكا على فهم محدد لأغراض الرب .

ومنذ ذلك الحين فصاعدا ، لم يعد الشعب المختار هم اليهود ولا الكاثوليك ولا الإنجليز ولا سكان نيوإنجلاند فقط ، ولكن كل الأمريكيين . ومنذ ذلك الحين فصاعدا ، كانت الكينونة الأمريكية تعني أنك تحوز مكانة دينية متمايزة بوصفك واحداً من المختارين .

وعودة سريعة تقتضيها عملية الترابط في الأحداث إلى كريستوفر كولمبس ، ومرجعنا هنا هو الباحث اليهودي **فاينجولد** في كتابه «**صهيون في أمريكا**» وفي عودتنا جهة ما يخص العالم الجديد ، حديث مثير عن علاقة كولمبس باليهود ، ذلك أنه عندما فشل في إقناع ملك البرتغال يوحنا الثاني بإمكانية تنفيذ مشروعه الخاص بالإبحار غربا للوصول إلى الشرق ، اتجه إلى «**دييجو دي ديجا**» أسقف سلامانكا الذي كان من يهود المارانوا عارضاً عليه المشروع . وبعد تدارس المقترح مع اليهود المارانوا الآخرين وجه « **الأسقف** » المسيحي رسماً واسماً اليهودي نفساً وجسماً مقدماً عرض كولمبس إلى مجموعة من اليهود الذين أوصلهم اعتناقهم للمسيحية إلى مكانة عالية في إسبانيا وإلى يهودي الخرائط «**إبراهام زكوتو**» وكان أن تبنت المجموعة مشروعه ، وظلت تعمل على تنفيذه باستخدام اتصالاتها ، وبتقديم التمويل له خلال السنوات من 1491 إلى 1493 ولذا لم يكن غريبا أن يرسل كولمبس أول رسالة بنبأ أول اكتشاف له في رحلته الأولى إلى لويس دي سانتا نجل أحد قادة تلك المجموعة ، وقد كان اتساع نطاق اتصالات كولمبس بيهود المارانوا وتعضيدهم له ، أن السلطات الإسبانية شكت في أنه يهودي ، وهو ما يعلق عليه فاينجولد قائلا : «**وإن كان بوسع المرء أن يتشكك في نسب يهودي لكولمبس**» فمما لاشك فيه أن الدور الذي لعبه يهود المارانوا في جعل بدء رحلاته أمرا ممكناً كان دوراً لا سبيل إلى المجادلة فيه وإذا كان هؤلاء المارانوا قد طاب لهم المقام في دول أمريكا الجنوبية ، فإنهم ومن منطلق بعدهم عن إسبانيا الكاثوليكية قد بدأوا التفكير جديا في خلع أقنعتهم المسيحية تدريجيا والعودة إلى يهوديتهم الأصلية ، مما استجلب لهم نشاطا مكثفا من جانب محاكم التفتيش امتد من إسبانيا إلى المكسيك ، بحثا عن المهودين المفسدين لنقاء العقيدة ، أي من عرفوا باسم المسيحيين الجدد .

وقد كان من جراء الهجمات ضدهم ، أن بدأوا تيارا جديدا من الهجرة اليهودية من المكسيك إلى أمريكا الشمالية ، والمعروف أن أول محكمة من محاكم

التفتيش أنشئت في المكسيك سنة 1571 عندما بدا أن اليهود المتسترين وراء اعتناق المسيحية وكانوا قد تكاثروا وازداد نشاطهم وهرطقتهم ضد إيمان وتعاليم الكنيسة الرومانية الكاثوليكية التي لم تكن غافلة عن الخطر الذي مثلته العبرانية وهو ما اتضح في حركات الاحتجاج الديني في انجلترا وهولندا وألمانيا ، بل إن الكنيسة الكاثوليكية قد أدركت خطرا أعظم تمثل في اكتشافها لعبور عدد من الرهبان الذين كانوا في أصلهم ليسوا إلا يهود المارانوا إلى داخل المؤسسة الكنسية في الأرض الجديدة .

وفي نفس الوقت ، الذي كان فيه اليهود والمتهودون في جنوب القارة الأمريكية يهاجرون إلى شمالها ، كانت أعداد من اليهود الأوروبيين الذين لم يعتنقوا المسيحية أو يتظاهروا باعتناقها في الدول التي وجد فيها الفكر الاحتجاجي أرضا خصبة قد بدأوا يتوافدون على أمريكا الشمالية رأسا تحت تأثير ما ذاع بين الأوروبيين بشأن فرص الإثراء في تلك الأرض البكر الجديدة .

لذا فإنه أضحى من المؤكد ـ كما تشير الحقائق التاريخية المتوافرة التي كشفت عنها البحوث ـ حقيقة أن أولئك اليهود كانوا من بين مؤسسي الولايات الثلاث عشرة الأولى ، وهو ما يؤكده أيضا المؤرخ والكاتب هرتيزبرج(*) ومما يرجح صحته تشكيل خاتم الاتحاد ليحتوي على النجمة السداسية مكونة من ثلاث عشرة نجمة تمثل كل نجمة منها ولاية من تلك الولايات .

هل يعني ما تقدم شيئا ما ؟

في تقديري يعني أن المكون العبراني داخل في التشكيل البنيوي للولايات المتحدة منذ ظهورها ، ومساهم أكبر في تشكيل روحها ، وليس الأمر فقط بسبب غلبة العنصر البروتستانتي الأنجلو ساكسوني فحسب ، بل ومن دخول اليهود كشركاء مؤسسين إن صح التعبير في تكوين أمتها وتحديد مسارها على النحو الذي يعبر عنه فاينجولد بقوله : «اضطر اليهود أبناء أوروبا بالتبني الذين ازدرتهم

(*) Jimmy Carter "The Blood Of Abraham " New York 1986.

أوروبا خلال القرون من الخامس عشر إلى السابع عشر إلى الهجرة والبحث عن ملاذ يمكنهم أن يجدوا فيه منطلقا لمواهبهم وطاقاتهم .

وقد وجدوا ذلك الملاذ في أمريكا الأرض ، التي كان مقدرا لها أن تصبح الابنة المفضلة لأوروبا ، والتي كانت في حاجة إلى مواهب اليهود وطاقاتهم كيما تتمكن من تنمية مواردها البكر ، وهكذا يمكن القول من وجهة بعينها أن بين اليهود وأمريكا قضية مشتركة من مبدأ الأمر ، وأن ذلك التوافق شكل علاقتهما منذ التقائهما .

وبنفس الكلمات السابقة ، يعبر الباحث والصحفي الأمريكي بيترجروس في كتابه «**إسرائيل في ذهن أمريكا**» عن تلك القضية المشتركة بقوله : «**إن كلا من الولايات المتحدة وإسرائيل يضمهما عناق حميم في سياق علاقة خاصة غريبة**» وسواء كانت إسرائيل بالنسبة للولايات المتحدة أصلا استراتيجيا أو مشكلة استراتيجية ، فإنها تجسد مثلا أعلى مغروسا بعمق في الفكر الأمريكي منذ السنوات الأولى لظهور أمريكا في العالم الجديد .

وكما حدث في أرض فلسطين لاحقا انطلاقا من الإيمان بعقيدة الشعب المختار ، كان الأمر قد سبق وحدث في الماضي في أرض الميعاد الجديدة ، وكانت عقيدة الشعب المختار هي الآلية التي من خلالها سيتم التذرع للقضاء على الهنود الحمر أصحاب الأرض الأصليين .

وبعد الحرب الأهلية ونوال الاستقلال ، يصوغ جون تاوسوليفان نظرية «المصير المبين» عام 1856 ، والتي تعني أن الرب قدر للشعب المختار الأمريكي أن يقود العالم إلى نهاية التاريخ ، وأن المستقبل سيكون عصر العظمة الأمريكية بلا قيد .

وقد قاد هذا الاعتقاد بالمصير المبين إلى عدم الاكتفاء بالولايات الثلاث عشرة الأولى ، بل دعا إلى فتح بقية القارة الأمريكية حتى الغرب الأقصى منها تحت راية الرواد المكتشفين ، الذين تحركوا من الساحل الشرقي لاجتياح الغرب الأوسط ، ثم الغرب الأقصى حتى انتهوا من فتح القارة بنهاية القرن التاسع عشر . وكما

سبق القول ، فإن نظرية المصير المبين قد كفلت لأولئك المبرر الديني لإبادة الهنود الحمر ، واستبعاد الزنوج ، وضم فلوريدا وتكساس ونيومكسيكو وكاليفورنيا وألاسكا وهاواي ولويزيانا .

وفي السنوات الأولى لأمريكا المنتصرة في حربها ضد الإنجليز ، تطل إسرائيل وبقوة (وإسرائيل هنا هي المعنى الروحي وليس الدولة ، والتي لم تكن قد قامت بالطبع) ، وإليكم المشهد التالي الذي يدلل على ما نقول به «إذ في سنة 1790 احتفى جورج واشنطن احتفاء خاصا بالحاخام موسه سايكاس ، الرئيس الديني لتجمع المصلين اليهود بمدينة نيوبورت ، وأجلسه بين ممثلي المدينة من القساوسة البروتستانت وأعضاء المحفل الماسوني . وكان سايكاس قد قدم عريضة إلى جورج واشنطن ، جاء في ديباجتها «**اسمحوا لبني إسرائيل المنحدرين من صلب إبراهام ، أن يتقدموا إليكم بمحبتهم القلبية وإجلالهم لشخصكم ومواهبكم ، وأن يشاركوا زملاءهم مواطني نيوبورت في الترحيب بكم**» .

فما كان من چورچ واشنطن إلا أن رد على العريضة برسالة ضافية جاء في خاتمتها التأكيد على أن بني إسرائيل المنحدرين من صلب إبراهام الذين يسكنون هذه الأرض سيظلون محل إعزاز مواطنيهم من السكان الآخرين ، ولسوف يظل كل امرئ من هؤلاء وأولئك «**جالسا تحت كرمته وتحت تينته ولا يكون من يرعب أحدا منهم**» وهو استشهاد مأخوذ من أحد أسفار العهد القديم الخاص بميخا النبي .

ولم يقتصر الأمر على **چورچ واشنطن فقط** ، بل تعداه إلى خليفته **جون آدامز** الرئيس الثاني للولايات المتحدة سنة 1809 ، الذي أعلن بدوره أنه متمسك بأن العبرانيين قد فعلوا في سبيل جعل النوع البشري متحضرا أكثر مما فعلته أي أمة أخرى ، وجاء تمسكه هذا في رسالة كتبها إلى توماس جفرسون وهو ما أضاف إليه في رده على ملتمس من أحد اليهود الأمريكيين الجدد الرغبة في أن تحصل أمتكم اليهودية على كل مزايا المواطنة في كل بلد من بلدان العالم .

ولعل إعلان جون آدامز هذا كان الرحم الذي سيولد منه لاحقا الاعتراف بقيام دولة إسرائيل لاحقا بعد ساعة واحدة من إعلانها عام 1948 .

ويضيف آدامز «لقد فعل هذا البلد ـ **الولايات المتحدة** ـ الكثير في ذلك السبيل ، لكنني أود لو فعل ماهو أكثر ، فقضى على كل ضيق فكر في مجالات الدين والحكم والتجارة» .

وإلى أبعد من ذلك ، فقد اعتبر آدامز العبرانيين هم اليهود الذين عايشهم واعتبرهم «أمة» لا أتباع ديانة من أمم مختلفة ، وأنه بعد أن قال ذلك أكد أنه «**لولا اليهود لما تحضر البشر ، ولما عرفوا مفهوم التوحيد ، ولما عرفوا الله**» .

وفي هذه التأكيدات القاطعة التي ترسخت في العقل الأمريكي ، نطقت الإيمانية البروتستانتية الملتاثة على حد تعبير المؤرخة اليهودية بربارة توخمان بالعبرانية والتوراتية ورؤى العهد القديم وتصوراته .

ويقول شفيق مقار في هذا الصدد : إنه كما عرَّفت المؤرخة نفسها التاريخ استنادا إلى تعريف نابليون بونابرت له بالحكاية المختلقة المتفق عليها التي صنعت للخليقة من مبدئها تاريخا مقدسا ملأ أدمغة المؤمنين بحرفية العهد القديم وكونه «**كلام الله**» بأسطورية لا علاقة لها بالتاريخ ، كما وقعت أحداثه هكذا فعل هذا الفكر الجديد في الأرض الجديدة .

ولم يكن الأمريكيون الأوائل خالصي النية بشكل كامل في مضمار الرؤى التوراتية ، وهو ما يذهب إليه الباحث الأمريكي بيتر جروس في قوله : إن استخدام الأمريكيين الأوائل للصور والتصورات التوراتية لم يكن في الواقع أكثر من استخدام خطابي بلاغي ، الغرض منه ادعاء هوية توراتية للأمريكيين بوصفهم الشعب المختار ، تعبيرا عن الازدراء التطهيري العميق لما رأى المتطهرون أن كلا من الكنيستين الإنجليكانية والكاثوليكية اتصفتا به من دنيوية في المجتمعات الأوروبية التي خلفوها وراءهم .

لكن تبقى الإشارة إلى أن المثال اليهودي الذي كان المتطهرون الأوائل

يتطلعون إليه هو **اليهودي العبراني صاحب الوعد بالأرض** ، وليس اليهودي الذي عاصره أولئك الأمريكيون ، والذي ظهر في شكل **شيلوك** ومن على شاكلته من باعة وسماسرة ، وهو ما أطلق عليه تكافؤ الأضداد في روح أمريكا ، ودليل ذلك الرسالة التي وجهها توماس جفرسون الرئيس الأمريكي لمردخاي نوح أحد الزعماء النشطين في بداية عهد الجمهورية الأمريكية ، وفيها سلم جفرسون بأن المسيحية مدينة لليهودية ، إلا أنه قال إن التحيز المحزن الذي تظهرونه حيالنا حتى وإن كانت اليهودية هي الأقدم ، لا يمكن إلا أن يحز في نفوسنا . وفي تعليق له على أوضاع اليهود نعي عليهم كون الأخلاق تكاد تكون غير معروفة بينهم .

وربما أراد جفرسون القول إنه إذا ما أراد اليهود أن يقبلوا كشركاء وأنداد في المجتمع الأمريكي ، فإن عليهم أن يثبتوا جدارتهم لذلك على أساس معايير ذلك المجتمع ، لا على أساس تفوق ناشئ عن كونهم شعب الله المختار .

إلا أن الواضح أن منظومة الأسياد والكلاب المغلوطة التي اصطكها لوثر ، كانت قد فعلت فعلها ، وأصبح من المتأخر كثيرا وكثيرا جدا ، ذلك لأن الكلاب قد ارتضت الهوان الفكري ، ولم يكن من الأسياد الجدد سوى السيادة والريادة في أرض الموعد الجديدة .

الفصل السابع

روح الصهيونية في الأراضي الأمريكية

- الصهيونية الأمريكية تسبق كل الصهيونيات الأخرى
- الحريات الدينية الحديث الأول في الأراضي الأمريكية
- بداية هدم الجداريات اللاهوتية المسيحية الأصيلة
- تكريس فكرة إسرائيل شعب الله المختار
- الثقافة الأمريكية تعزز فكرة فلسطين كوطن لليهود

الفصل السابع

روح الصهيونية في الأراضي الأمريكية

لم يكن من الصعب بمكان ، أن تجد عواطف جديدة ـ كما يقول المؤلف الأمريكي «هربرت شنيدر» في مؤلفه « **تاريخ الفلسفة الأمريكية**» الصادر في نيويورك عام 1946 ـ طريقها إلى الأراضي الجديدة . كانت أمريكا حينئذ حدودا عالمية بمعنى مزدوج . فلقد جمعت في نشاط واحد تأملات وعواطف أجيال عديدة من المفكرين الأوروبيين ، وقد قادت الطريق أيضا نحو تجارب جريئة سياسية ودينية وأخلاقية ، لم يحدث أن شارك فيها العالم حتى ذلك العصر . فمما يحير مؤرخ الفلسفة شيئا ما ، أن يشير إلى«**جون آدمز** » و« **بنيامين فرانكلين**» و«**توماس جيفرسون**» و«**جيمس ماديسون**» كشخصيات عالمية ممتازة معبرة عن عصر الاستنارة ، ثم يضطر بعد ذلك ، إلى التسليم بأن كتاباتهم مليئة بالأفكار الشائعة ، وعقولهم محتشدة باللبس والخلط ، فلم تكن لديهم مناهج للتفكير ، وكانوا يستعيرون قصدا معظم الأفكار المتفرقة التي يطبقونها في ميدان العمل ، فهم خامة فقيرة لقاعة الدرس .

وواقع الحال ، أن ما أطلق عليه عصر الاستنارة الأمريكية قد فشل بمعنى ما . فإن أفكار هذا العصر سرعان ما نبذت أو فسدت ودفنت خططه للمستقبل وأعقبه رد فعل عنيف مشبوب ضد مثله العليا ومزاعمه .

ويرى شنيدر أن الشعارات العظيمة مثل الحقوق الطبيعية والحرية الدينية

والدين المتحرر والفكر الحر والتقدم العالمي والاستنارة ، قد أضحت أصواتا جوفاء وكم كان كشف هذه الأوهام شاملا .

كتب أحد المزارعين في فرجينيا حوالي سنة 1850 يقول : إنه ليرى أن المذاهب الديمقراطية «**سببت شرا أكثر مما كان يمكن أن يسببه معارضو الحقوق الشعبية إذا كانت قوتهم تعادل رغباتهم . . . إن حكومة قائمة على الاقتراع العام ، ستكون حكومة الشعب في أسوأ صورته . . .**» .

وفي احتفال أحد الأحرار الألمان في «سينسيناتي» بجيفرسون سنة 1859 ، كتب إبراهام لينكولن يقول : إن مبادئ جيفرسون منذ سنة 1859 ، هي تعريفات مجتمع حر ومبادئه ، ومع ذلك فقد نجح البعض في إنكارها واستبعادها ، فأحدهم يسميها متعجلا « **تعميمات براقة**» ، وآخر يدعوها في غلظة «**أكاذيب مفضوحة**» وآخرون يحتجون في خبث بأنها تنطبق على «**أجناس أعلى**» .

كانت هذه التعبيرات إيذانا بعودة الحكم الاستبدادي بهدامية ، كما يذهب إلى ذلك «**إلبرت برج** » في كتابه عن «**كتابات توماس جيفرسون**» الصادر في واشنطن عام 1903 .

والمؤكد أن بداية ما أسماه شنيدر الأصوات الجوفاء ، قد انطلق مع الدعوة إلى الحرية الدينية في الأرض الجديدة . وقد تجلت هذه الدعوة في رسالة توماس جيفرسون المشهورة «**لائحة بإقامة الحرية الدينية في فرجينيا سنة 1786**» . وفيها يذكر «**ينبغي أن نترك دين كل إنسان لاقتناعه وضميره ، ومن حق كل إنسان أن يمارس الدين طبقا لما يمليه عليه ضميره**(*) ، **وبمقتضى ما يقتنع به ، ذلك أمر لا التواء فيه** ، «ذلك لأن آراء الناس إذ تعتمد قط على البنية التي يرونها بعقولهم ، لا يمكن أن تتبع توجيهات أناس آخرين ، وهو أمر لا التواء فيه أيضا ، لأن ماهو هنا حق نحو الناس ، هو واجب تجاه الخالق . فواجب كل إنسان أن يختص الخالق

(*) لا يخفى أن هذه الدعوة لم تكن إلا لإفساح المجال لتفسير ما ورد في الكتاب المقدس تحديدا تفسيرا يتفق مع الهوى الشخصي وحسب المآرب التي تخدم أهداف هؤلاء وأولئك .

بمثل هذا الولاء فقط بقدر اعتقاده في أنه مقبول لديه . وهذا الواجب سابق في الزمن ، وفي درجة الإلزام معا على مطالب المجتمع المدني . فقبل أن يكون من الممكن اعتبار أي إنسان عضوا في مجتمع مدني ، لزم أن يعتبر من رعايا حاكم العالم ، وإذا كان يجب على كل عضو في المجتمع المدني حين ينضم إلى أية جمعية ثانوية أن يفعل ذلك دائما مع الاحتفاظ بواجبه نحو السلطة العامة ، فأولى من ذلك بكثير أنه يجب على كل إنسان يصبح عضواً في أي مجتمع مدني خاص ، أن يفعل ذلك مع الحرص على ولائه لملك السموات والأرض» .

وليس من العجيب أو الغريب إذن أن نتساءل عن منشأ التأصيل الديني ، والتأثيرات الثيؤلوجية في المجتمعات الأمريكية ، منذ نشأتها على اختلاف الأديان هناك ، وإن كانت المسيحية هي السائدة اسما ، فإن اليهودية المتصهينة سنراها هي الفاعلة في عمق هذا الكيان الناشئ والمتشكل بأيدي المهاجرين الأوائل .

وإذا كان توماس جيفرسون من أوائل الذين أرسوا دعائم حديث الحرية الدينية ، فإن صاحب البصمة الأولى في تقديري من المتحررين الأوائل الذي كان معولا قويا في هدم الجداريات اللاهوتية المسيحية الأصيلة ، هو **القس وليم بنتلي** (1759-1819) ولم يكن بنتلي سوى خليط من رجل الأعمال والناشر والقس ، إذ كان محفله مليئا بتجار البحار وملاك السفن الشراعية ، الذين جاءوا معهم بأخبار عجيبة من الشرق . وقد كان بنتلي جمهوريا من أتباع جيفرسون . يقول في إحدى عظاته التي مهدت لإعادة النظر إلى المسيحية «**لأية غاية طيبة زعزع المسيحيون دعائم دينهم بالحط من شأن الدين الطبيعي ، ذلكم أمر قد لا يكون من اليسير تحديده . . فالدين الطبيعي ما برح أروع دين**» أليس إحسان الشخص الوحشي أصفى بكثير من لعنات قسيس من منبره على الكنائس التي تختلف عن كنيسته .

ويمضي يقول «نحن نتعرف على إرادة الله بالدين الطبيعي والمسيحية تساعدنا فقط على معرفة أبعد بهذه الإرادة ، وفي ممارستها» . أما الخلاصة النهائية عند بنتلي فهي «**إن الله قد خص أهل إسرائيل بصداقته ليستخدمهم لنشر الدين**

العالمي»(*) . وليس بعد ذلك خلاصة تجعل من الفكر اليميني الداعم والمؤيد لإسرائيل ليس منهجا فقط ، بل مزاج عام ethos ومكون رئيسي من مكونات الروح الأمريكية منذ بدايتها حتى الساعة .

انتقل إذن الإرث الذي وضع لبنته الأولى مارتن لوثر من انجلترا البيوريتانية إلى عالمها الجديد ومستعمرتها أمريكا ، وفيها تجذر بأوضح صورة بل وأينع وأزهر دون جدال ، كما لم يكن هناك مكان آخر أو تربة أخرى أصلح لذلك . فقد باتت للإنجيلية سطوة أكبر بكثير مما تمتعت به في انجلترا ، وهي سطوة بلغت الإنجيلية بفضلها ذروة تمثلت في ثقافة شعبية واسعة الانتشار ، تدامجت فيها بوضوح كثير من المفاهيم الروحية والدينية المكونة للموقف الصهيوني . وهكذا ، فإنه كما يقول سيلنغ ألدر في كتابه «**أمريكا والأرض المقدسة**» ، وجد في التاريخ الأمريكي منذ بدايته الأولى ميلاً مسيحياً قوياً للاعتقاد بأن المجيء الثاني متعين أن يظل رهينا بإنشاء الدولة اليهودية التي يلتئم فيها شمل اليهود ، وهو ما سنفرد له فصلا كاملا لاحقا .

ورغم أن حقيقة هذا الاعتقاد لم تكن رأيا أجمع عليه كل اللاهوتيين المسيحيين في الولايات المتحدة ، فإنه شكل جزءا مهما من مكونات التاريخ الفكري الأمريكي ، وشمل شيوع تيار قوي ولحوح من التطلع إلى العصر الألفي السعيد في الفكر المسيحي الأمريكي .

ومن هذه المعطيات التراثية الإبائية ، انبجست الأصولية الأمريكية ، وكانت أهم الطوائف الدينية التي شملها التيار الأصولي في الولايات المتحدة من مبدأ الأمر طائفة المعمدانيين والبروتستانت اللوثريين وبعض الشيع المشيخية .

والواقع أن الأصوليين(**) الذين جمع بينهم الأخذ بالتفسير الحرفي للنبوءات

(*) هذه بداية الإرهاصات لتجويف المسيحية من معاني المحبة والبذل والعطاء والتضحية وما قصة الدين الطبيعي إلا المدخل لذلك .

(**) أغلب الظن أن الذي صك المصطلح الإنجليزي Fundamentalism أي الأصولية هو رئيس تحرير مجلة «**نيويورك وتشمان**» في افتتاحية عدد يوليو 1920 ، حيث عرف الأصوليين بأنهم **أولئك الذين يناضلون بإخلاص من أجل الأصول** .

الواردة بالعهد القديم ، والإيمان بحتمية الإحياء القومي للشعب اليهودي ، كانوا قد شكلوا جانبا كبيرا من البروتستانتية الأمريكية قرب نهاية القرن التاسع عشر ، وجعلتهم ـ صهيونيتهم التي سبقت صهيونية اليهود ـ ينظرون إلى اليهود بوصفهم مفتاح المستقبل لأمريكا وشعبها ، وإذا كان اليهود هم مفتاح المستقبل ، وإسرائيل أمل المستقبل ومنبع البركة لأمريكا ، لذا فلم يكن من المستغرب أن يكون أول قنصل أمريكي في القدس واحدا من دعاة هذا النهج ، وشيوخ ذلك الاتجاه من طائفة «الكويكرز» .

كانت إسرائيل هي الروح التي تضرب بجذورها هناك . ففي سنة 1776 عندما فكر قادة ذلك البلد الذي كان ناشئا آنذاك في تصميم شعار رسمي لهم ، اقترح بنيامين فرانكلين على المؤتمر القاري الذي اعتمد إنشاء الاتحاد ، تصميما لذلك الشعار ، حيث صور مياه البحر الأحمر ليعبر بنو إسرائيل ، ويغرق فيه فرعون وجيشه . غير أن توماس جيفرسون فضل رسما أقل جهرا وعدوانية من ذلك ، إذ اقترح أن يصور بني إسرائيل خارجين من مصر وراء موسى وأمامهم عمود سحاب وعمود نار ، كما هو مكتوب في سفر الخروج .

تقول ريجينا الشريف ، في الجزء السادس من «**الصهيونية غير اليهودية**» : إن التوراة ـ أي العهد القديم ـ قد أصبحت مصدرا لأسماء الأمريكيين الجدد ، مثل إبراهام وصموئيل وبنيامين ودليلا لتشريعهم ، وغدوا يطلقون على أطفالهم أسماء أسباط بني إسرائيل ، وأضحت مدنهم ومستوطناتهم تحمل أسماء بيت لحم وعدن والخليل ويهودا وسالم وصهيون بل والقدس .

وأخذت أسماء أماكن فلسطين التي تكررت في التوراة ، تطلق من جديد على المستعمرات المحتلة حديثا ، وتغلغل التماثل البيوريتاني مع الشخصيات العبرية التوراتية في الحياة القومية الحديثة في أمريكا المستعمرة ، وأصبح هذا الإرث جزءا لما يسمى بالتقاليد الأمريكية . وبنهاية الأطر اللاهوتية في القرن السابع عشر المعروفة باللاتينية saeculum theologium بدأت فلسطين كوطن لليهود تحتل مكانة خاصة في الثقافة الأمريكية ، وبقيت عودة اليهود إلى هذا الوطن التقليدي فكرة محببة ومبدأ مسلما به في كل من الأدبين الديني والشعبي؟

كـان الفكر الأمـريكي عن فلسطين في بدايتـه ، مسـتـمـدا من هذه المصـادر التقليدية والأدبية ، وقد اعتبرت كل النبوءات المتعلقة باليهود إشارات إلى إسرائيل الطبيعية ، أي الأمة اليهودية الروحية والدنيوية ، مقابل إسرائيل الروحية ، أي كنيسة المسيح التي تضم كل المسيحيين ، كما كانت تعلم الكنيسة الكاثوليكية . وقد كان الاعتقاد السائد الذي وصل إلى حد اليقين لاحقا ، هو أن الله كان يهدف طوال الوقت إلى غرضين متميزين .

ـ **أحدهما** : متعلق بالأرض وشعبها وأهدافها الأرضية (وهي اليهودية) .

ـ **وثانيهما** : مرتبط بالسماء وأهلها وأهدافها السماوية (وهي المسيحية) وبالتالي ، فإن حدود الأرض الموعودة لإبراهيم ستعاد خلال العصر الألفي السعيد ، وسيعود المسيح إلى مملكة سياسية ثيوقراطية قائمة على الأرض ، ولها حكومة على غرار الحكومة الوطنية القائمة .والحقيقة هي أن هذا الشكل المتميز للتفكير الألفي ، لم يجعل الطوائف التي تؤمن بالعصمة الحرفية صهيونية فحسب ، ولكنه أوجد زعماء يطالبون بعمل شعبي لإعادة اليهود إلى فلسطين . فطوائف الإنجيلية والعصمة والمعمدانية من ورثة البروتستانتية المعدلة في أمريكا ، لم تعد تنتظر إرادة السماء كما يرى حمدان حمدان في «**الألفية الثالثة ـ الفصل الرابع**» ، خاصة وأن النصر في حرب الاستقلال قد عقد لواءه لإرادة الإنسان قبل أي اعتبار آخر . فالشروع بعمل دنيوي لإرادة السماء ، كان يجلب نفسه إلى ساحة النشاط العلمي لنصرة اليهود في العودة إلى فلسطين .وليس من اليسير الإحاطة بكل الآراء التي ذهبت إلى دعم توطين اليهود في فلسطين ، إذ إنها بقدر اتساع الأراضي الأمريكية كثرت الدعوات وليس أهمها على الإطلاق دعوة المورمونيين أتباع القس جوزيف سميث ، الذين يطلق عليهم «**أصحاب التيه في الصحراء(*) الأمريكية**» الذين ارتفعت أصواتهم مشبهين أنفسهم في ضياعهم

(*) في إشارة إلى ما ورد في العهد القديم سفر الخروج بدءا من الإصحاح الثالث عشر وحتى نهاية السفر ، والذي يصف فيه كاتب السفر رحلة التيه والضياع في برية سيناء لمدة أربعين سنة حتى إن كل الذين خرجوا من أرض مصر ماتوا جميعهم بمن فيهم موسى ، فيما عدا يشوع بن نون وكالب بن يفنع .

بولاية يوتا وصحرائها بالشعب العبراني في تيهه أربعين سنة في برية سيناء ، وأطلقوا على نهر كولارادو اسم نهر باشان الوارد في التوراة .ويضيف بيتر جروس في كتابه «**إسرائيل في ذاكرة أمريكا**» أن القس الشهير جون ماكدونالد راعي الكنيسة الإنجيلية في مدينة الباني ، قد دعا من جهته الأمريكيين إلى وجوب مناصرة اليهود في حلمهم . العودة إلى أرض صهيون وهو ما يجب أن يكون على أيدي أمريكا التي ستقود الأمم ، وكان ذلك في العام 1814 .

وربما لا يعرف الكثيرون أن أول مستوطنة يهودية في فلسطين بنيت بأموال أمريكية ، فمن مدينة فيلادلفيا حيث نشطت الأصولية الإنجيلية ، قامت سيدة الإحسان «**كلورندا مينر**» وهي زوجة أحد أثرياء المدينة بدعوة مجموعة من رجال الدين المسيحي لزيارة الأراضي المقدسة عام 1850 ، وهناك قامت مع مجموعتها الدينية بشراء أراض بالقرب من مدينة يافا ، ووهبتها لخدمة الرب في إقامة مستوطنات يهودية فوقها . وبالفعل فإن سيدة المستوطنات الصهيونية الأولى «**بتاح تكفا**» أو جبل الأمل ، كانت قد بنيت فوق هذه الأراضي بأموال أمريكية ثم أعيد توسيعها في العام 1883 بعد الموجة الأولى من المهاجرين اليهود إلى فلسطين .غير أن أولئك وغيرهم الكثيرون لم يكن لهم تأثير رجل لم يعد أحد يذكره في أمريكا ، في حين أنه لا يزال موضع احترام وتبجيل لدى دولة إسرائيل التي عنيت بعرض نسخة العهد القديم المهداة منه إلى هرتزل في القبر الخاص بالأخير بالقدس ، كما استزرعت أجمة من الأشجار تخليدا لذكرى ذلك الصهيوني النزعة ، المسيحي الديانة ، والأشد ولاء للصهيونية الأصولية من مؤسس الصهيونية الحديثة نفسه . وكان الرجل «**ويليم بلاكستون**» المولود لأسرة مسيحية من أتباع الكنيسة «**الميثودية**» (المنهجية) . شغف بلاكستون منذ حداثته بقراءة العهد القديم ، وتتبع مافيه من تنبؤات بشرت بمجيء المسيح الأول(*) .

وفي **مجتمع الثروة والوفرة** ، أصاب بلاكستون نجاحا اقتصاديا وافرا من صناعة الإنشاءات ومن استثمارات أخرى ، وكما المنهجية الفكرية الأمريكية التي

(*) ضمّن بلاكستون كل معتقداته في كتاب نشره في نيويورك عام 1891 تحت عنوان «المسيح آت» .

تعتقد أن الله خص هؤلاء بنعمة الأرض الموعودة الجديدة بخيراتها الوافرة ، كان بلاكستون أيضا قد وقر في نفسه أن تلك الثروة لم تعط له لغير غاية ، وأخذ على عاتقه الإعداد للمجيء الثاني للسيد المسيح على الأرض .

وعلى غرار كتاب لوثر الأول «**يسوع ولد يهوديا**» بدأ بلاكستون رسالته بمؤلف عنوانه «**يسوع آت**» نشره سنة 1878 . وقد قدر لهذا الكتاب أن يصيب نجاحا عظيما ، حتى إنه أعيد طباعته عدة مرات ، وبيع منه أكثر من مليون نسخة وترجم إلى عدة لغات كان على رأسها ولا شك العبرية .

ولما كانت الميثودية ـ المنهجية هي ذاتها العصموية الحرفية ، التي أرسى أركانها جون وسلي ، والتي تؤمن بحرفية « **النص المقدس** » لكل ما ورد من آيات توراتية ، فقد أعلن بناء على ذلك « أن الله أبقى على اليهود لأن نيته اتجهت دائما إلى جعلهم من جديد «**شعبه الأخص**» شعبه المختار .

وإذا كانت مقولة «**فلسطين أرض بلا شعب**» قد نسبت إلى الكثيرين من حداثيي الصهيونية لاحقا ، إلا أنه بالعودة إلى العام 1888 ندرك أن بلاكستون هو أول من أطلق هذه الصيحة التي فعلت فعلها في الضمير الغربي طوال عقود كثيرة . ذلك أن الرجل الذي أراد أن يختبر بنفسه مقاصد الله كما يتصورها ، قام برحلة إلى فلسطين حاجا إلى الأرض المقدسة برفقة ابنته ، وهناك وصف الحال بقوله «**إن ما يراه في فلسطين هو شذوذ . فكيف تركت هكذا أرض بغير شعب ، بدلا من أن تعطى لشعب بغير أرض**» وكشأن البراجماتية الأمريكية حيث كل شيء مسخر لخدمة الأهداف الحقيقية التي تتمثل في الثروة والسلطة ، لم تكن توجهات بلاكستون العقائدية خالصة لوجه الله والمعتقد الديني ، إنما كانت في جزء كبير منها ستاراً لتحقيق مآرب أُخر ، والدليل على ذلك ، أنه بجانب الوازع الإيماني ، كان هناك عامل واقعي أرضي دفع بلاكستون للمطالبة «**بأرض لشعب بلا أرض**» تمثل في أن موجة الهجرة الكبرى الثانية لليهود الأوروبيين كانت قد بدأت إلى العالم الجديد ، فتكالب اليهود الروس على أمريكا التي كانت قد شهدت سابقا تكالب اليهود الألمان . وتقول الأرقام : إن الهجرة الثانية بدأت منذ

سنة 1881 ، حاملة موجات متتالية من هجرة اليهود ، وتراوح عدد المهاجرين في كل موجة منها ، ما بين 60 و 70 ألفاً وارتفع ذلك العدد في سنة 1891 إلى 110 آلاف وفي سنة 1892 إلى 137 ألفا ، ووصل عدد المهاجرين الذين بارحوا روسيا في سنة 1906 إلى أكثر من 200 ألف .

ونتيجة لتلك الموجات المتتالية من الهجرة ، بات تزايد عدد اليهود في الولايات المتحدة ملحوظا بشكل خاص ، فإحصاءات التعداد العام لسكان أمريكا توقفنا على أنه بينما ازداد إجمالي عدد السكان فيما بين سنة 1881 و 1920 بنسبة 112 ٪ ازداد عدد اليهود بنسبة 1300 ٪ أي أن معدل الزيادة كان أسرع 11 مرة .

وفي هذا أدرك **بلاكستون** رجل الصناعة قدر المنافسة التي يتعرض لها رجال الأعمال الأمريكيون أمثاله من جانب اليهود الألمان المهاجرين ، حتى إن ذلك التيار الجديد من الهجرة اليهودية أفزعه لدرجة جعلته يقولها صراحة :

«ما الذي سنفعله نحن الأمريكيين حيال اليهود الروس ، لِمَ لا يُعطَون فلسطين؟

لِمَ لا تُرد فلسطين إليهم ؟

فطبقا لتوزيع الله أرضه على الأمم - في زعمه - تظل فلسطين وطنهم ، وتظل ملكا لهم غير قابل للتصرف ، طردوا منها بالقوة الغاشمة ، وعندما كانوا يفلحونها كانت فلسطين أرضا مثمرة ، أقامت أود ملايين عديدة من بني إسرائيل الذين عملوا بكد في وديانها وعلى سفوح تلالها . لقد كانوا أمة زراعية منتجة ، بقدر ما ظلوا أمة ذات باع تجاري عظيم ، وكانوا مركزا للحضارة والدين ، فلمَ لا تضطلع الدول الكبرى التي أعطت بلغاريا للبلغار وصربيا للصرب بإعَادة فلسطين الآن لليهود ؟

ولكي تترجم هذه الأفكار إلى واقع عملي ، فقد قدم وليم بلاكستون عريضة إلى الرئيس الأمريكي **بنيامين هاريسون** في الخامس من مارس عام 1891 ، دعا فيها إلى تنفيذ رؤيته المتعلقة بتوطين اليهود في فلسطين .

لم يكن بلاكستون بمفرده ، بل جمع في عريضته توقيعات نحو 413 من كبار الأمريكيين المسيحيين البارزين ، كان من بينهم عميد أسرة روكفلر آنئذ جون د . روكفلر ، وكبير قضاة المحكمة العليا ، ورئيس مجلس النواب بالكونجرس وعدد كبير من أعضاء مجلس الشيوخ ، وقساوسة مختلفو الاتجاهات البروتستانتية . كانت العريضة مبنية على أرضية إيمانية مشتركة بين كل أولئك الموقعين عليها ، سواء منهم رجال الدين أو رجال السياسة . وعلى أرضية سياسية تمثلت في قناعة لدى بلاكستون ومن وقعوا على مظلمته بأن الدول الأوروبية الكبرى التي انتزعت بلغاريا والصرب من ممتلكات الإمبراطورية العثمانية كانت من ناحية مؤمنة بـ «**حق اليهود الذي لا يقبل التنازل في وطنهم فلسطين** ، ومن ناحية أخرى ، **غير مشتاقة إلى أن تستقبل على أراضيها أعداداً متعاظمة من أولئك اليهود ليزاحموا مواطنيها**» .

ولكي يضمن بلاكستون السيطرة التامة على ذهن الرئيس الأمريكي هاريسون ، كان لابد من استعارة صورة من الصور التوراتية التي تحدث عنها أشعياء النبي وهي صورة **الإمبراطور الفارسي قورش** ، الذي أطلق عليه «**مسيح الرب**» الذي سمح بعودة بني إسرائيل من السبي البابلي إلى بلادهم بعد مئات السنين ، والذي قال فيه أشعياء في نبوءته إن يهوه بارك «**مسيحة قورش الذي أمسك بيده وداس أمامه أمماً ، وفتح أمامه المصاريع ، وجعل الأبواب لا تغلق ، وأعطاه ذخائر الظلمة وكل كنوز الأرض الخبيئة**» ، ولعلنا هنا نتساءل ماذا كان قصد بلاكستون من هذا الاستشهاد ؟

والإجابة هي محاولة الربط بين البركات التي تمتع بها قورش ، والتي يمكن أن تصيب أمريكا من خلال «**عمل الرب يهوه على الأرض**» بإنشاء دولة إسرائيل وتأمين بقائها ، وهو ما سيرتبط في الذهنية الأمريكية لاحقا بأسباب البركة والوفرة والثروة والقوة والمنعة لأرض الميعاد الجديدة ، وبخاصة أنه طوال 24 قرنا لم تتمكن أمة من عون إسرائيل في العودة إلى أرضها ، فلِمَ لا تغتنم أمريكا الفرصة لتحقيق مرامي الله فيما يتعلق بشعبه المختار ؟

وكما هو واضح، فإن النسق الفكري لبلاكستون، كان يقتفي أثر لوثر المعترف في أواخر أيامه بأن «**اليهود عبء ثقيل، ومصيبة كبرى، فلمَ لا يعودوا إلى فلسطين**». والحقيقة التي لايمجها سوى الغافلين، هي أن بلاكستون كان مدفوعا إلى الدعوة لإعطاء فلسطين لليهود بدافع وطني لا أكثر، غير أن ذلك الدافع الوطني - أي الرغبة في جعل التئام شمل الشعب المختار على أرض بعيدة هي فلسطين - كان تعبيرا عما سبق الإشارة إليه من ازدواجية موقف تكافؤ الضدين(*) من اليهود لدى أنصارهم من المسيحيين المخترقة أفكارهم بالصهيونية.

فأولئك الأتقياء كانوا صهيونيين وهذا وارد من عرض ما آمنوا به، لكن صهيونيتهم كانت على حساب الغير لا على حساب أوطانهم، فلتعط فلسطين لليهود لا كاليفورنيا على سبيل المثال كوطن لهم. وفي هذا كانت مشروعيتهم مستمدة من «**النبؤات**» التي لا تدحض كما هي واردة حرفيا في العهد القديم.

وعلى نسق بلاكستون ومن نهج نهجه، كان الهوس البيوريتاني الضارب بجذوره في الأرض الجديدة يجعل من أولئك «**ملكيين أكثر من الملك**»، كانوا ولا يزالون أشد وأكثر صهيونية من الصهيونيين أنفسهم.

وفي هذا الإطار، لم يكن من المستغرب أنه عندما عقد مؤتمر بال سنة 1897، وتأسست المنظمة الصهيونية اليهودية، وأعلنت عن برنامجها وذاعت أنباء اختلاف وجهات النظر بين المؤسسين، أن اتخذ المستر بلاكستون وغيره من المؤمنين بالفكر المخترق جانب الموقف المعارض لتساهل تيودور هرتزل. وكان ذلك المؤتمر وما دار فيه من جدل ونقاش، ذروة لما سبق عقده من تصادم الاتجاهات واختلاف المواقف.

وإذا كان القرن الثامن عشر لم يودع زمانه ومكانه إلا وكانت قد انتشرت في القارة الجديدة تشكيلة من الطوائف والشخصيات والكنائس والأحزاب .. ما يمكن وصفه بالتيارات الأصولية في المجتمعات الأوروبية، فإن القرن التاسع عشر كان عبارة عن إعلان تجلت فيه الروح الصهيونية السابقة على نشأة الصهيونيين

(*) نظرية تكافؤ الأضداد في الروح الأمريكية، أي القبول بالشئ وعكسه في ذات الوقت.

أنفسهم ، فمن **«وليم بلاكستون»** إلى القس **«وورد غريسون»** مرورا **«بجون نلسون درابي»** كانت الدعوة إلى أرض الميعاد بمثابة نبوءة تحقق ذاتها بذاتها ، سواء أكانت ذات صلة بنبؤات العهد القديم ، أم لها مصلحة اقتصادية تتجلى في الروح البراجماتية الأمريكية التي تنشد التفوق الاقتصادي وتحرم على الآخر ـ اليهودي التمتع بخيرات بلادهم ، حتى وإن كان الحديث عن هذا الآخر بوصفه المختار من الله . والشاهد أن القضية تعدت الحدود الإيمانية المسيحية التي كان لوثر أبو الأصولية يقول بأن هدفه الرئيسي من الاقتراب من اليهود ، هو إرجاعهم إلى المسيحية ، ذلك لأنه كما يرى بيتر جروس « **إن الرمز اللاهوتي أصبح مخططا سياسيا . وبتتابع العقود ، تعاظمت استجابة المؤمنين للدعوة**» ويدلل على ذلك بقول القس الإنجيلي ليفي بارسونز الذي أشار عشية رحيله إلى الأرض الموعودة إلى أنه في صدر كل يهودي تعتمل رغبة لا سبيل إلى التغلب عليها للعودة إلى الأرض التي أعطاها الرب لآباء اليهود والإقامة فيها ، وهي رغبة لن يمحوها حتى التحول إلى المسيحية ، **«وما علينا إلا أن ندمر الإمبراطورية العثمانية ونخلص فلسطين من حكم المحمديين «المسلمين» وإذ ذاك سيقتضي الأمر معجزة لمنع عودة اليهود إليها من أربعة أركان المعمورة عودة فورية »** .

لم تعد إعادة اليهود إلى فلسطين مشروطة بتحولهم إلى المسيحية أو مرتبطة بتحول كهذا . بل إن **«أرنو جيبيلين»** أحد الزعماء الرواد لتيار الأصولية المسيحية في أمريكا ـ وقد امتد به العمر إلى أن أوغل في القرن العشرين ـ أعلن عن إيمانه بأن اليهود يجب أن يعودوا إلى فلسطين ، حتى وإن عادوا بغير إيمان أي حتى وإن كانوا ملحدين ، باعتبار أن عودتهم قضية جوهرية وتستحق التفاني في خدمتها لذاتها ، أما تحولهم إلى المسيحية ، فإنه يمكن أن يحدث فيما بعد وعلى يد المسيح عندما يجيء(*) .

(*) هذه الأقوال تدلل على الفشل الذريع لخطة مارتن لوثر الأصلية التي كانت ترى ضرورة إيمان هؤلاء بالسيد المسيح في تلك الأوقات قبل انتظار المجيء الثاني .

وقد تحقق ما قاله أرنو جيبيلين الأصولي المسيحي الأمريكي عن وجوب إعادة اليهود إلى فلسطين ، حتى وإن كانوا ملحدين . فالصهيونيون اليهود أنفسهم ، يعترفون صراحة بالإلحاد ، في الوقت الذي لا يكفون فيه عن الاستشهاد بكلام الله ، دعما لدعوتهم الاستعمارية الاستيطانية التي لا تنتهي حدودها عند حدود فلسطين .

وفي ظل هذا المناخ السائد ، كان من اليسير أن تدفع الولايات المتحدة دفعا جهة إنشاء الوطن ، وأن تتفق مع انجلترا البيوريتانية في الأصل على إتمام المواعيد ، وأن تيسر العسير ليصير سهلا لتشق البحار والمحيطات عبر مؤسساتها وآلياتها السياسية والعسكرية والثقافية والاقتصادية ، وقبل كل هذه وفيها وبعدها تظل الرؤى الدينية منحولة كانت أو حقيقة لا يهم ، فالمهم والمهم فقط هو قيام دولة يهودية على الأرض الفلسطينية .

الفصل الثامن

الصهيونية تسكن البيت الأبيض

- العمل الديني يتجذر في البيت الأبيض
- اليهود يدركون نجاحات كبيرة في الأراضي الجديدة
- ثراء وسيطرة اليهود وتأثير ذلك على الرئيس الأمريكي
- كذب منظومة الديموقراطية في ظل الضغوط اليهودية
- استعراض لبعض رؤساء أمريكا بدءاً من جورج واشنطن مع تحليل لضغوط اليهود على كل رئيس أمريكي وماذا قدم من خدمات لهم

الفصل الثامن

الصهيونية تسكن البيت الأبيض

كنت أنتوي التعرض في هذا الجزء ، إلى إرهاصات قيام الدول الإسرائيلية على أرض فلسطين ، انطلاقا من المعطيات السابقة ، إلا أنني وجدت أنه من الأجدر أن أقوم بالتعرض إلى حالة الرؤساء الأمريكيين ، وهو ما أطلق عليه في العديد من المؤلفات « **الصهيونية الساكنة ثم العاملة في البيت الأبيض** » .

وفي هذا المبحث ، نعود إلى عدة مراجع أصلية من أهمها «**المسيحية والتوراة**» لشفيق مقار ، و«**أسطورة الجنس اليهودي**» لرفائيل باتاي ، إضافة إلى مؤلف ل . موبر مان«**من اليهودي في تاريخ أمريكا**» ، وليلى ستيوارت «**سؤال غير مريح ليهود مريحين**» وغيرهم من المؤلفين والمؤلفات .

وواقع الأمر ، هو أن العامل الديني الذي كان قد تجذر ، وجد في البيت الأبيض الوجهة النهائية لمقاليد الأمور ، فكان ولابد من السيطرة الإيديولوجية عليه ، وإذا كانت هناك عوامل غير دينية قد أثرت في تشكيل هوية الساكن في البيت الأبيض ، إلا أن العامل الديني كان هو السائد والغالب ، وإذا أضفنا إلى المكون الديني النجاحات الاقتصادية المتعاظمة لليهود هناك ، والمكانة الاجتماعية التي ترتبت على الثراء والسطوة ، لفهمنا كيف تستطيع عوامل متداخلة ومتعددة التأثير على الجالس في البيت الأبيض ،وكيف يمارس ديمقراطية تحت ضغوط التجمعات اليهودية .

وإذا كان ما هو موجود من تاريخ رؤساء أمريكا يشير إلى أنهم لم يُظهروا الود

والصداقة تجاه اليهود فحسب ، بل واضطلعوا بأدوار نضالية في مجال خدمة يهود الولايات المتحدة ، ومصالح اليهود في كل مكان بالعالم . نقول إن غير الموجود من صفحات ضائعة في التاريخ ، بالإضافة إلى ما لم تسمح ظروف البحث بالاطلاع عليه ، أكثر مما هو موجود بكثير جدا . **ولتكن البداية مع الرئيس الأمريكي الأول :**

چورچ واشنطن (1789-1797)(*)

يعد چورچ واشنطن أول رئيس أمريكي ، عمادة أساسية في التأصيل للوجود الصهيوني في البيت الأبيض . كان واشنطن متدينا تقليديا إلى حد الهوس ، ممارسا لكل شعائر وطقوس العهد القديم . وقد تجلت آمال واشنطن في رسائله إلى اليهود المنتشرين في أنحاء أمريكا ، ويقول فيها « **آمل أن يظل الرب صانع المعجزات الذي خلص العبرانيين في الأزمنة المقدسة القديمة من غي المضطهدين المصريين وزرعهم في أرض الميعاد أن يسقيهم من ظل السماء ، وأن ينعم ذلك الرب القدير يهوه على كل من بالولايات المتحدة التي تأسست بقدرته ، بالبركات الدنيوية والروحية التي أنعم بها على شعبه** » .

وفي كلمة إلى جيشه سنة 1777 ، حث الجنرال واشنطن جنوده على أن « **يرقوا إلى المستويات الرفيعة التي كانت لجيش بني إسرائيل العظيم ، الذي ظل رافعا راية يهوه طوال أربعين سنة في القفر ، تحت هوية وإرشاد وقيادة أعظم وأحكم جنرال عرفه العالم طوال تاريخه** » .

جون آدامز (1797-1801)

يعد آدامز الداعي الرسمي الأول لقيام دولة يهودية في فلسطين قبل هرتزل بقرن كامل ، بناء على قوله « **أؤمن وأرغب** » أما الرغبة فهي جهة عودة اليهود ثانية إلى أرض يهوذا كأمة مستقلة ، وأما الإيمان الآني أؤمن بأن خبرة رجال الأمة اليهودية وأعظمهم استنارة قد ساهمت في تحسين فلسفة العصر .

(*) التواريخ تشير إلى الفترة الزمنية التي قضاها كل رئيس في الحكم داخل البيت الأبيض .

وإلى أبعد من ذلك ، يمضي يقول في رسالة له لتوماس جيفرسون الرئيس الأمريكي القادم ، وحتى لو كنت ملحدا وكنت أؤمن بالقدر الأعمى متصرفا أبديا في شؤون البشر ، لكنت حريا بأن أؤمن بأن القدر قضى بأن يكون اليهود العامل الجوهري الأعظم والأفعل في جعل أمم العالم أمما متحضرة .

ويذكر لآدامز أنه عضد اقتراح توماس جيفرسون بجعل شعار أمريكا هو رسم يصور بني إسرائيل خارجين من مصر تحت قيادة موسى ويهوه ، يتقدمهم كعمود سحاب وعمود نار ، والرمز عنده يعني «**علو بني إسرائيل الذين مثلوا مشعل النور الذي قاد البشر إلى درب الحضارة**» .

توماس جيفرسون (1801-1809)

لم يكن جيفرسون أقل تدينا من غيره و تأثراً بالعقلية الأمريكية البروتستانتية ، ولذلك لم يكن من المتوقع أن يشذ عن غيره أيا كانت نظرته إلى من خالطهم من يهود .

ويحسب لجيفرسون أنه كان أول رئيس أمريكي يعين يهوديا في منصب عام ، عندما اختار **روبين أتينج** سنة 1801 ليكون رئيسا لشرطة ولاية ميريلاند .

ورغم تدين جيفرسون الواضح ، فإنه كان قد عمل بقوة على تحريم التعليم الديني في المدارس والجامعات ، لأنه كما قال في رسالة إلى أحد قادة اليهود في تشارلستون ، وجد من الإمعان في القسوة والتمادي في الظلم الواقع على هذه الطائفة المضطهدة (اليهود) التي عانت الكثير ، أن يفرض على أبنائها منهجاً من الدراسات اللاهوتية لا تسمح لهم ضمائرهم بالإقبال عليه .

وفي رسائل إلى قادة اليهود بمدينة ريتشموند يقر جيفرسون بأن «**طائفتكم اليهودية هي الأم والمنبع لكل طوائف المسيحية**» وأن كل من يضطهد أو يقهر اليهود لم يتعلم شيئا مما علمهم إياه من يدعون بأنهم يجعلون العهد القديم مثالا يحتذونه في مبادئهم وممارساتهم .

جيمس ماديسون (1809-1817)

كان ماديسون رجلا شديد التدين أيضا ، اتجه في بداية حياته إلى السلك

الكنسي قبل أن تجتذبه السياسة ، ولذا امتاز على غيره من الرؤساء الأمريكيين المؤمنين بإجادته للغة العبرية وتبحره في آدابها ، أي العهد القديم وكتابات الكهنة والأحبار اليهود . وعلى الجانب الآخر لحياة ماديسون ، تجلت الضغوط المالية والإعلامية اليهودية مبكرا من قبل اليهود الناجحين اقتصاديا ، فماديسون عندما دخل البيت الأبيض كان محملا بدَين شخصي كبير للممول اليهودي **حاييم سالمون** ، الذي عنى بأن يخف إلى نجدة السياسي الأمريكي الصاعد صديقه «**چيمس ماديسون**» ماليا كلما تعرض ذلك الصديق لضائقة أو أخرى ، وهو ما اعترف به ماديسون بقدر كبير من العرفان بالجميل .

لذا فإن رد الجميل كان بداية الوجود اليهودي في الدبلوماسية الأمريكية ، حيث عين ماديسون سنة 1813 الداعية اليهودي النشط موردخاي نوح لمنصب القنصل العام الأمريكي في تونس .

كان المال اليهودي من سالمون وغيره والدعم الإعلامي من نوح الذي ترأس تحرير « **السيتي جازيت** » بمدينة تشارلستون بكارولينا الجنوبية من العوامل المهمة التي ساعدت ماديسون على الفوز بالرئاسة مرتين متتاليتين في 1809 ، 1813 .

والمؤكد أن مشهد چيمس ماديسون في الحياة السياسية الرئاسية ، كان البذرة الأولى للدور بالغ الفعالية الذي يلعبه المال اليهودي ، وتعززه السطوة اليهودية على وسائل الإعلام وأدوات صنع الرأي في تسيير وتوجيه العملية الديمقراطية في الولايات المتحدة منذ ذلك الوقت المبكر على كل الأصعدة لا على الصعيد الرئاسي فحسب .

كان المال اليهودي نشطا منذ البداية على كل الأصعدة ، شخصية وعامة ، ولم يكن نشاطه خيريا دائما كما كان في حالة الرئيس ماديسون ، لكنه كان فعالا في كل الأوقات . وبفضل دعمه لفعل العامل الديني ، ومن خلال إحكام قبضته على وسائط الإعلام وأدوات صنع الرأي كان من أسهل الأشياء وأكثرها طبيعية أن تصبح الصهيونية ساكنة البيت الأبيض الأمريكي من قبل ظهور الدعاة الصهيونيين بوقت طويل .

چيمس مونرو (1817-1825)

يذهب معظم المحللين السياسيين والمؤرخين العالميين ، إلى أن چيمس مونرو قد قدم خدمتين حقيقيتين لليهود على حد عال من الأهمية ، مازالت الحركة الصهيونية المعاصرة تتربح بفضلهما حتى الآن .

أولى الخدمتين العلاقات الأمريكية الروسية ، وثانيتهما إرساء حجر الزاوية الرئيسي في السياسة الخارجية الأمريكية . وعلى الصعيدين ، كان المهندس الحقيقي للتحركات الأمريكية جون كوينسي آدامز وزير خارجيته الذي اكتسب موقعا متميزا لدى اليهودية العالمية ، أثناء قيامه بمهام منصبه كممثل لبلاده لدى البلاط القيصري الروسي ، بسلسلة من الإدانات القوية التي ضمنها تقاريره إلى الخارجية الأمريكية في عهد ماديسون ابتداء من 1809 ، على ما تحدث عنه في تلك التقارير من اضطهاد لليهود الروس .

وعندما تولى آدامز وزارة الخارجية في إدارة مونرو ، أرسى في أسس السياسة الخارجية الأمريكية المبدأ الذي مازال معمولا به حتى اليوم في مجال الابتزاز الدبلوماسي ، والتدخل في الشؤون الداخلية المحضة للدول الأخرى ، تحت اسم «**الحقوق الإنسانية**» . بل يمكن القول إن مونرو هو الذي أرسى المسار الدائري لأمريكا ، والذي من خلاله اضطلعت واشنطن طوال تاريخها حتى اليوم في مجال السياسة الخارجية . وعلى هذا المدار كانت الحرية والخوف عليها والسلام وتحقيقه والأمن وإدراكه ، هي الركائز الأساسية للمسار والبعث على التدخل في شؤون الآخرين .

جون كوينسي آدامز (1825-1829)

لم يكن كوينسي آدامز مهندس السياسة الخارجية الأمريكية في عهد مونرو سياسيا فحسب ، بل كان أيضا وبشكل أساسي منخرطا في النشاط التبشيري . فقد كان الرجل بروتستانتيا شديد الإيمان بأن الصلاح في حالة كل مشتغل بالسياسة والحياة العامة ، هو القيام بعمل الله على الأرض ، أي تنفيذ رغباته

المعلومة جيدا للمؤمن . كان آدامز يؤمن بأنه لا جدل ولا جدال في كل ما جاء في العهد القديم ، لذا فإن الرجل كان يعمل على تحقيق مخطط الله عن طريق إقناع اليهود بتغيير رأيهم ، فيما يتعلق بمجيء المسيح من وجهة نظرهم ، ودعوتهم لقبول المسيح الذي جاء من قبل ، ثم التعجيل ببدء العصر الألفي السعيد الذي سيعود فيه ثانية إلى الأرض .

وليس أدل من أن آدامز كان علامة مؤكدة ، أنه كان الخلاص لكل البشر ونادى بتجمع كل يهود العالم كأمة في فلسطين وأورشليم المقدسة .

وهنا يقول الكاتب والباحث بيتر جروس «**إنه لم ينقض وقت طويل قبل أن يتحول الرمز اللاهوتي إلى مخطط سياسي**» وفي تلك المسيرة من الرمز الديني إلى المخطط السياسي ، لعبت الصهيونية الساكنة في البيت الأبيض من بداية أمره ، ممثلة بالأخص في شخص الرئيس مونرو والرئيس جون كوينسي آدامز دوراً لا سبيل إلى إنكار أهميته ، فبجانب الإيمان الديني الحار ، أرسى الاثنان معا الأساس الأيديولوجي الذي اضطلعت الولايات المتحدة وبموجبه بدور الدولة القائمة بعمل الله على الأرض ، والمكلفة من جانب العناية الإلهية بتحقيق خلاص «**الأمة اليهودية**» وقيادة النوع البشري كله صوب تحقيق غرض الله من خلق العالم .

أندرو چاكسون (1829-1838)

كان چاكسون بدوره من الرؤساء الذين وقعوا تحت مظلة الرؤية العبرانية ، وقد عبر عن انتماءاته لما يجب أن تفعله أمريكا من أجل اليهود الذين طالما كال لهم المديح في كتبه وكتاباته . ولعل أفضل من بلور فكر چاكسون هو الصحافي «حزقيا نايلز» الذي كان بوقا لجاكسون والذي نراه يقول «**لمَ لا يكون لليهود وطن قومي وبلد يخصهم ؟ ومؤكدا أنهم متى « أعطوا» ذلكَ الوطن سيحققون المعجزات**» نظرا لما قرر أنهم يتمتعون به كجنس من مواهب عظيمة تضعهم موضع الأمراء من كل من عداهم ، وما باتوا يتمتعون به من ثراء وحماسهم الديني الذي مكن أسلافهم من القيام بأعمال ممعنة في البسالة والجرأة ، **فإن** النتائج التي سوف تترتب على «**إعطائهم**» ذلك الوطن ستتجاوز كل ما يمكن أن

يتصوره أي متكهن بالنتائج ، فصحاري فلسطين المجدبة ستنضر وتورق وتزهر وتتفتح كالورد ، وأورشليم التي باتت في الحضيض ، سوف ترتفع ثانية وتضارع أكبر مدن العالم جمالا وثراء وروعة .

مارتين فان بورين (1837-1841)

يحسب لهذا الرئيس ، أنه استن تقليد التدخل الأمريكي فيما وراء البحار ، انتصارا لـ «**الجنس اليهودي المضطهد المقهور**» وقد استن فان بورين هذا التقليد يوم أن تدخل هو ووزير خارجيته المستر جون فورسايث للدفاع عن **يهود دمشق** ، **الذين اتهموا بذبح أطفال ورجال دين مسيحيين لاستخدام دمهم في صنع فطير عيد الفصح اليهودي** .

كان فان بورين يدرك ما قد وصل إليه اليهود من سطوة في بلاده على وسائط الإعلام وصناعة الرأي ، لذلك اعتبر وزير خارجيته أن التقارير الواردة من دمشق ، هي مثال سيئ على التعصب والخرافات الشائعة في العالم القديم ، وهي أدوات سعت الولايات المتحدة إلى أن تظل بمنأى عنها ، فوق أن العملية كلها فاحت برائحة التآمر - من وجهة نظره - الناجم عن التنافس بين القوى الاستعمارية المتهافتة على حيازة مناطق نفوذ في أقاليم الإمبراطورية العثمانية الآخذه في الانهيار .

بل إنه وجه الاتهام مباشرة للفرنسيين الذين أوعزوا إلى «**المحمديين**» «**المحليين**» بتوجيه تهمة القتل الشعائري المكذوبة هذه إلى اليهود ، عملا على تعزيز وضع فرنسا كحامية للمسيحيين المحليين .

ويليم هنري هاريسون (1841)

لم يعمر هاريسون طويلا في منصبه كرئيس للولايات المتحدة ، **ذلك لأنه** مات بعد شهر واحد من توليه منصبه ، لذا فإنه لا تذكر له إنجازات قوية لصالح «**الأمة اليهودية**» الوليدة ، غير أنه وهو في منصب الحاكم الأمريكي للمناطق الهندية ، كان قد أقام علاقات وثيقة بعدد من التجار اليهود ، الذين تولوا عمليات

التموين والإمداد لقواته إبان عمليات إبادة الهنود الحمر ، وأفاد من تلك العلاقة دعما ماليا لحملته الانتخابية . كان حريا ـ لو امتد به العمر في الرئاسة ـ أن يعبر عن امتنانه لهم بمثل ما فعل من سبقوه ، ومن جاءوا بعده من رؤساء أمريكيين .

جون تايلر (1841-1845)

يعد عهد تايلر نقطة جوهرية في سياق الوجود اليهودي الفاعل في الولايات المتحدة ، ولا نغالي إن قلنا منعطفا رئيسيا ، ذلك لأنهم في بدايات أيامه ، كانوا قد أصبحوا قوة مؤثرة اقتصاديا وماليا وإعلاميا ، بقدر تجاوز بكثير نسبتهم العددية إلى مجموع السكان .

أما الأهم من ذلك ، فإنهم كانوا قد قرروا ـ استنادا إلى ذلك الوضع ـ أن الوقت الخاص بالمداهنة قد ولى ، وأن مرحلة جديدة إن لم نطلق عليها «**مواجهة**» فهي تأكيد «**للذات**» في أضعف الأحوال قد حانت ، لذا فإن تعاملاتهم مع الرئاسة والرئيس الأمريكي قد تغيرت ، والدليل على ذلك ، أن جون تايلر الذي زل لسانه ذات مرة حينما قال عن بلاده : إنها أمة مسيحية ، قد تلقى على الفور رسالة احتجاج شديدة اللهجة من المستر يعقوب حزقيال أحد زعماء اليهود بولاية فيرجينيا ، فسارع بالاعتذار . مؤكداً أنه لا يكن لليهود إلا أعمق الاحترام وأصدقه ، ولم يكتف بذلك ، بل كان يتحين الفرصة ليكيل لهم المديح .

جيمس نوكي بولك (1845-1849)

تعد سنوات رئاسة بولك ، التجربة الميدانية الأولى لتشكيل الجيش في إسرائيل بعد نحو قرن من الزمان . ففي رئاسته ، تشكل في الجيش الأمريكي أول فوج كل جنوده وضباطه من اليهود ، عرف باسم «**فوج الحرس اليهودي الأول**» ببلتيمور بولاية ماريلاند سنة 1846 ، في غمار حملة طلب المتطوعين لخوض حرب المكسيك .

وهي التجربة التي تكررت عام 1944 ، حينما تشكل اللواء اليهودي في الجيش البريطاني . ويحسب لبولك أيضاً أنه أعاد تجربة تعيين قناصل يهود للولايات المتحدة .

زخاري تايلور (1849-1850)

قدر لتايلور أن يوثق علاقاته عن طريق تعامله مع من عملوا منهم بالتوريد والإمداد لقواته إبان الحرب المكسيكية ، التي برز فيها لانتصاره في معركة بوينا فيستا . ورغم أنه لم يعمر سوى سنة واحدة كرئيس لبلاده ، فإنه حقق للمؤسسة اليهودية فتحا كبيرا ، إذ فتح لأول مرة أبواب البيت الأبيض لرجال الدين اليهود ، وعلى رأسهم الحاخام إسحق ماير وايز ، كما عين إبراهام جوناس أحد كبار منظمي بناي بيرث وصديق إبراهام لينكولن الحميم في أحد المناصب الكبرى بالحكومة الأمريكية .

ميلارد فيلمور (1850-1853)

من خلال اتصالات وايز بالبيت الأبيض منذ فتح تايلور أبوابه لكبار حاخامات اليهود ، وبفضل نفوذ إبراهام جوناس ، حققت المؤسسة اليهودية اختراقا جديدا وسعت به سابقة التدخل الأمريكي لصالح اليهود في الخارج إبان رئاسة فان بورين . إذ قامت المنظمة بمباركة من البيت الأبيض بحملة ضد معاهدة عقدت بين الولايات المتحدة وسويسرا ، سلمت الولايات المتحدة فيها بحق الكانتونات السويسرية السيادي في الامتناع عن السماح لليهود بالإقامة فيها ، حتى من كان منهم مواطنا أمريكيا . وكان الغرض من الحملة منع التصديق على المعاهدة في الكونجرس . واستجاب فيلمور للحملة ، فوجه رسالة إلى الكونجرس معلنا فيها اعتراضه الحاسم على المعاهدة على أساس أنه «**ليس من صلاحيات حكومة الولايات المتحدة بالقانون أو بالمعاهدات أو بأي إجراء رسمي آخر ، إرساء أسس أي تمييز بين المواطنين الأمريكيين بسبب اختلاف المعتقدات الدينية**» . وفي النهاية ورغم ما لحق بالولايات المتحدة من خسائر تجارية ، رفض مجلس الشيوخ بالكونجرس التصديق على المعاهدة ، وحققت المنظمات اليهودية سابقة أول انتصار لها في مجال السياسة الخارجية للولايات المتحدة .

فرانكلين بيرس (1853-1857)

كان معروفا عن بيرس تدينه وارتباطه باليهود واليهودية ، وفي زمانه أضاف

اليهود مكسبا جديدا يمثل قمة المكاسب حتى ذلك الوقت ، فقد فتح أبواب المحكمة العليا أمام اليهود ، بعرض تقدم به إلى يهودا بنيامين عضو مجلس الشيوخ عن ولاية لويزيانا ، بشغل مقعد من مقاعد القضاء بتلك المحكمة ذات الفعالية الكبرى في صوغ طريقة الحياة الأمريكية من خلال القانون ، لكن يهودا بنيامين رفض العرض لأسبابه الخاصة ، التي نبعت من انتمائه القوي إلى اللوبي المؤيد للرق .

وبدلا عن عدم التوفيق في تنصيب قاض يهودي ، قام بيرس بإسناد منصب سفير بالسلك الدبلوماسي إلى أوجست بلمونت في لاهاي ، فكان ذلك بمثابة فتح لأبواب المناصب الدبلوماسية العليا أمام اليهود ، الذين كان اختراقهم للسلك الدبلوماسي الأمريكي قد اقتصر - حتى ذلك الوقت - على مستوى القناصل وبأعداد محدودة للغاية .

ولم يقتصر بيرس في تعبيره عن الولاء على فتح أبواب المناصب العليا بالمحكمة العليا والخارجية أمام اليهود ، بل امتد ليشمل المناصب الحساسة في الحربية الأمريكية ، إذ عين رسام الخرائط اليهودي «جوليوس بين» مشرفا عاما على أنشطة وزارة الحرب في مجالات تخصصه .

چيمس بوكانان (1857-1861)

دخل بوكانان كما يقول «شفيق مقار » - الذي نعتمد على كتاباته بشكل موسع في هذا الجزء - البيت الأبيض مصمما على أن يبز كل من سبقوه في التعبير عن ولائه لليهود ، فهو لم يكد يستقر في مقعد الرئاسة سنة 1857 حتى وجد نفسه مواجها بمشكلة تنصل منها بيرس في أخريات أيام إدارته ، تاركا إياها لخلفه تمثلت في إلحاح وزارتي التجارة والخارجية على إبرام معاهدة تجارية مع سويسرا ، عوضا عن المعاهدة التي خربتها منظمة بناي بيرث في عهد الرئيس فيلمور .

وكان الإجراء الذي لجا إليه بوكانان في محاولة التعامل مع تلك المشكلة ، سابقة بالغة الأهمية في مجال صنع القرار على أعلى المستويات بالولايات

المتحدة ، إذ دعا إلى البيت الأبيض وفدا من كبار الحاخامات اليهود ضم إسحق ماير وايز وداود عينهورن وإسحق ليسر ، للوقوف على مطالبهم فيما تعلق بمشروع المعاهدة . وبعد اجتماعه بأولئك القادة اليهود ، أعلن بوكانان عن إدخال عدد من التعديلات الجذرية على المعاهدة . قال : إن القصد منها إرسال إشارة إلى السويسريين بأن الولايات المتحدة لا تقر مواقف الكانتونات السويسرية من مسألة إقامة اليهود بالأراضي السويسرية ، وقد تواصل ذلك الضغط من جانب واشنطن وغيره ، إلى أن تحقق «**عتق اليهود**» الكامل في سويسرا التي باتت لاحقا القاعدة الرئيسية للصهيونية .

إبراهام لينكولن (1861-1865)

وفيما يخص الرئيس لينكولن ، كان الرجل علامة في تاريخ بلاده : إذ في زمانه حدثت الحرب الأهلية بين الولايات الشمالية والجنوبية ، وكان مضطرا في سعيه إلى تمويل حربه مع الجنوب إلى تعميق علاقاته اليهودية وتطويرها من مجرد الصداقة والاشتراك في ديانة واحدة والاستفادة ماديا كأي سياسي أمريكي آخر من سطوة المال اليهودي والهيمنة اليهودية على الصحافة ، وأدوات صنع الرأي ، إلى ما هو أوسع وأخطر : تمويل الولايات المتحدة كدولة ، وإغاثتها وهي متردية في مأزق الحرب الأهلية ، وكان أول من اتجه لينكولن إليه من الممولين اليهود «**إيذيرور بوش**» الذي رجاه أن يعاونه في طرح قرض حكومي بمبلغ مائة مليون دولار لتمويل المجهود الحربي للقوات الشمالية ثم اتجه لينكولن بعد ذلك إلى **يوسف سليجمان** أحد أكبر أصحاب المصارف اليهود في نيويورك ، لا في طلب التمويل فحسب ، بل وفي طلب المشورة في الشؤون المالية والاقتصادية للولايات المتحدة .

وبدخول سيجمان البيت الأبيض مستشارا ماليا واقتصاديا ، بعد دخول الحاخامات اليهود مستشارين للرئيس جيمس بوكانان ، قبل عهد لينكولن بوقت قصير ، مستشارين في شؤون المعاهدات ، ودخول **يهودا بنيامين** مستشارا في شؤون الرق وممثلا للمصالح المالية الجنوبية ، تحقق اختراق آخر كبير وبعيد الأثر

للمؤسسة اليهودية الأمريكية ، نفذت من خلاله إلى صميم مراكز صنع القرار في أعلى قمة لهرم السلطة إلى البيت الأبيض ، فرسخت أقدام الاتجاه المسيحي المتحول إلى الصهيونية ، ومكنته من أن يصبح مؤسسيا على عدة أصعدة ، لذا فقد كان طبيعيا أن يعتبر اليهود إبراهام لينكولن كسباً كبيراً لهم ، فهو الرئيس الذي مكنهم من خلال الاستغلال الذكي لانتمائه الديني ، واحتياجه المالي ، لأن يحققوا في ظله خطوات كبرى صوب هدف الهيمنة اليهودية على الولايات المتحدة ، ذلك أن الهدف الذي سعوا إليه منذ البداية ، متحسسين طريقهم في أول الأمر ، مرتكنين إلى تقوى الرؤساء الأمريكيين وهوسهم العبراني ، وإلى احتياج أولئك الرؤساء إلى المال والأعلام ، مؤسسين كل نجاح لاحق على ما سبقه من تلك النجاحات ، إلى أن واتتهم الحرب الأهلية بالفرصة الكبرى لإحكام قبضتهم وتحقيق اختراقاتهم في ظل لينكولن .

أندرو جونسون (1865-1869)

لم يعرف تاريخ الرؤساء الأمريكيين رئيسا بدأ حياته مشاغبا وكارها علانية لليهود مثل أندروجونسون ، الذي شن هجومات واسعة على اليهود في الكونجرس ، فوصف بعضهم مثل السيناتور اليهودي **ديفيد ليفي** بأنه «**ذلك اليهودي القمئ الحقير**» ، فيما أشار إلى السيناتور **يهودا بنيامين** عضو مجلس الشيوخ عن ولاية لويزيانا بأنه «**اليهودي البنياميني التعس**» . لذا فقد كان مصيره هو توجيه اتهامات خطيرة وجدية له ، بحجة الراديكالية ، وبحجة الدفاع عن الزنوج ، مما حدا إلى تقديمه لمحاكمة كادت تفضي به إلى العزل لولا أن صوت سبعة من الشيوخ الجمهوريين المعتدلين بجانب الديمقراطيين ، مما حرم الراديكاليين الذين تستر أعداء جونسون الحقيقيون وراءهم من الحصول على أغلبية الثلثين التي يتطلبها الدستور الأمريكي ، في حالة محاكمة الرئيس ، لإصدار قرار الحكم بالإدانة . وقد كان قرار الجمهوريين في اللحظة الأخيرة الانضمام إلى الديمقراطيين تحركا أملته الرغبة في صون كرامة منصب الرئيس واستقلاليته ، لا الرغبة في إنقاذ جونسون نفسه . وكان بعد أن نجا من العزل أن

تحول إلى صديق صدوق لليهود يرتدي «اليارمولكا» على رأسه ، ويقول في افتتاح معبد فاين ستريت المشهور بمدينة ناشفيل «**إنه لم يوجد من امتلأ حبا لليهود مثله بين أبناء ديانته المسيحية جميعا**» ولم يوجد من اهتم اهتمامه العميق والدائم بنجاح اليهود ورخائهم وازدهار ديانتهم ومعبدهم وأعلن أن «**المعبد سيظل أبدا النصب المقدس الذي يجسد كد اليهود ومثابرتهم واستحقاقهم للنجاح والرخاء والرفاه لا في مدينة ناشفيل فحسب بل وفي كل مكان**» .

يوليسيس جرانت (1869-1877)

كان جرانت صاحب الأمر المشهور أيام الحرب الأهلية ، بطرد كل اليهود من قطاع تينسي ، الذي كان قائدا له إبان الحرب الأهلية الأمريكية ، نظرا لما ثبت له ولقواده من تربح أولئك اليهود من الاتجار مع قوات الجنوب ، والتربح من إمدادها وتموينها عن طريق التهريب ، وهو القرار الذي ألغاه إبراهام لينكولن ليرسي في النظام الرئاسي الأمريكي والأخلاقيات السياسية الأمريكية سابقة «**مناعة اليهود القانونية من المؤاخذة حتى فيما يتعلق بجريمة اعتبرت دائما من مكونات تهمة الخيانة العظمى**» .

لذا ، فإن الرجل اتعاظا بسلفه أندرو جونسون حاول التكفير عن خطيئته من خلال تقديم خدمات جليلة لليهود على رأسها تعيينه بنيامين بيكسوتو رئيس منظمة البناى بريث «**أبناء العهد**» حينئذ قنصلا للولايات المتحدة في رومانيا للقيام بالتحقيق في تصرفات حكومة رومانيا ضد اليهود ورفع تقارير عن نتائج تحقيقاته إلى الرأي الأمريكي رأسا ، وكان مبرر جرانت في خدمة اليهود هو نفس مبرر أمريكا اليوم ، إذ إن «**الولايات المتحدة معنية بأن تسود الحضارة كل بلدان العالم**» .

رذرفورد هايز (1877-1881)

شهدت رئاسة هايز تحولا دينيا على نحو خطير ، ذلك أنه بوصوله إلى السلطة كانت أعداد الموظفين اليهود في سائر الإدارات الحكومية الأمريكية قد بلغت حدا ، جعلت معه التفكير يسير على وتيرة ما حدث في الجيش الأمريكي

من تعيين حاخامات أمريكيين للجنود اليهود ، إذ كان تعيين حاخامات للعاملين المدنيين أمرا غير وارد ، لذا فقد ابتدعوا شيئا يحفظ لهم إبراز الهوية اليهودية ، فتمسكوا بإعفاء كل الموظفين اليهود من العمل يوم السبت ، وعندما تباطأت إدارة هايز جعلوا من الأمر قضية إعلامية ضخمة ، فما كان من هايز إلا أن سارع خوفا من التبعات لأن يصرح بالقول «**إن أي مواطن يكون على استعداد لأن يضحي بفرصة كهذه على مذبح معتقداته الدينية ، لابد أن يكون مواطنا صالحا ومن الظلم لدافعي الضرائب الأمريكيين أن نخسره**» وأعلن عن موافقته على المطلب اليهودي ليصبح تقديس السبت اليهودي معادلا للأحد المسيحي ، واضعا حدا لأي تمايز ديني يمكن أن يكون .

چيمس إبرام جارفيلد (1881)

لم يعمر جارفيلد في منصبه طويلا ، إذ اغتيل مبكرا ، لكنه قبل اغتياله كان قد عين المستر **سيمون وولف** قنصلا عاما للولايات المتحدة بمصر ، وفي قرار تعيينه قال جارفيلد إنه شعر بسعادة غامرة لكونه «**عين سليل الشعب الذي استعبد في مصر قديما مبعوثا دبلوماسيا إلى ذلك البلد من الأمة الأمريكية الحرة العظيمة**»(*) . وكمثل سابقه هايز ، حاول جارفيلد أن يتدخل في الشؤون الداخلية لروسيا القيصرية استجابة لطلب عاجل وملح من منظمة أبناء العهد ، لكن حكومة القيصر لم تعره التفاتا .

تشستر آلان آرثر (1881-1885)

لم يجد الرئيس آرثر عقب اغتيال الرئيس جارفيلد ، ما يمكنه من تقديم خدمات موازية لليهود ، سوى أن عين « **ادولفوس سولومونز**» رئيس منظمة بناي بيرث آنئذ كممثل للولايات المتحدة في هيئة الصليب الأحمر الدولية التي

(*) يلاحظ هنا مدى ارتباط الذهنية الأمريكية الأصولية بعداء مبني على أسس دينية عقائدية ، إذ لا تزال تلك العقلية اليمينية ترى في المصريين أحفاد الفراعنة الذين استعبدوا الشعب العبراني في أرض مصر .

انضمت الولايات المتحدة إليها بعد توقيعها على اتفاقية جنيف . وفي هذا التعيين أصبحت بناي بيرث قادرة على التدخل في شؤون الدول الأخرى ، عن طريق الصليب الأحمر وما يفتحه من منافذ تحت ستار الإنسانية .

ومما يشير إلى أن اليهود اعتبروا ذلك الاختراق الذي حققه آرثر انتصارا مهماً أنهم مازالوا يحتفظون في متحف الصليب الأحمر بواشنطن ببطاقة الزيارة التي كان يستخدمها سولومونز بوصفه ممثلا للولايات المتحدة ، وأصل أمر تعيينه الصادر من الخارجية الأمريكية .

ستيفن جروفر كليفلاند (1885-1889)، (1893-1897)

يعد زمن الرئيس كليفلاند بداية الإعلان الحي عن ضرورة تقديم الرئيس الأمريكي للولاء والبرهنة عليه . يقول كليفلاند في رسالة منه إلى منظمة بناي بيرث التي كانت قد وصلت في أيامه إلى مكانة عليا ، وحازت سطوة بالغة : «إن بناي بيرث هذه . . جمعية أنشئت لتحقيق أهداف نبيلة ، وإنها لذلك لا ينبغي أن يقتصر ما تحدثه من أثر على إثارة حماس أعضائها ، بل ينبغي أن تستجلب تمنيات النجاح لها من جانب كل من يهمهم الارتقاء بالنوع الإنساني ، وتنمية الغرائز العليا في الطبيعة الإنسانية . ولهذا رجاء أن تتقبل الجمعية صادق تمنياته بأن يتضاعف ما كانت قد توصلت إليه من نجاحات تثلج الصدر» .

وفي زمن كليفلاند ، كانت الولايات المتحدة قد بدأت تتلقى من قارة أوروبا موجة إثر موجة من المؤثرات التي أنبجست من بدايات بزوغ الحركة الصهيونية اليهودية ، تلك البدايات التي أثمرت في السنة الأخيرة من سني فترة رئاسة كليفلاند الثانية 1897 ، مؤتمر بال وإعلان ميلاد الحركة . وكما هو جلي للعيان ، كان لتلك الموجات من المؤثرات فعل قوى ، فيما أطلق عليه «**الصهيونية المسيحية**» ، التي ظلت منذ إنشاء دولة الولايات المتحدة من أهم الدوافع المحركة للرؤساء والساسة الأمريكيين ، فيما يتعلق بسياساتهم الداخلية والخارجية تجاه اليهود .

والحقيقة أن السياسة الخارجية لإدارة كليفلاند ، بدت كما لو كان شاغلها الأساسي إعلاء اليهود ومصالحهم على كل مصلحة عداها .

بنيامين هاريسون (1889-1893)

توسطت رئاسة هاريسون فترتي رئاسة كليفلاند ، وبزغ خلالها بوضوح التناقض بين موقفي الكونجرس والبيت الأبيض من الهجرة اليهودية ، فمن جانب ، أفصحت مظلمة القس ويليام بلاكستون التي قدمت لهاريسون سنة 1891 وعليها توقيعات 413 من كبار الأمريكيين المسيحيين البارزين بطلب تجميع اليهود في وطنهم فلسطين عن القلق المتعاظم لدى المسيحيين الأمريكيين من طوفان الهجرة اليهودية والإيمان الأصولي المسيحي بأن اليهود يجب أن يجمعوا في وطنهم فلسطين .

ومن جانب آخر ، أفصحت عريضة قدمت إلى هاريسون في الوقت نفسه تقريبا ، من اليهود الأمريكيين بطلب عقد مؤتمر دولي للنظر في أحقية اليهود في استرداد وطنهم القديم فلسطين ، عن أن اليهود الأمريكيين المستريحين ـ كما سماهم كاهانا ـ كانوا يستجيبون لمناورة التيار الصهيوني اليهودي البازغ عن شعور القلق ، مما قد تتمخض عنه الهجرة اليهودية المتعاظمة إلى الولايات المتحدة ، داعين إلى المناداة بما رأوه كفيلا بتخليصهم من تلك المخاطر من خلال رد وطنهم السليب منذ أيام الرومان إليهم .

وما بين الاتجاهين ، كان هاريسون يرسخ وبقوة فكرة أنه لم يوجد في أي وقت جنس أو طائفة عنيت بما فيه خير أفرادها كالجنس العبراني .

الفصل التاسع

أمريكا وقيام دولة إسرائيل

- الصهيونية تظهر في أمريكا قبل مؤتمر بال بسويسرا
- أمريكا تسارع بالموافقة على وعد بلفور.. لماذا؟
- دور الرئيس ولسون في قيام دولة إسرائيل
- ظهور مبدأ تقرير المصير خصيصاً لصالح اليهود
- الكونجرس الأمريكي وسباق مع البيت الأبيض لدعم اليهود

الفصل التاسع

أمريكا وقيام دولة إسرائيل

مع ميلاد المنظمة الصهيونية في أغسطس 1897 في المؤتمر الصهيوني الأول في بال ، وضع اليهود لأنفسهم للمرة الأولى ، مسودة البرنامج السياسي الذي كان أساسا للحركة الصهيونية في القرن العشرين وفيه «**تكافح الصهيونية من أجل إنشاء وطن للشعب اليهودي في فلسطين ، يحميه القانون**» ويرى المؤتمر أن الوسائل التالية تؤدي إلى الغاية المنشودة :

* تشجيع استعمار العمال اليهود الصناعيين والزراعيين لفلسطين على أسس مناسبة .

* تنظيم وربط جميع اليهود عن طريق المؤسسات المحلية أو الدولية طبقا لقانون كل دولة .

* تعزيز وتشجيع الإحساس والشعور القومي اليهودي .

* اتخاذ الخطوات التمهيدية للحصول على موافقة حكومية ، حين يكون ذلك ضروريا للوصول إلى الأهداف الصهيونية .

ومما لاشك فيه ، أنه عندما نشير إلى «**دعاة الصهيونية اليهود**» نعني الحركة المنظمة المعلنة التي بزغت إلى الوجود في مؤتمر بال سنة 1897 ، إلا أنه قبل ظهور أولئك الصهيونيين «**الرسميين**» اليهود أمثال بينسكر وهرتزل ووايزمان ، كان

هناك صهيونيون يهود بدائيون ، أو صهيونيون أُوَل ، عملوا من خلال الفعل المشترك للعامل الديني ، والعوامل غير الدينية كالمال والإعلام لدى الرؤساء والساسة من المسيحيين المؤمنين ، وخاصة في الولايات المتحدة الأمريكية .

ولعل هذا ما تقصده ريجينا الشريف بقولها «**لم تكن الملامح الأساسية لهذا البرنامج الصهيوني جديدة ، فمفاهيم الصهيونية غير اليهودية عبر أربعة قرون قد عززت الروابط التاريخية بين القومية اليهودية المستقلة وأرض فلسطين ، وكانت ترى أن ذلك الارتباط هو أساس إعادة تشكيل الوطن القومي اليهودي في هذه البلاد**» .

كانت الصهيونية اليهودية وغير اليهودية لا تزالان تسعيان إلى تحويل فلسطين العربية إلى وطن أو دولة قومية يهودية . لكن الحقيقة الأساسية في ادعائهم أنه كان ينظر إلى اليهود على أنهم شعب لا أرض له ، ينبغي أن يعاد لإرثه الشرعي في الوقت المناسب .

ولم تكن هناك أرضية أخصب من انجلترا التي ضربت البيوريتانية جذورها فيها ، والولايات المتحدة الأمريكية أرض الموعد الجديدة ، لتشهدا تسابقاً بين البلدين يكرس ويعزز الحضور اليهودي في فلسطين .

وفي الثاني من نوفمبر عام 1917 ، كان **وعد بلفور** المشؤوم حينما «**وعد من لا يملك بأن يعطي لمن لا يستحق**» .

والحقيقة أن وجهات نظر المؤرخين حول السبب الذي دفع الحكومة البريطانية برئاسة **لويد جورج** لإصدار وعد بلفور اختلفت وتفاوتت بين حب بريطانيا لليهود ، والاهتمام بمصلحة الدولة ، واستراتيجية الحرب ، إلا أن الحقيقة الأكثر عمقا كانت في أن لويد جورج رئيس الحكومة البريطانية في ذلك الوقت ، وآرثر بلفور وزير خارجيته ، لم يكونا الوحيدين المؤيدين لأهداف الصهيونية في فلسطين قلبا وقالبا ، ولكنهما كانا على رأس جيل كامل من الصهيونيين غير اليهود ، الذين كانت لكل منهم شخصيته المتميزة في الحياة العامة وفي الحكومة ، لكن جميعهم كان يجمعهم اتجاه واحد هو مناصرة السياسات الصهيونية .

ولم تكن الولايات المتحدة بعيدة عن وعد بلفور ، بل إنها سارعت بالمصادقة بشكل رسمي عليه(*) .

ففي الحادي والثلاثين من شهر أغسطس/ آب عام 1918 ، بعث الرئيس وودرو ولسون إلى زعيم الصهيونية الأمريكية الحاخام ستيفن وانير مصادقا بشكل رسمي على وعد بلفور قائلا : «راقبت باهتمام مخلص وعميق ، العمل البناء الذي قامت به لجنة وايزمان في فلسطين ، بناء على طلب الحكومة البريطانية ، واغتنم هذه الفرصة لأعبر عن الارتياح الذي أحسست به نتيجة تقدم الحركة الصهيونية في الولايات المتحدة والدول الحليفة منذ إعلان السيد بلفور باسم حكومته عن موافقتها على إقامة وطن قومي لليهود في فلسطين» . ووعده بأن تبذل الحكومة البريطانية قصارى جهدها لتسهيل وتحقيق ذلك الهدف ، مع الحرص على عدم القيام بأي عمل يلحق الأذى بالحقوق المدنية والدينية لغير اليهود في فلسطين ، أو حقوق اليهود ووضعهم السياسي في دول أخرى .

ورغم أنه لم تكن هناك موافقة وشيكة من الحكومة الأمريكية جهة وعد بلفور ، ورغم معارضة وزير الخارجية روبرت لانسنغ لموقف رئيس بلاده ، إلا أن ذلك لم يفت في عضد ولسون جهة المسارعة بإقرار ومباركة وعد بلفور .

وهنا يثور التساؤل : لماذا عارض لانسنغ من جهة ، ولماذا ضرب ولسون عرض الحائط برأي وزير خارجيته ، رغم أنه طبقا للدستور الأمريكي ، فهو صاحب الكلمة الأعلى؟

بداية يقول لانسنغ في مذكرة اعتراضية بتاريخ 13 ديسمبر عام 1917 :

«إن هناك ضغطاً كبيراً لإصدار بيان حول الموقف الذي ستقفه هذه الحكومة تجاه فلسطين ، وهذا نابع من العنصر الصهيوني لليهود» .

ويكمل لانسنغ «**أرى أن علينا أن نتلكأ في إعلان سياستنا لثلاثة أسباب :**

(*) Paul Johnson "A history Of The Jews " New York 1988.

أولها : أننا لسنا في حالة حرب مع تركيا ، ولذا فعلينا أن نتحاشى كل ما من شأنه أن يظهر أننا نؤيد أخذ أراض بالقوة .

وثانيها : أن اليهود ليسوا جميعا راغبين في إعادة جنسهم كشعب مستقل ، ومن غير الحكمة تفضيل فريق على آخر .

وثالثها : أن كثيرا من الفرق المسيحية والمسيحيين سيغضبون حتما إذا وضعت الارض المقدسة تحت السيطرة المطلقة للجنس الذي يعزى إليه موت المسيح ، ولأسباب عملية لا أرى ضرورة للذهاب إلى أبعد من السبب الأول ، فهو كاف لتجنب إعلان سياسة حول وضع فلسطين النهائي» .

لكن ولسون لم يأبه لهذا الاعتراض ، فهو المنحدر من أبوين ينتميان للكنيسة المشيخية إحدى كنائس الاتجاه البروتستانتي المتشدد والمؤيد لفكر عودة شعب الله إلى الأرض الموعودة . وقد نشأ ولسون على تلك التعاليم التي وفرت له رصيدا غير مباشر من المشاعر والأفكار التي تركت أثرا على موقفه المستقبلي من الحركة الصهيونية وأهدافها .

وقد أظهر ولسون سعادته في أن يكون له دور في إعادة اليهود إلى أرضهم ، ويعد اعترافه بأنه وهو ربيب بيت القسيس ، بأن يكون قادرا على المساعدة على إعادة الأرض المقدسة لأهلها ذا مغزى .

كان ولسون مأخوذا بالصهيونية ، وكانت تصريحاته العلنية والسرية متناسقة مع الفكرة الصهيونية ، وهذا يؤكد أن قراراته كانت نابعة من مشاعره الذاتية الشخصية لا من اعتبارات السياسة الواقعية ، وهو ما برهن على صحة تجاهله لوزير خارجيته لانسنغ واعتراضاته وبعثه مذكرته التي يوافق فيها على وعد بلفور عبر مستشاره الكولونيل هاوس ، الذي كان وراء موقف ولسون المؤيد للصهيونية وموافقته النهائية على وعد بلفور .

والحاصل ، أن جميع تصريحات وقرارات ولسون عن فلسطين والصهيونية توضح أنه لم يكن مؤيدا سياسيا فقط لبلفور أو غيره ، بل كانت صهيونيته نابعة عن قناعة ذاتية .

والغريب في أمر الرجل صاحب النقاط الأربع عشرة الشهيرة التي وردت في خطابه الشخصي الدبلوماسي في مؤتمر باريس للسلام ، أنه كان أول من يناقض نفسه ، فهو يرفض الحصول على الأراضي بالقوة ، «**ويدين الاتفاقية السرية**» ، وينادي بمبدأ «**حق الشعوب في تقرير مصيرها**» ، لكن ولسون يضحي على مذبح الصهيونية بما قاله من قبل ، وهو مايذهب إليه دافيد ميللر في كتابه «**يومياتي عن مؤتمر سياسة باريس نحو الفلسطينيين**» الصادر في نيويورك عام 1942 بقوله «**كانت ولاية فلسطين من وجهة النظر الصهيونية أرضا بلا شعب**» ، فضلا عن أن «**فلسطين حري بها أن تصبح دولة يهودية ، لأنه مهد ووطن شعبهم المفعم بالحيوية**» . وقرار ولسون التوفيق بين السياسة الأمريكية والبرنامج الصهيوني في فلسطين ، لم يكن رضوخا للضغوط التي مارسها بعض الصهيونيين اليهود ، وهو ما يجمع عليه علماء الصهيونية ، فقراراته وبياناته تعطي مثالا على حالة دخلت فيها اعتبارات المشاعر والأخلاقيات مجال صنع السياسة ، وسيطرت في النهاية على جميع الاعتبارات الموضوعية للسياسة الواقعية .

أما على صعيد الجناح السياسي الآخر في الولايات المتحدة ، وأعني به الكونجرس الأمريكي ، فقد أخذ من جهته على عاتقه أن يباري مؤسسة الرئاسة بشكل مذهل في تشجيع بلفور ، والدفع إلى الأمام قدماً لإقامة دولة إسرائيل ، وفي هذا الصدد ، ينشر روبن فنك عام 1919 في نيويورك ، ومن خلال مؤلفه «**حرب الكونجرس الأمريكي والصهيوني**» إحصائية قامت بها المنظمة الصهيونية في يونيو عام 1918 ، حول موقف الكونجرس من الوعد ، وفيها يوافق 69 من الشيوخ و 31 من النواب على الوعد ، ولم يكن هناك أي خلاف بين الجمهوريين والديمقراطيين . والأمر الذي يلفت فنك الأنظار إليه هو أن هذه الموافقات لم تكن تحت أي ضغط مالي أو دعائي انتخابي ، مما يعني أنها قيم راسخة متجذرة في نفوس من وافق على قيام وطن يهودي في فلسطين .

بل إن فنك يضيف أن إجاباتهم كانت صهيونية في أسلوبها ومضمونها ، وقد استشهد منهم الكثيرون بالآيات التوراتية التي تشير إلى حتمية عودة اليهود إلى فلسطين كأمة وشعب ورسالة .

وفيما الروح الصهيونية تعمل في أعضاء الكونجرس الأمريكي(*) ، نراهم يغالون في طلباتهم من خلال توجههم بطلب إلى حكومة الولايات المتحدة الأمريكية للقيام بعمل ينسجم مع وعد بلفور .

وينشر روبن فنك هذا النص ليدلل على صهيونية الكونجرس الأمريكي المبكر :

«كما خلص موسى الإسرائيليين من العبودية ، فإن الحلفاء الآن يخلصون يهوذا من أيدي الأتراك القبيحين ، وهي الخاتمة الملائمة للحرب العالمية هذه» .

ويضيف «أن يهوذا يجب أن تقوم كأمة مستقلة ، وتكون لها القوة لتحكم نفسها وتتقدم وتكمل مثالياتها في الحياة ، إنني أحب أن أعبر عن أفكار الشعب الأمريكي وبالتأكيد عن أفكار أولئك الذين بحثت معهم هذا الموضوع ، وهو أن حكومة الولايات المتحدة يجب أن تمارس سلطاتها الملائمة لرؤية هذه الدولة اليهودية تقام لتنبثق منها تعاليم ومبادئ يهوذا القديمة» .

ومن العام 1918 حتى العام 1922 كان السباق على أشده بين مجلس الشيوخ ومجلس النواب لتأييد قيام دولة إسرائيل . ففي يونيو من عام 1922 ، قرر مجلس الشيوخ الأمريكي «**إن الولايات المتحدة الأمريكية تحبذ إقامة وطن قومي للشعب اليهودي في فلسطين ، طبقا للشروط التي يتضمنها وعد بلفور**» ، وكان رئيس لجنة العلاقات الخارجية المعروف السيناتور الجمهوري هنري **كابوت لودج** ، من ماساشوستس ـ معقل الفكر الأصولي اليميني الصهيوني ـ هو القوة الدافعة لهذا القرار ، وهي قوة كانت تحمل بذور العداء الديني أيضا لسكان البلاد الفلسطينيين الأصليين بوصفهم «**محمديين**» على حد قوله ، وهو ما اتضح من ملاحظات له يقول فيها في خطاب ألقاه في بوسطن من ذات العام :

(*) يدلل هذا على أن الأمر صار يتعدى المنفعة البرجماتية الأمريكية المعهودة ، وينافي أيضا النظريات التي تجلت لاحقا حول قوة اللوبي اليهودي ، كما أضحت في القرن العشرين والسبب في ذلك هو تأصل تلك الروح في الشخصية الأمريكية بعد أن ورثت الولايات المتحدة عن انجلترا ضمن ما ورثته الموقف البروتستانتي والتوجه التطهري Puritanical .

«يبدو لي أنه أمر مناسب وجدير بالثناء، أن يرغب الشعب اليهودي في كل أنحاء العالم أن يكون هناك وطن قومي لأفراد جنسه الراغبين في العودة إلى الأرض التي كانت مهدا لهم، والتي عاشوا وجهدوا فيها آلاف السنوات». ويكمل: «**إنني لم أحتمل أبدا فكرة وقوع القدس وفلسطين تحت سيطرة المحمديين، إن بقاء القدس وفلسطين المقدسة بالنسبة لليهود . . والأرض المقدسة بالنسبة لكل الأمم المسيحية الكبرى في الغرب في أيدي الأتراك كان يبدو لي لسنوات طويلة وكأنه لطخة في جبين الحضارة ومن الواجب إزالتها**».

وفي 30 يونيو عام 1922، حذا مجلس النواب حذو مجلس الشيوخ، فأصدر بدوره قرارا مشابها تبناه عضو الكونجرس هاملتون فشر جاء فيه:

«**حيث إن الشعب اليهودي كان يعتقد لقرون طويلة ويتشوق لإعادة بناء وطنه القديم، وبسبب ما تمخضت عنه الحرب العالمية، ودور اليهود فيها، فيجب أن يمكَّن الشعب اليهودي من إعادة إنشاء وتنظيم وطن قومي في أرض آبائه، مما يتيح لبيت إسرائيل فرصته التي حرم منها لفترة طويلة، وهي إعادة تأسيس حياة يهودية وثقافة مثمرة في أرض اليهودية القديمة**».

ومنذ موافقة ولسون على وعد بلفور عام 1918، حتى ظهور روزفلت عام 1939، نهج رؤساء أمريكا بشكل أو بآخر نفس النهج الداعم لقيام الدولة اليهودية على الأرض الفلسطينية، وإن اختلف الأمر تبعا لمدى إحساس الرئيس شخصيا بالتزامه بالصهيونية:

* ففي الأول من يونيو عام 1921، **يعبر الرئيس الأمريكي وارن هاردنج** عن موقفه بقوله: «يستحيل على من يدرس خدمات الشعب اليهودي ألا يعتقد أنهم سيعادون يوما إلى وطنهم القومي التاريخي، حيث يبدأون مرحلة جديدة بل مرحلة أكبر من مساهمتهم في تقدم الإنسانية».

* وفي 13 يونيو عام 1924، **يشير الرئيس كالفن كولدج**(*) وإن بصورة أقل

(*) لم يكن اختيار الأسماء أمرا اعتباطيا، ذلك أن جل الأسماء التي تقابلنا تتراوح ما بين أسماء الآباء الأولين المؤسسين لدولة إسرائيل أو لرجال الإصلاح اللوثري المزعوم مثل كالفن.

وضوحا ، لكنها تعبر عن إيمانه الأساسي بفلسطين وطنا قوميا يهوديا في قوله **«لقد كررت عدة مرات اهتمامي بهذه الحركة العظيمة ، بحيث إن أي شئ أضيفه يعتبر تكرارا للبيانات السابقة ، ولكنني مع ذلك سعيد بأن تتاح لي هذه الفرصة لأعبر ثانية عن تعاطفي مع الحنين العميق الشديد الذي يجد تعبيرا له في الوطن القومي لليهود في فلسطين»** .

* فيما هربرت هوفر **الرئيس الأمريكي** يهنئ في 21 سبتمبر عام 1928 الصهيونية على إنجازها العظيم في فلسطين ، مرددا فكرة إعادة بعث الحياة فيها بقوله :

«لقد راقبت بإعجاب حقيقي ، التقدم الثابت الواضح الذي تم من أجل إعادة تأهيل فلسطين التي كانت قاحلة لعدة قرون ، ولكنها الآن تجدد شبابها وحيويتها من خلال حماس وجد وتضحية الرواد اليهود الذين يكدحون هناك بروح السلام والعدل الاجتماعي ، وإنه لمما يبعث على الرضى ، أن نرى كثيرا من اليهود الأمريكيين الصهيونيين أو غير الصهيونيين ، قدموا خدمات رائعة لهذه القضية التي تستحق من الجميع العطف والتشجيع الأدبي» .

* ومع وصول **الرئيس الأمريكي** روزفلت إلى البيت الأبيض ، وجد الكثيرون من حوله صعوبة واضحة في تحديد آراء الرئيس بالنسبة للصهيونيين ولقيام دولة يهودية في فلسطين ، فكثير من الصهيونيين اليهود لا يزالون غير متأكدين أن كان صديقاً أو عدواً .

كان لخلفية روزفلت كعضو في الكنيسة الأسقفية دور في شكوكه العميقة في الصهيونية ، وقيام دولة يهودية في فلسطين ، إذ إن تعاليم هذه الكنيسة لم تكن ترى أن فلسطين تخص اليهود ، نظراً لأنها هبة من الله ، كما أنها لم تكن تعترف بالمزاعم التاريخية اليهودية القائلة أن فلسطين وطنهم الشرعي ..

لكن على أي حال من الأحوال ، فإن الانتخابات الأمريكية جعلت روزفلت لا يتردد في الإعلان عن تأييده لبند يتعلق بالهجرة غير المقيدة لفلسطين في

برنامج حزبه فيقول : «**إننا نحبذ فتح أبواب فلسطين للهجرة اليهودية غير المقيدة واستيطانها ، كما نحبذ أية سياسة تؤدي إلى إقامة كومنولث يهودي ديمقراطي حر هناك**» . ويكمل «**سنبذل جهودنا لإيجاد السبل والوسائل المناسبة لإنجاز هذه السياسة طالما كان ذلك ممكنا ، إنني أدرك أن اليهود عملوا طويلا وبحماس لجعل فلسطين كومنولثاً يهودياً ديمقراطياً حراً ، وإنني لعلى يقين ، بأن الشعب الأمريكي سيؤيد هذا الهدف ، وإذا ما أعيد انتخابي فسأساعد على تحقيق هذا الهدف**» .

والذي يستقرئ مواقف روزفلت بعناية ، يتضح له أنه لم يكن قادراً على تشكيل سياسة واضحة حول فلسطين أو الشرق الأوسط بشكل عام ، كما أنه كان عاجزا عن حل الصراع بين الضرورة العسكرية والاقتصادية والاستراتيجية لاسترضاء الدول العربية ومطالب الصهيونية وادعاءاتها التي تبدو إنسانية ، والتي كانت تدعمها الضغوط السياسية والاقتصادية الكبيرة . لذا فإن روزفلت اعتمد سياسة التأجيل لما بعد الحرب . كان روزفلت يأمل في أن يتوصل العرب واليهود إلى اتفاق فيما بينهم ، ولكنه اكتشف أن أي حل لمشكلة فلسطين لن يكون يسيرا ، وهنا يذكر إدوارد ستيتنوس في مؤلفه «**روزفلت والروس**» الصادر في نيويورك عام 1944 ، أنه بينما كان روزفلت عائدا للولايات المتحدة عقب مؤتمر يالطا واجتماعه بعد ذلك بالملك **عبد العزيز بن سعود** ، أخبر ستيتنوس بأنه يجب عليه عقد اجتماع مع زعماء الكونجرس ، وإعادة النظر في السياسة الأمريكية تجاه فلسطين ، مضيفا أنه كان على قناعة بأنه سيكون هناك سفك للدماء بين العرب واليهود إذا سارت الأمور في مجراها ، وأنهى كلامه بقوله «**إنه لابد من إيجاد معادلة لم تكتشف بعد للحيلولة دون هذه الحرب** » .

والنتيجة النهائية هي أن روزفلت لم يف قط بأي من وعوده للصهيونية ، لأنه لم يسلم أبدا بأن المصالح الصهيونية والأمريكية متفقة في الشرق الأوسط .

* ومع تولي **هاري ترومان** منصب الرئاسة في 12 أبريل من عام 1945 ، كانت الصهيونية الأمريكية تتجسد بشكل غير مسبوق على المستوى السياسي .

كان ترومان يرى أن الاعتراف بإسرائيل هو «التتويج المنطقي لثلاث سنوات من دبلوماسيته الشخصية ، واهتمامه الإنساني بشعب تحمَّل عذاب من حقت عليهم اللعنة(*) ولكن غريزتي حب البقاء وحب الوطن حالتا دون فنائه» . وفي بداية أيام توليه الرئاسة ، أصدر بيانا صحفيا جاء فيه : «**إن وجهة النظر الأمريكية من فلسطين هي أننا نريد أن نسمح بدخول عدد من اليهود إليها قدر الإمكان ، وبعد ذلك يبحث الموضوع مع البريطانيين والعرب بالطرق الدبلوماسية ، حتى إذا ما أمكن قيام دولة هناك ، فإن ذلك يمكن أن يتم على أسس سليمة**» .

ومعنى هذا البيان أن ترومان تخلى عن سياسة روزفلت ، التي قضت بفصل مشكلة اللاجئين اليهود عن قضية قيام الدولة في فلسطين ، وفي تخيله هذا ، دمج ترومان القضيتين ، والبديهي أن تشجيع الهجرة إلى فلسطين لم يكن يعني سوى تهيئة الشعب اليهودي هناك لإقامة الدولة الفلسطينية لاحقا ، وهو ما يتضح جليا من خلال طلبه الرسمي المقدم لرئيس وزراء بريطانيا «اتلي» في 31 أغسطس عام 1947 للسماح بإرسال 100 ألف لاجئ يهودي إلى فلسطين حالا من منظور صهيوني ، فقد تبنى ترومان الهدفين اللذين وضعهما الصهيونيون لأنفسهم عشية الحرب العالمية الثانية ، وهما تأمين أغلبية يهودية في ظل الانتداب البريطاني في فلسطين وإقامة دولة يهودية مستقلة بشكل نهائي .

وفي أيام ترومان ، بدأت العنصرية الأمريكية تجاه العرب تتضح بجلاء ، ولم يخف ترومان ميوله للصهيونية وتحامله على العرب ، وهو ما ظهر جليا في رسالته للملك عبد العزيز آل سعود في 28 أكتوبر 1948 ، حين كتب إليه مبررا طلبه السماح لأعداد كبيرة من اللاجئين اليهود بالهجرة الفورية إلى فلسطين

(*) هذا تعبير إنجيلي يعود للسيد المسيح الذي يقول في انجيل القديس لوقا ، الفصل التاسع عشر ، العدد 41-44 «**ولما اقترب وراى المدينة بكى عليها قائلا ليتك أنت أيضا في يومك هذا عرفت ما فيه سلامك ولكن ذلك محجوب الآن عن عينيك**» . وفي موضع آخر يقول : «**يا أورشليم يا أورشليم يا قاتلة الأنبياء وراجمة المرسلين إليها كم من مرة أردت أن أجمع بنيك كما تجمع الدجاجة صغارها تحت جناحيها ولم تريدي لذا هو ذا بيتكم يترك لكم خرابا**» .

يقول : «**من الطبيعي أن تشجع الحكومة في هذا الوقت وصول أعداد كبيرة من اليهود المرحلين من أوروبا إلى فلسطين ، لا لكي يجدوا مأوى لهم هناك فحسب ، بل ليساهموا بمواهبهم وطاقاتهم في إقامة الوطن القومي لليهود**» .

ولم يفت ترومان أن يذكّر العرب في صورة الملك عبد العزيز ، أن تأييده فكرة الوطن القومي اليهودي هي سياسة أمريكية ثابتة ، ولم يعتبر السماح لعدد كبير من اليهود المرحلين بالهجرة إلى فلسطين «**عملا عدائيا للشعب العربي**» . وقد اعتبرت هذه الرسالة أول وثيقة دبلوماسية لدولة أجنبية تقرر فيها الولايات المتحدة التزاماتها التاريخية تجاه الوطن اليهودي .

وفي الثامن عشر من فبراير عام 1947 ، أعلن **آرنست بيفن** وزير الخارجية البريطاني عن قرار حكومته عرض قضية فلسطين على هيئة الأمم المتحدة التي كانت قد أنشئت حديثا ، واعتبر ترومان أن الأمم المتحدة هي أفضل وسيلة لتحقيق سياسته الخاصة بفلسطين تحت ستار الإجماع الدولي .

ولم يكتف ترومان بإعطاء التعليمات للوفد الأمريكي للأمم المتحدة بالتصويت إلى جانب التقسيم في 20 نوفمبر عام 1947 ، بل طلب من المسؤولين الرسميين الأمريكيين أن يمارسوا نفوذهم من أجل إقناع الحكومات الأخرى بالتصويت على التقسيم بأمر مباشر من البيت الأبيض ، لذا فإن على المسؤولين الأمريكيين أن يحشدوا كل طاقاتهم من أجل ممارسة كل أنواع الضغط المباشر وغير المباشر على الحكومات خارج العالم الإسلامي ، والتي كانت معروفة بأنها متشككة في التقسيم أو معارضة له .

وفي الرابع عشر من مايو عام 1948 ، اعترف ترومان فعلا بالدولة اليهودية عندما تم التصويت لصالح قيامها في فلسطين ، بعد مرور إحدى عشرة دقيقة بالتمام والكمال .

ولم يكن اعتراف الولايات المتحدة العاجل بدولة إسرائيل ـ كما تؤكد الزعامات الصهيونية ـ إلا نتيجة طبيعية لضغط اللوبي الصهيوني الفعال ، وكان

خضوع ترومان تحت تأثير اعتبارات سياسية من أجل كسب أصوات اليهود في انتخابات ذلك العام .

ومما لا شك ، فيه أن المنظمات الصهيونية والمنظمات الصهيونية غير اليهودية والكونجرس والصحافة ، قد مارست ضغطا هائلا ، أدى كما كان الحال مع روزفلت إلى عكس ما يريده الصهيونيون ، بل إنه كان يضعف في بعض الأحيان حماس ترومان الشخصي للصهيونية . لكن الرجل لم يكن يستطيع المقاومة حتى مع إحساسه «**بدناءة الزعماء اليهود وعدم احترامهم له**» .

والواقع أنه لم يكن اعتراف ترومان الواقعي بإسرائيل عام 1948 ، حتى قبل أن تطلب منه حكومة إسرائيل المؤقتة ذلك بشكل رسمي ، مجرد سعي وراء الأصوات اليهودية ، كما أنه لم يكن نتيجة الضغط الصهيوني ، بل كان متمشيا كليا مع مشاعره الشخصية التي كانت صهيونية .

لقد كانت هذه هي لحظة انتصار الصهيونية غير اليهودية في أمريكا ، على الرغم من أن قرار الاعتراف بالدولة اليهودية لم يكن حاسما في حد ذاته ، نظرا لأنه كان النتيجة المنطقية لتعهد ترومان السابق بتقسيم فلسطين باعتباره الحل الوحيد .

وعودة سريعة إلى تاريخ الرجل «**ترومان**» حتى قبل أن يتولى الرئاسة بأمد بعيد ، كان قد أظهر تعاطفا مع الصهيونية ، فخلفيته المعمدانية وترتيبه كانا يرتكزان على عودة اليهود إلى صهيون . ولقد كان أعضاء المؤتمر المعمداني الجنوبي أشد الناس حماسا للصهيونية ، وكانوا يؤيدون المطالب الدينية والتاريخية لليهود في أرض فلسطين .

كان معظم المعمدانيين محافظين ، بل من أتباع مذهب العصمة الحرفية الذين يميلون إلى اعتبار إقامة دولة يهودية برهانا واضحا على تحقيق النبوءات التوراتية .

ومما لا ريب فيه ، أن خلفية ترومان الدينية لعبت دورا مهما في حياته فيما بعد . وعلى وجه العموم ، كان ترومان كإبراهام لنكولن ، كان يؤمن باعتباره أحد تلاميذ التوراة ، بالتبرير التاريخي لوطن قومي يهودي ، وكانت لديه قناعة أن

وعد بلفور عام 1917 حقق آمال وأحلام الشعب اليهودي القديمة . وقصة حياة ترومان الشخصية الحافلة بالاقتباسات والإشارات التوراتية الضمنية ، تشير إلى ميله للإسهاب في ذكر التعاليم اليهودية .

كان ترومان كمعمداني(*) يحس بشيء عميق له مغزاه في فكرة البعث اليهودي ، وكان معروفا عنه حبه للفقرة الواردة في مزمور داود النبي 137 والتي تقول «**على أنهار بابل هناك جلسنا . بكينا أيضاً عندما تذكرنا صهيون . على الصفصاف في وسطها علّقنا أعوادنا . لأنه هناك سألنا الذين سَبَوْنا كلام ترنيمة ومعذبونا سألونا فرحاً قائلين رنِّموا لنا من ترنيمات صهيون**» (مزمور 137:1-3) وهي تشير إلى حال شعب إسرائيل في أيام السبي البابلي الذي حدث أيام نبوخذ نصر ملك بابل .

ولقد اعترف ترومان أنه ما من مرة قرأ فيها قصة إنزال الوصايا العشر في سيناء إلا شعر « **بوخز خفيف يسري في عروقه** » . وقد صرح بأن «**موسى تلقى المبدأ الأساسي لقانون هذه الأمة على جبل سيناء**» .

وعندما قدم إيدي جاكوبسون أحد مستشاري ترومان وصديقه المقرب منذ زمن طويل ترومان إلى عدد من الحاضرين في معهد لاهوتي يهودي ، واصفا إياه بأنه «**الرجل الذي ساعد على خلق دولة إسرائيل**» رد عليه ترومان مستشهدا بفكرة الصهيونيين الدائمة عن النفي والبعث قائلا «ماذا تعني بقولك ساعد على خلق ؟» . . **إنني قورش . . إنني قورش** .

وقورش كما هو معروف للقاصي والداني ، الإمبراطور الفارسي الذي سمح لبني إسرائيل بالعودة من منفاهم في بابل إلى صهيون ، كما كانت آمالهم وأشواق قلوبهم تطمح عبر أكثر من خمسمائة عام هي سني عمر السبي البابلي .

ولدت دولة إسرائيل إذن في قلب وعقل الشخصية الأمريكية قبل عقود كثيرة من إعلان قيامها الفعلي على أرض فلسطين في مايو من عام 1948 .

(*) المعمدانية فرقة من الفرق الإنجيلية أو البروتستانتية التي تفوق الخمسمائة جماعة بشرية منشقة والتي خرجت كلها من عباءة لوثر .

ومع بداية الواقع العملي لها كدولة غير شرعية ، بدأ الصراع الذي استمر ولا يزال والذي كانت فيه الولايات المتحدة الأمريكية طرفا غير حيادي - وكثيرا - ما كانت شريكا لا يتمتع بالعدالة ، حتى في حالات المفاوضات التي أطلق عليها **«السلمية أو السلامية»** .

وغني عن القول أنه منذ 1948 حتى اليوم ، أصبحت إسرائيل دولة فاعلة داخل الولايات المتحدة ، ليس فقط ارتكازا على الروح المشتركة بين الشعبين من أبجديات التوراة والإرث الروحي ، ولكن انطلاقا من دور سياسي واقتصادي وفكري تبلور بشدة خلال فترة الحرب الباردة مع الدب الروسي الشيوعي المناوئ ، والذي رأت فيه الأصولية الأمريكية العدو الحقيقي ، وصولا إلى ما سمته **«بالإرهاب الإسلامي»** العدو الوليد بعد انهيار المعسكر الشيوعي .

وما بين هذه وتلك ، كانت الأدوات الصهيونية تخلق وحشا إمبراطوريا جديدا هو الأصولية اليمينية المدعومة بالفكر اليهو- مسيحي ، ليصبح العالم على تعبير **«المحافظين الجدد»** استراتيجية السيادة والريادة . . **وهذا ما سنتناوله في الفصول القادمة** .

الفصل العاشر

المُلْكُ الألفي السعيد

- ازدهار الأصولية المسيحية الجديدة
- ماذا تعني عبارة الملك الألفي السعيد؟
- كيف ساهمت في ترسيخ فكرة ظهور دولة إسرائيل؟
- من هم رجال السياسة المستفيدون داخل أمريكا من هذا الفكر؟
- علاقة اليهود بفكر الأصولية المسيحية الجديدة

الفصل العاشر

الملك الألفي السعيد

كانت الفترة الممتدة من إعلان قيام دولة إسرائيل حتى نهاية الحرب الباردة بين المعسكرين الشرقي والغربي ، فترة ازدهار الأصولية المسيحية الجديدة **«عن صدق أو عن زيف»** لكن في كل الأحوال ، كانت قد تبلورت بشكل تجلى مع فوز الرئيس الأمريكي جورج بوش ، واستيلاء إدارته التي عُرفت بإدارة المحافظين الجدد على مقدرات الأمور في الدولة العظمى الوحيدة في الفترة الآنية .

وهنا يثور التساؤل عن هوية هؤلاء ، وكيف قدر لهم الوصول إلى الحكم عن طريق الفكر والمعتقد الروحي قبل الحديث عن المعطيات السياسية التي مكنتهم من ذلك .

لذلك كان لابد من التوقف أمام بعض المفاهيم التي لا تنفصل في ذات السياق عن الجذور اليهودية والصهيونية في الولايات المتحدة ، والتي سيكون لها كبير الأثر في تحريك دفة الأمور السياسية .

وهي مفاهيم سنتعرض في نهاية الفصل لصحتها أو لخطئها ، لكننا هنا سنعرض لها كما يراها هؤلاء وأولئك ، لنتوقف على مقدار تأثيرها اليوم وغدا وإلى زمن ليس بقريب .

أول هذه المفاهيم هو **«مفهوم الملك الألفي»** ماذا يعني الملك الألفي(*) ؟ بعيدا

(*) Joseph Campbell " The Power Of Myth" New York 1988

عن الإغراق في التحليلات والتفسيرات اللاهوتية الشارحة والمقارنة لهذا الفكر، فإن الحكم الألفي يعني اعتقاد راسخ لدى طائفة كبيرة من المسيحيين الذين لا ينتمون للكنائس الرسولية، أي التي أسسها رسل المسيح، وأعني بها الكنيسة الكاثوليكية أو الكنيسة الأرثوذكسية بأن السيد المسيح عندما سيعود إلى الأرض، فإنه سيحكم ألف سنة، ينعم العالم خلالها بالسلام العالمي، وبانتصار الخير على الشر، ومعه سيحكم المؤمنون به طوال هذه الفترة الزمنية على الأرض.

ومنشأ هذا الفكر يعتمد على ما جاء في السفر الأخير من أسفار الكتاب المقدس، وهو المعروف باسم سفر يوحنا اللاهوتي، إذ يقول في الإصحاح العشرين «**ثم رأيت ملاكا نازلا من السماء وبيده مفتاح الهاوية وسلسلة عظيمة قيد بها التنين، أي الحية القديمة وهو إبليس أو الشيطان، وسجنه مدة ألف سنة، وطرحه في الهاوية وأغلقها عليه وختمها، حتى يكف عن تضليل الأمم، إلى أن تنقضي الألف سنة . . . .**» ويمضي يقول: «**ثم رأيت عروشا منح الجالسون عليها حق القضاء، ورأيت نفوس الذين قتلوا في سبيل الشهادة ليسوع، وفي سبيل كلمة الله، والذين رفضوا أن يسجدوا للوحش ولتمثاله، والذين رفضوا علامته على أيديهم وجباههم، وقد عادوا إلى الحياة وملكوا مع المسيح ألف سنة. هذه هي القيامة الأولى، أما بقية الأموات فلا يعودون إلى الحياة حتى تنقضي الألف سنة. ما أسعد وأقدس من كان لهم نصيب في القيامة الأولى، لن يكون للموت الثاني سلطة عليهم، بل يكونون كهنة الله والمسيح ويملكون معه ألف سنة**».

«وحين تنقضي الألف سنة، يطلق الشيطان من سجنه، فيخرج ليضلل الأمم في زوايا الأرض الأربع يأجوج ومأجوج، ويجمعهم للقتال وعددهم كثير جدا كرمل البحر، فيصعدون على سهول الأرض العريضة، ويحاصرون من كل جانب معسكر القديسين والمدينة المحبوبة، ولكن نارا من السماء تنزل عليهم وتلتهمهم، ثم يطرح إبليس الذي كان يضللهم في بحيرة النار والكبريت، حيث الوحش والنبي الدجال. هناك سوف يعذبون نهارا وليلا إلى أبد الآبدين».

لكن الأمر ليس بهذه البساطة من حيث المفهوم العام للملك الألفي ذلك ، لأن أتباعه انقسموا إلى عدة طوائف ، كل منها لها مفهومها الخاص لفترة الحكم الألفي ، وكيفية حدوثه ، ومن الذي سيملك ، وكيف يتم تمهيد الأمر لحدوث ملك المسيح على الأرض ألف سنة ، وأحسب أن أكبر طائفتين في هذا النهج هما أصحاب **القبل الألفية** ، وأصحاب **البعد الألفية** ، بجانب أولئك حملة مذهب **الألفية التدبيرية** .

ماذا تعني المفاهيم السابقة ؟

الألفية التدبيرية:

هي كما هو واضح من اسمها ، يقوم فيها العنصر الإلهي بفعل واضح ومفهوم ، وهو فعل التدبير أي التخطيط لحدوث شيء ما ، وتعني أن من يؤمن بها يعتقد أن هذا الملك أو تلك المملكة ، إنما ستكون من عمل الله « المدبر» للأمر ، وأن الله يهيئ للملك من خلال رموز يستدل بها على قرب وقوع زمان الحكم ، مثل قيام دولة إسرائيل ، لذا فإن على أتباع الألفية التدبيرية ، ألا يعوقوا عمل الله أو يعارضوه ، وإن استطاعوا ساعدوا في إنجازه ، لكنهم موقنون بأنهم ليس هم بأيديهم الذين سيقومون به .

وينصب نشاطهم على التبشير الديني الممزوج بقدر سياسي وبملامح اجتماعية ، وقد أخذوا في بلورة نهجهم منذ الستينيات في القرن الماضي ، وإن كانوا يختلطون مع العالم في حياتهم اليومية ، إلا أن قطاعا ليس بقليل منهم قد اعتزل الحياة تماما في انتظار حدوث التدبير الإسمي في حياة المؤمنين .

البعد الألفية:

وفيها يرى المؤمنون بها السيد المسيح عائدا إلى الأرض ، لكن بعد أن يكون المؤمنون قد حكموا العالم لمدة ألف عام ، وفي هذه الحقبة الزمنية الطويلة ، سوف يبنون ملكا مسيحيا أرضيا ، من خلاله يتم لهم الحكم والسيطرة على العالم لمدة ألف عام ، ثم يأتي بعد ذلك المسيح .

وللوصول إلى هذا الشكل من أشكال الحكم ، يتم الانتقال التدريجي من النظم العلمانية السياسية إلى النظم الثيوقراطية التي تعمل فيها العقيدة عملها وتشكل أبعاد الحياة على وفقها ، ويكون استخدام الكتاب المقدس ـ خاصة العهد القديم فيها ـ كمصدر رئيس للتشريع والقيم والأخلاقيات . ومن أمثلة هذه التشريعات الكثير الذي يخالف ما هو كائن الآن في الكثير من البلاد الأوروبية والولايات المتحدة بصفة خاصة ، **مثل العلاقات الجنسية خارج الزواج وتحريمها ، وكذلك مجابهة للمثليين جنسيا ، ومنع الضرائب ، وتحريم الخمور والمواد المخدرة على اختلاف أنواعها ، ورفض الديون طويلة الأجل .**

القبل الألفية:

أما أصحاب المذهب قبل الألفي ، فيرون أن الأحداث ستسير بدءا من عودة السيد المسيح إلى الأرض ، ليبدأ إقامة مملكته الأرضية بنفسه لمدة ألف عام ، وهي تحتمل أن يكون المؤمنون هم الذين يقومون بتنفيذ الخطط الأولية للمملكة ونظامها أو تدبيرية ، حيث دور المؤمنين فيها ينحصر في انتظار حدوث الملك مع المساعدة قدر الإمكان لتهيئة الأجواء للحدث الجلل ، وتذليل الصعاب أمام العلامات المبشرة بقرب حدوثه ، مثل قيام دولة إسرائيل أو تدبيرية انعزالية ، وهو ما يفيد بالبعد عن الحياة بشكلها العصري الذي ألفناه ، والاكتفاء بالقراءات الروحية والصلوات اليومية ، دون أي دور إيجابي لإعداد الساحة لمجئ الملكوت .

لكن يبقى القول أيضا أن أتباع هذه المدرسة ينقسمون إلى اتجاهين ، جهة قضية أخرى سنتعرض لها لاحقا وهي «**معركة هرمجدون**» :

الأول : يرى أن المؤمنين سوف يعيشون فترة حرب هرمجدون ، والتي ستستمر لمدة سبع سنوات قبل عودة السيد المسيح ، أي يظلوا أحياء يعانون ويقاسون الأهوال التي ستحدث في تلك الحرب المفزعة ، والتي سنقرأ عنها عما قريب .

والثاني : يقول أتباعه إن الله سيخطف أحباءه ومخلصيه إلى السماء ، حتى

يجنبهم سنوات الحرب السبع ، لكنه سيأتي لاحقا إلى الأرض ثانية ليعيشوا في المملكة التي سيقيمها السيد المسيح ويملك فيها لمدة ألف عام .

والأصل أن قصة الملك الألفي تحتاج إلى مؤلف بحاله ، كي يمكن الإحاطة بأبعادها الرؤيوية واللاهوتية ، لكننا لسنا هنا في مجال البحث اللاهوتي ، بل في محاولة لسرد ملامح مختصرة لقصة الأصولية .

ومهما يكن من أمر ، فإن فكر الملك الألفي إنما يعني حقيقة واحدة ، وهي أن جزءا كبيرا من المفاهيم الدينية الروحية ، قد أصبح يشكل واقعا حياتيا يراد تحويله إلى أحداث دنيوية في الزمان والمكان من خلال العنصر البشري ، وهو ما يتسق كثيرا مع الدعاوى الأمريكية الأخيرة لنشر قيم مثل «**العدالة المطلقة**» و«**الحرية التامة**» و«**الحقوق الكاملة**» ، إذ تكون هذه الحقبة العصر الذهبي للإنسان سياسيا واجتماعيا واقتصاديا وثقافيا ، وفيها يسود العدل والسلام كل الأرض ، وتتحول الطبيعة الشريرة في كل المخلوقات إلى طبيعة خيرة ، فيعيش الحمل بجوار الأسد ، كما قال أنبياء بني إسرائيل من قبل ، يعيشان دون خوف ويضع الطفل يده في جحر الثعبان ولا يلدغ ، وسوف تخرج الصحراء خضارا وزهورا .

ونظرة إلى الماضي البعيد تفيد بأن عقيدة الملك الألفي كانت سائدة في القرون الأولى للمسيحية ، وسبب ذلك هو أن المسيحيين الأوائل كانوا يظنون أن نهاية الأيام قريبة إلى الحد الذي ظن فيه بعضهم أنها ستنتهي قبل نهاية الجيل الذي عاش فيه السيد المسيح ، وعلل كثيرون من شراح ومفسري الكتاب المقدس ذلك بفهم المسيحيين الأوائل لكتابات بولس الرسول ورؤيا يوحنا اللاهوتي ، التي كتبت في حوالي سنة 97 ميلادية في جزيرة بطمس ، وقد استمرت حتى القرن الرابع الميلادي ، لكنها بدأت في الاختفاء بعد ذلك ، خاصة بعد أن رفضها العديد من ملافنة الكنيسة وقديسيها وعلى رأسهم القديس أوغسطينوس الذي يعد واحدا من فلاسفة الكنيسة ومفكريها ، وكان رفضه لهذه العقيدة من منطلق إيماني ، وهو أن السيد المسيح لم يتكلم أبدا عن ملك دنيوي بشري ، إنما كان حديثه كله روحياً وعن مملكة روحية وليست دنيوية .

ومع العودة إلى الكتاب المقدس بالصورة التي تحدثنا عنها سلفا في الفصول الأولى ، والتي لازمت فترة التمرد المعروفة بالإصلاح الديني ، وجد هذا القطاع من المسيحيين الفرصة سانحة لإعادة إحياء نظرية الملك الألفي ، وإن كانت قد ظهرت بصورة ضعيفة في القرن السادس عشر ، إلا أنها بدأت تقوى شوكتها في النصف الثاني من القرن الثامن عشر ، خاصة في الأوساط الشعبية .

وإذا كان حديثنا عن المُلك الألفي ، فإن الجانب المتمم والمكمل له هو «**ضد المسيح**» ، ذلك لأن هذا الشخص الذي كثرت أقاويل الأنبياء عنه ، قد وجد على الدوام ملازما لفكرة الألف سنة . . قيل عنه «**الوحش**»(*) وفي مواضع أخر أيضا مع احتدام الثورات في أوروبا كانت كل جماعة ترى فيمن يناوئها ضد المسيح والوحش ، وقد أصبحت عقيدة الملك الألفي هي المعتقد لدى قسم كبير من الثوار الفرنسيين عام 1798 .

أما الحديث عن الوحش وضد المسيح ، فقد ورد ذكره في سفر الرؤيا في الإصحاح الثالث عشر ، يقول يوحنا الرائي : «ثم رأيت وحشا آخر طالعا من الأرض ، وكان له قرنان شبه خروف ، ويتكلم كتنين ، ويعمل بكل سلطان الوحش الأول أمامه ، ويجعل الأرض والساكنين فيها يسجدون للوحش الأول الذي شُفي جرحه الميت ، ويصنع آيات عظيمة ، حتى إنه يجعل نارا تنزل من السماء على الأرض قدام الناس ، ويضل الساكنين على الأرض بالآيات التي أعطى أن يصنعها أمام الوحش قائلا للساكنين على الأرض أن يصنعوا صورة للوحش الذي كان به جرح السيف وعاش وأعطى أن يعطي روحا لصورة الوحش حتى تتكلم صورة الوحش ويجعل جميع الذين لا يسجدون لصورة الوحش يقتلون ويجعل الجميع الصغار والكبار والأغنياء والفقراء والأحرار

(*) استخدم الأصوليون المسيحيون الوحش للتدليل على أشخاص كثر ، وهي تهمة جاهزة للإلصاق بأي عدو لهم ، رغم أنه في يقين مفسري الكتاب المقدس الثقاة رمز للشر أكثر منه تجسيد له في شخصية بشرية .

والعبيد تصنع لهم سمة على يدهم اليمنى أو على جبهتهم ، وألايقدر أحد أن يشتري أو يبيع إلا من له السمة أو اسم الوحش أو عدد اسمه» . . ويختتم بقوله «من له فهم فليحسب عدد الوحش ، فإنه عدد إنسان وعدده ستمائة وستة وستون» .

وفي ظل الكراهية الممقوتة التي سادت حركة التمرد الديني ضد الكنيسة الكاثوليكية ، اعتبر دعاة الإصلاح أن بابا روما رأس الكنيسة الكاثوليكية هو الوحش المذكور في سفر الرؤيا والمشار إليه بالرقم 666 .

وفي هذا يقول الدكتور القس إكرام لمعي في كتابه المتميز «**الاختراق الصهيوني للمسيحية**» : «إن أصحاب عقيدة الملك الألفي قد أخرجوا الثورة الفرنسية أيضا من قلب الكتاب المقدس كما يخرجون دولة إسرائيل عبر الزمان ، وكما فعلوا مع حرب الخليج وغيرها ، وقد قاموا بتأييد الثورة الفرنسية بسلطان الوحي ، وهذا يجعلنا نفهم لماذا يفسر أصحاب هذه العقيدة الوحش 666 على أنه هتلر أو عبد الناصر أو ريجان أو صدام حسين ، ونفهم أيضا تأييدهم لدولة إسرائيل ، فهذه التفسيرات ليست بغريبة على أسلوبهم في تفسير الكتاب المقدس» .

والمؤكد أن أصحاب الألفية من الأصوليين المسيحيين الجدد ، والذين هم رحم المحافظين الجدد وحبلهم السري ، إنما وجدوا في إسرائيل المعبر لتحقيق الأحلام التي تراودهم ومرد ذلك أنه خلال السنوات السبع التي ستستغرقها معركة هرمجدون سوف تؤمن أغلبية إسرائيل بالمسيح كالمسيا المنتظر .

وهذا الطرح يعود بنا إلى الفكر الأول لمارتن لوثر ، الذي أطلقنا عليه أبو الأصولية ، ذلك لأن هدفه الأول المعلن هو العمل على تبشير اليهود بالسيد المسيح ، الذي جاء من قبل وإقناعهم بالإيمان به ، لكن هذه المرة يرى الأصوليون الجدد أن المسيح ذاته سيجيء ثانية ليحسبه اليهود «**المسيا المنتظر**» وكأنه لم يأت من قبل .

وإن كان هذا الفهم عند اليهود لايهم الأصوليون الجدد ، فإن الأهم بالنسبة لهم هو أنه بسبب إيمان هؤلاء اليهود ، سوف يؤمن عدد كبير من الأمم بالمسيح ، وفي ختام السنوات السبع يأتي المسيح بصورة علنية وبمجد ، ويكون قد تم تجميع اليهود الذين آمنوا بالسيد المسيح أثناء الضيقة العظيمة في حرب هرمجدون من كل أنحاء العالم ليستقبلهم حيث يكون عددهم 144000 أما عن هذا العدد فمرجعه الإصحاح السابع من سفر الرؤيا في العدد الرابع ، حيث يقول الرائي : «وسمعت أن عدد المختومين مائة وأربعة وأربعون ألفاً من جميع أسباط بني إسرائيل ، من سبط يهوذا ختم اثنا عشر ألفاً ومن سبط راوبين اثنا عشر ألفا ، ومن سبط جاد اثنا عشر ألفا ، ومن سبط أشير اثنا عشر ألفا ، ومن سبط نفتالي اثنا عشر ألفاً ، ومن سبط شمعون اثنا عشر ألفا ، ومن سبط لاوي اثنا عشر ألفا ، ومن سبط زبولون اثنا عشر ألفا ، ومن سبط يوسف اثنا عشر ألفاً ، ومن سبط بنيامين ختم اثنا عشر ألفا» .

وفي ظل حكم السيد المسيح الألفي كما يوقن هؤلاء ، سيكون لليهود مكانة أعظم من كل الأمم ، فيعاد خلالها بناء الهيكل في أورشليم ، وتقدم الذبائح عليه ثانية ، ويملأ السلام والعدل والحب كل العالم ، ويرث شعب الرب «**اليهود**» الأرض ويدخلون إلى ملكوت الله كالشعب المختار .

وقد وجدت حركة الألفية دعما وتأييدا شددين من قبل **البيوريتانيين** في انجلترا بشكل أحدث تأثيرا واضحا في حياتهم ، وهو ما دعا «**ج . س ريال**» لأن يكتب عام 1870 م يقول عن البيوريتانيين : «**لقد عملوا كمواطنين صالحين لهم رجاء في هذا العالم**» ولذلك فهم من خلال رجال مثل وليم كاري ورولاند هيل ولدت رؤية الوصول بالرسالة إلى كل العالم ، وهكذا بدأت حركة الإرساليات ، **ثم إن ما حققه العالم الغربي من حضارة في حقوق الإنسان والحرية والعدالة كان نتيجة لهذا الفكر القائل بأن الله يحكم العالم ، ولذلك يجب أن يتنقى من كل فكر شيطاني منحرف** ، ونحن يمكننا أن ننتقد الإمبراطوريات المسيحية القديمة ، وتسلط الكنيسة ، وانحراف رجال الدين حسب زعمهم ، لكننا لا ننكر التقدم

الأخلاقي الذي حدث في هذه البلاد بثورة الإصلاح والحريات ، كما يدعون ، لذا فإنه يمكننا القول أن الملك الألفي الذي وجد الأرضية الخصبة له في أوروبا في القرنين السابع عشر والثامن عشر ، قد قاد إلى فعل حتمي عقائدي إن جاز التعبير ، إنما يتمثل في الإعلان للمؤمنين من خلال النبوءات عن نهاية الأزمنة والتي تكون علامتها المميزة تجمع اليهود من الشتات في فلسطين ، وقيام معركة هرمجدون .لكن ينبغي النظر عند أصحاب الملك الألفي إلى موضع اليهود بعين فاحصة ، ذلك أن عودة اليهود في واقع الأمر وحسب المفهوم الإيماني الصحيح الذي تعلمه المسيحية ، ليست وصية أو مطلبا إلهيا إلى المؤمنين ، فالمسيحيون غير مطالبين بالعمل لعودة اليهود ، لكن موقع اليهود في هذا الفكر هو أنهم سيعودون بفعل إرادة الله التي فهموا هم أبعادها حسب قراءتهم الشخصية لسفر الرؤيا تحديدا .لذا فإن التساؤل : من يستطيع أو يملك الوقوف أمام إرادة الله بعودة هؤلاء إلى أرض فلسطين؟ وهنا تتجلى معالم العودة السياسية بدءا من وعد بلفور في عام 1917 ، مرورا بقرار التقسيم في عام 1947 ، وصولا إلى دعم ومساندة والاعترف بدولة إسرائيل عام 1948 .وفي هذه كلها كان الألفيون داعما رئيساً ورافداً أساسياً للعودة اليهودية ، ذلك أنه دونها لن يتحقق الخلاص المنتظر بعودة السيد المسيح إلى الأرض ثانية .لذا فإن إسرائيل اليوم هي إسرائيل المقصودة في الفكر الألفي ، وعليه فإن نهاية العالم على الأبواب ، والبعض من منتظري الألفية ينتظر نهاية العالم في غضون سنوات ، والكثيرون يعتقدون أن النهاية ستتم في خلال حياتهم ، وهذا الموقف يجعل المؤمن بالملك الألفي يرى أن إسرائيل الحالية تحقيق لإرادة الله ويصبح موقفه منها شائكا .

وكما يقول د .رفيق حبيب في كتابه «المسيحية والحرب» : «إنه إذا كانت انجلترا في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين ، تمثل ذروة للأصولية السياسية ، فإن الفترة اللاحقة لذلك كانت تمثل نهاية أصولية القرن التاسع عشر وما قبله ، وقيام تيار أصولي جديد يمتد بجذوره إلى عام 1910 ، وهذا التيار الجديد تميز فيما بعد بالانعزالية الواضحة والتراجع عن مكان الصدارة ، مما أفسح

المجال أمام القوى المسيحية الليبرالية واليسارية» . والحق أن التيار الأصولي المسيحي كان قد استكان قابعا ومعتزلا حتى بدأت بذور تأسيسه في أربعينيات القرن العشرين(*) على يد الواعظ الأشهر **بلي جراهام** ، وكانت المعركة بين إسرائيل والعرب في عام 1967 منعطفا خطيرا ، دعم هذا الاتجاه الأصولي لتبدأ الأصولية السياسية طرح أوراقها على العامة والخاصة في الولايات المتحدة تحديدا ، لتصل إلى الذروة في الثمانينيات وعلى يد الرئيس الأمريكي رونالد ريجان .

ومع وصول ريجان(**) إلى الحكم ، تحولت الأصولية السياسية من الفكر **الألفي التدبيري** الذي يرى أن الله هو الذي سيتدبر تنفيذ مخطط العودة وإعلان ملك الألف سنة إلى **الألفية السياسية** إن جاز التعبير ، والتي فيها تقوم القوى الأصولية بتسييس الدين ، وإعداد نفسها لمعارك مع التيارات المناوئة سواء الدينية أو غير الدينية لتنفيذ مخططاتها التي تقف وراء الإعداد للألفية الجديدة .

وكما سبق القول ، فإن طرح الألفية بأبعادها هو من القضايا اللاهوتية الشائكة ، والتي لا نريد إقحام القارئ فيها ، ذلك لأنها شأن المشتغلين بالقضايا البحثية اللاهوتية في الأديان كافة ، وليست في المسيحية فقط ، لكن يبقى حق القارئ في أن نحيطه علما بأن هذا الفكر قوض من الكنيسة الكاثوليكية والكنيسة الأرثوذكسية على السواء ، ذلك لأن الألف سنة التي يتحدث عنها سفر الرؤيا والتي يملك فيها المسيح على المؤمنين ـ كما تراها الكنائس ذات الجذور الرسولية ـ هي الفترة ما بين قيامته من بين الأموات وإلى مجيئه الثاني ، وهي فترة طويلة

(*) وقد تزامن ذلك مع تأسيس وإعلان قيام دولة إسرائيل عام 1948 ، بعد قرار التقسيم الشهير الصادر عن هيئة الأمم في نوفمبر من عام 1947 فيما يعد إكمالاً للنبوءة المحقق ذاتها بذاتها عن قيام دولة إسرائيل وعبر النصف الثاني من القرن العشرين كانت الأصولية اليمينية المسيحية تنطلق من القمقم دون رادع أو وازع .

(**) كان ريجان المثال الحي الأول للرئيس الأمريكي الذي يجاهر علنا بصدق الرؤى التوراتية ، خاصة رؤية حزقيال النبي ، واعتمد عليه اعتماداً كليا في مواجهة الدب الروسي وتفسير ما ورد في العهد القديم تفسيراً حرفيا .

ممتدة يرمز لها الإنجيل بعدد 1000 سنة ، وهو رقم رمزي غير محدد بعدد الألف ، بل يمتد إلى آلاف وآلاف من السنين .

أما في المرحلة المتوسطة ، أي التي قبل المجيء الثاني ، فسوف يحل فيها الشيطان من سجنه قليلا ليخرج ليضل الأمم غير المؤمنة بالسيد المسيح ، والتي يسميهم سفر الرؤيا «**يأجوج ومأجوج**» .

والحادث أنه مهما يجهد المفسرون أنفسهم ليعطوا أسماء حديثة ليأجوج ومأجوج ، فلن يصدقوا في تفسيراتهم ، لأن كل الأسماء في سفر الرؤيا ذات سمة سرية MYSTICAL أي هي أسماء تخفي وراءها معاني روحية أعلى وأبعد من التفسير المادي .

فالبعض كانوا يقولون إن يأجوج ومأجوج هم شعوب السكيبثين قديما المسمون بالمغول ، وهم أكثر الشعوب في التاريخ ولعا بالتدمير والقتل . والبعض حديثا يقولون إنهم شعوب الشمال مثل روسيا . لكن كل هذه المقولات خائبة لأن اسم يأجوج ومأجوج رمزي ، ويشير إلى حشود المحاربين الشرسين الذين سوف يتجمعون معا تحت إمرة الضد للمسيح لمحاربة كنيسة المسيح والمؤمنين الأتقياء ، وسوف يمتد اضطهادهم للمسيحيين إلى مدى الأرض كلها ، وينتشرون في كل مكان لاضطهاد المسيحيين والمسيحية كما تعلم الكنيسة .

وفي هذا ، فإن محاولات الوعاظ والمفسرين تطبيق الأحداث السياسية اليومية على ما ورد في سفر الرؤيا من نبوءات بطريقة قاطعة ، لا يتفق مع الطبيعة الميستيكية السرية لسفر الرؤيا ، وهم بلاشك قاصرون في تفسيراتهم هذه ، لأن هذه الأحداث السياسية اليومية والكوارث الطبيعية ليست جديدة على التاريخ الإنساني ، بل هي في تكرار مستمر ، كما أنه لا منفعة من وراء عملية التطبيق هذه ، لأن القصد من وراء رؤيا يوحنا اللاهوتي ، ليس التنبؤ بأحداث سياسية أو بكوارث طبيعية ، وإلا يكون السفر قد خرج عن كونه سفرا من أسفار الكتاب المقدس ذات الغرض الواضح والمحدد وهو محبة الله للإنسان وخلقه له وتدبيره الخلاصي للبشر وتجديد الخليقة .

بل إن جل هدف السفر ، هو تنبيه المؤمنين والكنائس للسهر والصلاة ، والاستعداد لمواجهة الحرب الكونية بين المسيح والشيطان وجنوده من البشر ، وذلك بالصلاة والثبات على الإيمان ، والقدرة على التمييز بين الخير والشر «المغلف بالخير أحيانا» ، والتفريق بين الإيمان الصحيح والإيمان الباطل المزيف المغلف بالظواهر والمظاهر الخارقة البراقة . لذا فإنه لا حاجة للمسيحي ولا حتمية عليه ، لأن يستقي تنبؤات للأوضاع السياسية في العالم استنادا إلى نصوص سفر الرؤيا .

لكن هذه السطور التي تعبر عن الفكر الإيماني النقي غير المخترق ، لا تجد لها أرضية ، ولم تجد في الثلاثين سنة الماضية في الولايات المتحدة سندا أو دعما ، حيث احتدم الصراع بين الكتلة الشيوعية والعالم الغربي الرأسمالي ، وقد كان لفكر المُلْك الألفي نصيب الأسد من هذا الصراع ، خاصة أنه كان مدفوعا بأبعاد معركة هرمجدون ، والتي كانت تشير التحليلات إلى أن الاتحاد السوفيتي السابق سيكون طرفاً فيها .

لكن اليوم ، وبعد زواله ، تتعدد الآراء ، وفي معظمها نجد إجماعا على أن العالم الإسلامي هو الخليفة المرشح للمواجهة .

ومابين هذه وتلك ، رسخ فكر «المُلْك الألفي» للحضور الإسرائيلي في أرض فلسطين ، إذ لامجيء للمسيح دون عودة لليهود ، حتى إن إعلانا نشر في العديد من وسائل الإعلام الأمريكية عبر السنوات الماضية يقول «ساهم في التعجيل بعودة المسيح ثانية من خلال مساهتك في بناء مستوطنة لليهود في إسرائيل » .

هذه هي صورة سريعة للمُلْك الألفي الإسرائيلي كما تصح تسميته ، لا الملك الألفي المسيحي كما يزعمون .

الفصل الحادي عشر

معركة هرمجدون

- معركة هرمجدون وعلاقتها بالأصولية المسيحية
- المعركة الفاصلة بين قوى الشر وقوى الخير
- هرمجدون وتجمع إسرائيل ثانية
- هرمجدون وتعاطف اليمين الأمريكي مع اليهود
- تأصيل هرمجدون من خلال جراهام وفالويل وروبرتسون وأمثالهم

الفصل الحادي عشر

معركة هرمجدون

استعرضنا في الفصل السابق ، الخطوط العريضة لنظرية الملك الألفي . وربما كان الأجدر بنا ، أن نفرد لقصة معركة «هرمجدون» الفصل الذي يسبقه ، لكنني فضلت العكس ، من منطلق أن تأثير نظرية الملك الألفي ، يخدم فكرة الكتاب «الأصولية المسيحية الأمريكية» ، أكثر مما تفعل رواية معركة هرمجدون ، والتي يستتبعها الملك الألفي عند أصحابه .

فماذا عن معركة هرمجدون؟

وما علاقتها بموضوع الأصولية المسيحية؟

والدور اليهودي فيها ؟

من بين أهم أحداث الأزمنة الأخيرة ، التي تدخل في إطار ما يسمى بعلم الاسكاتولوجي(*) تأتي رواية هرمجدون ، المعركة الفاصلة على الأرض بين قوى الشر وقوى الخير . ولعل أول من تحدث عنها في العهد القديم ، كان النبي زكريا قبل يوحنا اللاهوتي بسنوات طوال . فيقول في السفر الخاص به «**ويكون في ذلك اليوم أني ألتمس هلاك كل الأمم في بقعة «هددرمون» في بقعة مجدون»**

(*) يعد الرسول بولس إضافة إلى يوحنا اللاهوتي ، هما من أرسيا قواعد هذا الاتجاه الديني ، ذلك لأنه في بداية المسيحية ، كان هناك ظن كبير بأن القيامة قريبة جداً وأن المنتهى على الأبواب .

(زك6:14-9) ويضيف «**ويكون في ذلك اليوم أنه لايكون نور ، ويكون الرب ملكاً على كل الأرض في ذلك اليوم ، يكون الرب وحده واسمه وحده»(زك14:6-9)** .

أما عند يوحنا اللاهوتي في سفر الرؤيا الخاص به ، فنجد الحديث عن معركة هرمجدون في الإصحاح السادس عشر في سفره ، بداية من العدد 12 حتى نهاية الإصحاح . وفيه يقول «وسكب الملاك السادس كأسه على نهر الفرات الكبير فجف ماؤه ليصير ممرا للملوك القادمين من الشرق ، وعند هذا رأيت ثلاثة أرواح نجسة تشبه الضفادع ، تخرج من فم التنين ، ومن فم الوحش ، ومن فم النبي الدجال . وهي أرواح شيطانية قادرة على صنع المعجزات ، تذهب إلى ملوك الأرض جميعا وتجمعهم للحرب في ذلك اليوم العظيم ، يوم الله القادر على كل شيء . ها أنا آت كما يأتي اللص . طوبى لمن يكون بانتظاري ساهرا وحارسا لثيابه لئلا يمشي عريانا فيرى الناس عورته . وجمعت الأرواح الشيطانية جيوش العالم كلها في مكان يسمى بالعبرية هرمجدون» .

وأضاف «ثم سكب الملاك السابع كأسه على الهواء فدوى صوت من العرش في الهيكل السماوي يقول ، قد تم ، فحدثت بروق وأصوات ورعود وزلزال عنيف لم تشهد الأرض له مثيلا منذ وجد الإنسان على الأرض ، لأنه كان زلزالا عنيفا جدا» .

وأردف «فانقسمت المدينة العظمى إلى ثلاثة أقسام ، وحل الدمار بمدن الأمم . فقد ذكر الله بابل العظمى ليسقيها كأسا تفور بخمر غضبه ، وهربت الجزر كلها ، واختفت الجبال وتساقط من السماء على الناس برد كبير ، كل حبة منه بمقدار وزن واحدة ، فجدف الناس على الله بسبب هذه البلية الشديدة جدا» .

هكذا نرى في وصف يوحنا سيناريو مرعباً ومريعاً لهذا اليوم ، وربما يتساءل الكثيرون أين تقع هرمجدون ؟

جغرافيا : تقع إلى الغرب من نهر الأردن بين الجليل والسامرة في سهل

يزرعيل . وكان أن وقف نابيلون فيها أثناء حملته على الشرق الأوسط قائلا : «**إن هذا المكان سيكون مسرحا لأعظم معركة في العالم**» .

كانت مجدو في العصور الغابرة مدينة على درجة كبيرة من الأهمية ، إذ كانت تقع على مفترق استراتيجي عسكري ، كما كانت ممرا للقوافل ، كما أن الطريق الساحلي الذي يربط مصر بدمشق وبالشرق كان يمر عبر وادي مجدو .

وتذكر الكاتبة الأمريكية جريس هالسل في كتابها «**يد الله**» أن بعض المؤرخين يعتقدون بأن هذا المكان ، شهد من المعارك في التاريخ أكثر مما شهده أي مكان آخر في العالم ، بل كان الغزاة الأقدمون يقولون إن القائد الذي يسيطر على مجدو يستطيع مقاومة كل الغزاة .

وتتكون كلمة هرمجدون من مقطعين ، **الأول** : **هو هار** ، ومعناها الجبل . **ومجدو** ، أي أنها تعني جبال مجدو . وهي لها علاقة وثيقة بالعهد القديم وبفترة المد اليهودي والانتصارات التي عاشها الشعب العبراني على يد يشوع . إذ نقرأ في الإصحاح الثاني عشر من سفره ، كيف أنه هزم الكنعانيين في معركة واحدة . وبعد قرنين من الزمان ، انتصر الإسرائيليون بقيادة ديبورا وباراك في المركة على القائد الكنعاني سيسيرا (يشوع21:12) . ويذكر أيضا أن سليمان الحكيم عمل بعد ذلك على تحصين المدينة ذاتها ، جاعلا منها مركزا عسكريا لأحصنته ولعرباته . وفي التاريخ القريب ، شهدت هذه المنطقة معارك مهمة . فمع اقتراب الحرب العالمية الأولى من نهايتها في عام 1918 ، حقق الجنرال البريطاني اللنبي انتصارا أساسيا على الأتراك في مجدو .

والأصل في علاقة هرمجدون إنها تخص تجمع اليهود في فلسطين ، ذلك أنه دون أن يجتمعوا في المدينة المقدسة ، لن يكون للمعركة غرض أو هدف ، لأن الهدف الرئيسي لها ـ كما يتقولون ـ هو الهجوم على «**معسكر القديسين**» «**اليهود**» في أورشليم وجميع بقاع اليهودية ، وهو مسوغ لا يقبل التشكيك فيه عندهم للعمل على توطين القدر الأكبر منهم قبل يوم المعركة الأعظم . لكن الذين يذهبون الآن والذين ذهبوا من قبل ، محكوم عليهم بأن يُقضى على

ثلثهم . أما المرجع في ذلك ، فهو ما ورد في نبوءة زكريا الإصحاح الثالث عشر . إذ يقول «**ويقول الرب القدير استيقظ أيها السيف وهاجم راعي ورجل رفقتي ، اضرب الراعي فتتبدد الخراف ، ولكنني أرد يدي عن الصغار**» (أي القلة المؤمنة) «**يقول الرب فيفنى ثلثا شعب أرضي ويبقى ثلثهم حيا فقط ، فأجيز هذا الثلث في النار لأنقية تنقية الفضة ، وأمحصه كما يمحص الذهب هو يدعو باسمي وأنا أستجيبه ، أنا أقول هو شعبي وهو يقول الرب هو إلهي**» ومعنى ذلك أنه إذا كان عدد اليهود في العالم اليوم ثلاثة عشر مليوناً ونصف المليون ، فإن فهم نبوءة زكريا على مطلقها يعني أن 9 ملايين يهودي سوف يقتلون في هذه المعركة أكثر من كل اليهود الذين قتلوا من قبل في جميع المعارك التي خاضوها ، مما يجعل الدم يسيل ، بحيث يشبه الخمر المعصور ، وعلى 200 ميل فإن الدم سوف يصل إلى ألجمة الخيل .

ومعنى أن ثلث اليهود سيبقى هو خلاصهم من أعدائهم الذين أحاطوا بهم ، كما أن نصرة إسرائيل على ملوك الشرق ، ستكون بذراع رفيعة من إله إسرائيل على ملوك الشرق ، وهو نفس المصطلح الذي استخدم في خروج بني إسرائيل من مصر «**والله عنده كل ما يحتاج إليه من أجل تدمير أولئك الذين صمموا على إلحاق الأذى بإسرائيل**» .

ولكي يكتمل تعاطف اليمين المسيحي مع اليهود المساكين الذين سيتعرضون للإبادة ـ لولا يد الله التي ستناصرهم ـ يستحضر دعاة اليمين هذا المشهد الدرامي الذي سبق وتحدث عنه حزقيال النبي في الإصحاح الثاني عشر ـ العدد التاسع والثلاثين من سفره ـ وفيه يصف احتياج اليهود الذين يعيشون في إسرائيل إلى سبعة أشهر لدفن جميع الجنود الموتى . يقول حزقيال «**وستمر سبعة(*) أشهر حتى يتمكن بيت إسرائيل من دفنهم قبل أن ينظفوا الأرض**» .

(*) عدد سبعة يرمز إلى الوفرة والكثرة وإلى كمال التمام ، فالله خلق العالم في سبعة أيام ، واليوم السابع هو المقدس عند اليهود فسبعة شهور معنى رمزي وليس رقمياً .

ولقرية مجدو ومن خلفها معركة هرمجدون مع بني إسرائيل ، تاريخ ورؤية . تاريخ ينسحب على الماضي ، ورؤية تتحقق في المستقبل كما يرونه .

أما عن التاريخ ، فإضافة إلى ما تقدم ، فقد كانت فلسطين على مدى التاريخ ميدان قتال لمعركتين كبريين . نشبت أولاهما في القرن الخامس عشر ق .م بين جيش مصر بقيادة تحتمس الثالث وجيش ائتلاف كنعاني سحقه تحتمس ، ودارت رحى الثانية في عهد الملك يوشيا سنة 608 ق .م عندما «**صعد نخو فرعون مصر على ملك آشور إلى نهر الفرات ، فتصدى له الملك يوشيا في مجدو فقتل نخو الملك يوشيا حين رآه وأركبه عبيده ميتا من مجدو ، وحملوه إلى أورشليم فدفنوه هناك**» الملوك الثاني (23:29-30) . ويقول إسحاق عظيموف في كتابه «**دليل عظيموف إلى الكتاب المقدس**» الصادر في نيويورك «إن مصرع يوشيا مع حلقيا الكاهن في مجدو ، جعل لتلك البلدة سمعة خاصة لدى اليهود ، بوصفها رمزا للكوارث والنكبات ، إلا أن الأقرب إلى الواقع أن الهزيمة التي لحقت بيوشيا على أيدي المصريين كانت ماحقة ، وترتب عليها دفع جزية ثقيلة من الذهب والفضة لفرعون ، مما تطلب فرض ضرائب ثقيلة على الشعب» .

لذا فإنه من الطبيعي ـ بالنظر إلى تلك الخلفية التاريخية ـ أن تكون مجدو هي المعركة الكبرى الممسوحة بمسحة مسيحانية دينية تلتبس فيها الخيوط والخطوط ما بين اليهودية والمسيحية . ذلك أنه بعدها سيقوم ملك صهيون على كل الأرض ، ويتسيد شعب يهوه المختار كل الأمم ، ويكون الأمر بمثابة إنهاء فعلي لتاريخ العالم العلماني القديم ، وابتداء لعالم جديد سماؤه جديدة ، وأرضه جديدة ، وفي قلبه أورشليم جديدة حسب فهم دعاة اليمين بما جاء في سفر الرؤيا ـ الإصحاح الحادي والعشرون من العدد الأول إلى الرابع . حيث يقول الرائي «**ثم رأيت سماء جديدة ، وأرضا جديدة ، لأن السماء الأولى ولت ، والأرض الأولى مضت والبحر لم يعد له وجود ، وأنا يوحنا رأيت المدينة المقدسة أورشليم الجديدة نازلة من السماء من عند الله ، مهيأة كعروس مزينة لرجلها ، وسمعت صوتا عظيما من السماء قائلا هوذا مسكن الله مع الناس ، وهو سيسكن معهم ، وهم يكونون له شعبا والله نفسه يكون معهم إلها لهم ، وسيمسح الله كل دمعة من عيونهم ،**

والموت لا يكون فيما بعد ، ولا يكون حزناً ولا صراخاً ولا وجعاً فيما بعد ، لأن الأمور الأولى قد مضت» .

أما عن أبعاد المعركة فيصفها القس هال لندسي(*) من الإنجيليين المتجددين بقوله إنها ستبدأ بما يشبه المحرقة عندما يغزو العرب والروس دولة إسرائيل ويضيف :

«تأملوا مئتي مليون من البشر في الشرق ، وملايين أخرى من البشر في الغرب ، بقيادة المسيح الدجال «**ضد المسيح**» ويصف لندسي المشهد فيقول «**سيضرب المسيح يسوع أولاً أولئك الذين دمروا مدينة القدس ، وبعدها سيضرب الجيوش المحتشدة في وادي هرمجدون ، ولا عجب أن يبلغ الدم شكائم الخيل**» ويخبرنا الإنجيل في رؤيا يوحنا «**إن الرب سيدمر الكون ـ الأرض والسماوات**» . كما يقول بطرس في كتاباته إن الدمار سيحدث كما الانفجار المروع .

وإذا كان هذا السيناريو المرعب غير معقول لدى الكثيرين ، فإن لندسي يُجزم بأنه إذا كان الإنسان لا يستطيع أن يتصور مثل هذه الوحشية من الإنسان تجاه الإنسان ، فإن الرب سيدع طبيعة الإنسان تكشف عن ذاتها في ذلك اليوم . . . تصوروا مدنا مثل لندن وباريس وطوكيو ونيويورك ولوس أنجلوس وشيكاغو وقد زالت من الوجود .

أما عند القس جيري فالويل ، من الكنيسة المعمدانية وأحد كبار منظري الأصولية المسيحية الجديدة ، فيرسم السيناريو لهرمجدون حسب معطياته ، والتي تبدأ بانتقال المسيح الدجال ـ لم يقل لنا انتقاله من أين إلى الشرق الأوسط ـ ويرفع تمثاله في قدس الأقداس(**) من المعبد اليهودي هيكل سليمان الجديد الذي

(*)Hal Lindsay " The late Great Planet Earth " New York 1980.

(**) قدس الأقداس في هيكل سليمان كان المكان الذي لا يستطيع أحد أن يدخله سوى رئيس الكهنة مرة واحدة في السنة من أجل تقديم الذبيحة .

يجب إعادة بنائه كما يخططون ، ويأمر العالم كله أن يعبده كإله ليس غيره ، وفي هذا الوقت ـ وقت معركة هرمجدون ـ سيذبح الملايين من اليهود الأتقياء ، وستنجو قلة منهم . ويؤكد فالويل على نبوءة زكريا النبي ، السابق الإشارة إليها ، وهي مقتل ثلثي اليهود ، لكن الثلث الآخر سينجو وسيخبئهم الرب لنفسه بصورة خارقة للطبيعة في مدينة «**بترا الوردية**» ، ولو سألتني كيف؟ أقول لا أعرف ، لكن الرب سيحفظهم ، لأن اليهود هم شعب الله المختار ، سيحتشد الملايين في منطقة هرمجدون ، وسيصل العدد في المحرقة النهائية إلى 400 مليون ، وسينصَّب في هذا اليوم غضب الله الشديد كمعصرة خمر ، سيجف نهر الفرات ، وسيتم تدمير القدس ، وستنهش صقور السماء لحم الملوك والقادة ولحم الرجال الأشداء ولحم الخيول وجميع الناس صغارا أو كبارا ، عبيدا وأحرارا .

وبنفس المنظور اللوثري الذي تعرضنا له أكثر من مرة ـ منظور العمل مع اليهود ومن خلالهم ، لردهم إلى المسيحية وإدخالهم حظيرة الخراف ـ يستند الأصوليون اليمينيون إلى نفس المنطق ، فهرمجدون بعدها مسيحي ، لكن هذا البعد لابد وأن يمر من خلال البوتقة الصهيونية اليهودية أولا ، وهذا ما يشير إليه لندسي «**سيبقى فقط 144 ألف يهودي على قيد الحياة بعد معركة هرمجدون ، وسينحني كل واحد منهم ـ الرجل والمرأة والطفل ـ أمام المسيح كمتحولين إلى المسيحية ، فإن كل الناضجين سوف يبدأون التبشير ببشارة المسيح**» ويضيف ليندسي «تصوروا أنهم سيصبحون 144 ألف يهودي مثل بيلي جراهام « **الواعظ اليميني الأشهر**» أطلق العنان لهم فورا» .

وغنى عن البيان ، أن الإعداد لمعركة بهذا الشكل ، إنما هو إعداد لحرب عالمية ، لكن هذه المرة سببها ديني روحي ، وليس نزاعاً أيديولوجياً بين معسكرين كالرأسمالية والشيوعية ، لكن البعد الديني هو الأوفر حظا .

يقول أحدهم متسائلا : لماذا هرمجدون؟

ولماذا يقوم أعداء المسيح بتجييش جيوشهم في العالم ضد المسيح الإله؟

تأتي الإجابة

أولا : لأنهم يكرهون سيادة الله ، فالمعركة كانت دائما الشيطان ضد المسيح ، تلك هي المسألة .

وثانيا : لأن هذه الأمم ستأتي بسبب تضليل الشيطان .

وثالثا : بسبب كراهية الأمم ليسوع المسيح .

ولعل المبررات تأخذ الوازع والطابع الديني الخلاق من وجهة النظر اليمينية ، لكنها في فحواها مغالطات للمعنى والمبنى المسيحي الحقيقي ، وهو ما سنتعرض له لاحقا . لكن ما نود قوله هو أن إسرائيل تأخذ من هذه الرؤية ستارا واقيا ودرعا لحمايتها وتأصيل وجودها واستمرار احتلالها للأرض المقدسة في فلسطين .

وفي السياق المتقدم نجد إعلانا أمريكيا بهذه الصورة يوضح إلى أي مدى ساهم الفكر الألفي ، وأبعاد معركة هرمجدون في تزعم الحق بأحقية إسرائيل وضرورة وجودها وتسهيل حياة مهاجريها .

يقول الإعلان «**يسوع المسيح يدعوك لتبني مستوطنة**» ويكمل «**الكي تفوز بملكوت السماء ورضا الرب يسوع ، ادعم مستوطنات السامرة**» وتحت هذا النداء صورة لعائلة يهودية مكونة من أب وأم وثلاثة من الأولاد متكئين على حجر أمام إحدى المستوطنات وحولهم عبارة «**تخرج من عين دامعة تقول تذكرهم في صلواتك**» .

أما العنوان الذي يجب أن تتصل عليه ـ كما جاء على إحدى شبكات الإنترنت ـ فقد كان يخص جماعة تطلق على نفسها «**منظمة النبي يوشع**» . . والتي يرأسها القس «**تد باكت**» أحد علامات اليمين المسيحي المتطرف في الولايات المتحدة من الكنيسة الإنجيلية ، والذي يضع افتتاحية عصماء على الشاشة يقول فيها ضمن ما يقوله «**إن هذا هو الوقت المناسب الذي يتوجب على المسيحيين فيه أن يتوجهوا لعملية السلام الحقيقية التي ستؤدي للمصالحة والحب**» ونتساءل : كيف(*)؟

(*) كيف يمكن للولايات المتحدة الأمريكية أن تكون طرفا عادلا في تحقيق سلام قائم على العدالة في الشرق الأوسط وهي واقعة تحت مثل هذه التأثيرات الدينية .

يجيب الرجل بقوله : إن ما نراه اليوم من عملية السلام الدائرة رحاها الآن في الشرق الأوسط ، هو زيف وخداع ، أما السلام الحقيقي الذي سيأتي للعالم فمن خلال دعم الشعب اليهودي الذي تنحصر رغبته في الإقامة على الأرض التي أعطاها له الرب ، ويضيف القس **باكت** أن هؤلاء اليهود لا يسعون لطرد العرب ولا يقومون بتدمير القرى والبيوت ولا يقصفون الأحياء السكنية ، كل ما يبتغونه هو أن يعيشوا حياتهم داخل مستوطناتهم بسلام حقيقي .

أما الذي يدفع القس باكت لذلك ، فهو يستند إلى نبوءات يوشع النبي من وجهة نظره ، والتي تؤكد على أن الكثيرين من غير اليهود ، إنما يأتون إلى البلاد قبيل الخلاص ، لإيمانهم أن الخلاص سيأتي من إسرائيل ، واستنادا إلى هذه المقولة تؤمن هذه الطوائف - على اختلاف مللها ونحلها - بأن بقاء دولة إسرائيل وازدهارها ، خطوة مهمة تمهد الطريق لعودة المسيح وتخليصه لليهود ، ولهؤلاء المؤمنين من غير اليهود .ولا يقتصر الأمر على الجمعيات أو المنظمات اليمينية بل هناك جمعيات يهودية أخرى تقوم على جمع التبرعات من أجل بناء المستوطنات إعدادا للمعركة الأخيرة ، منها على سبيل المثال جمعية «**شوفايسرائيل**» أو عودة إسرائيل .

وربما أكثر ما استوقفني هنا ، هو الأسلوب المتبع من قبل اليهود في الحصول على تبرعات المسيحيين اليمينيين ، ذلك أن الحاخامات يقولون إن المشكلة في الشريعة التوراتية عندنا ليست في عملية جمع التبرعات في حد ذاتها ، ولكن في الطريقة التي تجري بها ، ولذا نراهم قد نشطوا في إعطاء الإرشادات الدينية لمن يتولون عملية الجمع ، والتي منها تأكيدهم على ألا ينشأ موقف من عملية الجمع يظهر فيه المسيحي في صورة المتفضل على اليهودي . ويقولون تبريرا لذلك : إن المعروف لا يأتي إلا من قبل اليهود فقط . . . ويضيفون موجهين كلامهم لجامعي التبرعات من المنظمات اليهودية : عليكم ألا تقولوا إن هذا المال لمساعدة اليهود الفقراء أو المهاجرين الذين ليس لديهم مال أو أنه تفضل منكم بل هو تبرع وتبرع فقط من أجل تحقيق أحلامكم وأهدافكم المسيحية في مجئ المسيح .أما المسيح

اليهودي الذي سيجئ فيختلف عن الناصري(*) الذي جاء والذين يكرهونه كراهية المبصر للعمى ، والدليل على ذلك ، أنه في إحدى الحملات التي أقيمت في ولاية ماساشوستس معقل اليهود الأول في الولايات المتحدة ، كان هناك صليب كبير وضع كخلفية خلف المنصة ، مما جعل القائمين عن العمل من حاخامات الولاية يرفضون بداية الحفل ، إلا بعد أن يغطوا الصليب حتى لا يظهر ، ومعنى ذلك هو رفض المسيح بن مريم الذي جاء «**لا يخاصم ولا يصيح ولا يرفع صوته في الشوارع**» ويعني انتظارهم للمسيح المحارب القائد الذي يبيد ويهلك جميع أعدائه والذي هو أقرب إلى صورة الكاوبوي صاحب السلاح الأسرع والأفعل في ميدان المعركة .لابد إذن من العودة والعودة السريعة ، فلا اختطاف للمؤمنين إلا في الملك الألفي ، ولا ملك ألفي إلا بعد معركة هرمجدون التي يقول عنها بيلي جراهام(**) الواعظ البروتستانتي الأشهر «المعركة الرهيبة التي ستتجمع فيها كل جيوش العالم ، ومعها ستصبح «**عاصفة الصحراء**» كلعبة الأطفال أمام رعب تلك المعركة ، بل إنه سيأتي بنفسه ـ والإشارة هنا تفيد عودة السيد المسيح ثانية ـ ويحسم المعركة كما يريدها هو ، وفي الألف سنة الحرفية يعد وجود إسرائيل في مواجهة الأمم أمراً حتميا ومواجهة لابد من حدوثها شئنا أم أبينا ، وهذا يؤكد أننا نقترب اليوم من بداية هذا الملك ، ذلك أنه طالما بقيت حكومات على الأرض ، وساد ملوك فإن الشر هو الذي سيسمح بقرب ساعة الخلاص والمواجهة أي أنه نفس المنهج الذي حذر منه البعض من قبل «**فلنرتكب السيئات لكي تأتينا الحسنات**» فحتى لو كان تجميع اليهود على حساب ساكني الأرض الأصليين فلا يهم في شئ ، لأن الغرض الأسمى هو تهيئة المسرح للملكوت .

(*) انتظر اليهود مسيحا محاربا يخلصهم من نير الرومان وطغيانهم ، مسيحا عسكرياً ، أما يسوع الناصري فقد أوجز دعوته في قوله أحبب الرب إلهك من كل قلبك ومن كل قدرتك وأحبب قريبك كنفسك ، لذا كان لابد له أن يرفض من الشعب غليظ الرقبة .

(**) يقول بيلي جرهام إن الله لابد وأن يعتذر لصادوم وعامورة بسبب حرقهما لما كان فيهما من فساد . أما اليوم فالفساد والشذوذ محمي في أمريكا بقوة القانون فأي عقاب تستحقه أمريكا ؟ ومع ذلك يرى مجددا دورها في معركة هرمجدون وهنا تتجلى فكرة تكافؤ الأضداد في الروح الأمريكية .

ولا يستقيم الحديث عن هرمجدون دون التطرق إلى قصة يأجوج ومأجوج ، وهي التي وردت في سفر حزقيال النبي في الإصحاح الثامن والثلاثين ، حيث يقول بداية من العدد الأول حتى الرابع «وكان إلى كلام الرب يهوه قائلا يا ابن آدم اجعل وجهك على يأجوج أرض مأجوج رئيس روش ماشك وتوبال وتنبأ عليه وقل هكذا قال السيد الرب ، هآنذا عليك يأجوج رئيس روش ماشك وتوبال وأرجعك واضع شكائم في فكيك في ذلك اليوم عند سكني شعبي إسرائيل أفلا تعلم . . وتأتي من موضعك من أقاصي الشمال أنت وشعوب كثيرة معك كلهم راكبون خيلا جماعة عظيمة وجيش كثير وتصعد على شعبي إسرائيل كسحابة تغشى الأرض في الأيام الأخيرة يكون ذلك وآتي بك على أرضي لكي تعرفني الأمم حين أتقدس فيك أمام أعينهم يأجوج» .

ثم يضيف بدءا من العدد الرابع عشر حتى العدد الثالث والعشرين «ويكون في ذلك اليوم ، يوم مجئ يأجوج على أرض إسرائيل ، يقول السيد الرب إن غضبي يصعد في أنفي وفي غيرتي في نار سخطي ، تكلمت أنه في ذلك اليوم يوم الرب يكون رعش عظيم في أرض إسرائيل ، فترعش أمامي سمك البحر وطيور السماء ووحوش الحقل والدابات التي تدب على الأرض وكل الناس الذين على وجه الأرض ، وتندك الجبال ، وتسقط المعاقل ، وتسقط كل الأسوار إلى الأرض ، واستدعي السيف عليه في كل جبالي . يقول السيد الرب : فيكون سيف كل واحد على أخيه وأعاقبه بالوباء وبالدم وأمطر عليه وعلى جيشه وعلى الشعوب الكثيرة الذين معه مطرا جارفا وحجارة برد عظيمة ونارا وكبريتا ، فأتعظم وأتقدس وأعرف في عيون أمم كثيرة» اشتهر **«فيعلمون إني أنا الرب»** .

هذا هو إذن بداية سيناريو المعركة التي تسبق المعركة الأخيرة ـ معركة هرمجدون ـ وهذا هو يأجوج ملك ملوك الشمال الذي سيقود المعركة ، وهو من سيفرد له حزقيال النبي فصلا جديدا هو الفصل التاسع والثلاثون ، وفيه يقول بدءا من العدد الأول حتى العدد الثامن : «وأنت يا ابن آدم تنبأ على يأجوج وقل هكذا قال السيد الرب يهوه هآنذا عليك يأجوج رئيس روش ماشك وتوبال وأردك وأقودك وأصعدك من أقاصي الشمال وآتي بك على جبال إسرائيل

وأضرب قوسك من يدك اليسرى ، وأسقط سهامك من يدك اليمنى فتسقط على جبال إسرائيل أنت وكل جيشك والشعوب الذين معك ،أبدلك مأكلا للطيور الكاسرة من كل نوع ولوحوش الحقل على وجه الحقل تسقط لأني تكلمت . يقول السيد الرب : وأرسل نارا على مأجوج وعلى الساكنين في الجزائر آمنين فيعلمون إني أنا الرب وأعرف باسمي المقدس في وسط شعبي إسرائيل ، ولا أدع اسمي القدوس ينجس بعد ، فتعلم الأمم إني أنا الرب قدوس إسرائيل ، هاهو ذا قد أتى وصار «**يوم الرب**» هذا هو اليوم الذي تكلمت عنه » .

وكما يقول شفيق مقار في« **المسيحية والتوراة**» «إنه في ظل هياج حزقيال النبي ، يصف ما سيحدث لجيش الأمم القادم من أقاصي الشمال تحت قيادة يأجوج من أرض مأجوج في الأعداد من التاسع إلى الثاني والعشرين من نفس الإصحاح فيقول «**إن سكان مدن إسرائيل سيظلون يجمعون السلاح والعتاد ويوقدون بها النار سبع سنين وينهبون الذين نهبوهم ويسلبون الذين سلبوهم**» .

ثم يوضح كيف أنهم سيظلون يطهرون الأرض من جيف القتلى سبعة أشهر في مقبرة عظيمة ستعرف باسم «**وادي جمهور يأجوج** » ويؤكد أن يهوه نبه عليه مشددا أن يقول لكل طائر ذي جناح ، ولكل وحش من وحوش البر«اجتمعوا وتعالوا احتشدوا من كل جهة إلى ذبيحتي التي أنا ذابحها لكم ، ذبيحة عظيمة على جبال إسرائيل لتأكلوا لحما وتشربوا دما ، تأكلون لحم الجبابرة وتشربون دم رؤساء الأرض . . وتأكلون الشحم إلى الشبع ، وتشربون الدم إلى السكر من ذبيحتي التي ذبحتها لكم ، فتشبعون على مائدتي من الخيل والمركبات والجبابرة وكل رجال الحرب . يقول السيد الرب وأجعل مجدي في الأمم وجميع الأمم يرون حكمي الذي أجريته ، ويدي التي جعلتها عليهم ، فيعلم بيت إسرائيل إني أنا الرب إلههم من ذلك فصاعدا» .

أما التفسير الأقرب لرؤية حزقيال ، فيشير إلى روسيا التي تحتم عليها بفعل «**الجبرية الإلهية المنحولة**» في رأيي أن تغزو إسرائيل ، ذلك لأن باتخاذهم الشيوعية معتقدا قد أغضبوا الرب وأن غضب الله سوف يدمر خمسة أسداس الشعب الروسي .

لكن كيف ستكون إسرائيل قادرة على أن تطيح يأجوج ، أي بالشعب الروسي ، وأن تدمر مأجوج أي الأمة الروسية نفسها ؟ .

تقول جريس هالسل في كتابها «**يد الله**» : إنها سألت السؤال عينه ، فقيل لها «**نعم إسرائيل ستكون قادرة على ذلك مع حلفائها ، فما أن تبدأ روسيا بالغزو حتى تبادر أمريكا وبريطانيا إلى نجدة إسرائيل**» وأننا نجد ذلك في سفر دانيال الإصحاح الحادي عشر - العدد الثلاثين الذي يشير إلى السفن الراسية في الموضع المسمى «**شيتيم**» والذي يعرف اليوم باسم قبرص .

ويكمل دليل هالسل الذي أجابها عن تساؤلاتها السابقة بقوله « نحن نعرف أن البريطانيين والأمريكيين يستخدمونها قاعدة لأساطيلهم ، وبذلك يستطيعون بسهولة أن يتحركوا لمساعدة إسرائيل ، وليست روسيا وحدها التي ستغزو إسرائيل ، بل هناك دول أخرى وكلها دول شمالية ويشمل ذلك أرض « **عوفر**» ونعرف أن هذه الأرض هي ألمانيا في العصر الحديث ، إن هذه كلها سوف تدمر خلال فترة المحنة الكبرى » .

أما الفترة فستكون نحو سبع سنوات من العذاب الرهيب إلى حد الاندثار ، ثم إن كل المعاناة والدمار هو مجرد بداية ومجرد رفع ستار عن المعركة الأخيرة .

وتستطرد هالسل : لقد أقلقني تصوير الشارح لروسيا وللشعب الروسي على أنه العدو رقم واحد لإسرائيل ، وبالتالي العدو رقم واحد للرب ، فذكرته بأننا نتحدث عن السلام مع روسيا فرد قائلا «**لن يكون هناك سلام ، حتى يعود المسيح ويجلس على عرش داود**» .

والنتيجة النهائية هي أن يهوه يفعل كل ذلك ليقنع بيت إسرائيل بأنه الرب إلههم ، ويجعل بيت إسرائيل يعبده ويتقي غضبه من ذلك اليوم فصاعدا ، والثمن هنا تقديم كل الشعب ضحية ذبيحة تقدمه على مذابح تمجد يهوه وتضمن عبادة الشعب له .

وقد يضيق المكان لتفنيد تلك الرؤية الأبوكريفية ، لكن نذكر أن الكنائس الحقيقية تقول بأن تلك النبوءات كلها قد تحققت في يوم صليب المسيح ، حينما

استعلن الرب ملكاً من على خشبة الصليب واظلمت الشمس وبطل تعظم اليهود ورؤسائهم ، حينما انشق حجاب الهيكل وصار ذلك نذير سوء وشؤم على اليهود ، بما ينبئ عن انهدامه ـ أي انهدام الهيكل ـ وضياع مجد الأمة اليهودية إلى الأبد .

لكنها وحشية الشعب الذي قال المؤرخ اليهودي إدوارد ماير عن آلهته الذين يحاولون إلباسه هذا الثوب باطلا «**إنه شيطان دموي من شياطين البراكين**» ، لذا فإن العالم كله لابد أن يغرق في بحور الدم من يأجوج ومأجوج وصولا لهرمجدون حتى تملك إسرائيل الآلاف السنين .

الفصل الثاني عشر

من أيزنهاور إلى ريجان

- اليمين الأمريكي يسيطر على المجتمع الصناعي العسكري الأمريكي
- تعاظم التيار الإنجيلي الأصولي
- الحرب الباردة وتجليات اليمين المسيحي الصهيوني
- هزيمة العرب في 1967 وتعاظم المد الأصولي لصالح إسرائيل
- حتمية تشبه أمريكا بإسرائيل لتنتصر على المعسكر الشيوعي

الفصل الثاني عشر

من أيزنهاور إلى ريجان

تُعد الفترة الممتدة منذ بداية حكم الرئيس الأمريكي أيزنهاور حتى رئاسة الرئيس ريجان ، مثالا حيا لتجسيد كل ما جئنا على ذكره مسبقا ، من سيطرة المعسكرين في عالم الولايات المتحدة الأمريكية ، الأول هو ما أسماه أيزنهاور بالمركب العسكري ـ الصناعي ، أي الشركات العملاقة التي كانت ترتبط صناعتها بالآلة العسكرية الأمريكية . أما المعسكر الآخر ، فهو معسكر الأيديولوجية اليمينية التي رأت في التواجد الروسي في العالم المثال الحي للشر الذي لابد لمملكة الخير أن تواجهه . وقد جاء هذا المعسكر ليفسر الأحداث تفسيرا حرفيا ، ويحاول هنا تطبيق هذا التفسير على ما ورد في تنبؤات الكتاب المقدس ، خاصة رؤى أنبياء بني إسرائيل المعروفة بالعهد القديم من جهة ، واختاروا من العهد الجديد سفر الرؤيا فقط وهو السفر ذي الطبيعة «الميسترية» أي السرية كما سبق ووصفناه .

وفي هذه الفترة ، شهدت الساحة الأمريكية عدة تحركات دينية كبرى على الساحة الأمريكية من أهمها :

- تدهور المكانة الاجتماعية والسطوة الدينية للمؤسسة الدينية التقليدية التي تعد الرافد الرئيسي مثل الكاثوليكية أو البروتستانتية .
- تعاظم النفوذ الديني والمكانة الاجتماعية للتيار الإنجيلي ، خاصة الجانب الأصولي منه .

• انخراط قوي وملحوظ للإنجيليين والأصوليين في الساحة السياسية .

• حركة إحياء قوية لليهودية الأمريكية .

• اتجاه قوي إلى ائتلاف ثم التحالف بين المسيحية واليهودية ، وفي سياق ذلك ، لجأ الأصوليون إلى استخدام تكتيكات كالضغط السياسي المتمثل فيما يعرف بـ «**اللوبي**» ، وقياسات الرأي والتحريض السياسي والمسيرات والمظاهرات وجمع الأموال واستخدام وسائط الإعلام الجماهيري كالراديو والتليفزيون .

كما انخرط الأصوليون بقوة وفاعلية في المعارك الانتخابية للكونجرس وللرئاسة ، إما كمروجين ومؤيدين ، وإما كمرشحين . وحري بنا أن نقف أمام مشهدين في الفترة الممتدة من ولاية أيزنهاور حتى ولاية ريجان :

ـ **الأول** : هو هزيمة الدول العربية في حرب الأيام الستة عام 1967 .

ـ **الثاني** : هو حرب فيتنام .

أما عن حرب يونيو 1967 ، فربما لايدري الكثيرون ، كم كان لها من كبير الأثر في تعاظم المد الأصولي المسيحي هناك الباحث عن الروح العبرية في حياته اليومية .

كان انتصار اليهود بالنسبة إليهم عملا من أعمال القوة الإلهية ، التي جعلت هذا الشعب القليل العدد ينتصر على جيرانه الأكثر عددا من العرب والمسلمين في ستة أيام فقط لا غير ، ومعنى هذا عندهم ، هو أن الله كان يحارب مع إسرائيل كما كان في القديم يحارب معهم ضد عماليق وضد باقي الأعداء الذين كانوا يُهزمون من اليهود على الدوام شر هزيمة .

أما هزيمة أمريكا في فيتنام ، فكانت رسالة إلى الشعب الأمريكي الذي ابتعد عن الله لكي يراجع حساباته الدينية ، ويعود ليلتصق باليهود ، حيث يستمد منهم الدفء الألوهي إن جاز التعبير كشعب مختار من الله لكي ينالوا تأييد الله لهم .

وقد أدى انتصار إسرائيل في عام 1967 ، إلى دعم أفكار الأصولية المسيحية المؤمنة بعودة اليهود وانتصارهم ، تمهيدا لقدوم المسيح ، مما ساعد على خروج الأصولية من سلبيتها النسبية ، وهو ما كان واضحا في تحول كبير دعاة هذا الاتجاه القس جيري فالويل من الوعظ الديني إلى الدور السياسي المباشر . فقد كان هذا النصر رسالة استخدمتها الأصولية لتؤكد أنها تعرف الحق(*) .

وإذا كان الأمر على هذا النحو ، فإن الليبراليين الأمريكيين كانوا قد بدأوا ينظرون لليهود بحذر ، لأنهم أصبحوا دولة معتدية لاشعباً مظلوماً ، ومن هنا بدأت اتجاهاتهم تتغير لتميل أكثر نحو حقوق الشعب العربي والاعتراض على الممارسات الاستعمارية لدولة الاحتلال الإسرائيلي . ومع فقدان اليهود لتأييد الليبراليين نسبيا اتجهوا بكل قوة نحو كسب تأييد الأصوليين ، خاصة الأصوليين الصهيونيين .

ومعنى ما تقدم أن تاريخ يونيو 1967 ، كان علامة حاسمة ولحظة فاصلة في ظهور الأصولية التي تجلت في الخطاب السياسي الأمريكي الذي اختلط بالديني بشكل غير مسبوق ، كيف لا وها هي وعود الأنبياء تتحقق ، والقدس الشرقية تقع في أيدي اليهود وتحت سيطرتهم وهي المدينة الرمز الذي يلتف العالم الأصولي برمته من حولها خاصة في الولايات المتحدة الأمريكية؟ .

لم يكتف إذن دعاة الأصولية المسيحية منذ ذلك التاريخ بالمنابر الدينية ، بل كان في دائرة اهتماماتهم الوصول إلى مقاعد السلطة ، وتنظيم أنفسهم سياسيا ، مما جعل منهم قوة لا يستهان بها ، وبهذا النهج استطاع رجال التيار الأصولي اختراق هياكل الدولة والمؤسسات العاملة والفاعلة فيها ، بدءا من الكونجرس حتى البيت الأبيض ، مرورا بجميع الوزارات السيادية كالدفاع والخارجية .

لم يتحالف الأصوليون اليمينيون مع الدولة ، بل عملوا على اختراقها من

(*) ساعد وقوع القدس في أيدي اليهود في حرب العام 1967 ، على ترسيخ المفاهيم الكتابية المغلوطة وأعطت زخماً أكبر للمضي قدما في ذات الاتجاه .

الداخل ، لذا فقد كان من الطبيعي أن تميل أمريكا أكثر للأصولية وتصبح مؤسسات الأصوليين معامل تفريخ لرجال السياسة من حول الرئيس الأمريكي .

وهنا يرى جورج مارسدن مؤرخ الحركة الأصولية في مؤلفة «**الأصولية والثقافة الأمريكية**» الصادر عام 1980 عن جامعة أوكسفورد ، أن أسبابا كثيرة جعلت من تلك الأصولية اليمينية المسيحية سيدة لهذه الفترة ، ذلك لأنها جعلت من أفكارها داعما رئيسيا للرأسمالية ، لأنها ترى أن عملية الخلاص هي عملية فردية بين الله والإنسان ، كما أنها لم تناد بالثورة ، ولأنها متأثرة بفكرة الملك الألفي وتعم فيها آمال الانتظارات الإيمانية للملك القادم ، فرفضت الثورة والإصلاح بالمفهوم اليساري والماركسي ، لذلك اعتبرت إحدى أهم القوى المساندة للرأسمالية ، لأنها تبشر بالملك الألفي ، والألف سنة السعيدة ، والمسيح المنتظر . أي أنها تبشر بالحلم الذي ينتظره الجميع ، والمخلص الذي يخلص العالم من كل الشرور .

يقول الدكتور رفيق حبيب في كتابه ا«**لمسيحية والحرب**» إنه بهذه المعاني كانت الأصولية ومازالت تقلل من فرص الثورة والتمرد الاجتماعي وانتشار الفكر اليساري الثوري ، بهذا كانت ومازالت من أهم القوى التي تساند الرأسمالية العالمية ، ومع ظهور تحالف أو تقارب بين الليبرالية والعلمانية واليسار في المناخ الأمريكي ، ومنذ بداية القرن أصبحت الأصولية أكثر تحالفاً مع قوى اليمين المحافظ والرأسمالية ، كذلك فإن الأصولية تركت كل مفاهيم العمل والإصلاح الاجتماعي حتى تفصل نفسها عن القوى المضادة لها .

وقد قدر لليمين الأصولي أن يلعب دوراً مؤثراً في مواجهة الشيوعية في الولايات المتحدة من خلال «**حملات العمل الإنجيلي الموحد**» ، وسلسلة دراسات «**الجواب المسيحي على الشيوعية**» والتي تبلورت لاحقا في فيلم «**الشيوعية على الخريطة**» ناهيك عن مؤتمرات منظمة شبان المسيح ضد الحكم الشمولي والشيوعي .

وبهذا النحو ، أصبح اليمين أداة داعمة للحكم وللدولة ، ووجدوا من خلال هذا الطرح ، مدخلا إلى السلطة والممارسات السياسية . حتى أن الأمر حدا بهم

إلى الوقوف في وجه أول رئيس كاثوليكي(*) لأمريكا **جون فيترجيرالد كيندي** ، عند ترشحه للرئاسة الأمريكية عام 1960 من منطلق الخوف من أن يكون ولاؤه لا يزال للكنيسة الكاثوليكية الرومانية التي لايثق الأصوليون في توجهاتها السياسية أو العقائدية ، مما حدا بالمبشر والواعظ الشهير بيلي جراهام بالبحث عن مبشر بروتستانتي يثق في أفكاره وإيمانه ومعتقداته أكثر من كيندي الكاثوليكي .

إلا أن خبرة آل كيندي في العمل السياسي والعمل العام ، ضيعت الفرصة على جراهام وأتباعه ، إذ أعلن كيندي الكاثوليكي التزامه بفصل الكنيسة عن الدولة ، ومعارضته لأي تمويل حكومي للمدارس الدينية ، وبأنه لن يرسل بعثة دبلوماسية أمريكية إلى الفاتيكان .

ولم يكن من الممكن للرئيس الكاثوليكي الدخول في مواجهة يعلم أنها غير مجدية مع تيار الإنجيليين ، لذا فقد مد اليد طويلة إليهم ، سواء بقبول الدعوات للمشاركة في مناسباتهم ، أو بدعوتهم إلى البيت الأبيض مرارا وتكرارا .

وفي الفترة الممتدة من 1960-1964 كان اليمين المسيحي يباشر الإعداد **«السياسي الديني»** من خلال تدريب أتباعه على المشاركة في الحملات الانتخابية والمنافسة الانتخابية ، ومن ثم التصويت وحشد الأصوات لأي مرشح يمثل اليمين المسيحي الأصولي .

والمؤكد أن استعراض هذه الفترة ، والتي تمتد من الخمسينيات حتى نهاية الثمانينيات موعد سقوط الإمبراطورية السوفيتية ، يحتاج إلى مؤلف خاص لرصد الظواهر اليمينية على اختلاف مللها ، وتعدد وتنوع نحَلها في المجتمع الأمريكي . لكن سندلل هنا برئيسين فقط في هذه الحقبة ، تَجلت فيهما روح الأصولية اليمينية بشكل لا يقبل الشك ، وكان من وراء هذا الإيمان تجذير الحضور

(*) حتى الساعة يظل اغتيال كيندي الكاثوليكي لغزا ، وإن يشير الكاتب الأمريكي وليم مانشستر في كتابه القيم «موت رئيس» الى أن مواجهة فكرية قد دارت بينه وبين رئيسة وزراء إسرائيل جولدا مائير ناصر فيها كيندي الكاثوليكي الحقوق العربية قادته إلى أن يلقى حتفه على يدي نائبه لندبنز جونسون المترعرع في أحضان الصهيونية كما يشير مانشستر إلى ذلك في آخر سطر من كتابه .

الأصولي المحافظ الذي سيتجلى عما قليل عند الحديث عن إدارة بوش المحافظة واستراتيجية المحافظين الجدد والسيطرة على المقدرات العالمية .

أما الرئيس الأول فهو الديمقراطي جيمي كارتر ، المؤمن المعمداني الذي يعتقد بأمر الولادة الثانية ، وهو ذاته كارتر الذي وقف في مارس/ آذار من عام 1979 أمام الكنيست الإسرائيلي يقول «**لقد جسد من سبقني من الرؤساء الأمريكيين الإيمان حين جعلوا من العلاقات بين الولايات المتحدة وإسرائيل أكثر العلاقات خصوصية ، إنها علامة فريدة لأنها متأصلة في ضمير الشعب الأمريكي وفي أخلاقه وفي دينه وفي معتقداته ، وكما أن الولايات المتحدة وإسرائيل أقامهما رواد مهاجرون فإننا نتقاسم معكم تراث التوراة أيضا**» .

لم يكن كارتر يبدو في الصورة كرئيس ، بل كان أقرب إلي هيئة قس ، ذلك لأن شأنه كشأن غيره من المسيحيين المؤمنين بالولادة الثانية ، يؤمن بتسلسل النبوءة كما وردت في التوراة من قيام إسرائيل وعودة القدس إليها وبناء هيكل سليمان على أنقاض المسجد الأقصى ، وذلك بعد معركة هرمجدون الرهيبة ، حيث سيظهر المسيح للمرة الثانية ليحكم العالم ألف سنة من مدينة القدس .

وكارتر ذاته هو الرئيس الذي جاء في بيانه الانتخابي «**أن تأسيس دولة إسرائيل هو تحقيق للنبوءة التوراتية**» كما أعلن مباشرة عن أدانته لمن يتهم اليهود بقتل المسيح بمعاداة السامية ، ويذكر أنه أول رئيس أمريكي يؤسس لجنة رئاسية لموضوع المحارق النازية لليهود عام 1978 ، بل إنه ذهب إلى محاولة تخليق المبرر في عقول الأمريكيين باللعب على أوتار الديمقراطية بقوله «**إني كمعظم الأمريكيين أتفهم تماما وأشارك في الالتزام الأمريكي العميق والمتواصل بوجود هذه الديمقراطية الصغيرة المحاصرة بالعداوات وبأمنها وبوجوب تحقيق السلام لها . .**» .

ويضيف «أنا أعرف أن تخصيص الولايات المتحدة أكثر من سبعة ملايين من الدولارات من ميزانيتها العامة مع طلعة كل يوم للإسرائيليين على شكل معونات اقتصادية وعسكرية أمر يثير استفظاع الزعماء العرب ، بل وبعض الأمم الأوروبية ، ويستجلب إدانتهم ، وأعرف أنه مما يثير استغرابهم أن مثل هذا المستوى

من المساعدة المالية نادرا ما يثير أي تساؤل جاد في أمريكا أثناء وضع الميزانية السنوية في واشنطن ، **فأسباب هذا الالتزام المستمر المتواصل باستقلال إسرائيل ليس مما يسهل شرحه لغير الأمريكيين»** .

والحقيقة هي أن كارتر لم يكن مدفوعا بإيمانه فقط ، الذي يحتم عليه السير في تنفيذ خطط الله في الأرض الموعودة ، بل كان هناك دافع انتخابي رئيسي سخر إمكاناته الكنسية والإعلامية لدعم ترشيحه للرئاسة عام 1976 وكان اسم الرجل القس جيري فالويل ، أشهر أصولي صهيوني عرفته السبعينيات وتجلت قدراته في الثمانينيات وامتد أثره عبر التسعينيات إلى اليوم ، فمن هو فالويل الذي يقف في منتصف المسافة بين الرئيس الوديع كارتر(*) الذي يسعى للسلام ، وبين الرئيس الدموي ريجان الساعي إلى معركة هرمجدون الفاصلة التي سيمحق فيها أبناء النور أبناء الظلام محقا نهائيا ، ولن يلحق المؤمنين المولودين ثانية بسببها ضرر ، لأن الله سيخطفهم إلى السحاب إلى أن تنتهي ، ثم يعود فيضعهم على الأرض برفق ويربت على رؤوسهم بحنان ؟

جيري فالويل ، يظل هذا الاسم أبرز نجوم الأصولية المسيحية الصهيونية المزعومة في الولايات المتحدة الأمريكية ، ويعد من أوائل وكبار مؤيدي إسرائيل ، وينادي فالويل بتقديم كل العون لها . لأن قيام دولة إسرائيل الكبرى ، وتجمع اليهود من الشتات حسب رأيه يمهد للمعركة السابق ذكرها هرمجدون .

أسس فالويل في العام 1971 كلية دينية معمدانية ، ثم قلب اسمها إلى جامعة الحرية ، حيث يتعلم الطلبة فيها العلوم اللاهوتية بالمفهوم الأصولي الذي يتفق ونهجه الفكري العقائدي ، الذي يؤمن به ، لذا فإن المقررات الدينية كلها في جامعة فالويل تتمحور حول كتابات العهد القديم ، وتنتهي بمقرر مطول عن مذهب العصمة الحرفية للكتاب المقدس .

(*) رغم أن كارتر يعتبر واحدا من أولئك الرجال المؤمنين إيمانا حرفيا بالشراكة الأمريكية الإسرائيلية حين قال إن شعبي الأمريكي أمة مهاجرين ولاجئين وإننا نتقاسم وإسرائيل معا ميراث التوراة إلا أنه عمل صادقا بمقولة السيد المسيح «**طوبى لصانعي السلام لأنهم أبناء الله يدعون**» .

ولفالويل أنشطة متعددة عبر أكثر من مؤسسة ، منها على سبيل المثال : «**الأغلبية الأخلاقية**» و«**السفارة المسيحية**» و«**المؤتمر المسيحي الصهيوني**» وغيرها ، مما جعل دوره في عالمي السياسة والدين فاعلا ومؤثرا ، خاصة في انتخابات الرئاسة في بلاده ، وتأييده للمرشحين الأصوليين وللحزب الجمهوري .

إلا أن مؤسسة «**الأغلبية الأخلاقية**» لها طبيعة سياسية خاصة ، لأنها تصب اهتماماتها في العمل السياسي المباشر ، مما يمكن من أن يطلق عليها «**لوبي سياسي**» يجمع القوى المحافظة للتأثير على الأحداث ، رغم أنها قامت على أسس دينية واضحة ، مما يجعلها مجازا مثالا للحزب الديني دون أن تكون لها صفة شرعية كحزب .

ويرى البعض أن من أهم العلامات التي تركها فالويل في العشرين سنة الماضية من خلال «**الأغلبية الأخلاقية**» هو نجاحه في جمع الاتجاهات العقائدية المختلفة ، مثل الكاثوليك والبروتستانت واليهود ، لكي يعملوا معا على أسس مشتركة بغض النظر عن الخلافات اللاهوتية بينهم ، وتعمل هذه الجماعات لتحقيق أغراض مشتركة مثل مقاومة الإجهاض والأفلام الجنسية والتدخين وتناول الكحوليات وتعاطي المخدرات ، ومهما يكن من أمر الاختلاف حول فالويل ، فإن نجاحه في الوصول إلى مؤسسة الرئاسة الأمريكية قد جعل من الأصولية والأصوليين ركنا لا يغيب من أركان الحملات الانتخابية ، ركنا فاعلا قاد جيمي كارتر إلى النجاح ، ولم ينجح في انتخابات الرئاسة من بعده إلا من استطاع الحصول على أصوات المحافظين والأصوليين من رونالد ريجان إلى بوش الابن .

أما المثال الرئاسي الثاني ، فهو رونالد ريجان ، الرئيس الجمهوري الذي أصل لحضور الأصوليين في الإدارة الأمريكية الخاصة به ، لدرجة غير مسبوقة ، فقد عين عددا من شخصيات اليمين المسيحي في مناصب سياسية مهمة ، وكان داعما لقضايا الأصولية السابق ذكرها ، كالإجهاض والتعليم الديني في المدارس وعودة الصلاة إلى المدارس ، وأدان حكم المحكمة العليا بإجازة الإجهاض وأصبح لليمين المسيحي في عهده عصبة أعضاء موالين في مجلس النواب ، وممثلين في مجلس الشيوخ مثل السيناتور جييس هيلمز والسيناتور أورن هاتش .

يقول ريجان : إنه تربى على قراءة «**الكتاب المقدس**» الذي كانت والدته تواظب على قراءته مساء كل نهار ، لذا فقد تأثر كثيرا بوالدته ، كما تأثر ريجان كثيرا بجماعات «**التدبير الإلهي**» أمثال الواعظ الأشهر بيلي جراهام والقس چورچ أوتيس ، وأضحت خطوات ريجان السياسية سواء في ترشيحه حاكما لولاية كاليفورنيا أو لاحقا كرئيس للولايات المتحدة ، مدفوعة بالرؤى الكتابية .

ولأن إمكانيات ريجان الفكرية لا تعدو قراءات سطحية للكتاب المقدس ، لذا كان من اليسير على هؤلاء إقناعه بحرفية ما يقرأ مما قاده لاحقا إلى ابتكار أضخم برنامج تسلح عرفته البشرية ، نقل فيه الصراع من الأرض إلى الفضاء ، وهو البرنامج المعروف «**بحرب الكواكب**» .

ويذكر السياسي الأمريكي جيمس ميلز ، والذي كان رئيس مجلس الشيوخ في كاليفورنيا ، أن ريجان انتحى به ذات يوم ـ على حسب رواية ميلز لمجلة «سان ديجو» بعد الغداء ـ وحدثه كما لو كان من الوعاظ المؤمنين ، فأوضح له أن كل النبوءات اللازمة لنشوب معركة هرمجدون قد تحققت ، وذكره بأنه مكتوب في الإصحاح الثامن والثلاثين من سفر حزقيال أن الله سيأخذ بني إسرائيل من بين الوثنيين الذين شتتوا في أراضيهم وأنه سيجمعهم ثانية في الأرض الموعودة ، ثم أكد له بأن ذلك تحقق بعد ألفي سنة ، وأن كل شيء أصبح بذلك لأول مرة مهيأ لنشوب معركة هرمجدون وحدوث المجيء الثاني للمسيح(*) .

وعندما ذكر ميلز محدثه الذي كان يملك سلطة إشعال حرب نووية لا تبقى ولا تذر ، بأن الشيء الوحيد المؤكد والواضح في الكتاب المقدس عن المجيء الثاني هو أن لا أحد يعرف أو يمكن أن يعرف متى يمكن أن يحدث ، احتد الرئيس الأمريكي وعلت نبرته فباتت ثاقبة وهو يرد على محدثه قائلا : إن كل شيء بات

(*) وقد كانت تلك المفاهيم التي تحكمت في عقلية الرئيس ريجان ، الدافع الرئيسي له للعمل على طرح برنامج عسكري جديد ، عرف من وقتها بحرب النجوم أو حرب الكواكب لمواجهة الخطر الأحمر الروسي .

معـدا الآن وأن الأمر لن يطول ، وذكـره بما قاله حزقـيال من أن يهوه وعـده بأنه سوف يمطر على جيش أبناء الظلام «**حـجارة برد عظيـمة ونارا وكـبريتـا**» يدمر بـها أعداء شعبه المختار . وقال له : إن ذلك يعني شيئا واحدا هو أن أعداء إسرائيل سوف يدمرون بالأسلحة النووية التي تنبأ بها حزقيال بقوله «**حجارة برد عظيمة وكبريت**» وأن تلك الأسلحة لم تكن موجودة قبلا لكنها باتت جاهزة الآن .

كان ريجـان يشير إلى روسيا العـدو القادم من الشـمال ، كمـا رآه حزقيال وأن رؤساء روش هم قادة روسيا ، رغم أن روش بالعبرية تعني رأس ، كما في روش هاشانا أي رأس السنة ، وقول حزقيال «**رئيس روش ماشك وتوبال**» لاتعني أكثر من الرئيس الرأس أو القائد الأعلى لماشك وتوبال .

وقد استمد الرئيس ريجان معلوماته من صديقه المقرب القس جيري فالويل صفيه وناصحه المنطلق على هواه لا يعوقه شيء حتى الكتاب الذي يستشهد بالآيات منه لأن روش لا تعني روسيا وماشك وتوبال لا تعنيان موسكو وتبلسك بل هما اسمان وردا في سفر التكوين لاثنين من أبناء يافث ابن نوح وكذلك جومر لا تعني أوروبا الشرقية فماشك وتوبال وجومر ومأجوج من أسماء بني يافث (تكوين 10-2) وأسماء أقوام سكنت آسيا الصغرى ، إلا أن جيري فالويل قرر أنها كلها أسماء أماكن معاصرة (روسيا وموسكو وتبلسك وأوروبا الشرقية) تنبأ حزقيال بأنها ستهاجم إسرائيل مع حلفائها الأشرار أيران وليبيا والحبشة أو جنوب أفريقيا قبل التغييرات التي حدثت في علاقات ليبيا وجنوب أفريقيا مع أمريكا .

وعودة سريعة إلى شخص فالويل ، **نكتشف معها أنه أول أمريكي أبلغه رئيس وزراء إسـرائيل مناحم بيـجين بضرب المفاعل النووي العـراقي** ، وقد طلب بيجين من فالويل تعبئة الرأي العام الأمريكي لقبول هذا الإجراء وتأييده ، وقد انطلق فالويل بالفعل يردد تبريرات إسرائيل حول العملية العسكرية ، إذ هي دفاع عن النفس وحماية لأطفال إسرائيل من الهلاك ، ثم بعث برقية إلى بيجين يقول فيها «**إنني أبارك مهمتك التي جعلتنا فخورين جدا لأننا صنعنا هذه الطائرة إف 16 التي استخدمتها في ضرب المفاعل**» .

لذا فإنه من البديهي أن نتصور حال مؤسسة رئاسية أيا كانت ، يوجد في داخلها من يقوم على شحنها بأيديولوجيات دينية يجب تحقيقها ، وأن يتلاعب بعقول رؤساء تكفي إشارة واحدة من أي منهم لإشعال كوكب الأرض أكثر من مرة ، مهددا بفناء البشرية مرات عدة من أجل تحقيق وعود ورؤى لا توجد إلا في مخيلتهم هم أنفسهم ، وبعيدا عن المعاني الرمزية التي كانت وراءها لكنها خدمة إسرائيل التي تجعل من الكل يغض طرفه عن الجوهر ليكتفي بالمظهر حتى لو كان الجوهر هو الكتاب المقدس المرجعية الأولى والأخيرة للاتجاهات اليمينية الأصولية .

وبحال من الأحوال ، حدث أن التقت المصالح الاستراتيجية للوبي اليهودي داخل الولايات المتحدة مع اتجاه اليمين المسيحي ، مما جعل الثقل يزداد في أي معركة تدخلها إسرائيل مع جيرانها في الشرق الأوسط ، ذلك لأنه عندما انتخب ريجان - والرواية هنا للكاتب الأمريكي «إدوارد تيفن» في كتابه «**اللوبي . . اليهود وسياسة أمريكا الخارجية**» - رئيسا للولايات المتحدة عام 1980 ، كان اليهود لا يزالون منذ 35 عاما يمارسون الضغط من أجل الدولة الصهيونية ، ومنذ عام 1954 كان مؤتمر الرؤساء - أي رؤساء المنظمات اليهودية - وإيباك اللجنة الإسرائيلية الأمريكية للشؤون العامة يعملان كجماعتين ضاغطتين لكن بشكل لا يلفت النظر .

إلا أنه وبداية من عام 1980 بدأ التنسيق يخرج إلى العلن عبر وسائط الإعلام ، التي احتلت فيها الأصولية اليمينية مكانة متقدمة ، ذلك لأن الحركة الأصولية أدركت مدى التجاوب السريع مع الإعلام ، وخاصة جهاز التليفزيون والقنوات الفضائية منذ وقت طويل يرجع إلى عام 1960 حينما أسس بات روبرتسون الرجل الثاني في القائمة بعد جيري فالويل جبهة دعم الأصولية اليمينية التي تتبنى إسرائيل . نقول حينما أسس محطة تليفزيونية في فيرجينيا كانت هي أول محطة يسمح لها ببث برامج دينية لأكثر من 50٪ من وقت البث . واستطاع بات روبرتسون(*) اجتذاب الملايين من المشاهدين لبرنامجه «**نادي السبعمائة**»

(*) رشح روبرتسون نفسه للرئاسة الأمريكية للتأكيد على قدرة التيار اليميني المحافظ على التأثير في الانتخابات الأمريكية وهو ما تجلى لاحقا في انتخاب الرئيس بوش .

CLUB 700 واجتذب المبشر الأشهر فالويل لبرنامجه «**ساعة من إنجيل زمان**» ملايين أخرى ، فكانت الثورة في أن الكنيسة أصبحت تأتي إليك في منزلك صباح كل أحد ، ولست أنت الذي تسعى إليها ، وبدلا عن الكنائس التي لاتتجاوز دعوتها الجدران والعدد القليل الذي يلتزم فيها بالصلاة في أيام الآحاد والأعياد المأمورة ، أضحت الكنائس شبكات تليفزيونية تختلط فيها الأهداف السياسية بالخطابات الدينية ، وفضلا عن أسلوب الوعظ المباشر الذي يمكن أن يكون عاملا طاردا للعديد من المؤمنين ، تبنت تلك الشبكات أسلوب الحوار في برامجها وإتاحة المساحة للجميع ليعظ ويعلم ويتكلم ويشارك برأيه من خلال «**الوعظ الجماعي بين الأفراد**» ، وإضافة إلى النصوص الدينية المقررة سلفا والمحفوظة عبر القراءات الكتابية ، تطرقت شبكات الأصوليين الجدد من اليمين المسيحي إلى موضوعات متنوعة تخص المجتمع والانتخابات ، منها الضرائب والتعليم وأخلاقية مثل الإجهاض والشذوذ الجنسي ودور المرأة والأسرة والصلاة في المدارس ، وصولا إلى الموضوعات الأكثر حساسية المتعلقة بشؤون الأمن القومي مثل الشيوعية والحرب النووية . **إلا أن جميعها كانت تتفق على هدف واضح وصريح هو دعم إسرائيل وسياساتها «ظالمة كانت أو مظلومة» لأن في ذلك نوالاً لنعمة الرب وامتداداً للبركة «أبارك مباركيك ولاعنك ألعنه»** ! ! !وفي إحصائية عن عدد مشاهدي برنامج «سي . بي . إن ـ أخبار الليل» الذي يقدم من خلال شبكة CBN المملوكة لبات روبرتسون ، والتي تهتم بتقديم أخبار كلها مصاغة من وجهة نظر مسيحية يهودية ، كان الرقم مهولا إذ قارب الثلاثين مليون أمريكي كل مساء في أوائل التسعينيات مما يرشحه للزيادة عدة ملايين بعد الأحداث الأخيرة وعلى رأسها الحادي عشر من سبتمبر عام 2001 ، وهذا يعني أن 22٪ من الأمريكيين تقريبا من الذين يملكون أجهزة التلفاز ، يتابعون هذا البرنامج ، مما جعل توم فيكر المعلق لصحيفة نيويورك تايمز في منتصف الثمانينيات يعلق بالقول «**إن شبكة روبرتسون الإعلامية تحظى بمشاهدين يفوق عددهم عدد قراء التايم والنيوزويك والنيويورك تايمز واللوس أنجلوس تايمز والواشنطن بوست مجتمعة**» .

وتضيف الكاتبة الأمريكية جريس هالسل في كتابها «النبوءة والسياسة» أنه من بين أربعة آلاف أصولي إنجيلي يشتركون سنويا في مؤتمرات الإذاعات الدينية الوطنية هناك ثلاثة آلاف منهم أي نحو 80٪ يعتقدون بأن كارثة نووية فقط يمكن أن تعيد المسيح على الأرض ، وهذه الرسالة الإبادية والدينية تذهب إلى 1400 محطة دينية في أمريكا ، ومن بين 80 ألف لاهوتي إنجيلي يذيعون يوميا من 400 محطة إذاعية ، فإن الأكثرية الساحقة منهم يتبعون خطى الكارثة النووية التي ستعيد المسيح إلى الأرض .

والمؤكد أن التعرض لهذه المرحلة برجالاتها وأفكارهم وآلياتهم في الوصول إلى الأهداف موجهين برادار يهودي الهوى والهوية ، تحكمه خلفيات عقائدية لا يتسلل الشكك إليها من قبلهم ، لهو أمر جد معقد ، حيث إنك تتعامل مع مجموعات لا حصر لها من الجماعات ، تتكاثر تلقائيا في بيئة حرة بشكل واسع تتيح المجال لكل رأي أن يجد طريقه إلى العامة ، لكن جميعها اجتمعت على أسلوب واحد هو القوة الطاغية ، وكرست آلية واضحة وهي تسخير القوة لخدمة الأيديولوجيات التي تؤمن بها ، **لذا فقد كانت أمريكا مهيأة للمواجهة عبر العشرين سنة الأخيرة ، ومع غياب المعسكر الشيوعي كانت المواجهة مع العالم العربي والإسلامي العدو التقليدي لشعب الله المختار والطامع في الاستيلاء على أرض الموعد** .

كانت الأرضية الذهنية مهيأة لفرض المعتقدات الدينية من خلال فوهات البنادق ونيران المدافع وهجمات طائرات الشبح ، وكان الاستعداد من خلال الاستراتيجية الأمريكية الجديدة ، ووضع الحمل رضيعا جاء كامل النمو في صورة المحافظين الجدد ، الذين فيهم تتحقق النبوءات اليمينية وليكتمل المشهد بدفع رئيس جاءت به المتناقضات إلى الحكم ، أكثر مما جاءت به التوافقات والتراضيات ، **ليشهد العالم فصولا جديدة ممتدة من عالم الذئاب الذين يأتون في ثياب الحملان** .

الفصل الثالث عشر

جورج بوش مولود ثانية من الله

- جورج بوش وموسى النبي دور يعاد ثانية
- دور اليمين المسيحي في دفع بوش للرئاسة
- الرب وراء انتصارات بوش.. حقائق أم أكاذيب؟
- الرئاسة الأمريكية تختطف من قبل اليمينيين
- مباركة إسرائيل ضرورة وشرط لنجاحات بوش
- المحافظون الجدد.. أسماؤهم وأدوارهم في خدمة إسرائيل

الفصل الثالث عشر

جورج بوش مولود ثانية من الله

ولما جاء ملء زمان الأصولية اليمينية الأمريكية ، فتحت الأبواب لرجل لم يكن يمثل أبدا اتفاقا بين الأمريكيين كرئيس ، أو بين الجمهوريين أنفسهم ، لكن لغياب البديل عرف چورچ بوش الابن - رجل المتناقضات - طريقه إلى البيت الأبيض ، وليشهد العالم التجلي الكامل لمدينة الله كما كان يراها أوغسطينوس فوق التل الأمريكي توجه العالم كيفما تشاء بعد أن قسمته إلى معسكرين ، معسكر الخير ومعسكر الشر ، والذي سيصبح لاحقا محور الخير ومحور الشر .

ففي بداية عام 2000 ، عندما بدأ چورچ بوش التفكير في الترشيح لرئاسة أمريكا ، كان القائمون على حملته الانتخابية يحرصون كل الحرص على تقديمه في صورة الإنسان اللطيف الطيب الوديع ، الذي ولد ولادة ثانية من فوق ، وصارت له شركة مع السماء ، ولم يخطر على بال أحد - كما يقول إريك إلترمان في كتابه «**محاكمة بوش**» - أن المرشح القادم من تكساس يخفي وراء هذا القناع أيديولوجية دينية يمينية هي التطرف بعينه .

وقد وصف بوش نفسه ذات يوم بأنه إنسان عاطفي محافظ ، ولذلك تردد أنه يختلف كثيرا عن صقور الجمهوريين المتشددين في الكونجرس ، الذين وصفهم الرئيس السابق بيل كلينتون بأنهم يسيطرون على مجال الأعمال والاقتصاد والتجارة في أمريكا من خلال سعيهم الذي تحركه الأهداف السياسية لكي تغلق الحكومة أبوابها وتشل حركة الرئيس .

إلا أن البدايات الحقيقية لوصول بوش الثاني إلى البيت الأبيض كان اليمين المسيحي وراءها .يقول إريك لوران الكاتب الفرنسي في مؤلفه «**عالم بوش السري**»(*) إن بات روبرتسون الواعظ الشهير ، هو الذي دفع باليمين المسيحي لدعم چورج بوش وإزالة خصمه الخطير السناتور جون ماكاين من طريقه . أما المفاجأة الأكبر التي يميط لوران اللثام عنها ، فهي أن بوش لم يكن هو المرشح المفضل ، إذ كان الاختيار قد وقع على جون أشكروفت الذي يصفه بأنه ولد وترعرع في حضن اليمين المسيحي ، لكن متناقضات تجمع بين الثروة والمال والعلاقات الوثيقة السياسية والاجتماعية ، إضافة إلى الاتصالات مع الجماعات الأصولية المسيحية ، قد جعلت من بات روبرتسون وأعوانه يلتفون حول بوش الابن .

وعندما أدى المحافظون الأصوليون في فلوريدا دورهم المرسوم بعناية ، وكفلوا لبوش الفوز بالرئاسة الأولى ، طالبوا كثمن لدعمهم تعيين جون أشكروفت وزيرا للعدل .

ورغم أن بوش كان يريد لأشكروفت منصب قاض في المحكمة العليا ، إلا أن ضغوط 84٪ من المسيحيين الأصوليين الذين صوتوا له ، قد فعلت فعلها ، وجاءت بأشكروفت وزيرا للعدل .

وقد تجلت خلفيات الرجل عقب أحداث الحادي عشر من سبتمبر في قوله «**في الإسلام يطلب الله منك أن تذبح ابنك الوحيد ، أما في المسيحية فالله يرسل ابنه الوحيد لكي يذبح فداء العالم**» .

وبعيدا عن اللاهوتيات والأديان المقارنة ، كان مجرد حضور أشكروفت في هذا المنصب دلالة للأسوأ الذي لم يأت بعد .

ولكي لا نستبق الأحداث ، فإن نظرة إلى الخلف تعود بنا إلى عام 1977 ، حينما تزوج چورج بوش من لورا التي كانت عضوا في إحدى الجماعات المنبثقة

(*) Le Monde Secret de Bush, Eric Laurent . cplon 2003.

عن البروتستانتية والمعروفة باسم الميتودية ، كان الرجل معروفاً فقط نسبة لأبيه سفير أمريكا السابق في الأمم المتحدة «**جورج بوش الأب**» أيام الرئيس الأمريكي نيكسون ، ثم مدير المخابرات المركزية لاحقا ، وحسب تعبير المقربين منه ، كان بوش الابن يعاقر الخمر كل ليلة ، حتى وصل في عام 1985 إلى حالة من الضياع ، تراكمت فيها الخسائر النفسية والمادية والمهنية عليه ، وقد بلغ التاسعة والثلاثين من عمره .

إلا أن تحقيقا نشرته مجلة النيوزويك الأمريكية تحت عنوان «**بوش والرب**»قد كشف السر وراء التحول الذي حدث في حياة الرجل ، ولم يكن إلا انضمامه لجماعة تقوم على دراسة الكتاب المقدس بالتفصيل ، وقد استمر بوش مواظبا على الحضور والقراءة والتعمق والتعقل لكل كلمة جاءت في الكتاب حسب تفسيره الشخصي ، إلا أن أكثر ما استوقفه كان قصة اهتداء القديس بولس من شاول الطرسوسي مضطهد المسيح إلى بولس رسول الأمم المبشر بالمسيح(*) وهكذا نشأ في عقل الرجل منذ سنوات طوال ، أن العناية الإلهية اختارته لمهمة ما ، ولم يكن قد حان الموعد بعد .

ومن هنا يمكن القول أن بوش هو نتاج لذهنية حرفية توراتية من خلال اكتشاف شخصي للكتاب المقدس ، يتطابق مع فكره وتوجهاته والتي ستدفعه لاحقا وفي أوائل أيامه في البيت الأبيض ، وعلى مائدة الإفطار لأن يقول «**قدم لي إيماني الدعم في أوقات النجاح كما في لحظات الخيبة ، فمن دون إيماني لكنت شخصا مختلفا ، من دون إيماني لربما ما كنت هنا اليوم**» .وفي أثناء استعداد بوش لمعركة الحاكمية في تكساس ، أطلق ذات مرة صيحة مفادها «**أن المؤمنين بيسوع**

(*) سفر أعمال الرسل العهد الجديد الإصحاح التاسع ، والذي يصف الرؤية التي شاهدها شاول الطرسوسي مضطهد المسيحيين وهو في طريقه إلى دمشق ليقتل المزيد منهم هناك ، حيث ناداه صوت من السماء قائلا شاول شاول لماذا تضطهدني فقال له «من أنت يا سيد» فقال له الرب «**أنا يسوع الناصري الذي أنت تضطهده صعب عليك أن ترفس مناخس**» أي صعب عليك أن ترفض دعوتي واختياري لك لأن تحمل بشارة الإنجيل إلى كل الأمم لذا سمي بولس رسول الأمم .

المسيح وحدهم فقط هم الذين سيذهبون إلى السماء» وقد كفلت له هذه الصيحة فعل السحر في الجنوب الأمريكي المحافظ ، ولم يكن فوزه بمنصب الحاكم أمرا عسيرا ، وهو ما جعله لاحقا يعلق بقوله «**ماكنت لأصبح حاكما لو لم أكن أؤمن بخطة إلهية تحل محل الخطط الإنسانية كلها**» .

ويؤكد إريك إلترمان من جديد ، على الدور الذي لعبه الواعظ الإنجيلي الشهير **بيلي جراهام** في حياة بوش الشخصية من خلال مساعدته في الإقلاع عن الخمور ومعرفة طريقه إلى الله .

لذا فقد وقر في نفس بوش أن «**أمريكا أمة تعيش بروح الكنيسة**» والمؤكد أنه أمر تقليدي بالنسبة للرؤساء الأمريكيين إبداء شكل من الالتزام الديني والتردد على الكنائس ، واستخدام الشواهد الكتابية في خطبهم وأحاديثهم ، ورغم ذلك فالوارد أن تعترض مشكلات ما طرقهم إذا أظهر أحدهم تطرفه الديني أو أقام سياسته على أساس معتقدات دينية خاصة ، والدليل على ذلك ، ما حدث مع الرئيس الأمريكي «**جون كيندي**» الذي أدرك أن عدم التسامح الديني كان وراء صدور التعديل الأول للدستور الأمريكي ، الذي فصل الدين عن الدولة «**وأن بابا روما والكنيسة الكاثوليكية ليس لهما تأثير عليّ وأنني أؤمن بأن مواقف الرئيس الدينية هي شئ يخصه وحده**» هكذا تكلم كيندي .

ولكن على عكس كيندي ، يبدو أن بوش قد وضع الدين وأصوات المتدينين في مكانة مهمة ومؤثرة وفاعلة في سياسته ، لذلك يقول الدكتور ريتشارد لاند رئيس لجنة الحريات العرقية والدينية بالمؤتمر المعمداني الأمريكي «**إن الرئيس بوش يشعر بأن أحد أسباب هزيمة والده عند محاولته تجديد رئاسته ، أنه لم يحصل على أصوات الإنجيليين كما فعل ريجان**» . ويقول الكاتب الأمريكي مايكل هوتيل «إن كارل روف أهم مستشاري بوش ، يفضل إشعال حرب دينية في العالم على أن يفقد بوش التيار المسيحي المحافظ» .

والمؤكد أيضا أن بوش من خلال علاقته مع بيلي جراهام ، قد آمن بالفكر الذي تحدثنا عنه مسبقا ، فكر العقيدة التدبيرية والتي ترى أن الله يدبر الأحداث

ويعد لها الأشخاص الذين ستلقى على عاتقهم المسؤوليات ، فكما كان موسى مع الشعب العبراني ، ربما سيصبح لبوش دور في مقدرات بلاده لاحقا ، وقد ترسخ هذا إلى درجة اليقين ، عندما قام بوش الابن بما يمكن أن يطلق عليه « **حلقة الوصل** » بين الجماعات اليمينية المسيحية ، وبين قادة الحملة الانتخابية لجورج بوش الأب عام 1987 ، كما تكرس أيضا الإيمان عنده بأفكار لاهوتية ملتبسة مثل « **التمكن والتخليص** » أي أن يمكن الله عباده المخلصين من المختارين لتخليص العالم من الأشرار .

وفي كتابه « **بوش في حرب** » يميط الكاتب الأمريكي والصحافي الشهير بوب وودوارد اللثام عن نوايا بوش منذ اللحظة الأولى لدخوله البيت الأبيض ، والتي تتلخص في عبارة واحدة هي « **التخلص من الشر والأشرار** » مضيفا « **سنصدر الموت والعنف إلى الأركان الأربعة للأرض للدفاع عن هذه الأمة العظيمة** » . .

وفي هذا المجال ، فإن بوش يعني أن العناية الإلهية هي التي ستضع على كاهله مهمة دعم ومساندة بل وقيادة معسكر الخير ضد معسكر الشر ، وهو المفهوم الذي سيتجلى لاحقا في مصطلحي محور الخير والشر ، واللذين هما في أصلهما مفاهيم منسوبة إلى الفكر اللاهوتي لرؤيا يوحنا اللاهوتي حينما يتحدث عن معسكر القديسين الذي يتعرض لمعسكر الأشرار إبان حرب هرمجدون وقبل حدوث الملك الألفي .

وحتى عام 1986 ، لم يكن أمام بوش من إطار يمكن أن يضع ذاته داخله في محاولة للتوفيق بين « **الإنسان الجديد** » الذي ولد ثانية من الله بكل تطوراته الروحية وتطلعاته الإيمانية ، وبين البيئة السياسية التي وجد فيها ، والتي كانت تسبح في بحار من نفط تكساس ، حتى جاء عام 1987 ليعثر بوش على ضالته ، حينما انتقل إلى واشنطن ليكون الأداة التي يستخدمها الأب في تطويع جماعة الائتلاف المسيحي التي شكلها القس **بات روبرتسون** .

لم يكن بوش الأب يشعر بالارتياح لهؤلاء اليمينيين ، في حين كان بوش

الابن يعي جيدا المداخل الذهنية والرؤى التوراتية التي تحكم ذهنيتهم ، أما الائتلاف المسيحي ، فيعرف نفسه بأنه جماعة من المسيحيين المؤمنين المرصوصة صفا ، وجماعة واحدة في هذا التوقيت الذي رسمه الله لهم ، وعن أنفسهم يقولون «**إننا الرأس ولسنا المؤخرة . إننا في القمة ولسنا في القاع لنظامنا السياسي**» .

أما المهمة الأكبر للائتلاف ، فيعبر عنها روبرتسون بقوله «**أن يكون الائتلاف المسيحي أكبر قوة مؤثرة في أمريكا بنهاية عقد التسعينيات**» .

أما الخطاب الديني المختلط بالتطلعات السياسية للائتلاف المسيحي ، فيعكس مضمونا مسيحيا مخترقا من قبل الفكر الصهيوني ، فقد اعتبر بات روبرتسون أن «**إعادة مولد إسرائيل هي الإشارة الوحيدة إلى أن العد التنازلي لنهاية الكون قد بدأ ، وأن بقية نبوءات الكتاب المقدس أخذت تتحقق بسرعة مع مولد إسرئيل**» .

ويعتبر روبرتسون أن عودة القدس إلى اليهود هي «**أهم حدث نبوي في تاريخنا ، وأن زمان غير اليهود قد قارب على النهاية**» وهو من كبار أشياع معركة هرمجدون ومناصري الملك الألفي .

ومن منطلق البديهيات ، مثل إن بابا روما يجب أن يكون كاثوليكيا ، فعلى هذا الأساس لابد أن يكون الرئيس بوش على نهج هؤلاء الذين مكنوا لأبيه النجاح في الحملة الأولى ، وقد عمل بوش الابن على إقحام الآيات الكتابية في خطابات والده ، مركزا على المشاهد النبوية في العهد القديم .

لكن بوش الأب الذي حلت به اللعنة من جراء عدم مجاراته لحكومة إسحق شامير ، والموافقة على ضمانات القروض التي طلبها ، فشل فشلا ذريعا أمام شاب قادم من أركنساس لا حنكة عنده ولا دراية سياسية تقارن برصيد بوش الأب ، الذي توج انتصار الولايات المتحدة على المعسكر الشيوعي من جهة ، والمنتصر أيضا في حرب الخليج الثانية من جهة أخرى ، إضافة إلى أن بوش الأب قد ارتكب غلطة فادحة دفع ثمنها من أصوات اليهود ورجال اليمين المسيحي ،

وهي إجبار رئيس الوزراء إسحق شامير على المشاركة في مفاوضات مدريد عام 1991 مع العرب . فقد كان هؤلاء الناشطون المسيحيون يدعمون المواقف الصارمة العنيدة التابعة لليمين الإسرائيلي .

وطوال فترة عمله كحاكم لتكساس ، كان بوش الابن يميل إلى الإيمان بأن مهمة إلهية في انتظاره ، وأن الله الذي اختاره منذ أزمنة بعيدة للميلاد الجديد سيعلن له عن ذاته ، كما حدث مع شاول الطرسوسي ، الذي أضحى القديس بولس رسول الأمم والمبشر الأعظم في تاريخ المسيحية .

ومع بداية العام 1999 ، بدأت فكرة الترشيح للرئاسة تختمر في ذهن بوش ، ويحكى أنه صباح أحد أيام الآحاد ، وقبل التوجه مع أمه باربارا إلى الكنيسة ، كان أن حدثها بشهوة قلبه في الترشيح للرئاسة(*) .

لم تكن باربارا تثق كثيرا في مقدرات جورج الابن ، حتى إنه عندما تقدم للترشيح لمنصب حاكم تكساس عام 1993 ، كانت ترى أن شقيقه جيب حاكم ولاية فلوريدا لاحقا هو أفضل منه لهذا المركز .

لكن يبدو أن الأمور قد تغيرت بعد العظة التي ألقاها راعي الكنيسة ، والتي كانت تتحدث عن موسى النبي ، وكيف أنه في بداية دعوة الله له تردد في قبولها قائلا لربه «**أنا ثقيل اللسان أرسل أخي هارون**» لكن الله اختار موسى وأرسله إلى فرعون ، وقدر له أن يكون خروج بني إسرائيل من أرض مصر أرض العبودية إلى أرض كنعان الأرض الموعودة على يديه .

وما كان من باربارا بوش ، إلا أن التفتت لابنها قائلة «**إن شخصك أشبه بشخص موسى**» .وعلى عجل بادرت الأم والابن بالاتصال بصديق العائلة والمساهم الرئيسي ضمن مساهمين آخرين في تكوين أيديولوجية بوش الدينية ، كان المتصل به هو القس بيلي جراهام أشهر مبشر أمريكي وأقرب مستشار روحي للكثير من الرؤساء الأمريكيين .

(*) Howard Fineman "Bush and God " New York 2003.

ولكي يمضي السيناريو «**التدبيري**» من وجهة نظر آل بوش على الأقل ، فقد طمأن جراهام بوش الابن على ما يملكه من سمات قريبة لموسى ترشحه للمضي قدما في مشروعه الرئاسي .

كانت الشرارة الأولى لتربع الأصولية اليمينية قد انطلقت منذ سنوات ، وها قد وجد الرجل الذي فيه سيتم اكتمال «**النبوءات الأمريكية**» والتي تدخل في إطار ما يسمى بالـ SELF PROPHCY أي النبوءات التي تحقق ذاتها بذاتها . يقول إريك لوران : إن حاكم تكساس بوش الابن دعا أهم رجال الدين وقادة اليمين المسيحي إلى مكان إقامته وبادرهم بقوله «**يطلب مني الآن أن أسعى إلى مركز أعلى**» . لكن الذي لم يقله لوران هو من طلب من بوش هذا ؟

وهل في الأمر محاولة للتشبه بالأنبياء أصحاب الرؤى ؟

في هذا الوقت كان سائر المرشحين يحاولون جذب هذه الجماعات من خلال إظهار ولائهم لهم في بعض المواقف ، حول موضوعات خلافية مثل الإجهاض وحقوق الشواذ وغيرها .

أما بوش فتكلم عن إيمانه فحسب ، فصدقه الناس ، وآمنوا به ، لذا فقد مثل بوش بالنسبة للعلمانيين المرشح المعتدل ، وللأصوليين المرشح المختار ، وساعدته ظروف ترشيح منافسه الديمقراطي آل جور لنائب له يهودي الأصل هو السيناتور جوزيف ليبرمان الذي تخوف الأمريكيون من أن يكون رئيسا لهم ذات يوم ، إذا ما غاب آل جور عن الساحة السياسية أو غيب عنها لسبب أو لآخر .

وتجلى هذا الإيمان على الأرض في تصريحات شارلز كولسون أحد أكثر داعميه إخلاصا في هذا اليمين المسيحي المتطرف التي جاء فيها «**كان جورج بوش الابن ولا يزال واحدا منا**» .

وفي حفل تنصيب الرئيس بوش الابن(*) كانت الكلمات غير الواضحة التي

(*) حاول بوش من خلال تلك الكلمات تقمص شخصية الرائي أي النبي عند بني إسرائيل ، ذاك الذي كان يرى الرؤية في وضح النهار ، وقد كانت تلك البداية مؤشرا على ملامح الفترة الرئاسية الأولى للرئيس المولود ثانية .

أطلقها تعلن بداية عهد جديد توجه فيه العقيدة الدينية الأيديولوجية السياسية ، يقول بوش «**إن ملاك الرب حاضر الآن في هذه العاصفة**» . وفي مقولته هذه كان يستند إلى أقوال الأنبياء من بني إسرائيل ، وخاصة مزامير داؤد النبي «**ملاك الرب يحوم حول خائفيه وينجيهم**» وفي التاسع عشر من يناير وفي غداء صلاة احتفالا بفوز بوش في الانتخابات الرئاسية ، أعلن عن إطلاق أولى علامات المد اليميني الأصولي بشكل عام في أرجاء أمريكا بكاملها من خلال دعمه لبرنامج FAITH BASED والذي يقدم فيه دعما عاما للبرامج الاجتماعية والمدرسية الكنسية وهي الإشارة التي قيل إنها بدأت في العمل على انهيار الحائط الفاصل بين الدين والدولة في البلد الذي اعتاد الفصل بينهما ومنذ زمن طويل .

وقد كان على رأس الحاضرين القس **جيري فالويل** ، والمبشر روبرت شولر ، والمسؤول عن الائتلاف المسيحي بول كروتش .

ولم يكن ظهور فالويل حول بوش إلا إشارة على أن إسرائيل حاضرة وبعمق من خلال ممثلها الأشهر في أمريكا ، حاضرة في عقل الرئيس الأمريكي وقلبه ، وقريبة من جميع أعضاء الإدارة البوشية الجديدة ، بشكل يسمح لها بتوجيه دفة الأمور وهو ما كان لاحقا .

أما فالويل ، فإنه أعظم صديق لإسرائيل كما سبق ورأينا ، لذا فإن الرجل المخلص في إيمانه لإسرائيل لا يضيع فرصة لإعادة تأكيد دعم الأصوليين المسيحيين الدائم والشامل للدولة العبرية والجماعات اليهودية .

وقد بلغ من تقدير إسرائيل له ولخدماته الجليلة ، أن قام وزير الدفاع الإسرائيلي موشي أرينز عام 1985 بإهدائه طائرة نفاثة خاصة كعربون وفاء للخدمات العديدة التي أسداها لدعم قضية إسرائيل .

وفي حضور هذا اليمين داخل إدارة بوش ، كان الفكر التدبيري إضافة إلى الفكر «**الإعفائي**» الذي يعود إلى جون داربي القس الإنجليزي من القرن التاسع عشر والذي يرى أن سلسلة من الأحداث ستعلن الأيام الأخيرة في عالمنا يتأصل

في رجال السياسة ، ومعنى هذا أن الإعداد للسيناريو القادم هو إعداد لعمل الرب ، والذي اعتبر بوش منذ زمن طويل أنه مكلف به ، وأن العناية الإلهية أرسلته لتحمل مسؤوليته .

وحسب الجداول الزمنية لكل من داربي وغيره من منظري اليمين ، فإن إسرائيل التي تركت الرب ورفضت الخلاص ، قد حق عليها الشتات في العالم ، لكن وعد الله سيرجعها ثانية إلى فلسطين ، لكن نهايات الزمان لن تكون قبل مرحلة الغضب الإلهي على الأمم المحيطة بها في معركة هرمجدون ، ومن خلال ظهور المسيخ الدجال الذي تقوى شوكته حول العالم ، ويجلس في الهيكل ويعلم كإله وهذه هي المرحلة الفاصلة بين الخير والشر قبل عودة المسيح ، وإحلال مملكة الرب .ولن تتأتى هذه الفترة الزمنية التي ينتظرها بوش إلا باهتداء اليهود وعودتهم إلى الإيمان بالمسيح .

ومعنى ذلك أن بات روبرتسون وجيري فالويل وغيرهما من أمثال بيلي جراهام ، إنما ينطلقون من ركيزة أساسية هي «**دعم اليهود من خلال اليمينيين الأصوليين لا محبة فيهم ، بل للقضاء عليهم مذهبيا على الأقل ، وإرجاعهم إلى الإيمان ثانية**» .

لكن الواضح أن السحر قد انقلب على الساحر ، وما نراه هو العكس ، إذ أصبحت رؤى اليهود هي التي تحكم تصورات الجالس سعيدا في البيت الأبيض ، وليس أدل على ذلك من أن «**مايكل جيرسون**» كاتب خطابات جورج بوش الابن ، هو واحد من كبار المؤمنين بهذا الفكر .

وليس أدل على هذا من نظرة سريعة يمكن أن نلقيها على بعض الأشخاص الذين هم في اتصال مباشر مع بوش ، أو مؤثرين عن قرب ، رغم عدم وجودهم في مناصب تنفيذية في البيت الأبيض .

هذه النظرة هي اختصار غير مخل للجماعة التي جاء بها بوش ، أو هي التي جاءت ببوش لتحقيق الرؤى ، التنبؤات التي سبق الحديث عنها ، والتي ترى كما

يقول ستان كروك في مطبوعة الـ BUSINESS WEEKLY إنه منذ عهد صلاح الدين حتى حكم صدام حسين ، والمسيحيون الأصوليون يرون الزعماء الإسلاميين كمسيح دجال أو على الأقل نذيره .

أي أنها الجماعة التي سيقدر لها رسم الصورة الأمريكية تجاه المنطقة العربية والإسلامية ، والتي قدرت لها أحداث سبتمبر أن تجد طريقها لتحقيق مآربها دون مشقة أو عناء ، وهي المعروفة باسم **المحافظين الجدد** ، أو إن شئت الدقة فقل «**اليهود أو الإسرائيليين الجدد ، ويأتي على رأس هؤلاء**»(*) :

1- إيرفنج كريستول

تعرف النخب الأمريكية كريستول باعتباره الأب الروحي لحركة المحافظين الجدد ، وكان عضوا فاعلا في مجموعة مفكري نيويورك ، وهي مجموعة من النقاد تنحدر من أصول معظم أعضائها من يهود شرق أوروبا ، وأثناء دراسته في جامعة نيويورك في ثلاثينيات القرن العشرين ، اعتنق التروتسكية وهي نظرية شيوعية تدعو للثورة العالمية الشاملة ، ثم عمل محررا في مجلة تحمل اسم «نيوكون بايبل» أو كتاب المحافظين الجدد المقدس .

وفي أواخر الستينيات تحول كريستول من اليسار إلى اليمين ، حيث بنى الإطار الفكري لحركة المحافظين الجدد ، وأسس صحفا لها ، من أشهرها «ببليك إنتريست» و«ناشيونال انتريست» والآن هو زميل معهد أمريكان إنتربريز ، وله مؤلفات عديدة مثل «**حركة المحافظين الجدد . . سيرة ذاتية للمفكر**» .

2- نورمان بودهورتر

يعتبر من آباء حركة المحافظين الجدد ، وله دراسات وكتابات وخطب حول الشؤون الاجتماعية والثقافية والدولية . في الفترة من 1960-1965 عمل رئيس

(*) هناك أسماء أخرى تظهر وتختفي من حين إلى حين على خريطة المحافظين الجدد ، ولكنها موجودة على الدوام ، كما أن الإحاطة بكافة المنتمين لهذا التيار أمر يحتاج إلى عمل بحثي خاص ، ومن نعرض لهم هم على سبيل المثال لا الحصر .

تحرير جريدة للمحافظين الجدد تطبعها اللجنة اليهودية الأمريكية ، تبنى آراء ليبرالية في مقتبل حياته ، ولكنه تحول إلى اليمين بعد ذلك ، له 9 كتب منها كتاب أكد فيه أهمية بقاء إسرائيل بالنسبة للعسكرية الأمريكية .

3-بوب ولفويتز

نائب وزير الدفاع ، وأحد كبار مهندسي الحرب ضد العراق في الفترة من 1989-1993 ، خدم ولفويتز كوكيل وزارة الدفاع للشؤون السياسية وترأس خلالها فريقين من 700 مسؤول رفيعي المستوى ، واضطلع الفريق بمهمة إعادة تشكيل سياسة واستراتيجية العسكرية الأمريكية بعد نهاية الحرب الباردة ، وألف هو ولويس ليبي مسودة تسمى هيمنة العسكرية الأمريكية على أوروبا وآسيا ، وشن ضربات استباقية ضد الدول التي تطور أسلحة دمار شامل .

وبعد الصدمة التي سببها تسرب المسودة للإعلام عام 1992 أعيدت صياغتها وقد ظهرت مرة أخرى بعد أحداث 11 سبتمبر 2001 ، وخرجت من الأدراج ، وكان من المنادين بضرورة مد هدف حرب الخليج الثانية 1991 لإسقاط نظام صدام بدلا من الاكتفاء بتحرير الكويت .

4- ريتشارد بيرل

اشتهر باسم أمير الظلام ، بسبب موقفه المتشدد في مسائل الأمن ، وهو من غلاة المحافظين الجدد ، استقال في مارس 2003 من رئاسة هيئة السياسات بوزارة الدفاع الأمريكية ، عمل كمساعد وزير الدفاع في الفترة من 1981-1987 لسياسة الأمن الدولي ، وهو مهندس أجندة «**التدمير الخلاق**» في الشرق الأوسط والتي تبدأ بغزو العراق ، وكانت بنود تلك الأجندة مدرجة ضمن تقرير لتكتل الليكود الإسرائيلي صدر عام 1996 تحت اسم «**الكسر النظيف استراتيجية جديدة لمملكة الأمن**» .

ساعد بيرل في تأسيس مركزين مهمين هما «**سياسة الأمن ، والمعهد اليهودي للأمن القومي**» .

ويعد بيرل من كبار المدافعين عن إسرائيل بالسر والعلن ، ويعتقد بيرل على الدوام أن القوة هي الوسيلة لبلوغ الغايات ، وأن اللجوء إليها أو مجرد التهديد بذلك مقبول أخلاقيا إذا ما خدم قضايا عادلة .

كان بيرل يدير «مجلس سياسة الدفاع Defense Policy Board ، وهو مجموعة للبحث والتفكير منوطة بالبنتاجون من غير أي سلطة مباشرة في اتخاذ القرارات ، ورغم استقالته لفضائح مالية ، فإنه بقى عضوا في المجموعة ، ورغم استقالته أيضا ، فإن واشنطن تطبق سياساته حرفيا ، إذ يعد أكثر نفوذا من ذي قبل بل وأكثر من أي مستشار داخل الإدارة التنفيذية .

5-دوجلاس فيث

وكيل وزارة الدفاع الأمريكية للشؤون السياسية ، ويعد ثالث أقوى رجل فيها ، وكان قد خدم في إدارة الرئيس الأمريكي رونالد ريجان كنائب وزير الدفاع المساعد لشؤون سياسة المفاوضات ، وقبل ذلك مستشارا خاصا لريتشارد بيرل أمير الظلام ، وقبل عمله في البنتاجون كان خبيرا في شؤون الشرق الأوسط بمجلس الأمن القومي عامي 81 ،82 ويعرف عن فيث مواقفه المؤيدة لتكتل الليكود اليميني في إسرائيل ، وقد كرمته المنظمة الصهيونية الأمريكية المناصرة للحزب الإسرائيلي عام 1992 هو ووالده الذي كان صهيونيا نشطا للغاية أثناء شبابه في بولندا نظير خدماتهما لإسرائيل وشعبها أثناء اليوبيل المئوي للمنظمة ، وكان يشغل نائب رئيس الهيئة الاستشارية للمعهد اليهودي لشؤون الأمن القومي .

يشكل فيث خير مثال على العلاقة الحميمة المعقدة بين الإدارة الحالية واليمين الإسرائيلي ، فهو مقرب جدا من المنظمة الصهيونية الأمريكية ZOA .

وقد كان دوجلاس فيث قبل أن يتسلم منصبه يدير مكتبا للمحاماة فرعه الوحيد خارج الولايات المتحدة موجود في إسرائيل ، وهو المسؤول الأمريكي الوحيد ـ حسب رواية إريك لوران ـ الذي يستفيد من الخزينة الإسرائيلية ، وهو استثمار غير مهم بالنسبة لوكيل وزير الدفاع كونه يتربع على ثروة من سبعة وعشرين مليون دولار .

وقبل أن يصل إلى البنتاجون كان فيث مديرا لمركز سياسة الأمن CSP وهو جهاز بحث متطرف ، ويتلخص مذهب المركز بالطريقة التالية **«تعزيز السلام بالقوة»** .

6- لويس ليبي

يعمل ليبي حاليا كرئيس هيئة مكتب ديك تشيني نائب رئيس الولايات المتحدة ، وكان قد شغل عدة مناصب حكومية قبل ذلك ، منها نائب وكيل وزارة الدفاع للشؤون الاستراتيجية والموارد في إدارة بوش الأب ، وبعدها عمل وكيلا لها في نفس التخصص .

كان لويس أحد مؤسسي مشروع قرن أمريكي جديد مع كل من ويليام كريستول وبول ولفويتز وروبرت كاجان وآخرين ، والذي حمل اسم إعادة بناء استراتيجية أمريكا وقواتها ومواردها لقرن جديد .

وقد كتب بالتعاون مع ولفويتز تقريراً باسم دليل التخطيط للدفاع وقدمه لوزير الدفاع بإدارة بوش الأب عام 1992 ديك تشيني وكسب من خلاله ثقة الأوساط السياسية ، وكان ضمن هيئة مستشاري مؤسسة راند .

7-جون بولتون

يشغل حاليا وكيل وزارة الخارجية لشؤون الحد من التسلح والأمن الدولي ، وكان يشغل قبل منصبه الرسمي نائب مدير معهد **«أمريكا إنتربرايز»** الخاص بحركة المحافظين الجدد ، وشغل قبل ذلك عدة مناصب في إدارتي الرئيسين بوش الأب وريجان .

وجون بولتون عادة ما يطلق تصريحات ومزاعم لا تؤيدها الاستخبارات الأمريكية ، ففي مايو 1992 وأمام مؤسسة هيرتاج ، وفي خطاب رسمي له اتهم كلاً من سوريا وليبيا وكوبا كدول مارقة تسعى لحيازة أسلحة دمار شامل ، وفي يونيو 2003 اتهم إيران كذلك بأن لها تاريخاً في السعي لحيازة تلك الأسلحة ، وهو ما عارضته الاستخبارات الأمريكية في يوليو 2003 ، كما عارضت مزاعمه الأخرى لاسيما فيما يخص الشأن السوري .

وقد جاء تعيين جون بولتون من خلال نجاح رامسفيلد وزير الدفاع الأمريكي وولفويتز نائبه في فرضه على وزارة الخارجية لعزل باول قدر المستطاع ، وجاء تعيينه رغم تحفظات كولن باول عليه .

وقد نشر بولتون مقالة في المجلة المحافظة الجديدة ويكلي ستاندرد التي يديرها وليام كريستول ، يفصل فيها نظرته للأمم المتحدة ، وهي على النقيض من نظرة كولن باول .

وكان بولتون قد اكتسب مودة مستشارخاص هو دايفيد ورمسر صديق من أصدقاء ريتشارد بيرل ، عمل مع بنيامين نتانياهو عندما كان هذا الأخير رئيسا للوزراء وزوجته ميراف مؤسسة مشاركة لجمعية البحث الإعلامي في الشرق الأوسط ، أما مهمة هذه الجمعية ومؤسسها الثاني الكولونيل يغال كارمون المسؤول السابق عن الاستخبارات العسكرية الإسرائيلية فتتمثل بترجمة المقالات الصحفية العربية ، ووصف مناهضتها للصهيونية .

8- إليوت إبرامز

منذ ديسمبر 2002 وإبرامز مساعد خاص للرئيس بوش ، ومدير بمجلس الأمن القومي لشؤون جنوب غرب آسيا والشرق الأدنى وشمال أفريقيا ، كان إليوت قد شغل عدة مناصب في وزارة الخارجية في عهد ريجان ، وكان زميلا لمعهد هدسون من عام 1990 وحتى عام 1996 قبل أن يصبح رئيس مركز الأخلاق والسياسة ، الذي ينادي بضرورة نشر القيم الغربية العظيمة ، كما كان رئيس مجلس إدارة اللجنة الأمريكية الدولية للحرية الدينية ، وفي عام 1991 اعترف إبرامز بحجب معلومات حساسة عن الكونجرس الأمريكي بشأن فضيحة إيران كونترا ، ولكن الرئيس بوش الأب قبل عذره عام 1992 وهو متزوج من ابنة نورمان بودهورتز .

وإليوت إبرامز رجل دين ، لكنه ليس أكثر الورعين في هذه الإدارة كون محاسب البنتاجون دوف زاخيم رباني أرثوذكسي كان معلما في اليشفيا في

نيويورك ، ومع ذلك يعلن إبرامز في أحد كتبه أن على اليهود المحافظة على هويتهم في أمريكا ، ليس من خلال التركيز على قرابة النسب ، بل من خلال تطبيق الشعائر الدينية .

وبعد وقت قصير على تسلم أرييل شارون الحكم ، نشر إبرامز مقالة أورد فيها ضرورة «**وضع حد لسنوات الضغط التي مارستها أمريكا على إسرائيل**» .

ويعتبر إليوت إبرامز مناصرا قاسيا متطرفا للغاية في سبيل التغلب على ما يعتبره عدو إسرائيل اللدود أي السلطة الفلسطينية .

وتقول النيويورك تايمز إن إليوت إبرامز يمثل الفريق القاسي القلب في إدارة السياسة الخارجية بوزارة الخارجية الأمريكية ، لكنه الفريق الأقرب لقلب جورج بوش الابن .

9-روبرت كاجان

يكتب كاجان بنشاط وكثافة في موضوعات الاستراتيجية الأمريكية والشؤون الدبلوماسية ، وأسس هو وويليام كريستول مشروع «**قرن أمريكي جديد عام 1997**» ، وقد وقع عام 1998 خطابا للرئيس كلينتون ناشده فيه تغيير النظام في العراق .

كان كاجان كاتب الخطب لوزير الخارجية جورج شولتز ، والذي عينه إليوت إبرامز في مكتب الشؤون الداخلية بالوزارة ، وهو يكتب للواشنطن بوست وألف كتابا حقق مبيعات عالية اسمه «**الفردوس القوة . . أمريكا وأوروبا ونظام عالمي جديد**» وكان ديك تشيني هو الذي اختار له زوجته .

10-مايكل ليدين

ينظر لمايكل على أنه أحد غلاة المحافظين الجدد ، ويُقال إنه أحد المقربين من كارل رووف كبير مستشاري بوش للشؤون السياسية ، وهو من أقوى الأصوات الداعية إلى تغيير النظام في إيران ، حيث أسس عام 2001 حلفاً للديمقراطية فيها وقد خدم مستشارا لإلكساندر هيج وزير الخارجية في عهد الرئيس رونالد ريجان

وهو أحد البارزين في معهد أمريكان إنتربرايز ، وأحد المقربين من ريتشارد بيرل ، وهو أيضا عضو في هيئة مستشاري المعهد اليهودي المتخصص في شؤون الأمن القومي الأمريكي ، كما أنه أحد منسقي حملة تمويل تأسيسه ، كان ليدين قد كتب كتاب «**الحرب ضد سادة الإرهاب**» ودعا فيه لتغيير النظم في كل من العراق وإيران وسوريا والمملكة العربية السعودية .

11- ويليام كريستول

نجل إيرفنج كريستول الأب الروحي للمحافظين الجدد ،ورئيس مجلس مشروع «**قرن أمريكي جديد**» وقد أسسه مع الكاتب «**روبرت كاجان**» ، وهو أيضا محرر «إنفلونتال ويكلي ستاندرد» ، وهو مثل إبرامز عمل مع النائب الديمقراطي المحسوب على الصقور هنري سكوب جاكسون ، ولكنه تحول للحزب الجمهوري عام 1976 ، وعمل مع وزير التعليم في إدارة ريجان ، كما كان ضمن فريق الرئيس بوش الأب ، ويذكر أن كريستول كان من أشد المنادين والمؤيدين للإطاحة بالرئيس العراقي السابق صدام حسين عام 1991 ، وكتب مع لورانس بلان كتاب «**الحرب ضد العراق الطاغية ومهمة أمريكا** » .

12- فرانك جافني

هو مؤسس ورئيس مركز واشنطن للسياسة الأمنية ومديره ، وهو مركز نافذ مهمته نشر السلام العالمي من خلال القوة الأمريكية .

كان الرئيس ريجان قد رشح جافني عام 1987 كمساعد وزير الدفاع لشؤون السياسة الدولية ، وقبل ذلك كان مساعد نائب وزير الدفاع لشؤون الحد من انتشار التسلح النووي وكان ريتشارد بيرل آنذاك .

وقد عمل جافني لوقت طويل كمدير لمركز سياسة الأمن CSP وقد مثل جافني نقطة التقاء للمسيحيين المخترقين من قبل الفكر الصهيوني واليمين المسيحي المتطرف من جهة ، وبين الصقور الإسرائيليين من جهة ثانية ، ولطالما اعتبر جافني أحد أكبر الموالين الأكثر تحمسا لبنيامين نتانياهو وإريل شارون في الولايات المتحدة .

وفي السابع عشر من كانون الأول/ ديسمبر من عام 2001 ، كان جافني يعلن أمام لجنة اجتمعت في فندق فخم في واشنطن ، وقد حضرها دوجلاس فيث ودونالد رامسفيلد وريتشارد بيرل «**لزمنا ثلاثة عشر عاما لنصل إلى هنا ولكن هذه المرة وصلنا**» وكان في ذلك يشير إلى الصقور الذين ترأسوا البلاد .

وجافني له عمود في صحيفة الواشنطن بوست المعروفة بتأييد اليمين الأمريكي ، ويساهم بالكتابة في عدة مطبوعات منها «**ناشيونال ريفيو .كوم**» .

وقد كان جافني أحد المحافظين الجدد الـ 25 الذين وقّعوا على مسودة مبادئ مشروع قرن أمريكي جديد .

* * *

ومما لاشك فيه ، أن القائمة أطول بكثير ممن عرضنا لهم باختصار ، ذلك لأن كل واحد منهم كان له دور ممتد عبر السنوات الماضية ، كما أن الأثر الذي يتركه في موقعه يمتد إلى المستقبل بشكل واضح ، ويشكل رأيا عاما فاعلا مؤثرا في استراتيجية «**أمريكا القوة**» بدون مراء .

كما أن كثيرين غيرهم من الوجوه غير المعروفة والتي لا تحب العمل في النور أمثال **طيور الظلام** ، وهؤلاء خليط من رجال المال والأعمال إضافة إلى السياسيين من وراء الستار والمنظرين الدينيين أصحاب البدع والهرطقات الإيمانية .

ومهما يكن من أمر ، فإن الأهداف قد جمعت في إدارة بوش بين رجال الأصولية المسيحية المتطرفة ، وبين أصوليين آخرين ، ولو من غير أن يتطابقوا مع أفكارهم ونظرتهم للعالم ، إلا أنهم يهود أو أشباه يهود مقربون من الليكود الإسرائيلي ، وموالون لأسلوب القوة في مواجهة العالمين العربي والإسلامي .

ومع صباح الثلاثاء الحادي عشر من سبتمبر عام 2001 ، كانت الاستراتيجية التي تمني أنصار الجماعات اليهودية المؤثرة على السياسة الأمريكية ، أن تجد طريقها إلى العالم المحيط بها لتكتمل بقية النبوءات من أرض الموعد إلى هرمجدون .

إلا أنه في هذا الاكتمال يقول البرفيسور ستيفن سبيجل أستاذ العلوم السياسية في جامعة كاليفورنيا «**كان لليمين المسيحي تأثير أكبر من كل ضغط الجماعات اليهودية ، وكان هذا التأثير قد استطاع النحت لا النقش فقط في آراء الحزب الجمهوري بشأن إسرائيل**» .

والواقع أن إسرائيل وجدت من خلال بوش «**قورش الثالث**» الذي سيمكنها من أعدائها بدءا من أفغانستان مرورا بالعراق ، وصولا بشكل أو بآخر لسوريا وإيران دون إغفال ضمانة الانتصار إلى الأبد على الشعب الأغلف شعب فلسطين ، إذ لابد لداود من أن ينتصر ، ولمملكته من أن تدوم إلى الأبد كما يرون .

الفصل الرابع عشر

11 سبتمبر.. اليمين الأصولي.. من النظرية إلى التطبيق

- 11 سبتمبر الفرصة الذهبية لليمين المسيطر
- العرب والمسلمون والعالم الغربي في إطار الحرب الأبدية
- عودة فكرة الحروب الصليبية من جديد
- أمريكا الجديدة إما مع الله أو مع الشيطان
- السيطرة العسكرية للمحافظين الجدد تتجلى في 11 سبتمبر
- تصاعد حالة العداء للإسلام «الإسلاموفوبيا»

الفصل الرابع عشر

11 سبتمبر .. اليمين الأصولي .. من النظرية إلى التطبيق

مع صباح **الثلاثاء الأسود** - كما أُطلق عليه ، صباح الحادي عشر من سبتمبر 2001 - كان العالم على موعد تاريخي مع منحنى جديد ، سيقدر له أن يكون **نهاية وبداية** ، نهاية للفكر اليميني الأصولي المتطرف(*) ، وبداية لانطلاق التطبيق الفعلي على الأرض لنظريات صيغت ، وأفكار سيطرت طوال عقود طوال من الزمن منذ القرن السادس عشر الميلادي حتى بدايات القرن الواحد والعشرين .كانت هناك «**ساعتان هزتا العالم**» كما يقول البرفيسور فرد هاليدي أستاذ العلاقات الدولية والمختص في تاريخ الشرق الأوسط الحديث في كلية لندن للاقتصاد والعلوم السياسية . ومع سقوط برجي التجارة في نيويورك ، واستهداف مقر وزارة الدفاع الأمريكية «**البنتاجون**» ، سقطت الكثير من التصورات عن العالم السابق ، واعتبر البعض أنه موعد جديد للتاريخ للعالم الحديث لما قبل الحادي عشر من سبتمبر وما بعده .

والواقع أن تفجيرات سبتمبر قد قادت إلى بعث الحياة في نظريات كادت أن تُهجر ، في مقدمتها نظرية **صدام الحضارات** ، والتي تقول إن حضارات العالم

(*) أي نهاية فترة وزمان التنظير اللفظي والفكري والذي استمر نحو أربعة قرون أو يزيد .

تسير حثيثا إلى الصدام فيما بينها ، وليس نحو التعاون ، وأن أهم صورة يتجسد فيها هذا الصدام سوف تكون بين الغرب والإسلام .

ومع نهاية يوم الحادي عشر من سبتمبر وغروب شمسه ، كان معظم الظن قد أضحى حقيقة واقعة ، وهي أن العلاقة بين المسلمين والغرب سوف تكون محكومة بالحرب إلى الأبد ، وأن التعميمات قد أطلقت على جميع المسلمين باعتبارهم متهمين بالإرهاب . وبدا المشهد كانقسام حول فكرة **دار الحرب ودار السلام** ، وأن أمريكا دار السلام قد تعرضت لهجوم غاشم من أنصار دار الحرب ، لذا فقد وجب الرد السريع ، ومع الأيام القليلة التي أعقبت الحادي عشر من سبتمبر ، كان أن أطلق الرئيس بوش الجني من القمقم الذي ظل قابعا فيه مئات السنين منذ نهاية فترة الحروب الدينية التي عرفتها المنطقة العربية من قبل العالم المسيحي القديم ، والذي كان متمثلا في أوروبا في ذلك الوقت .

ففي تصريح له أطلق لفظة CRUSADE أي «**صليبية**» على الحالة القائمة فيها بلاده ، والتي ستتمخض عن حروب قادمة ولاشك في ذلك ، مما أحيا جدلا لم ينته عن مرحلة من أقسى وأسوأ مراحل العلاقة بين الغرب المسيحي والشرق الإسلامي رغم عدم دقة التوصيف ، لكن الكلمة كانت كافية في نظر الكثيرين للبت في شأن هذه العلاقة واختزالها بحرب صليبية على الإسلام .

كانت فكرة الحروب الصليبية بالنسبة للمقيمين في البيت الأبيض من أنصار اليمين المسيحي الأصولي ، تمثل الرؤى الساحرة والرومانسية لحروب هي قمة في التعبير عن المروءة المسيحية والتضحية بالنفس والسعي إلى إرجاع المجد الديني الأثيل لأوروبا المسيحية ، والآن قد جاء الدور على أمريكا حامية حمى المسيحية ، وقد جاءتها الفرصة لتبرر ما يمكن أن تقوم به جهة الإسلاميين الأصوليين الذين اعتدوا عليها في عقر دارها .

وبحال من الأحوال ، لايمكن أن نفهم الحاضر دون أن نلقي نظرة على الماضي الذي يحمل في طياته صفحة مظلمة هي صفحة الحروب الدينية ، والتي لايوجد بها شئ إيجابي يمكن أن يذكر عنها .

وليس بخاف على أحد أن الولايات المتحدة كانت ولا تزال تعيش في القرن الواحد والعشرين ما يشبه حالة الانفصام .

ففي جوانب عديدة من حياتها ،حققت العلوم والتقنية تقدما لم يسبق له مثيل ، لكن على صعيد الوعي الإنساني والروحي ، كان الماضي يجرها خلفه من خلال قاطرة الأصولية والفكر الديني المنحول ، والمعادلات التوراتية الحرفية ، والنظريات التدبيرية والتي تعد كلها فراراً من الحاضر إلى الماضي .

كان البيت الأبيض في صباح الحادي عشر من سبتمبر ، يمثل طليعة أمريكا التي تؤمن بالله والشيطان كطرفين متناقضين ، طليعة لشعب يعتقد في حرفية خلق الله للعالم في ستة أيام شمسية كالتي نعرفها .

والناظر عن قرب ، كان يوقن بأن هناك حالة من التناقض الحاد بين التقدم العلمي الهائل ، والتخلف الكبير للوعي الإنساني ، وهو تناقض ديالكتيكي وأكثر مظاهر التجلي لهذا التناقض وُجد في إدارة بوش المحافظة ، ذلك لأن عقلية أولئك الرجال الواقفين على رأس رئيس الدولة الأقوى والأكثر تقدما في العالم ، ليست مختلفة جوهريا عن السيكولوجية البدائية للعصور الوسطى ، فهم غارقون في الدين وفي أشكاله الأكثر بدائية وفظاظة ، يتحدثون عن عالم بعبارات كان الصليبيون قادرين على استعمالها مثل محور الشر ، ويفوقون كبار الراديكاليين في توجهاتهم من منطلق أنهم وحدهم على صواب ، في حين أن الآخرين الذين يخالفونهم الرأي على ضلال مبين .

لذا فقد كان ترحيب المتطرفين اليمينيين والمحافظين الجدد بخطط بوش(*) لشن الحرب بعد هجمات سبتمبر ، ترحيبا حارا ، وكانت أهم الجوانب التي أعجبت هؤلاء المتشددين من أمثال بول ولفويتز ودوجلاس فيث وهما ثاني وثالث رجل في البنتاجون ، هي تلك العلاقة التي أوجدها بوش بين من أسماهم الإرهابيين والدول التي توفر لهم المأوى ، خاصة أن هذه النقطة تتيح لهم الفرصة

(*) BoB Woodward "Plan Of Attack "New York 2003.

لشن الحروب ضد الدول التي يتخذون منها موقفا معاديا من خلال مجرد اتهامها بدعم الإرهاب .

وبالطريقة نفسها التي اعتمدها صليبيو القرون الوسطى ، الذين خاضت كعابهم في الدماء بأعمالهم التي أدوها بضمير صاف ، وعلى اقتناع كبير بأنهم كانوا يقومون بعمل الرب ، بدأ المحافظون الجدد على اختلاطهم ما بين اليمينيين الأصوليين من مسيحيي أمريكا إضافة إلى صقور البنتاجون تهيئة الميدان «**لمعارك الرب**» كما يرونها . ورغم نفي بوش القاطع لاحقا بأن كلمة CRUSADE(*) التي جاءت على لسانه لاتعني المعنى التاريخي للكلمة بالمرة ، ولم يكن هذا من عندياته ، ذلك لأن بوش بطبيعة الحال يعرف القليل جدا عن التاريخ الحقيقي للحروب الصليبية ، ونفس الشيء يمكن أن يقال عن معرفته بالتاريخ عامة أو بأي شيء آخر ، بل كان من قبل مستشاريه الذين أسكتوه موضحين له أن كلمة صليبية بالنسبة للعالم الإسلامي لديها معان دلالية مليئة حزنا ، وأثر ذلك لم يعد يستعمل العبارة في خطاباته اللاحقة .

نقول رغم ذلك ، فإن فكرة «**الحروب الدينية**» قد أوجدت تفسيرا مريحا لمساندة أمريكا لإسرائيل واستهدافها الدول الإسلامية والإسلام السياسي .

وهنا يقول المفكر الفرنسي الكبير روجيه جارودي : إن الولايات المتحدة دائما وأبدا كانت مسوقة بالفكر الديني والوازع الإيماني ، إما لتحقيق استراتيجياتها السياسية الإمبراطورية ، أو تنفيذاً لرؤى الرائيين وتحقيقا لتنبؤات المتنبئين ، وكثيراً بل غالبا ما كان الخطان يلتقيان ليخدما نفس الفكر السيادي .

كانت الولايات المتحدة تدعم حرب بن لادن ضد «**عدو الله**» الذي كان يتمثل بالاتحاد السوفيتي سابقا ، ولهذا أقام الأمريكيون علاقات تحالفية مع

(*) يقول علماء النفس إن العقل الباطن كثيرا ما يفضح العقل الواعي ، وفي حالة بوش كان الزخم اليميني يدفعه إلى تمثل دور القيادة والريادة لمرحلة تصادمية غابرة من التاريخ الوسيط كان أساسها ومنطلقها الرئيسي هو الفكر الديني .

«**الطالبان**» لكنه قد جاء الوقت الذي وضعت هي نفسها في موضع عدو الله في واشنطن ونيويورك .

لذا فإنه لم يكن من بوش الرئيس المؤمن سوى اللجوء إلى المرفأ الآمن من وجهة نظره ، مرفأ الحرب الدينية كما أسماها بدءا من أكتوبر 2001 لكنه عاد وغير هذه اللغة منذ فبراير عام 2002 .

كان يتحدث بداية عن «**حرب صليبية حقيقية**» ، مستوحيا ذلك من نظرية هنتنجتون في «**صدام الحضارات**» . وحسب هذه النظرية ، فإن الحضارة الغربية اليهودية ـ المسيحية مهددة من قبل «**التحالف الإسلامي ـ الكونفو شيوسي**» ، لذا فإن بوش في رفعه لشأن الحروب الدينية إنما كان يدعو العالم الأوروبي القديم إلى التجمع من حوله لتحقيق مآرب الماضي الغابر .

ويؤكد جارودي أن هذه الحرب استثنت الدول المسلمة التي تحتوي على احتياطات البترول التي تحتاجها الولايات المتحدة ، لذلك سرعان ما قام بوش بتغيير تسمية «**الحروب الصليبية**» إلى «**الحرب ضد الإرهاب**» .

ومهما يكن من أمر ، فإن الإدارة الأمريكية التي لم يكن قد مضى على وجودها في البيت الأبيض سوى بضعة شهور ، قد استخدمت «**الحس الديني ومصطلحاته**» بشكل مطلق لتحقيق أهدافها ، إلا أن هذا يقودنا إلى التساؤل : هل كانت الأرضية الأمريكية مهيأة لقبول فكرة الحروب الدينية خاصة بعد مشاهد الأبراج المحترقة والبنتاجون المدمر ، والرئيس المذعور الذي يهرب إلى المخابئ العسكرية ؟

يجيب عن هذا التساؤل «**مايكل كوربت**» أستاذ الدراسات الدينية بجامعة واشنطن في كتابه «**الدين والسياسة في الولايات المتحدة**» يقول كوربت :

«إن الدين عند الأمريكيين قد أثر على مقدرات أمورهم منذ الثورة الأمريكية وحتى حرب الخليج ، والذين عارضوا الحروب الأمريكية عارضوها مرتكزين على مفاهيم دينية ، وأن قناعات الشعب الأمريكي قد ترسخت وفقا للهوى

العقيدي ، حتى إن أفراد هذا المجتمع قد سعوا إلى سن قوانين تجعل آراءهم الدينية تنطبق على الجميع ، فقد اعتاد الدين على سبيل المثال ، تشجيع كل من العبودية وإلغائها في الوقت نفسه ، وبالمثل تشجيع الفصل العنصري والاندماج في آن واحد ، كما أنه غالبا ما كان الدين في الولايات المتحدة داعما للحكومة الفيدرالية وللرئيس ، ولكن كثيرا ما شكل الأفراد والجماعات تحديا خطيرا تجاه إجراءات معينة من وجهة نظرهم الدينية على مر التاريخ .

وإضافة إلى ما تقدم ، فقد لعب الدين إلى جانب عوامل أخرى دوراً مؤثراً في سلوكيات الناخبين عبر التاريخ . فعلى سبيل المثال ، يتجه اليهود والكاثوليك لانتخاب المرشحين الديمقراطيين أكثر من الناخبين البروتستانت ، كما أثر الدين أيضا على طريقة عرض المرشحين والمسؤولين المنتخبين لقضاياهم على عامة الناخبين .

وفي دراسة أجرتها «**بابليك بيرسبيكتيف**» حول دور الدين في حياة أمريكا الحديثة ، وجدت أن 55% ممن شملتهم الدراسة يوافقون على أن «**الله هو قوة الإرشاد الأخلاقي الديمقراطي في أمريكا**» . كما وجدت أن أكثر من 68% يذهبون إلى أنه على الحكومة الأمريكية (أي حكومة أمريكية ديمقراطية أو جمهورية) يجب أن تتخذ خطوات معينة لحماية التراث اليهودي ـ المسيحي لأمريكا ، ومعنى ذلك أن خلطا هائلا جرى بين الدين والسياسة في تاريخ الولايات المتحدة ، وأنه تجلى في صورة أمريكا المتدينة .لم يكن من الصعب إذن على الشعب الأمريكي أن يدعم توجهات الرئيس بوش وإدارته المحافظة في حربهم ضد الإرهاب الذي تعرضوا له ، وقد كان الوازع الديني فاعلا حتى ولو كانت حرب صليبية جديدة ، فالمفكر المفضل لدى بوش والأب الفوقي ـ كما كان يشير على الدوام ـ هو «**السيد المسيح**» وهاهي أمريكا ذات الجذور اليهودية ـ المسيحية تتعرض للاختراق والاحتراق فلِمَ لا ؟

يروي ديفيد فروم ، كاتب محور شر بوش ، وشريك ريتشارد بيرل في مؤلف «**نهاية الشر**» يروي في كتابه «**الرجل الصحيح**[*] **الرئاسة المفاجئة لجورج**

(*) David Frum " The Rightman " Random House NEW York 2003.

بوش» أن الرئيس الجمهوري لا يبدأ اجتماعاته أو عمله في البيت الأبيض إلا بقراءة من الكتاب المقدس ، وإنشاد بعض المزامير ، ذلك لأنه رئيس متدين إلى أبعد الحدود ، ولم يشهد المكتب البيضاوي مثالا له إلا الرئيس جيمي كارتر ، لكن الأخير لم يكن يخلط يوما السياسة بالدين ، ورغم إيمانه المعمداني لم يقف حائلا دون السلام بين مصر وإسرائيل على خلاف أصحاب الاتجاه التصادمي من اليمينيين المسيحيين الذين يرون بحتمية الصراع النهائي بين إسرائيل والدول العربية .

أما مجلة النيوزويك الأمريكية ، فقد خصصت عدد (11-3-2003) لتتحدث عن «**بوش الرئيس المؤمن**» بعنوان «**بوش والرب**» ، وفيه تخلص إلى أن بوش الابن هو الرئيس المرشح لقيادة أمريكا في المواجهات الدينية القادمة من خلال الثوب السياسي والعسكري الذي تتزيا به بلاده المسيطرة على مقدرات الكون في العقد الأخير ، **أما عن تلك السمات التي تؤهل بوش لذلك فمنها** :

- أنه بحكم عقيدته الدينية ـ كما يصفه ديفيد فروم ـ هو أكثر تقليدية بطريقة تفكيره كما أن إدارته إدارة تبشيرية عسكرية في ذات الوقت .

- بوش أعمته معتقداته الدينية عن رؤية العالم المحيط به ، أو قراءة أحداثه بصورة متوازنة ، وقد قال لمستمعيه مرة إن الولايات المتحدة مدعوة إلى إيصال هدية الحياة التي منحها الرب لكل إنسان على وجه المعمورة .

- كما أن الرئيس بوش قد أخذ بالحمية الدينية كما وصفه الكاتب النيجيري وول سونيكا الحائز على جائزة نوبل في الآداب عام 1986 م .

أما حال البيت الأبيض فربما لا يبتعد عن ذلك كثيرا ، وهنا يقول جستين ويب مراسل شبكة الـ «**بي بي سي**» في واشنطن متهكما «**إن إدارة بوش تترنم بالصلوات دائما وأن تجمعات الصلاة تعقد ليل نهار . . وليس من المستغرب أن ترى العاملين في البيت الأبيض وهم يهرعون وبأيديهم الأناجيل**» . فيما الرئيس الألماني يوهانس راو المعروف بتدينه الشديد وعمله في بواكير حياته كاهنا كنسيا

يقول : «إن الإنجيل لم يكن بندقية وحربا موجهة لغير المسيحيين ، وليس به موضع واحد يتحدث عن الحروب الصليبية التي يتحدث عنها جورج بوش» .

ومما لاشك فيه ، أن لحظة الحادي عشر من سبتمبر ، كانت لحظة الانفجار للفكر المكبوت ، وليستيقظ العالم على دوي يؤكد أن صراع الحضارات أو حروب الأديان ليست حروبا ثقافية فقط ، إنما هي حروب عسكرية بمعنى الكلمة ، فهي لم تتخذ إلا شكلا عسكريا طوال التاريخ ، ولم تكن فقط عراكا فكريا ، ولم تكن نقاشا في ندوة ، بل كانت حروبا بالمعنى العملي لكلمة حرب .

وقد تجلت تلك الحرب الحضارية الدينية في 11 سبتمبر 2001 ، حيث وجدنا أنفسنا أمام مشهد حرب حضارات فعلي ، وأمام حرب دينية حقيقية يُستخدم فيها السلاح والثقافة ، ويُستخدم فيها طرد العربي والمسلم واضطهاده وتصفية الجاليات العربية والإسلامية الموجودة في الغرب على أساس الهوية ، وقد ساعد على إذكاء نيران هذه الحرب أن مشاعر الأمريكي لم تجرح فقط ، بل أصيبت بزلزال عنيف ، فالأمريكي الذي اعتاد على أن ينظر لنفسه نظرة استعلاء واستكبار مؤمنا أن حضارته وبلاده تحمل رسالة للهمجيين أو البربر من شعوب العالم ، استيقظ ليجد هؤلاء داخل حدوده يقودون الطائرات ليسقط القتلى من الجنس الآري بالآلاف الأمريكي الجديد .

وباختصار شديد ، يمكن القول : **إن منعطف الحادي عشر من سبتمبر ، قد أعاد العالم دون مواراة أو مداراة لمربع الحروب الصليبية ، ولم يأل منظرو الأصولية اليمينية جهدا في هذا السياق** .

ففي الأول من أكتوبر من عام 2001 ، كان القس فرانكلين جراهام المبشر **الإنجيلي** ابن الواعظ الأشهر بيلي جراهام ، صاحب التأثير الفاعل في حياة الرئيس بوش الابن يقولها علانية وصريحة **«إله الإسلام ليس إلهنا ، وليس إلهاً بالمرة ، كما أن الإسلام دين شرير وحقير»** .

أما القس بات روبرتسو ، فكان يمثل أعلى منحنى للرسم البياني المعبر عن

تصاعد حالة العداء للإسلام «**الإسلاموفوبيا**» ، ذلك أنه لم ينفك ينهال بهجوماته على المسلمين كقوله «**يريدون التعايش إلى أن تدين لهم السيطرة على أن يعمدوا حينها إلى التدمير**» .

ومعنى **ذلك** ، أن اعتداءات الحادي عشر من سبتمبر هي التي رسخت في شكل خاص تحالف المحافظين الجدد والأصوليين الساعين إلى جعل صدام الحضارات نبوءة تتحقق ذاتيا (*) .

فالإسلام هو المشار إليه بصفته إمبراطورية الشر الجديدة ، والخطاب الذي تكرره وسائل الإعلام دون كلل ، ويسترجعه جميع البرلمانيين الأمريكيين تقريبا يتبنى أطروحات الحكومة الإسرائيلية ، فياسر عرفات هو ابن لادن إسرائيل ، والبلدان يخوضان معركة واحدة ، وفي كل الأحوال تجد الصقور المقربين من إسرائيل بدءا من بول ولفويتز وصولا إلى ريتشارد بيرل هم الذين أشرفوا على تجديد العقيدة الدفاعية التي ستقوم الولايات المتحدة من الآن وصاعدا بناء عليها بتوجيه ضربات وقائية إلى البلدان القادرة على التزود بأسلحة نووية أو بيولوجية وكيميائية .

كما أن بلاغة الرئيس بوش ، هي بلاغة مقتبسة من الآيات الإنجيلية وليست من طرفه ، حينما أعلن «**من ليس معنا فهو مع الإرهابيين ، وأننا نحن الطيبين وهم الأشرار**» قد شجعت الخطاب الثنائي الذي يقسم الناس بين أخيار وأشرار ويتلاقى مع أنماط تفكير الأصوليين .

وبحسب إحصاء حديث العهد أجرته مؤسسة «**تايم / سي إن إن**» فان 59 ٪ من الأمريكيين يعتقدون أن الأحداث الموصوفة في سفر الرؤيا سوف تتحقق ، وأن 25٪ يعتقدون أن التوراة تنبأت باعتداءات الحادي عشر من سبتمبر .

ومن هنا كان النجاح الكاسح لسلسلة LEFT BEHIND التي بيع منها 50

(*) ولا يمكن إهمال الليكوديين الأمريكيين الذين هم في مغالاتهم ملكيون أكثر من الملك في محاباتهم لإسرائيل الفكرة والدولة والأمة حسب تعبير الآباء المؤسسين للولايات المتحدة الأمريكية .

مليون نسخة في عشرة أجزاء ، وهي بين رواية النبوءات والدليل العملي لنهاية العالم ، كما أنها تدعي فك رموز سفر الرؤية والتي يرى فيها أصحاب الفكر الأصولي اليميني دور الولايات المتحدة الأمريكية في تهيئة الأرض لعودة السيد المسيح ثانية .

ومع تقدم عقارب الساعة إلى الأمام ، كانت قعقعة السلاح الأمريكي تسمع من بعد بعيد استعدادا للحرب في أفغانستان وبعدها العراق وتطول القائمة .

يقول بوش لبوب وودوارد مؤلف كتاب «**خطة الهجوم PLAN OF AT-TACK**» متقمصا روح النبوءة عند أنبياء بني إسرائيل مؤكدا على عظمة اللحظة التي اختارته فيها العناية الإلهية لهذه المهمة «**إن هذه القصة ـ قصة الحرب ـ ستكون لها أهمية تاريخية تتيح لبقية الزعماء والقادة فرصة التفكير في عدم تعريض حياة المدنيين الأبرياء للخطر إذا شعر هؤلاء القادة والزعماء بأنه يتعين عليهم التوجه للحرب ، إن الأخبار الحقيقية في تقديري ـ والكلام لبوش ـ هي أن أمريكا أحدثت تغييرا في كيفية خوض الحرب وكسبها ، وبالتالي تسهيل الحفاظ على السلام على المدى الطويل**(*)» . . وهذه هي الأهمية التاريخية لهذا الكتاب من وجهة نظري .

وكما قالت له أمه باربارا بوش «**إنك تشبه موسى**» يمضي بوش يقول لوودوارد «**أعتقد أن من واجبنا تحرير الناس ، أتمنى ألا نضطر إلى تحريرهم عسكريا . . . ولكنه واجب علينا تحمل مسؤوليتهم**» ويكمل قائلا : إن إيمانه الديني لعب دورا كبيرا في تلك الفترة ، حيث إنه بعد أن أصدر أوامره بغزو العراق بعد الانتهاء من الحرب في أفغانستان ، كان يدعو الله وهو يتمشى خارج المكتب البيضاوي في البيت الأبيض أن يدعمه ويمده بالقوة التي تساعده على أن ينفذ إرادته .

(*) وهو ما ثبت ويثبت من جديد عدم صحته حتى الساعة ، فلا الأوضاع الأمنية استتبت في أفغانستان ولا السلام أو الديمقراطية تحقق في العراق ، لذا فإن كافة العقلاء داخل الولايات المتحدة الأمريكية هم أكثر من يحذر من تنامي موجة الكراهية ضدهم بسبب سياسات بوش الخرقاء ، وليس آخرهم المفكر الأمريكي الكبير «**جون اسبوسيتو**» من جامعة جورج تاون الكاثوليكية في واشنطن .

ويستدرك بوش في حديثه مع بوب قائلا : «**إنه لا يحاول تبرير الحرب بالاستناد إلى الإرادة الإلهية ، ولكنه كان يدعو الله ليوفقه في أن يكون رسولا أمينا في نقل إرادته ، وأنه يدعوه ليمده بالقوة الشخصية ولكي يغفر له** » .

والمؤكد أن حديث الحرب على العراق حديث قائم بذاته ، لأنه يعبر عن العمق في تجلي الأصولية المسيحية جهة **بابل الشريرة** ، وهو ما سنعرض له في فصل لاحق . وما سبق كان مجرد لمحة من لمحات الإيمان العسكري إن جاز التعبير ، والذي فيه بوش يعتمد على العناية الإلهية لكي تمده بالزخم اللازم ، لكنه اعتماد من خلال الآلة العسكرية الأمريكية وليس من خلال قوة الرب كما خيل إليه ، إذ إنه في 21 نوفمبر من عام 2001 ، أي بعد 72 يوما بعد الهجمات على نيويورك وواشنطن ، أمر بوش وزير دفاعه رامسفيلد بالتحضير للحرب ضد العراق ، ويذكر بوب وودوارد أن بوش تلقى تقريرا حول خطة غزو العراق بعد خمسة أسابيع من ذلك التاريخ أي في 28 ديسمبر .

كانت اللحظة الحاسمة قد جاءت لكي يجد دليل السياسة الدفاعي للولايات المتحدة طريقه إلى التنفيذ ، خدمة لتوجهات صقور البنتاجون ، وتحقيقا لرؤى الأصوليين الجدد ، أما مرجع هذا الدليل فيعود إلى نهايات حرب الخليج الثانية عام 1991 ، حينما قدم كل من بوب وولفويتز وآي لويس ليبي المعروف بـ «سكوتر» ورقة سميت «**دليل السياسة الدفاعية وجوب التفوق العسكري الأمريكي على الدول الأوروبية والآسيوية**» وحدد أن البديل لذلك هو منع قيام أي قوة مناهضة للولايات المتحدة ، ووضع سياسة تتبنى حروبا وقائية ضد الدول المشتبه في تطويرها لأسلحة الدمار الشامل ، وتنبأ الدليل بعالم يصبح فيه التدخل العسكري الأمريكي خارج الولايات المتحدة «**سمة ثابتة**» .

والحاصل أن هذا الدليل والمسمى الكامل له «**إعادة بناء الدفاعات الأمريكية استراتيجيات وقوى وموارد لقرن جديد**» كان في أصله انعكاسا من القوى المحافظة الأمريكية لحربها ضد الشيوعية ، لكن تلك القوى مع انهيار الاتحاد السوفيتي بشكل مأساوي وسريع ، فقدت «**اللحظة الفريدة**» التي طالما انتظرتها

لبسط سيطرتها على العالم من خلال أدوات العسكرية الأمريكية ، وقد كانت الوثيقة مرعبة لدرجة وصفها بأنها دعوة إلى السلام الأمريكي -PAX AMERI CANA كما وصفها السيناتور جوزيف بايدن الديمقراطي من ديلاور بأنها على على وزن PAX ROMANA أي السلام الروماني ، وهو ما يحمل الإشارة إلى قرب بزوغ الإمبراطورية الأمريكية ، إلا أنها تحولت إلى المسودة الرئيسية والمقدمة الطبيعية لمشروع «**القرن الأمريكي الجديد**» ومع صباح الثلاثاء الحادي عشر من سبتمبر ، كان القدر يلقي في ملعب الفريقين ـ أي كلا من المحافظين الجدد والاصوليين الجدد ـ بالكرة الذهبية ثانية لفرض تطلعاتهم الأمنية لا في أمريكا فحسب ، بل في العالم كله ليتحقق النموذج الذي روجوا له كثيرا والذي شاءت الأقدار أن تمضي به في ظل رئيس يختلي كثيرا في المكتب البيضاوي ليصلي كثيرا قبل اتخاذ قرارات الحرب ، كما يعرف عن بوش من خلال أطقم السكرتارية الخاصة به في البيت الأبيض .

ويؤكد رئيس تحرير مجلة اللوموند ديبلوماتيك الفرنسية ، أن وجها جديدا للعالم قد بدأ ، فيقول في العدد الصادر في ديسمبر من عام 2001 إنه كان واضحا منذ كانون الأول/ ديسمبر من عام 1991 وزوال الاتحاد السوفيتي ، أن الولايات المتحدة باتت القوة العظمى الوحيدة ، لكن بعض المعاندين هنا وهناك من أمثال روسيا والصين وفرنسا على طريقتها ، كانت تتردد في قبول الفكرة ، فجاءت حوادث الحادي عشر من سبتمبر لتمحو جميع الشكوك ، حيث أقرت كل من موسكو وبكين وباريس علانية بالتفوق الأمريكي ، وهرع العديد من زعماء العالم ـ وأولهم الرئيس الفرنسي جاك شيراك ـ إلى واشنطن لتقديم تعازيهم رسميا وإعلان تبعيتهم غير المشروطة عمليا . . لقد أدرك الجميع أن الوقت ليس وقت مخادعة ، فالرئيس بوش كان قد أنذر «**من ليس معنا فهو مع الإرهابيين**» مضيفا «**أنه سوف يتذكر الذين اتخذوا في هذه اللحظة بالذات موقفا سلبيا** » .

ويضيف «**انياسو رامونه**» بقوله إن واشنطن بعدما أخذت علما بهذه التبعية العالمية ، بما فيها الأمم المتحدة وحلف شمال الأطلسي ، تصرفت بسلطة مطلقة ،

أي دون أي اعتبار لتوصيات حلفائها أو رغباتهم ، فالتحالف المكون يخضع لمعايير متحركة ، فواشنطن تختار دائما شريكها ، وتحدد له من طرفها هي المهمة المنوطة به دون أن تترك له أي هامش للمناورة .

والمشهد العالمي دون شك كان يعلن صراحة أن الولايات المتحدة التي كان تفوقها كبيرا قد بات ساحقا ماحقا غالبا مسيطرا وفيه مشهد القرن الأمريكي الجديد يتكرس ليس فقط في المجال العسكري ، بل يصل إلى أدق الشؤون الداخلية لدى الدول ذات السيادة المستقلة ، أي في مجال المخابرات والحرب الخفية ، فقد وضع أكثر من خمسين بلدا خدماتها في تصرف وكالة المخابرات المركزية الأمريكية ومكتب التحقيقات الفيدرالية ، وعن طريق هذا التعاون ، تم توقيف أكثر من 350 مشتبها بهم متهمين بالتعاون مع تنظيم القاعدة وبن لادن .

وفي أقصى الشمال ، حيث كانت العلاقات بين روسيا وأمريكا تتسم بالبرودة بسبب مشروع الدروع الصاروخية العزيز على قلب الرئيس بوش ، كان من المفترض ألا تساهم موسكو أيضا مع واشنطن ، ولا تقدم لها أية تسهيلات لدى حلفائها في آسيا الوسطى أي أوزبكستان وطاجيكستان .

وبحسب هذا التفكير الذي لا يخلو من المنطق يكون على الولايات المتحدة بعد الحادي عشر من أيلول/ سبتمبر أن تنصاع للقصف عن مسافة بواسطة صواريخ بعيدة المدى ، هكذا يكون الرد مذهلا لكن دون نتائج .

كما أن بن لادن اعتقد أن الولايات المتحدة ستصطدم بباكستان إذا ما حاولت استخدامها كمطية لدحر طالبان ، لاسيما وأنها صاحبة القوة العسكرية الكبيرة والتي تضم 150 مليون نسمة وتملك سلاحا نوويا .

لكن مجريات الأحداث برهنت على أن حسابات بن لادن من جهة كانت خاطئة ، إذ إنه وفي أقل من أربع وعشرين ساعة وأمام الخيارات الحازمة التي وضعتها الولايات المتحدة أمام باكستان بمساعدتها أو بتحمل أخطار جسيمة في المجالات الاستراتيجية الرئيسية مثل كشمير والنزاع مع الهند وامتلاك السلاح

النووي ، لم تتردد القيادة الباكستانية العليا ، بل أقدمت كما هو معروف على التضحية بأفغانستان .

أما روسيا فمن جهتها ، لم تتردد لحظة واحدة ، وقد بادر السيد فلاديمير بوتين إلى الاتصال بالسيد بوش يوم 11 سبتمبر ليعرب له عن تضامنه ، وقد وصل هذا التضامن في آسيا الوسطى حدا أقلق القيادة العسكرية ، حتى بات الحديث يدور حول احتمال انضمام روسيا إلى حلف شمال الأطلسي .

ومما لا شك فيه ، أن المشهد الروسي كان يشير بجلاء إلى أنه لم يعد هناك على مستوى العالم أي إمكان لتشكيل تحالف عسكري ، من شأنه الوقوف في وجه الولايات المتحدة التي دانت لها السيطرة العسكرية المطلقة .

وفي هذا السياق ، يمثل العقاب الذي أنزلته أمريكا منذ السابع من أكتوبر بأفغانستان بقصفها ليلا ونهارا تحذيرا مخيفا لبقية دول العالم ، فمن هو ضد الولايات المتحدة يجد نفسه وحيدا ودون حليف ، ويعرض نفسه للقصف حتى يرجع إلى العصر الحجري ، أما لائحة الأهداف التالية المحتملة ، فقد أعلن عنها على صفحات الصحف الأمريكية بدءا من **العراق مرورا بسوريا وإيران واليمن والسودان وصولا إلى كوريا الشمالية** .

ويبقى هنا أن نتساءل : أين كانت إسرائيل في مشهد الثلاثاء الأسود ؟

من المجزوم به أنها كانت حاضرة وبقوة في مشروع القرن الأمريكي ، ذلك لأن دليل السياسة الدفاعية لم يكن في أصله إلا ورقة مقدمه لرئيس الوزراء الإسرائيلي بنيامين نتانياهو في التسعينيات .

إلا أنها أيضا كانت حاضرة بشكل أو بآخر في الحادي عشر من سبتمبر ، انطلاقا من مقولة هنري كيسنجر وزير الخارجية الأمريكية الأسبق بأنه « **لا يوجد في العالم أصدقاء وأعداء ولكن أعداء بدرجات مختلفة** » التي تجد أفضل تطبيق لها في العلاقات الإسرائيلية الأمريكية ، حيث لا تعتقد إسرائيل بوجود أصدقاء

دائمين ، ومن ثم ، فإن تأمين مصالحها في الولايات المتحدة ينبغي أن يكون الأولوية المطلقة في سلم الاهتمامات الإسرائيلية .

وفي عجالة ، فإن ملفات كثيرة فُتحت لعمليات تجسس إسرائيلية(*) قوامها أكثر من 120 إسرائيليا في نحو 42 مدينة أمريكية تزامنت مع أحداث سبتمبر وقبلها وبعدها بعدة أشهر . إلا أن تلك الملفات أغلقت في سرية تامة ، حتى لا تؤثر على العلاقات الاستراتيجية بين البلدين ، رغم زعم العديد من أجهزة الإعلام الأمريكية ، أن هؤلاء كانت لديهم معلومات مؤكدة ، بأن هجوما ضخما سيقع ضد أهداف أمريكية استراتيجية حيوية ، فيما بين التاسع والحادي عشر من سبتمبر .

لكن الهدف الأبعد لإسرائيل لم يكن يتسق مع إفشاء ما توصلوا إليه من معلومات كانت الخريطة النبوية لم يتم رسمها بعد حسب نبوءات **«بني الأمريكيين»** وكانت أهداف المحافظين الجدد في حاجة إلى الغطاء الأخلاقي الذي يبرر لها امتطاء صهوة جواد الإمبراطورية الأمريكية .

وما بين هؤلاء وأولئك ، كان العمل يجري على قدم وساق في تسابق عجيب للإعداد لبابل المدينة ذات الذكر السيئ التي جلس على أنهارها بنو إسرائيل يبكون وينوحون حينما تذكروا صهيون .

(*) راجع صحيفة الواشنطن بوست الأمريكية الأحد 9-8-2004 بشأن تحقيقات مكتب المباحث الاتحادية مع بعض موظفي وزارة الدفاع الأمريكية ومؤسسة الإيباك .

الفصل الخامس عشر

الحرب على العراق
واكتمال زمان الأصولية

- لماذا كانت الحرب على العراق حتمية؟
- أين يقع العراق في فكر الأصوليين المسيحيين الجدد؟
- بابل القديمة أسوأ ذكرى «السبي البابلي» لليهود
- نبوءات العهد القديم وضرورة قتال الشر في بابل
- صدام حسين.. هل هو المسيح الدجال في رأي اليمين الأمريكي؟

الفصل الخامس عشر

الحرب على العراق واكتمال زمان الأصولية

«إنني أدعو من كل قلبي ألا يوافق العراق على استقبال مفتشي الأمم المتحدة» .

بهذه الكلمات ، كان رئيس الوزراء السابق بنيامين **نتانياهو** يعلن عن رغبة إسرائيل المكبوتة عبر عدة آلاف من السنين في خراب ودمار العراق ، البلد الذي يحمل أسوأ ذكرى لبني إسرائيل عبر تاريخهم «**ذكرى السبي البابلي**» .

كان نتانياهو يتمنى أن يرفض الرئيس العراقي السابق صدام حسين استقبال لجان التفتيش على أسلحة الدمار الشامل ، حتى تكتمل الدائرة ضد العراق ، وتصير الأمور إلى ما صارت إليه لاحقا من غزو واحتلال وخراب ودمار .

والحق أننا سنتعرض هنا في هذا الفصل الأخير ، إلى جزءين رئيسيين في هذه القضية ، **الأول** : يتعلق بتساؤل يدور حول بابل ـ العراق ، وضرورة أن تؤول الأحداث إلى ماآلت إليه من وجهة نظر اليمينيين من الأصوليين المسيحيين مدفوعين بالثأر التاريخي لبني إسرائيل ، محركي الأحداث عبر التاريخ من وجهة نظرهم ، **أما الثاني** : فهو على الدوام ، حيث تلتقي مصالح جماعات الصقور في البنتاجون ومنذ زمن طويل حتى قبل أن يقدر لها أن تصل إلى البيت الأبيض ، وجميع المراكز الحساسة في إدارة بوش الحالية سواء على صعيد السياسة الخارجية أو السياسات الدفاعية .

وأول ما يواجه الباحث في العلاقة بين **بابل** ـ وهي اللفظة التي سنستخدمها بدلا عن **العراق** في الجزء الأول من هذا المقال ـ وإسرائيل ، هو العلاقة الجدلية بين شعب إسرائيل وملوك بابل عبر التاريخ ، وهي علاقة فيها الكثير والكثير جدا من العبودية والإذلال لشعب إسرائيل من قبل أهل بابل ، وهو ما يجعل العلاقة بين الطرفين حتى الساعة محملة بموروثات الكراهية عبر التاريخ .

يقول العلامة المصري واللاهوتي **الأب متى المسكين** ، في دراسته الخالدة عن تاريخ إسرائيل ، من واقع نصوص التوراة والأسفار وكتب ما بين العهدين ، «إنه بنهاية سنة 604 ق .م ظهرت جيوش الملك **نبوخذ ناصر** ملك بابل في سهول فلسطين ، فاستولوا على أشقلون وهدموها (ار 5:47) وسلبوا كل ما فيها إلى بابل مع جيادها وبحاريها» .

وقد اكتشف في مصر خطاب باللغة الآرامية مرسل من ملك اليهودية إلى الفرعون يطلب النجدة . وأعلن الصوم العام في اليهودية في ديسمبر سنة 604 ق .م(*) .

وما إن نزل نبوخذ ناصر إلى فلسطين ، حتى حول يهوياقيم ولاءه من مصر إلى بابل سة 603 ق .م ، ولم يكن مقصد نبوخذ ناصر أن يستولي على البلاد ، بل كان مجرد إظهار قوته وسلطانه ، واستطاع جيش بابل أن يغطي أرض فلسطين كلها سنة 603 ق .م ، وغير **يهوياقيم الملك اليهودي** الجزية من نحو مصر إلى نبوخذ ناصر ببابل .

تقول التوراة في سفر الملوك الثاني «في أيامه صعد نبوخذ ناصر ملك بابل فكان له يهوياقيم عبدا ثلاث سنين ، ثم عاد فتمرد عليه ، فأرسل الرب عليه غزاة الكلدانيين وغزاة الآراميين وغزاة الموابيين وغزاة بني عمون ، وأرسلهم على يهوذا ليبيدها حسب كلام الرب . . . من أجل خطايا منسى حسب كل ما عمل (2مل 3-1:24) وهكذا تحرك نبوخذ ناصر في أواخر سنة 601 ق .م نحو مصر واصطدم

(*) تاريخ بني إسرائيل للأب متى المسكين ـ وادي النطرون 1997 .

بجيش مصر على الحدود المصرية قرب بيلوزيوم «**بورسعيد الآن**» ، وتحمل الفريقان خسائر فادحة ، عاد بعدها نبوخذ ناصر إلى بلاده وأمضى سنة 600 ق .م في تحسين جيشه .

أما يهوياقيم ملك اليهودية ، فاعتبر عودة نبوخذ ناصر شبه مهزوم إلى بلاده أنه انكسر ، فتشجع وثار ضد نبوخذ ناصر ولم يدفع له الجزية ، وكانت هذه جهالة قاتلة ، علماً بأن أرميا النبي حذرهم كثيرا جدا ألا يعتمدوا على مصر ، وأن نبوخذ ناصر قادم بجيشه وسيستولى على البلاد ، فطلب الملك وجهلاء الشعب أن يقتلوه .

وفي سنة 598 ق .م نزل نبوخذ ناصر ثانية على اليهودية حتى لا يجعل يهوياقيم يفلت من العقاب ، لكن الملك اليهودي كان قد اغتيل هو وأشراف المدينة في تلك السنة . وبعد موت يهوياقيم ـ بعد أن عاش ستاً وثلاثين سنة ، حكم منها إحدى عشرة سنة ـ أخذوا ابنه يهوياكين وأجلسوه عوضاً عن أبيه ، وقد حكم هذا ثلاثة أشهر وعشرة أيام ، وفي السادس عشر من مارس سنة 597 ق .م أخضعت اليهودية لجيوش نبوخذ ناصر ، وأخذوا الملك يهو ياكين وأمه الملكة وكبار الضباط والموظفين وكل رؤساء وشيوخ الشعب وساقوهم إلى بابل ـ ثلاثة آلاف نفس ـ وكان من بينهم النبي حزقيال الذي كان وقتها صغير السن .

و يقول المؤرخ برايت : إن هذا الرقم بحسب أرميا النبي يشمل البالغين فقط ، ولكن الرقم الحقيقي بحسب سفر الملوك الثاني (2مل 24:14-16) هو بين ثمانية آلاف وعشرة آلاف نفس .

وأقام الشعب عم «**يهو ياكين**» ويدعى «متنياوهو صدقيا» كحاكم للبلاد مكان الملك .

كان من المفروض بعد المعاناة التي مرت فيها اليهودية ، وخبرة عدم الأمانة لرؤساء الشعب الذين ملّكهم الله عليهم حسب المفاهيم التوراتية لتأديبهم أن يكونوا طيعين تحت اليد العالية لنبوخذ ناصر ، ولكن يبدو أن غضب الله وتأديبه لهم لم يكن قد حان بعد .

لكن «صدقيا» الملك كان مملوءا بروح العصيان والتمرد لتخريب حياته وبلده ، وقد نجح في خلال عشر سنوات ، أن يصل ببلاده إلى الخراب الأخير ، بالإضافة إلى أن الملك المسبي في بابل «يهوياكين» كان محسوبا لدى الشعب على أنه الملك الحقيقي ، وقد سرت مشاعر ثورية حمقاء بين شعب اليهودية وفي قلب صدقيا ، كما بلغت هذه المشاعر بواسطة الأنبياء الكذبة إلى المسبيين ، وبدأت حركة التمرد من الجيش هناك في السبي ترى أن العودة قريبة ، وبدأت الحركات العشوائية تسرى بين الشعب .

ويبدو أنه بلغت نبوخذ ناصر أخبار هؤلاء الأنبياء الكذبة الذين في وسط الشعب فقتلهم أمام أعين الشعب (ار 21:29) وامتدت الثورة إلى أورشليم .

أما البابليون ، فكان عملهم سريعا ، ففي يناير من سنة 588 ق .م وصل جيشهم ووضع أورشليم تحت الحصار ، وأسقطوا القلاع الحصينة واحدة تلو الأخرى ، حتى أخيرا في نهاية السنة لم يتبق من النقاط إلا لخيش وغرقه (ار 6:34) وهكذا انحطت معنويات أهل أورشليم ، وتيقن قوادها أن الأمر ميئوس منه ، ومع أن أورشليم قد صمدت صمودا واضحا حتى صيف السنة التالية ، لكن مصيرها كان محتوما ، فأراد صدقيا أن يستسلم ، ولكنه جبن ، وفي يوليو سنة 587 ق .م في السنة الحادية عشرة من ملك صدقيا ، سقطت المدينة أثناء الليل بعد أن فرغ تموين الشعب ، فاقتحم البابليون الأسوار واندفعوا داخل المدينة ، وأحرقوا الهيكل عن آخره كما يقول المؤرخ اليهودي يوسيفوس(*) .

أما الملك صدقيا ، ففر مع حاشيته وعساكره ليلا نحو الأردن ، طلبا للأمان في عمان ، ولكنه أوقف قرب أريحا وقبض عليه ، وقدموه أمام نبوخذ ناصر وهو معسكر في «ربلا» في سوريا ولم ير رحمة ، فبعد أن قتلوا أولاده أمام عينيه خلعوا عينيه ، وربطوه بسلسلة إلى بابل حتى مات هناك .

(*) يوسيفوس هو أشهر مؤرخي اليهود ، وتنسب إليه روايات كثيرة تتناول الفترة السابقة لظهور السيد المسيح وزمن الاحتلال الروماني لإسرائيل ويليه يوسابيوس القيصري والذي يعد من أشهر مؤرخي المسيحية الأوائل .

وحضر قواد نبوخذ ناصر وهدموا أسوار المدينة إلى الأرض ، وقبضوا على خدام الهيكل ورجال الدين ورؤساء الشعب ، واستقدموهم أمام نبوخذ ناصر وقتلوهم أمامه ، وبقية الشعب رحل إلى السبي في بابل .

وبعد سقوط المدينة وحرق الهيكل وهدم الأسوار وخراب المدينة ، أدخل البابليون اليهودية كأحد أقاليم الإمبراطورية ، وذلك بعد أن خربت الأرض وهدمت المدن وتحطم اقتصادها ورعاياها إما قتلوا أو أسروا ورحلوا للسبي ، وأصبح شعب الأرض من المساكين والفلاحين الذين لا حول لهم ولا قوة ولا ثورة ولا مكيدة ، وهكذا أصاب بلاد اليهودية خراب في المدن والأرض والشعب ، ولا يعلم أحد ما أصاب هذه البلاد في حالك هذه الأيام .

هذه لمحة سريعة عن بدايات الألم الذي تسبب فيه البابليون للإسرائيليين ، أو عن المذلة والمهانة التاريخية التي لحقت بهم في بابل ، وليس هنا مقام تفصيل الكلام عنها ، لكنها في عجالة كانت صورة من صور الانتقام الإلهي من هذا الشعب الغليظ الرقبة على حد وصف أنبيائهم .

والحقيقة أن هذه الصورة لم تضع من أعين الناظرين لتاريخ البلدين عبر آلاف السنين ، وكانت مختزنة في الذاكرة الجمعية لبني إسرائيل ، وقد أذكاها بنو إسرائيل عبر الشتات الذي تعرضوا له بعد دمار أورشليم ثانية عام 70 ميلادية على يد الرومان .

وفي حديثنا عن الأصولية المسيحية(*) لا يمكن أن ننزع الألم الذي يمس شغاف قلوبهم من جراء هذه الصورة الحزينة والمأساوية ـ لشعب الله ـ والذي تعرض على يد الشعب البابلي الأغلف لهذه المهانة ، لذا فإن ثأر الله يجب أن يحق على بابل الحديثة ، وأي حديث عن حرب على العراق كان يجد هوى في نفوس هؤلاء ، كيف لا وهم هنا يقومون في مقام المؤدِّب للشعب الذي أذل حضور الله في إسرائيل القديمة ؟ .

(*) Bill Christison " Why Bush Wants To Destroy Saddam " New York 2002.

ويعزز هذا الاتجاه ، ما نراه في كتب أنبياء بني إسرائيل ، خاصة أشعياء النبي في الإصحاح الثالث عشر من سفره والمعروف بـ «**وحي من جهة بابل**» .

وهو فصل يرى فيه الأصوليون الجدد المجد والعظمة والكبرياء التي تتسق وفكرهم المسيطر ، وقد كان لهذه النبوءات أثر فاعل في تزكية روح الحرب والقتال والانتقام من العراق . والقارئ الجيد لنصوص هذا السفر والذي سنتناوله بشئ من التفصيل ، يرى إلى أي مدى تتفق روح نصوصه مع شهوة قلب صقور البنتاجون الأمريكي من جهة ، ومع أحلام وأوهام الرئيس الأمريكي الذي يتقمص شخصية المحرر والمخلص .

يقول أشعياء بن أموص في بداية الإصحاح الثالث عشر ، والمسمى نبوءة عن دمار بابل «أنصبوا راية فوق جبل أجرد ، أصرخوا فيهم ، لوحوا بأيديكم حتى يدخلوا أبواب العظماء ، إني أمرت مقدسي ، واستدعيت جبابرتي المفتخرين بعظمتي لينفذوا عقاب غضبي ، ها جلبة على الجبال مثل صوت أقوام غفيرة صوت صخب ممالك أم مجتمعه لأن الرب القدير يستعرض جنود القتال يقبلون من أرض نائية من أقصى السماوات ، هم جنود الرب وأسلحة سخطه لتدمير الأرض كلها . . . يتتابهم الفزع وتأخذهم أوجاع ومخاض يتلوون كوالدة تقاسي من آلام المخاض ويحملق بعضهم ببعض مبهوتين بوجوه ملتهبة» (اش 13:1-8) .

ومعنى الأعداد السابقة جهة بابل التي يذكر التاريخ أنها ظلت المدينة الأولى في غربي آسيا قرابة 1500 سنة ، وكان يشار إليها بالمدينة الذهبية من فرط غناها ، معنى ما تقدم وما صوره أشعياء أن الرب يحرض الأمم ويدعو الشعوب القوية كي تتجمهر ضد بابل وتقتحم أبوابها ، أبواب العتاة ، أبواب عاصمة الشعب المتجبر الذي أذل شعب الله وسخره ليشبع كبرياءه وغطرسته .

وتتضمن هذه الدعوة ثلاثة أوامر ، تمثل ثلاث وسائل لدعوة الأمم وتشجيعها على اقتحام بابل :

الأمر الأول : «أقيموا راية على جبل أجرد» أي راية إعلان الحرب وبدء القتال

على جبل مجرد من النبات ، حتى تكون ظاهرة للجميع ، وقديما كان الجنود يحرقون أحمالا من الحطب ليلا على الجبل إعلانا ببدء الحرب .

والأمر الثاني : «ارفعوا صوتا إليهم» فالذين يرفعون الراية عليهم أن يرفعوا أصواتهم ، وينفخوا أبواقهم لدعوة البعيدين إلى شهر السلاح ، ولحث الجيوش المحتشدة على الاستبسال في القتال .

والأمر الثالث : «أشيروا باليد» ، ففي التلويح بالأيدي إذكاء للحماسة واستنهاض للهمم ، وتشجيع على المضي في الطريق في شجاعة وإقدام لاقتحام أبواب الأمراء وأقوياء الأرض .

وهذه العلامات التي رفعت ، والرايات التي نشرت ، رأتها عيون كانت تنتظر ساعة رفعها ونشرها ، كما أن الأصوات والنداءات التي وجهت ، وجدت أذانا صاغية لبت النداء للتو .

فتجمعت جيوش جرارة قوية ، وأتت في حزم وبأس «**من أرض بعيدة من أقصى السموات**» .

وهذه الجيوش المجتمعة في حشود لا حصر لها ، هي جيوش الله وأدوات سخطه المدمرة التي يخرب بها كل الأرض ، والرب نفسه يقوم مقام القائد العام لها ، فيتفقدها ويتفقد استعداداتها ، وينظمها وينسق حركاتها ويرسم لها الخطط ويثير فيها الحماسة ، ويزودها بكل ما من شأنه أن يحقق انتصارها الساحق .

ويخلع الرب على رجال جيوشه الصناديد أسماء وألقابا سامية فهم :

* «**مقدسي**» أي المفرزون لتنفيذ مقاصد إلهية خاصة ، فالحرب بالنسبة لله حرب مقدسة يبغى من ورائها تحرير شعبه والانتقام من الذين أذلوه واستعبدوه وأساءوا إليه .

* «**أبطالي**» باعتبار أنهم أخذوا قوتهم من الله ، وعليهم أن يستعملوها لأجله .

* «**مفتخري عظمتي**» أي جنوده الذين ينجزون مقاصده السامية ، وبالتالي يمجدون اسمه العظيم .

* «**جمهور قوم كثيرين**» فعددهم كبير جدا ، وأصواتهم وهم محتشدون على جبال زاجروس وراء نهر دجلة استعدادا للتحرك صوب بابل يشبه «**ضجيج أمم مجتمعة**» ، الأمر الذي يدل على أن عددهم كان بالغ الضخامة .

ويمضي **أشعياء واصفا فكرة اليوم** ، والتي لابد لها من أن تجد هوى في نفس جنود الرب الجدد من المحافظين الأصوليين الذين يريدون الإسراع بتميم مشورة الله يقول :

«ها هو يوم الرب آت مفعما بالقسوة والسخط والغضب العنيف ، ليجعل الأرض خرابا ويبيد فيها الخطاة . . أضع حدا لصلف المتغطرسين وأذل كبرياء العتاة . . أزلزل السماوات فتتزعزع الأرض في موضعها من غضب الرب القدير في يوم احتدام سخطه ، وتولى جيوش بابل الأدبار حتى ينهكها التعب ، عائدين إلى أرضهم كأنهم غزال مطارد أو غنم لا راعي لها . كل من يؤسر يطعن ، ومن يُقبض عليه يُصرع بالسيف ، ويُمزق أطفالهم على مرأى منهم ، وتُنهب بيوتهم ، وتُغتصب نساؤهم» (اش 13:9-16) .

هذا هو الفكر الذي كان معداً لأن يحكم استراتيجية القتال ضد بابل ، وكم يشبه مارأيناه في العراق ، ذلك لأن ما قاله أشعياء كان بمثابة خطة الحرب المعدة سلفا ، والتي تصف وصفا دقيقا الرعب والخراب اللذين سيحلان ببابل في اليوم الذي يعينه الرب لضربها ، لينتقم منها ويعاقب شرورها ويدعو النبي هذا اليوم بيوم الرب ، الذي ليس غريبا أن نرى الرئيس بوش يستخدم على الدوام هذا الخطاب الديني ، ذلك لأن الرب هو الذي حدده وعينه ، وهو الذي أجاز كل أحداثه ولأن فيه يعلن بره وعدله ويظهرهما بتوقيع قصاصه الإلهي على بابل المتهكمة الآثمة ، كما يكتب فيه الحرية والخلاص لشعبه .

إنها رسالة موجهة إلى بابل ، وهي رسالة على قصرها قد جمعت فأوعت

«ولولوا لأن يوم الرب قادم كخراب من القادر على كل شئ» إنها رسالة رهيبة تعلن بابل بقرب مجئ يوم الرب ، يوم القضاء والنقمة ، وتؤكد لها أنه سيأتي سريعا ليحدث خرابا مروعا ، فقد مضى يومها يوم مجدها وعزها وجاء يوم الرب مشتعلا بالسخط والغضب ، وهي في غفلة ليخرب أرضها ويبيد منها خطاتها ، ويهين كل مجدها ، ويدوس كبرياءها ، إنه يوم انتقام للرب من خطاياهم ، وخاصة خطيئة الكبرياء والتي سبق وأدانها في نبوخذ ناصر أحد كبار ملوكهم الذي صاحب اسمه قصة السبي سيكون يوما يندر فيه الرجل ، فيصبح أعز من الذهب ، وذلك بعد المذبحة التي ستدور في بابل ، أما حال الجيوش البابلية في ذلك اليوم فتخونها كل الجنود المأجورة أو المسخرة من الشعوب الأجنبية المغلوبة ، والتي كانت تشكل جزءا كبيرا من جيوشها ، فيهرب بعضها من سيف العدو ، ويفر البعض الآخر منتهزا فرصة انكسار الجيوش البابلية إلى أوطانه .

إنه يوم بطش للغزاة الذين سيعملون بالسيف في الكل دون تفريق بين عسكريين ومدنيين «**فكل من وجدَ يُطعن ومن يُقبَض عليه يُصرع بالسيف**» يقتلون الأطفال بغير شفقة ، ويفضَحون النساء أمام عيون البابليين دون تورع أو خشية ، كي يضاعفوا من عذابهم وانكسار قلبهم .

هل قال أحد بأن سيناريو ما جرى في السجون العراقية خاصة سجن أبوغريب ما حُكِيَ منه وما خفى كان تنفيذا لهذه الصورة المريعة التي جاءت في هذه النبوءة ؟

هل أشار العسكر الأمريكيون إلى أنهم مسوقون لتحقيق رؤى الأنبياء كما جاءت دون حذف أو إضافة ؟

لا يوجد فارق إذن بين مارأيناه وما كان مكتوبا في كتب أنبياء بني إسرائيل والتي لم يقصد منها أبدا التفسير الحرفي ، بل كلها أمور لها دلالات روحية ، لكنها مدارس مارتن لوثر ومن لف لفه من جماعات التفسير الحرفي للكتاب المقدس . ومهما يكن من أمر ، فإن التبرير الحاضر على الدوام من جهتهم هو أن

البابليين سبق وارتكبوا هذا ضد شعب الله في أيام السبي ، وهذا هو الثأر التاريخي عند إسرائيل الحديثة تجاه عراق اليوم . والآن قد جاء دور البابليين ليرد الرب عليهم أعمالهم وظلمهم وينتقم لإسرائيل شعبه ، وهل يفلت الظالم من القصاص . . ألا يرجع تعبه على رأسه وعلى هامته يهبط ظلمه؟

ويختتم أشعياء وحيه من جهة بابل بقوله :

«ها أنا أثير عليهم الماديين الذين لا يكترثون للفضة ، ولا يسرون بالذهب ، تمزق قسيهم الفتيان ولا يرحمون الأولاد أو الرضع ، أما بابل مجد الممالك وبهاء فخر الكلدانيين فتصبح كسدوم وعمورة اللتين قلبهما الله لا يسكن فيها ولا تعمر من جيل إلى جيل ، لاينصب فيها بدوي خيمته ، و يربض فيها راع قطعانه ، إنما تأوى إليها وحوش القفر ، وتعج بيوت خرائبها بالبوم ، وتلجا إليها بنات النعام وتتواثب فيها الماعز البرية وتتعاوى الضباع بين أبراجها وبنات آوى بين قصورها الفخمة . إن وقت عقابها بات وشيكا ، وأيامها لن تطول» (اش 13:17-22) .ولكلمات النبي الإسرائيلي معنى ومغزى عميقين يشير إلى أن عمق المأساة التي ستحل ببابل ذلك لأن مهاجميها لا يقيمون وزنا للأموال والذهب والفضة دلالة على ثرائهم ، لكنهم متعطشون أكثر للدماء ولاشئ يغريهم على عدم المضي في طريقهم لتحقيق أغراضهم فهم لا يرحمون ثمرة البطن ، ولا تشفق عيونهم على الأولاد ، قساة لا تختلج جوانحهم بأية عاطفة من عواطف الرحمة ، فهم عسكريون اشتهروا باستعمال القسي ، صارمون بكل معنى الكلمة ، وسيذيقون البابليين المتكبرين صنوفا مرة من العذاب والتنكيل ، ويعاملونهم بمثل المعاملة القاسية والمتعجرفة التي سبق وعاملوا بها الشعوب التي استعبدوها ، عندما كانوا في أوج مجدهم وعنفوان عزهم وسلطانهم .إن بابل التي كانت معتبرة بهاء الممالك وزينة فخر الكلدانيين لقدمها وغناها وعلومها وتجارتها الواسعة والتي كانت سيدة الممالك تتحكم في الشعوب بسلطان مطلق ، بابل هذه مهددة بخراب كامل كالخراب الذي حاق بسدوم وعمورة .

أما ملك بابل والذي رأى فيه أصحاب اليمين المسيحي في الولايات المتحدة

صورة الرئيس صدام حسين ، فكان له نصيب كبير من نبوءة المتنبي في نفس السفر . يقول أشعياء بن أموص في الإصحاح الرابع عشر من سفره «في ذلك اليوم يريحكم الرب من عنائكم وشقائكم وعبوديتكم القاسية ، فتسخرون من ملك بابل قائلين : كيف استكان الظالم ، وكيف خمدت غضبته المتعجرفة ؟

قد حطم الرب عصا المنافق وصولجان المتسلطين الذين انهالوا على الناس ضربا بسخط لا يتوقف ، الذين تسلطوا على الأمم بغضب واضطهاد شديدين . . الذين يرونك يحملقون فيك ، ويتأملون متسائلين أهذا هو الإنسان الذي زعزع الأرض وهز الممالك ؟ الذي حول المسكونة إلى مثل القفر ، وقلب مدنها ولم يطلق أسراه ليرجعوا إلى بيوتهم» (اش 14:1-17)(*) .

والحق أن تزويرا كبيرا وتفسيرات منحولة عملت على إلباس هذه النبوءات الثوب المستقبلي ، من منطلق أن هذا هو منظر رئيس العراق الحالي في محاكمته بعد الخراب والدمار الذي جره على بلده ، وهي تفسيرات رسخت إلى حد اليقين المطلق لدى أمثال جيري فالويل ، وبات روبرتاسون ، وبيلي جراهام لكنها في واقع الأمر ، عند مفسري الكتاب المقدس من المعتدلين المسيحيين ليس كل ما سبق سوى صورة تمثيلية للحرب بين الخير والشر عبر الزمان ، وما بابل إلا مملكة إبليس أي مملكة الشر ، وأن كل ماورد سابقا إنما يشير إلى الأزمان الأخيرة حينما يرتفع الشر ويمتد سلطانه ، وتشتد سواعد الأشرار في حربهم ضد كل ماهو إيماني وماله علاقة بالله تعالى وبأبنائه من المؤمنين الحقيقيين باسمه . لكن من أسف أن صوت الآخرين هو الأعلى والأقدر على الوصول من خلال الآلة الإعلامية الأمريكية التي تُفسَّر حسب هواها ، كما تريد لا كما تقصد التنبؤات من معان روحية سامية لا ترتبط بالأحداث البشرية ولا تسخر نفسها لخدمة الأهدافَ الاستعمارية والغزوات العسكرية ، وعقاب بابل ـ هنا كما رأينا ـ هو عقاب رمزي

(*) ومن باب التذكير تكرر أن كل ما سبق من رؤى ونبوءات لم تكن تمت للواقع المعاصر بصلة ، ذلك لأنها إما كانت أحداثاً قد عبرت في تاريخ الأمم والشعوب الواردة أسماؤها أو إشارات رمزية لمعان روحية لا جسمية .

يشير إلى القضاء أو الهلاك النهائي الذي سيحل بمن يدعي أنه يملك كل ممالك الأرض ومجدها ، وكما أن اختفاءها أو كنسها بالكامل كان تدريجيا ، فهكذا يكون الأمر مع مملكة الظلام التي قال السيد المسيح عن حاكمها ورئيسها الشيطان «**لقد رأيت الشيطان نازلا من السماء مثل البرق مقهورا**» (لوقا 18:10) ولكن مملكته لم تدمر بعد وإن كان«**وقتها قريب** » (اش 22:13) .

وإذا كان هذا هو حظ بابل ـ العراق من نبوءات بني إسرائيل في العهد القديم ، ويقينا أننا لم نتعرض إلى جميع النبوءات فذلك عمل قائم بذاته ، خاصة سفر دانيال الذي عاش أحداثه في بابل بأكملها وفيه من الرؤى والتنبؤات ما يصلح لأن يكون مداخل ذهنية متعددة لفهم أبعاد قضية بابل حرفيا وحصريا ، رمزيا وروحيا ، وإنما اخترنا فقط تلك العينة السابقة من كتابات أشعياء جهة بابل للتدليل على قدر اللبث والخلط بين الأصل والصورة ، وبين الرمز والمرموز إليه ، وإذا كان ذلك كذلك ، فماذا عن حظ بابل العراق في كتب العهد الجديد أي التي كتبت بعد السيد المسيح ؟

بلا شك كان لبابل حظ كبير في قراءات وأحداث سفر الرؤيا الذي عرضنا له في بعض المواضع سابقا ، وهو سفر فيه كثير من الإشكالات العويصة التي تحار في فهمها أذكى العقول البشرية ويعجز عن إدراك مراميها البعيدة أعظم المناطقة وأبلغ الفصحاء .

وهو سفر يقال عنه سفر «**الأبوكاليبس**» ، أي التطلع جهة ما يحدث في الأيام القادمة والأخيرة في زمن الإنسانية ، وكما هو حال معظم أسفار الكتاب المقدس ، فإن هناك مدرستين تتنازعان في فهمه ، **الأولى** ترى الالتزام بحرفية كل كلمة وردت فيها وإليها ينتمي أصحاب الأصولية الدينية من اليمينيين الأمريكيين الجدد ، بما يحتمله هذا الاتجاه وما يحويه من نزعات صدامية وخلافات مذهبية وأنهار من الدم والمواجهات العسكرية .

أما الاتجاه الآخر ، فيرى رمزية تلك الصورة على النحو الذي أشرنا إليه

سابقا ، من أنه فقط صورة لصراع الخير والشر ، وانتصار للخير والحق والعدالة في آخر الزمان .

ومهما يكن الأمر ، فإن بابل قد وردت في سفر الرؤيا عدة مرات ، لكن أهمها ما جاء في الإصحاحين السابع عشر والثامن عشر .

يقول يوحنا اللاهوتي في بداية الإصحاح السابع عشر : «وجاء واحد من الملائكة السبعة حاملي الكؤوس السبع ، وقال لي تعال فأريك عقاب الزانية الكبرى الجالسة على المياه الكثيرة والتي زنى معها ملوك الأرض ، وسكر أهل الأرض من خمر زناها ، وحملني الملاك بالروح إلى البرية فرأيت امرأة راكبة على وحش قرمزي له سبع رؤوس وعشرة قرون ، وقد كتبت على جسمه كله أسماء تجديف ، وكانت المرأة تلبس ملابس من أرجوان وقرمز ، وتتحلى بالذهب والحجارة الكريمة واللؤلؤ ، وقد أمسكت كأس ذهب مملوءة بزناها المكروه النجس ، وعلى جبينها اسم مكتوب سر «**بابل العظمى**» أم زانيات الأرض وأصنامها المكروهة ورأيت المرأة سكرى لكثرة ما شربت من دم القديسين ودم شهداء يسوع الذي قتلهم فتملكتني الدهشة لمنظرها» (رو 17:1-6) .

وفي المقطع السابق من هذا السفر ما يكفي عند دعاة التفسير الحرفي ، لأن تشحذ هممهم ضد بابل ، فهي أم زانيات الأرض ، وهي موطن من مواطن عبادة الأصنام المكروهة ، وهي هنا تقوم في شكل الإمبراطورية التي تضطهد المسيحيين حتى أن كثرة الدم تجعلها سكرى من كثرة ما شربت من دماء شهداء المسيحية ، وهاهو العقاب يجب أن يحل ببابل ، هذه الزانية الكبيرة التي أضلت الكثيرين .

أما الفصل الثامن عشر ، ففيه يقول الرائي يوحنا اللاهوتي «**بعد هذا رأيت ملاكا آخر نازلا من السماء له سلطان عظيم ، أضاء بهاؤه الأرض ، وصاح بأعلى صوته**» سقطت بابل العظمى ، وصارت وكرا للشياطين ، ومأوى لكل روح نجس ، ولكل طائر نجس مكروه ، لأن جميع الأمم شربت من خمر زناها ، وملوك الأرض زنوا معها ، وتجار الأرض اغتنوا من كثرة ترفها» (رؤيا 18:1-3) .

هل كان هتاف الملاك كما جاء في هذا السفر الدافع القوي وراء اتخاذ قرار الحرب ضد العراق بهذه الصورة المنقطعة النظير من الإقدام دون التروي أو التشاور مع الحلفاء ؟ ربما كان أصحاب اليمين موقنين بالسقوط كيف لا وأن الملاك يعلنها صراحة سقوط عظيم لبابل ، وربما يذكرنا هذا الملاك بمثيله الذي رآه الرئيس بوش يوم تنصيبه «**يركب صهوة جواده ويحرك العاصفة**» التي تعرضت لها واشنطن صباح يوم التنصيب .

أما المشهد الثالث لبابل ، كما أورده يوحنا اللاهوتي ، فقد جاء في الإصحاح الثامن عشر أيضا ، حين يقول على بابل «وسيبكي عليها ملوك الأرض الذين زنوا وترفهوا معها ، وسينوحون وهم ينظرون إلى دخان حريقها فيقفون على بعد منها خوفا من عذابها ، وهم يصرخون الويل الويل أيتها المدينة العظيمة بابل القوية ، في ساعة واحدة حل بك العقاب ، وسيبكي تجار الأرض ويحزنون عليها ، لأنه لم يبق أحد ليشتري بضائعهم» . . . ويمضي يقول «وتناول ملاك قوي حجرا كأنه طاحونة عظيمة وألقاه في البحر قائلا : « هكذا تدفع وتطرح بابل المدينة العظمى فتختفي إلى الأبد ، لن يسمع فيك عزف موسيقى بعد ، ولا صوت قيثارة ولا مزمار ولا بوق ، ولن تقوم فيك صناعة بعد الآن ، ولن يسمع فيك صوت رحى ، ولن يضيء فيك نور مصباح ، ولن يسمع فيك صوت عريس وعروس ، فقد كان تجارك سادة الأرض وبسحرك ضلت جميع الأمم ، وفيها وجدت دماء أنبياء وقديسين وجميع الذين قتلوا على الأرض» (رؤيا 18:9-12 ، 21-24) .

وفي هذا المقطع ، يلمح القارئ إشارة إلى من أسماهم بوش بدول محور الشر ، الذين يتألمون من فقد بابل ـ العراق لموقعها في المواجهة مع الغرب ، وفي طرح الملاك لبابل مثل حجر في البحر أمنية عزيزة على نفس كل من يعادي إسرائيل الرب ، التي أراد العرب والمسلمون إلقاءها في البحر ، وهاهو الرب سيلقي واحدة من دول الطوق في البحر ، فلماذا لا تكون معركة خلاصية باسم الرب؟ .

أما المؤكد عند جمهور المفسرين لسفر الرؤيا ، الذين ينتمون إلى المدارس الكنسية التقليدية التي ترى الروح لا الحرف في النبوءات فإن بابل هنا وسقوطها

لم يكن المقصود بها بابل العراق بالمرة ، بل هي إشارة إلى القدس المدينة التي قتل فيها الأنبياء واضطهدت المسيحيين الأوائل ، وسفكت دماء الشهداء . وفي قول يوحنا الرائي بابل العظيمة ، أشار بأنها أعظم من بابل ـ العراق الجغرافية لعدة وجوه كما يقول ابن كاتب قيصر ، العلامة القبطي من القرن الثالث عشر الميلادي .

إحداها : كون كل منهما أعظم مدائن المسكونة في وقتها .

وثانيها : كونها كرسي مملكة ملك المسكونة .

وثالثها : لا يعبد فيها ملكها .

وهو الأمر ذاته الذي يؤكده عدد من مفسري سفر الرؤيا في قولهم ، إن يوحنا عندما يشير إلى «**المرأة التي رأيتها هي المدينة العظيمة التي هي ملكة على جميع ملوك الأرض**» فظاهر هنا أن هذه هي مدينة الدجال مدينة القدس .

والأمر في واقعه في حاجة إلى أبحاث لاهوتية وكتابية تاريخية وجغرافية ، حتى يوقن في ذهن القارئ من الرموز الكثير ، لكنها السياسة التي اعتمدناها في هذا الكتاب سياسة «**افتح عيونهم فيبصرون**» .

والمؤكد كما ترى فرق علماء المسيحية الشرقية أن كل نبوءات سفر الرؤيا قد تحققت في مجيء السيد المسيح عند بدء الدعوة للمسيحية ، وأن كل ما يقال بخلاف ذلك هو ضرب من الاختراقات اليهودية للعقلية المسيحية .

ولم تكن هذه هي فقط الأسانيد النبوية جهة بابل ، بل كان هناك أنبياء كثر قد مالوا إلى هذه المدينة في كتاباتهم ، ولم تكن هي مبتغاهم إذ لا علاقة لها بتدبير الله في الزمان .

لكن الخط المشترك الذي يجمع بين أولئك وبين أصحاب المصالح من العسكريين الأمريكيين وصقور البنتاجون قد كفل كل لأصحابه الدعم والمساندة سواء الروحية أو اللوجستية .

أما ما كان من أمر علاقات جماعات الضغط الليكودي في إدارة بوش ، فهذا ما سنفرد له الفصل القادم ، كي تتضح الصورة بجلاء شديد ، ويعرف القارئ أي مؤامرة تتعرض لها المنطقة بدءا من العراق ، مرورا بجميع الأراضي من النيل إلى الفرات ، حتى يتحقق الوعد المنحول بأرض الميعاد ، بعد أن انقضى زمانه ، فإن لم يكن بوعد بلفور فبوعد بوش أو أي من أشياعه اليوم أو غدا [*] .

(*) يرى بعض المحللين السياسيين هنا أن منظومة الشرق الأوسط الكبير التي طالبت بها واشنطن ، ليست إلا الخريطة الأولية لتحقيق حلم إسرائيل الكبرى من النيل إلى الفرات بدون استخدام الآلة العسكرية وإنما تحت الضغوط الأمريكية والمسميات الأيديولوجية كالديمقراطية وحقوق الإنسان وما عداها .

الفصل السادس عشر

إسرائيل ودورها في الحرب على العراق

- الدور اليهودي في إذكاء نار الحرب الأمريكية ضد العراق
- تصريحات نتانياهو لإشعال الحرب
- دور اللوبي اليهودي والمحافظون الجدد في الحرب
- إسرائيل وجاسوس في وزارة الدفاع الأمريكية ضد العراق
- بقية أجندة المحافظين الجدد.. الحروب القادمة

الفصل السادس عشر

إسرائيل ودورها في الحرب على العراق

يتوقف المرء كثيرا أمام تساؤل جد خطير : إذ كيف استطاعت مثل هذه الأساطير والخرافات أن تبعث في نفوس ملايين الأمريكيين من ذوي النوايا الطيبة عقائد يصعب اقتلاعها ؟

أما الإجابة ، فبالإضافة إلى ما تقدم ذكره في الفصول السابقة عن دور الفكر التوراتي المخترق ، يضيف الكاتب والمفكر الفرنسي روجيه جارودي يقول :

«إن ذلك قد تم عن طريق تشكيل **«جماعات ضغط»** بالغة القوة ، بوسعها أن تغير مجرى نشاط الساسة ، وأن تتحكم في الرأي العام . ففي الولايات المتحدة يمكن للصوت اليهودي أن يمثل عاملا حاسما في تحديد من يحصل على الأغلبية في الانتخابات ، والتي كثيرا ما يكون فيها الفوز بفارق طفيف في الأصوات . وقد تمتع الصهاينة بنفوذ قوي في الولايات المتحدة منذ عام 1942 ، وهو الأمر الذي أتاح عقد مؤتمر لغلاة الصهاينة في فندق بلتيمور في نيويورك آنذاك ، تقرر فيه الانتقال من فكرة إقامة **«وطن قومي في فلسطين وفقا لوعد بلفور ، وعن طريق الاستيطان التدريجي من خلال شراء الأراضي وذلك تحت الحماية البريطانية أو الأمريكية إلى فكرة إنشاء دولة يهودية ذات سيادة»** .

وقد تبلور عن هذا النفوذ ما يعرف بـ «**لجنة الشؤون العامة الأمريكية الإسرائيلية**» المعروفة باسم «**إيباك**» أقوى جماعات الضغط المعترف بها رسميا في الكونجرس الأمريكي .

أما إدوارد تيفنن ، فيذكر في كتابه «**اليهود وسياسة أمريكا الخارجية**» أن «**إيباك**» كانت طوال ربع القرن السابق هي الضاغط السياسي الرئيسي للطائفة اليهودية في الكونجرس ، والمنظمة الوحيدة المسجلة في واشنطن للضغط لحساب إسرائيل ، والوسيط المخلص بين الجماعات الأعضاء في مؤتمر الرؤساء «**اليهودي**» وأعضاء الكونجرس .

ويضيف «أنه منذ البداية كان سبب وجودها هو العمل على تدفق المساعدات الأمريكية باستمرار إلى إسرائيل» ، وكان الاقتصاد الإسرائيلي قد صار يعتمد اعتمادا كليا على إحسان الكونجرس ، ويشدد تيفنن على أنه كان باستطاعة أي كونجرس متشدد أن يدمر إسرائيل بسرعة تفوق سرعة تدمير أي جيش عربي لها ، وكانت إيباك سيدة الكونجرس أو هكذا كانت تدعي .

وبحال أو بآخر ، أصبح اللوبي اليهودي الآن في مركز يمكنه من السيطرة على الطائفة اليهودية الأمريكية في كل ما يتعلق بإسرائيل التي صارت قضية اليهود الكبرى .

لكن إشكالية كبرى كانت تقف في طريق العلاقة بين الولايات المتحدة - الواقعة تحت ضغط الأصوليين المسيحيين - وبين إسرائيل ، ولم يكن لها من حل إلا تفعيل التعاون العسكري على وجهه العلماني لا الإيماني بين البلدين ، وهو ما برع فيه أنصار إسرائيل في الإدارات الأمريكية في العقدين الماضيين . فالحاصل أن إسرائيل كانت قد استفادت من عشرات الملايين من المسيحيين اليمينيين المؤيدين لها على طول الخط ماديا وسياسيا ، لكن إسرائيل الكبرى لم تكن في نظر الأصوليين سوى وسيلة لتحقيق هدف وهو العودة الثانية للمسيح ، فإذا ما تم هذا ، فإن الخطوة الثانية في برنامجهم هي تنصير اليهود ، وهذه نقطة لاهوتية آثر أنصار إسرائيل وجماعة الليكود تجاهلها ، وحدت بوزير الدفاع الإسرائيلي

موشيه أرينز لأن يتساءل وهو الرجل الذي نشأ في الولايات المتحدة «ماذا يفترض أن نقول لملايين البروتستانت المسيحيين الذين يدعمون إسرائيل بقوة»(*) ؟

كان الخط العلماني الذي تحدثنا عنه يبزغ وبشدة عقب هزيمة الاتحاد السوفيتي في الحرب الباردة وفي إدارة الرئيس الجمهوري الأسبق جورج بوش الأب ، وكانت جماعات مقربة من الليكود الإسرائيلي تأخذ مواقع متقدمة في وزارة الدفاع الأمريكية بصورة خاصة .

وهنا يروي إريك لوران صاحب مؤلف «**عالم بوش السري**» أن الصقور قد سبق وحاولوا مرارا أن يوصلوا وجهة نظرهم إلى أعلى مستوى في السلطة التنفيذية بعد فترة على انهيار حائط برلين في ظل إدارة بوش الأولى .

كان ديك تشيني نائب الرئيس بوش الابن في حينها وزيرا للدفاع ، وقد شكل لجنة أفكار تألفت من بول ولفويتز ولويس ليبي ، وكان الهدف المتوخي من هؤلاء الرجال على قدرهم متمثلا برسم خطوط سياسية خارجية أمريكية جديدة في عالم ما بعد الحرب الباردة . وقد دعا كولن باول ـ وكان في ذلك الوقت رئيس هيئة الأركان المشتركة ـ إلى صياغة تقرير منافس يعرض رؤية للعالم وعلاقات دولية أكثر اعتدالا من تقرير الصقور .

وحدد تشيني تاريخا وقع في الحادي والعشرين من آيار/ مايو من العام 1990 ، ومنح فريق ولفويتز وفريق باول ساعة واحدة يعرضون فيها توصياتهم ، ثم يقوم تشيني بنقل الرسالة إلى الرئيس .

وفي الموعد المحدد ، كان عرض ولفويتز يستحوذ على أسماع تشيني ، ذلك لأنه تحدث عن رأيه في أن أمريكا يجب أن تشكل باقي العالم ، ولا تكتفي برد فعل عادي على الأحداث التي جرت . ومن هنا يكون بإمكانها أن تتدارك نشوء قوات منافسة وتفرض هيمنتها .

(*) يدلل هذا على أن الكراهية اليهودية للمسيحية لا تزال تحت الجلد ، وحديث المؤسسات السرية منذ زمن رؤساء الكهنة أمثال حنانيا وقيفا اللذين حاكما وحكما على السيد المسيح شاهد على ذلك ، وليس أقل هذه التنظيمات التنظيم المعروف باسم الماسونية وقد استغلت هذه التنظيمات الثغرات التي سببتها حركة الانشقاق اللوثري لاستباحة قطاع كبير من الفكر المسيحي .

ولم تكن إسرائيل بعيدة عن تلك الخطوط ، خاصة وأن الصقر القادم ولفويتز له أخت شقيقة تعيش في إسرائيل ، مما جعل التناسق بين آراء مجموعته وآراء زعماء الليكود تنسجم بشكل واضح ، لترتبط مصالح أمريكا بمصالح إسرائيل ، وليصبح عليهما كديمقراطيين أن يتكاتفا مهما كان الثمن لمواجهة العالم العربي الذي حل محل الاتحاد السوفيتي بدور الخصم الذي يجب إن دعت الحاجة إلى ذلك أن يحرر ولو بالقوة ، وهو ما سيكون لاحقا من خلال مذكرة أو دليل السياسة الدفاعية الذي سيصبح وثيقة القرن الأمريكي الجديد .

لكن لوران : يكشف عما هو أبعد من ذلك ، وهو أن قادة هذا التيار كان قد وقر في نفوسهم استخدام إسرائيل كورقة رابحة لدعم اتجاههم المبرر من جهات كثيرة ، تختلط فيها شهوة السلطة بالمكاسب المادية بالملايين ، وكلها تصب في المعسكر الصناعي العسكري الذي حذر منه أيزنهاور سابقا .

يقول لوران إنه في عام 1996 تشارك ثلاثة من هؤلاء الصقور «**دافيد ورمسر وريتشارد بيرل ودوجلاس فيث**» في كتابة تقرير بمنتهى السرية تحت عنوان «**الكسر النظيف** CLEAN BREAK» سلم إلى رئيس الوزراء الإسرائيلي بنيامين نتانياهو ، وقد تناول هدفين رئيسيين يتمحوران حول مصلحة إسرائيل ، وهما تمزيق العراق وإضعاف سوريا .

ويتضح من هذه المذكرة ، أن قرار الحرب على العراق لم يكن بسبب القضية المختلقة والتي ثبت كذبها لاحقا قضية أسلحة الدمار الشامل(*) وتهديد الأمن القومي الأمريكي ، ولم تكن الحرب أيضا عقابا للعراق على صلته بتنظيم القاعدة التي فشلت أمريكا في إثبات علاقتها به ، ولم يكن بطبيعة الحال حبا وكرامة من أجل ترسيخ الديمقراطية الأمريكية وتحرير الشعب العراقي من الديكتاتور المستبد صدام حسين .

(*) تعددت الروايات الأمريكية في سبب غزو العراق ، إذ قيل في البداية إنه بسبب البحث عن أسلحة الدمار الشامل ، ثم عدلت الرواية للخلاص من ديكتاتورية صدام وتحقيق الحرية والديمقراطية في العراق ، وأخيرا قال توماس فريدمان من أجل تحقيق التنمية هناك .

كان قرار الحرب على العراق يمثل تجسيدا لاستراتيجيات قديمة تهدف إلى تعزيز وضع إسرائيل في المنطقة الشرق أوسطية ، والتي طالما حلمت إسرائيل بالسيادة والريادة فيها .

ومع أحداث الحادي عشر من سبتمبر ،جاءت لأمريكا الفرصة الذهبية التي تحقق لها ما كانت تأمل فيه منذ عقود طويلة ، وهو دور أكثر استدامة في منطقة الخليج العربي جهة الأمن القومي ، وقد راود هذا الدور عقول الصقور منذ العام 1998 حينما تلقى الرئيس الديمقراطي بيل كلينتون رسالة مفتوحة من الجماعة الموقعة على مشروع القرن الأمريكي الجديد ، تطلب منه فيها شن حملة عسكرية أحادية الطرف من غير المرور بمجلس الأمن التابع للأمم المتحدة ، وكانت الرسالة التي وقعها ريتشارد بيرل ودونالد رامسفيلد وبول ولفويتز تقول إن السياسة الأمريكية لا يمكن أن تبقى مشلولة ومضللة بسبب هذا التشدد للحصول على إجماع مجلس الأمن . وفي شخص الرئيس بوش كانت جماعة الصقور تجد فرصتها التي طالما تحينتها .

يقول ريتشارد بيرل : «إنه منذ أول لقاء لي مع بوش ، أدركت أنه شخص لا يعرف الكثير ، والأهم من ذلك أن لديه الثقة لكي يسأل عن أشياء تكشف عن ضحالة ومحدودية معرفته» «لذا لم يكن من العسير على أولئك توجيه دفة الولايات المتحدة حسبما يرتاءون أو ما ترتئي إسرائيل . فريتشارد بيرل **«أمير الظلام»** كان يؤمن بأن القوة هي الطريق لتحقيق الأهداف ، وأن اللجوء إليها هو أمر أخلاقي ومقبول ، طالما أنها تخدم قضايا عادلة من وجهة نظره .

وفي هذا أو ذاك ، كان بيرل مدافعاً عن إسرائيل بالسر والعلن ، ولم يكن بيرل أبدا بعيدا عن ولفويتز رغم أنه كان يفضل العمل في الخفاء ، في حين كان ولفويتز يشغل منصبا من الدرجة الأولى في المؤسسة العسكرية الأمريكية ، ورغم ذلك فقد التقيا ببعضهما مرارا خلال الثلاثين عاما الماضية ، لاسيما في داخل **«الجمعية اليهودية لشؤون الأمن القومي»** JINSA التي تعمل على دعم إسرائيل ، ويتمثل هدفها في إعلام المسؤولين الدبلوماسيين والعسكريين الأمريكيين بالدور

الذي يمكن ويجب أن تضطلع به إسرائيل في المزاحمة الديمقراطية في الشرق الأوسط .

والواقع أن بوش الابن ، قد دخل إلى البيت الأبيض وهو لا يفهم سوى القدر اليسير المحدود من التاريخ الأمريكي ، ولا يعرف الكثير عن العالم وبشكل لم يسبق له مثيل مع أي رئيس أمريكي آخر في القرن العشرين ، ونتيجة لذلك كانت شبكة المستشارين المحيطة به تشكل طوقا حوله(*) حتى لا تنكشف أمام الجميع معرفته المحدودة ، حيث لم يسمحوا له إلا نادرا بالحديث مع وسائل الإعلام حول شؤون السياسة ، وفي ذات الوقت كان هذا الطوق يمثل جهاز التحكم من قرب أو بعد في القرارات المصيرية التي سيدفعونها لاتخاذها دفعا وعلى رأسها قرار غزو العراق .

لذا فإن إريك إلترمان مؤلف كتاب «**محاكمة بوش**» يقول متسائلا : كيف يصل بوش إلى اتخاذ قراراته ؟

ذلك أنه في إبان استعداداته لغزو العراق ، صرح بأنه لا يعدل خطته وفقا لافتتاحيات الصحف ، إنما من خلال النظر لأي مسألة سياسية من خلال ثلاثة أسئلة أساسية :

ماذا يريد اليمين الديني ؟

وماذا يريد كبار رجال الاعمال؟

وماذا يريد المحافظون الجدد ؟

وفيما يتعلق بالمحافظين الجدد ، فقد أصبح جورج بوش الابن بعد هجمات سبتمبر ، تحت السيطرة الكاملة للمجموعة ، وكانت نقطة البداية الحرب الوقائية ضد العراق .

(*) يذكرنا هذا بأدبيات البلاط الملكي «**من يوسوس في أذن الملك أشد خطورة من الملك**» وهو ما قامت به جماعة المحافظين الجدد مع بوش .

كانت لدى بوش ومستشاريه الرغبة في خداع الكونجرس والأمة الأمريكية فيما يتعلق بحجم التهديد الذي يشكله العراق ، بالإضافة إلى علاقة بغداد التي لا وجود لها على الإطلاق بمنفذي هجمات سبتمبر في نيويورك وواشنطن ، ولذلك تمكن بوش وفريق المحافظين الجدد في إدارته من شن الحرب التي كانت تتناقض مع رغبات جميع الشعوب تقريبا في كل الدول على وجه كوكب الأرض إلا دولة واحدة كانت تحقق هدفا من أهدافها الاستراتيجية التي طالما حلمت بها في صراعها مع الدول المحيطة بها وهي إسرائيل .

لذا ، فإن بعض الأصوات التي قالت إن إسرائيل كانت الحاضر الغائب في الحرب الأمريكية على العراق ، قد وجدت حتى داخل الولايات المتحدة آذانا صاغية وأقلاما أقرت بأن أمريكا حاربت لتحقيق الأغراض الإسرائيلية قبل الأمريكية ، ذلك أنه إذا كانت إسرائيل قد استطاعت تدمير البرنامج النووي العراقي ، فإنها في حربها ضد العراق من خلال دفع رجالها في الإدارة الأمريكية لواشنطن للدخول للمعركة ، قد حققت الانتصار الكامل بزوال العراق البعثي عراق صدام حسين ، الذي رفض التعايش مع إسرائيل كدولة شريك في منطقة الشرق الأوسط . وفي خطابات بوش التي سبقت الحرب على العراق ، كان هناك تبرير لهذه الحرب يخدم أمن إسرائيل أكثر مما يخدم أمن الولايات المتحدة بصورة مطلقة . فيقول في أكتوبر عام 2002 حينما ألقى أول خطاباته الكبرى الذي خصصه بالكامل لما أسماه بالتهديد العراقي «**إن العراق لديه صواريخ باليستية يصل مداها إلى مئات الأميال ، وهي تستطيع ضرب إسرائيل ودول أخرى في المنطقة حيث يعيش ويعمل أكثر من 135 ألف مدني وعسكري أمريكي**» .

وفي خطاب حالة الاتحاد الذي ألقاه بوش في 28 يناير عام 2003 ، أي قبل الغزو بنحو شهرين ، يشير إلى كميات محددة من الأسلحة الهجومية التي يخشى أن يستخدمها صدام ضد جيرانه .

وكان المقصود بالجيران هنا إسرائيل التي ملأت الدنيا ضجيجا وصياحا خوفا وهلعا مما قد يصيبها من أسلحة صدام حسين البيولوجية إذا اندلعت الحرب .

وفي الحالتين ، حالة الصواريخ التقليدية ، والأسلحة البيولوجية ، كانت

الإدارة الأمريكية من خلال الرئيس بوش ، تمارس سلسلة من الأكاذيب لا تخدم إلا أمن إسرائيل من خلال استقطاب تعاطف الرأي العام الأمريكي معها من منطلق الخوف مما قد يصيبها ، ذلك لأن الصواريخ التي تحدث عنها بوش وهي من طراز صمود 2 لم يكن مداها يزيد على مئتي ميل فقط ، وهي لا يمكن أن تصل إلى الأهداف الإسرائيلية ، كما أن الأسلحة البيولوجية كانت ضربا من الماضي ، إذ كان قد تم تدميرها تحت إشراف المفتشين الدوليين بعد حرب الخليج الأولى ، وكعادة داعمي إسرائيل داخل الإدارات الأمريكية ، فإنه كثيرا ما يختلط على المرء أين ولاء هؤلاء . . هل هو لإسرائيل أولاً و لأمريكا ثانياً أم العكس ؟

كانت جماعة الصقور تدفع أمريكا دفعاً حتى ولو كانت مبرراتها افتراءات وأكاذيب ، وقد كان وزير الخارجية الأمريكي كولن باول في مقدمة من يتساءلون عن الأسباب الحقيقية التي تجعل صقور البنتاجون يدفعون بلاده دفعاً للحرب .

وهنا يذكر مارك جرين شريك إريك إلترمان في كتاب «**محاكمة بوش**» أن باول وخلال اجتماع في فندق والدورف استوريا في نيويورك ، قبل أن يذهب إلى الأمم المتحدة لطرح قضية الحرب ضد العراق ، اشتكى لوزير الخارجية البريطاني جاك سترو من أن مزاعم البنتاجون ، وخاصة تلك التي يرددها ولفويتز حول الأسلحة العراقية لا يمكن التأكد منها .

وقد نشرت صحيفة «يو إس نيوز إند وورلد ريبورت» قصة أكدت فيها أن باول ألقى الوثائق التي أعدها البنتاجون حول هذا الموضوع في الهواء ، وهو في حالة غضب شديد قائلا «**إنني لن أقرأ هذه الأوراق إنها محض هراء**»(*) .

وقد تحققت مخاوف باول بعد أيام من حديثه أمام الأمم المتحدة ، عندما اضطرت وزارة الخارجية البريطانية للاعتراف بأن جزءا من ملفها حول أسلحة العراق والذي استند إليه باول أمام الأمم المتحدة قد تم شطبه ، ولاحقا تعرضت كل النقاط التي تناولها باول في الأمم المتحدة حول أسلحة العراق للانهيار .

(*) جاءت استقالة باول دليلا قاطعا على أن الحمائم لا مكان لهم بين جماعة الصقور الذين سرعان ما بدلوا باول بكونداليزا رايس دونما تردد .

وواقع الحال هو أن شكوكا كثيرة وكبيرة تصل في بعض الدرجات إلى حد الاتهام المباشر والصريح ، قد أثيرت حول الدور الذي قامت به إسرائيل من خلال رجال إدارة بوش ، لدفع الولايات المتحدة إلى المواجهة العسكرية دفعاً يشبه كرة الثلج التي تتدحرج من فوق قمم الجبال ، ولا تستطيع التوقف في منتصف الطريق إلى أن تبلغ قاع الجبل .

وفي هذا الإطار أعلن مكتب الـ "FBI" المباحث الاتحادية الأمريكية ـ وهو أعلى سلطة أمنية داخلية ـ في أثناء الإعداد للحرب ، عن قيامه بعمل دراسة لمعرفة «هل هناك أطراف حكومية خارجية تدعم الحملات الإعلامية التي تطالب بعمل عسكري ضد العراق» ذلك لأن حديث الولايات المتحدة المبهم والذي استخدمه باول مرارا في إشارة إلى مصادره التي أطلق عليها مصادر إنسانية ، وشهود عيان أو مصدر من القاعدة أو مصادر مخابراتية عن أسلحة الدمار الشامل لم يقنع أحدا لفرط ما كانت تلك المصادر ضعيفة وقابلة للجدل . .

ويؤكد صحة هذا الحديث ، التأكيد الذي أشار إليه إريك لوران من أن مسؤولاً في الموساد صرح بالقول : «إن الحكومة الخارجية يقصد بها إسرائيل دون شك ولكن على حد علمي لم تتم أي عملية تهدف إلى تضليل الولايات المتحدة أو توجيهها للخوض في هذه الحرب ، فمخاطر عملية كهذه كبيرة جدا إذا ما كشفت للعامة . والمستندات التي عرضها كولن باول في الأمم المتحدة لا تأتي من إسرائيل ، ولكن ثمة تعاون في الخدمات مع الحكومة الحالية وتهدف المعلومات التي نقلت للاستخبارات الأمريكية إلى التركيز على فكرة الخطر المباشر .

ويعقب لوران بأن المعلومات كانت صحيحة ، ولكنها «فرزت» في مصدرها فحزب الليكود لم يقم بأي عمل لتهدئة اللعبة واستبقاء الولايات المتحدة ، لأن ذلك لم يكن من مصلحة إسرائيل .

وفي الأشهر الأخيرة من العام 2004 وبداية من شهر أغسطس ، طلعت علينا وسائل الإعلام الأمريكية بدءا من شبكة التليفزيون CBS مرورا بصحيفة الواشنطن بوست الأمريكية الذائعة الصيت ، وصولا إلى محطة التليفزيون

الأشهر الـ CNN بقصة لاري فرانكلين المحلل المختص بشؤون الشرق الأدنى في وزارة الدفاع الأمريكية الذي دارت حوله شبهات التجسس داخل الوزارة ونقل معلومات على درجة عالية من السرية إلى إسرائيل من خلال الإيباك .

ومما أكسب قضيته بعدا خاصا يميزها عن أي قضية تجسس إسرائيلية سابقة ، مثل قضية جوناثان بولارد(*) المحلل السابق في البحرية الأمريكية المحكوم عليه بالسجن مدى الحياة ، هو أن فرانكلين كان يعمل مباشرة تحت إشراف دوجلاس فيث الرجل الثالث في وزارة الدفاع الأمريكية ، ومن خلال وليام لوتي المشرف المباشر على «**مكتب الخطط الخاصة**» التابع للبنتاجون الذي أجرى بعض التقييمات المبكرة التي تعلقت بغزو العراق في عام 2003 .

ويعتبر هذا المكتب أحد مكتبين بالبنتاجون ، يقول منتقدو إدارة بوش إن صقور وزارة الدفاع قاموا على إنشائها من أجل تجاوز وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية CIA وغيرها من وكالات التجسس الأمريكية بتقديم معلومات استخدمها الرئيس بوش وغيره من المسؤولين الأمريكيين في التهويل من خطر العراق .

أما المكتب الآخر ، فكان يديره دوجلاس فيث ، الرئيس المباشر للوتي ، ويعرف هذا المكتب باسم مجموعة تقييم السياسات الخاصة بمناهضة الإرهاب ، ويرفع فيث تقاريره إلى بول ولفويتز نائب وزير الدفاع الذي بدوره يرفعها إلى بوش؟

ماذا يعني ما تقدم؟

هل يعني أن فرانكلين هذا ، قد استغل موقعه وموضعه للتأثير على سير الأحداث ومجريات الأمور تجاه العراق؟

(*) كان جوناثان بولارد نقطة اختبار حرجة للعلاقات الأمريكية الإسرائيلية ، إذ طالبت إسرائيل إطلاق سراحه وإقحامه في ملف المفاوضات مع الفلسطينيين لكن رئيس جهاز الاستخبارات الأمريكية في ذلك الوقت جورج تينت أرغى وأزبد على حد وصف دنيس روس ، وهدد بالاستقالة قبل أن يستقيل لاحقا ولايزال بولارد قابعا في السجون الأمريكية محكوما عليه بالسجن مدى الحياة .

المؤكـد أن هذا قـد حـدث بالفـعل ، وهنـاك أدلة على ذلك تؤكـد خطورة القضـية ، منها ما كـشف عنه الخبير في الشـؤون العسكرية في صحـيفة «ها آرتس» الإسرائيلية زئيف شيف من أن مدير وكالة الاستخبارات الأمريكية السابق چورچ تينت قد ألمح في أكثر من مناسبـة التقى فيـها مسـؤولي جـهاز الاستـخبارات الإسـرائيلية الخـارجيـة «موسـاد» إلى وجـود جاسـوس إسرائيلي في الولايات المتحدة ، لكن هؤلاء نفـوا التهمة وتحدوا تينت بالكشف عن هوية الجاسوس على الملأ .

إلا أن مكتب التحقيقات الاتحادية FBI قد فوجئ بوقوع الصيد الثمين في جحره دون قصد ، ذلك أن رجال المكتب كانوا يراقبون رئيس الدائرة السياسية في السفارة الإسرائيلية في واشنطن «ناعور جيلون» وهي مراقبة عادية عادة ما يقوم بها الجهاز الذي يشتمل على قسم لمكافحة التجسس على الأراضي الأمريكية تجاه العديد من البعثات الدبلوماسية الأجنبية في العاصمة الأمريكية أو في المدن الكبرى خاصة نيويورك وكاليفورنيا .

كان الموعد ظهرا ، حيث يتناول جيلون طعام الغداء في أحد المطاعم المنتشرة هناك ، وفجأة استدار شخص ما ليبدأ الدخول في نقاش مع جيلون وصاحبه ، وقد كان أن لفت الأمر انظار الـ FBI ليتم التركيز عليه بصورة أساسية ، وعلى لقاءاته مع رجال الإيباك الذين تدور حولهم شبهات تلقى المعلومات السرية من لاري فرانكلين ونقلها إلى إسرائيل مباشرة .

ويذكر ريتشارد سكيميت من الواشنطن بوست استجواب الـ FBI لكل من ستيفن روسين مسؤول قضايا السياسة الخارجية في اللجنة بالإضافة إلى استجواب محلل شؤون الشرق الأوسط بها «كيث ويزمان» .

ما الذي يجمع بين ناعور جيلون المستشار السياسي للسفارة الإسرائيلية وأعضاء لجنة الإيباك ، إضافة إلى مسؤول رفيع المستوى مثل لاري فرانكلين صاحب الموقع الحساس في البنتاجون الأمريكي؟

هكذا تساءلت مجلة النيوزويك الأمريكية ذائعة الصيت ، مؤكدة أن سوء الظن عند إسرائيل ، يصل إلى درجة التجسس على الأصدقاء لتحقيق مآربها . والذاكرة الجمعية الأمريكية لاتزال تتذكر قضية اليهودي الأمريكي جوناثان بولارد ، المحلل في الاستخبارات البحرية الأمريكية ، الذي استطاع أن ينقل نحو 850 ألف وثيقة سرية لوحدة مخابرات خاصة تابعة لوزارة الدفاع الإسرائيلية ، تحتوي على معلومات عن أنظمة التسلح للدول العربية ، وأجهزة مخابراتها وقدراتها العسكرية ، كما تحتوي على تحليل لنيات الزعماء العرب السياسية ، وعلى تفاصيل عن الأسلحة السوفيتية التي قدمت أو ستقدم للدول العربية .

إلا أن ما يميز قضية فرانكلين إضافة إلى ما سبق ، هو توقيت العمليات العسكرية في العراق من جهة ، ودرجة تخصصه في الشؤون الإيرانية(*) من جهة أخرى ، وكأن إسرائيل التي نجحت في الخلاص من حكم ونظام الرئيس البعثي صدام حسين من خلال تزويد الولايات المتحدة بقدر هائل من المعلومات المزيفة والكاذبة ، تريد أيضا المضي قدما في تحقيق أهدافها من خلال عمالها وفعلتها من الصقور والمحافظين الجدد داخل وزارة الدفاع الأمريكية بتناول إيران هذه المرة ، كضحية جديدة تقرب على مذبح العلاقات التي لا تنفصم عراها بين الولايات المتحدة الأمريكية وإسرائيل .

أما عن التدخل المباشر في الحرب على العراق ، فقد انكشف المشهد عن وجود قوات كوماندوز إسرائيلية في شمال العراق قبل الحرب بفترة كافية ، تسللت للحد من خطورة استخدام العراق لأسلحة الدمار الشامل ضد إسرائيل ، وهي الأسلحة التي لم يتم العثور عليها بحال من الأحوال .

إضافة إلى ذلك ، فإن القوات الخاصة الإسرائيلية هي التي قامت على تدريب

(*) يبدو أن الولايات المتحدة لاتزال غير واثقة من إمكانية إقدامها على عمل عسكري ضد إيران رغم أن المحافظين الجدد يدفعونها لذلك دفعا وهو أمر محتمل إلى درجة كبيرة وخاصة أن إيران لاتزال تحتفظ ببرنامجها النووي .

رجال العمليات الخاصة الأمريكية على حرب الشوارع والمدن والعصابات ، من منطلق أن الولايات المتحدة لم تتدخل عسكريا في دولة وخاضت حرب شوارع ومدن قبل العراق ، أما القوات الإسرائيلية فهي على الدوام تعيش حالة الاستنفار في كل المدن والقرى الفلسطينية .

أما الحديث الأكبر ، فهو حديث الأكراد في الشمال ، واستخدامهم كرأس حربة في إقامة دولة يهودية كردية في الشمال ، يلتئم فيها شمل من تفرق وتشتت طوال سنوات حكم صدام حسين ، وهو الأمر الذي نفته بشدة إسرائيل ، لكن واقع الأحداث يؤكد أن إسرائيل كانت تخطط منذ زمان بعيد للحصول على موطئ قدم هناك ، وخاصة إذا وضعنا في الاعتبار الحاجة الماسة لوجودها هناك حتى تكون قاب قوسين أو أدنى من إيران التي حتمية مواجهتها أمر لا مفر منه حسب إيقاع الأحداث ، لا سيما مع رفضها للتخلي عن مشروعها النووي .

وإذا كان المقام الأول في هذا الكتاب هو البحث عن الجذور الأصولية الأمريكية التي قادتنا إلى هذا المصير مع الرئيس بوش ، فإننا نعود ومن جديد إلى المؤلف السابق ذكره «**محاكمة بوش**» وفيه نجد أن بوش الابن كان لديه العديد من المبررات والذرائع لغزو العراق ، لكن أهمها على الإطلاق كان الدافع الشخصي المبني على النزعات الإيمانية اليمينية التي وجدت من الجانب الإسرائيلي من يغذيها .

يقول المؤلفان : إنه خلال اجتماع عقده بوش في ربيع عام 2003 مع محمود عباس رئيس الوزراء الفلسطيني في ذلك الحين ، قال له بوش «**لقد أبلغني الله بأن أضرب القاعدة وقد ضربتها ، ثم أمرني بأن أضرب صدام وهذا ما أفعله**» .

ورغم أن البيت الأبيض نفى ذلك ، إلا أن صحيفة هاآرتس الإسرائيلية أكدت هذا الحوار الغريب .

ومن أغرب الحقائق التي لا يعرفها الكثيرون ، أن الرجل الذي اختاره رامسفيلد وبول ولفويتز لكي يقدم إلى الرئيس بوش المعلومات التي يحتاجها

لتبرير غزو العراق كان «**أبرآم شوليسكي**» وهو مثل غيره من المحافظين الجدد تلميذ لمؤسس هذه الحركة السياسي اليهودي الذي هرب من ألمانيا النازية «**ليوشتراوس**» وقد كتب شوليسكي مقالا في عام 1999 قال فيه «**إن الخداع يجب أن يكون مرتبطا بالسياسة وبألا يقول المرء ما هو متوقع ، وبأن يكون تغيير هذه السياسة أو التخلي عنها هو الاستثناء وليس القاعدة**» .

ويؤمن شتراوس ـ أحد مؤسسي حركة المحافظين الجدد ـ بأن رجل السياسة يجب أن تكون لديه القدرة على اتخاذ أخطر القرارات اعتمادا على دائرة ضيقة من المستشارين من المحيطين به ، ومن وجهة نظر شتراوس أن الشخص الذي يهمس في أذن الملك أكثر أهمية .

أما البروفيسور جوزيف كروسبي صديق شتراوس الأب الروحي للمحافظين الجدد فيقول «**إن شتراوس كان يؤمن بأن خداع الرأي العام هو مسألة ضرورية بالنسبة لرجل السياسة ، لأن إعلان الحقيقة على الملأ لا يمكن أن يخدم سوى العدو**» .

والحاصل أن المحافظين الجدد الذين قدموا لبوش المبرر الفكري لسياسته الخارجية ، كان لديهم من الأسباب الكثير الذي يشجع على غزو العراق .

وقد عبر هؤلاء عن دوافعهم في العديد من المقالات والوثائق التي كتبها أمثال ديك تشيني ودونالد رامسفيلد وريتشارد بيرل وبول ولفويتز .

ورغم ذلك ، فإن غزو العراق كان يحقق العديد من الأهداف الأيديولوجية لهذا التيار اليميني المتشدد في إدارة بوش ، والذي نجح في أن يحول هذه الأفكار والمعتقدات إلى استراتيجية للإدارة الأمريكية في واشنطن .

وهناك بالطبع دوافع ومبررات أخرى كان لايمكن الكشف عنها وإعلانها ، تطبيقا لأفكار شتراوس الأب الروحي للمحافظين الجدد ، ومنها وربما أهمها أن غزو العراق كان من شأنه القضاء على تهديدها لإسرائيل ، كما أنه سيساعد على القضاء على الروح المعنوية لدى الفلسطينيين ويجبرهم على الانصياع لمصيرهم

وقبول قدرهم الإسرائيلي كشعب يعيش تحت الاحتلال دون مقاومة . كانت إسرائيل صاحب العرس الحقيقي في غزو العراق ، ورغم الضخامة والفخامة الأمريكية ، فإنها قد ارتضت أو استغلت لتلعب دور الأشبين أو صديق العريس الذي يفرح له .



الملاحق

الملحق الأول

هل فلسطين أرض الموعد؟

- هل إسرائيل شعب مختار من الله
- إسرائيل مرذولة من فكر الله
- غضب الله قائم على إسرائيل إلى يوم الدين
- العقاب والطرد والرذائل جزاء اليهود إلى الأبد
- اليمين الأمريكي الوحيد الذي يقر باختيار اليهود من الله
- الاختراق الصهيوني لفكر اليمين المسيحي الأمريكي وراء الدعم المستمر لهذا الفكر

الملحق الأول

هل فلسطين أرض الموعد؟

قد يحق التساؤل مبكرا عن هوية يهود اليوم أولاً . . هل هم الشعب المختار أو نسل ذلك الشعب الذي قيل إنه هو المختار من الله ، ومن بعد يمكن التطرق إلى قصة الوعد بالأرض . وفي ظني أنه أمر غاية في الأهمية الوقوف على المعاني الحقيقية للتفسيرات التي كانت السبب وراء اغتصاب أراضي دولة وتشريد شعبها ، وحبك المؤامرات عبر آلاف السنين ، من منطلق الحق التاريخي للعودة إلى الأراضي المقدسة ثانية .

هل حقا أن بني إسرائيل هم شعب الله المختار(*)؟

المعروف أن الله هو إله الجميع ، إنه للكل والكل له ، هو رب جميع الشعوب ، فلماذا يكون له شعب معين خاص به ؟

ما الحكمة التي أدت إلى هذا في ذلك الحين ؟

وهل لا تزال الأسباب باقية أم أنها انتهت وانتفت منذ زمان ؟

الحقيقة هي **أنه مَرّ وقت على العالم ازداد فيه الشر جدا** ، حتى أغرق الله العالم بالطوفان . وكان العالم كله قد وقع في عبادة الأوثان ، لم يكن يعرف

(*) يتساءل بعض اللاهوتيين إن كانوا هم حتى الساعة كذلك فمن يكون الشعب المسيحي ؟ ألم ينته دور هذا الشعب بمجيء المسيح من نسله ومن ثم رفضهم له .

الرب أحداً فاختار الرب مجموعة من الناس أقربها إلى معرفته وقتذاك ، وعزل تلك المجموعة عن الآخرين ، عزلها لكي تحافظ على الإيمان والعقيدة والشريعة والنبوءات والرموز وتنقل هذا الإيمان كله إلى الجيل الذي يتسلمها منه ، لذلك عندما أخذ هذا الشعب وعزله عن الناس ، قال له في سفر الخروج «**احترز من أن تقطع عهداً مع سكان الأرض التي أنت آت إليها لئلا يصيروا فخا في وسطك ، بل تهدمون مذابحهم وتكسرون أنصابهم وتقطعون سواريهم**» (13-12:34) .

وأضاف في سفر التثنية «**وتحرقون تماثيلهم بالنار**» (5:7)**ولا تصاهروهم ، بنتك لا تعطها لابنه وبنته لا تأخذها لابنك**» (3:7) ووضح السبب في ذلك بقوله «لأنه يرد ابنك من ورائي فيعبد آلهة أخرى ، فيحمي غضب الرب عليكم ويهلككم سريعا» (4:7) .

ولكن هذا الشعب الذي أؤتمن على الإيمان ليحفظه بعيدا عن الأصنام وقع هو أيضا في عبادة الأصنام ، واختلط بالأمم الغريبة وعبد آلهتها ، وبذلك انتفت الحكمة من وجوده ، كما أن هذا الاختيار كان مشروطا بأن ينفذ وصاياه ، لأنه بذلك يصير نورا وسط الشعوب الوثنية ، أما إن لم ينفذ الوصايا الإلهية وصار مثل باقي الشعوب في فسادها وشهواتها ، حينئذ تنتفي الحكمة من اختياره .

ويظهر هذا الشرط واضحا من قول الرب « **بل إنما أوصيتهم بهذا الأمر قائلا : اسمعوا صوتي فأكون لكم إلهاً وأنتم تكونون لي شعبا . . فلم يسمعوا ولم يميلوا أذنهم بل ساروا في مشورات وعناد قلبهم . . صلبوا رقابهم ، أساءوا أكثر من آبائهم**» (ارميا :23-26) .

ومن الواضح إذن أنهم لم ينفذوا الشروط التي بها يصيرون شعبا لله ، لذلك خاطبهم الله قائلا على فم هوشع النبي : «**لأنكم لستم شعبي وأنا لا أكون لكم إله**» (هوشع 9:1) .

هل اليهود هم أولاد إبراهيم؟

تساؤل أيضا جدير بالوقوف أمامه حسب التسلسل المنطقي للأحداث ، وفي إجابة عنه يرى شراح العهد القديم أن اليهود كانوا منذ القديم شعباً تنفخه

الكبرياء العنصرية ، وكان من أسباب كبريائهم أنهم أولاد إبراهيم ، يفخرون بهذا حتى وهم في أعماق الخطيئة والفساد ، كما لو كانت هذه البنوة وحدها كافية لخلاص أنفسهم في اليوم الأخير .

وقد ظهر واضحاً التصادم مع المسيحية منذ ظهورها ، بل وقبلها بقليل مع هذا النهج الفكري ، إذ بدا يوحنا المعمدان يقول لليهود «**يا أولاد الأفاعي ، من أراكم أن تهربوا من الغضب الآتي؟ اصنعوا أثمارا تليق بالتوبة ولا تفتكروا أن تقولوا في أنفسكم لنا إبراهيم أبا لأني أقول لكم إن الله قادر أن يقيم من هذه الحجارة أولادا لإبراهيم**» (متى 3 :8، 9) وهنا أراهم يوحنا أن بنوتهم لإبراهيم بالجسد لا تفيدهم شيئا ما لم يتوبوا ويصنعوا ثمارا تليق بالتوبة ، أما البنوة لإبراهيم فقد كانت موضوع نقاش بينهم وبين السيد المسيح كما يروي يوحنا الرسول في إنجيله «**قالوا له أبونا هو إبراهيم فقال لهم يسوع لو كنتم أبناء إبراهيم لكنتم تعملون أعمال إبراهيم ولكنكم الآن تبتغون قتلى . . إنكم أنتم من أب هو إبليس وشهوات أبيكم تبتغون أن تتمموا** » (يو8 :39-44)

ما معنى ما تقدم ؟

معناه أن المسيحية ترى أن هناك نوعين من البنوة لإبراهيم ، بنوة جسدية ، وبنوة روحية ، أما البنوة الجسدية فلا تفيد شيئا ، لأن الله قادر أن يقيم من الحجارة أولادا لإبراهيم ، فيما البنوة الروحية فهي بنوة الإيمان .

وهكذا يقولها بولس الرسول في صراحة ووضوح «**اعلموا إذن أن الذين هم من الإيمان أولئك هم أبناء إبراهيم**» (غل 7:3) وبهذا يدخل الأمم Gentilesأيضا في البنوة لإبراهيم «**ليكون الوعد وطيدا لجميع النسل ليس لمن هو من الناموس فقط ، بل أيضا لمن هم من إيمان إبراهيم الذي هو أب لجميعنا**» (رو 16:4) .

إذن في الإيمان الكل أبناء إبراهيم لا فرق بين يهودي وأممي ، ولا بين عبراني ويوناني ، بل كما قال بولس الرسول «**ليس يهودي ولا يوناني . . لأنكم جميعا واحد في المسيح يسوع ، فإن كنتم للمسيح فانتم إذن نسل إبراهيم وحسب الموعد ورثته**» (غل 3 :28-29) .

إذن في إبراهيم يجتمع كل المؤمنين أيا كان أصلهم ، ويصدق وعد الله الذي أعطاه لإبراهيم منذ البدء ، حين قال له «**فلا يدعي اسمك بعد إبرام ، بل يكون اسمك إبراهيم لأني أجعلك أبا لجمهور الأمم وليس لأمة واحدة**» فنفس كلمة إبراهيم معناها «**أبو جمهور**» .

ولهذا فهم ليسوا أولادا لإبراهيم ، لأنه ليس لهم أعمال إبراهيم ، ولأنهم ليسوا من الإيمان ، إذ إنهم لم يؤمنوا بالمسيح ، بل رفضوه وهم أيضا ليسوا إسرائيليين حقا .

إنهم «**إسرائيل حسب الجسد**» (1 .كورنثوس 10-18) كما أسماهم بولس الرسول ، ولكنهم ليسوا هكذا بالمعنى الروحي للكلمة ، فكما يقول الرسول «**ليس جميع الذين من إسرائيل هم إسرائيليون**» (رؤيا 6:9) «**لأنه ليس أولاد الجسد هم أولاد الله . بل أولاد الموعد يحسبون نسلا** » (رؤيا 8:9)(*) .

فهل هم يهود ؟

ليسوا كذلك بالمعنى الروحي للكلمة ، بل إن سفر الرؤيا يطلق عليهم اسما مرعبا لهم ينفيهم من ملكوت الله ، ففي رسالة الرب إلى ملاك كنيسة سميرنا أي إلى راعيها يقول له «**أنا عارف أعمالك وضيقتك وفقرك ، مع أنك غني وتجديف القائلين أنهم يهود وليسوا يهودا بل هم مجمع الشيطان**» (رؤيا 9:2)

ويكرر نفس هذا اللقب في رسالته إلى ملاك كنيسة فيلادلفيا(**) فيقول له «**هانذا أجعل الذين من مجمع الشيطان من القائلين أنهم يهود وليس يهودا بل يكذبون ، هانذا أصيرهم يأتون ويسجدون أمام رجليك ويعرفون أني أحببتك**» (رؤيا 9:3) .

(*) لعله من المفيد الإشارة هنا إلى أن بولس الرسول كان فيلسوفاً ومفكراً يهودياً لا يشق له غبار في بداية نشأته ، وقد تلقى علومه الدينية والكتابية على يدي أحد كبار علماء الشريعة اليهودية ، ويدعى غمالائيل معلم الناموس الأشهر في بني إسرائيل في ذلك الوقت ، لذا فإنه حين يتحدث بولس عن اليهود واليهودية والشريعة الموسوية فإن أحدا لا يستطيع أن يزايد عليه وقد نشبت بينه وبين القديس بطرس بعض المشاحنات بسبب فكرة تفضيل اليهود على الأمم .

(**) من المعروف طبعاً أن المقصود (فلادلفيا) بآسيا الصغرى ، وليست فلادلفيا في الأرض المكتشفة حديثاً (أمريكا) .

ربما تكفي السطور القليلة للإجابة ، وإن كنا سنعود لاحقا للحديث عن إسرائيل من منظور مسيحي لكن ما يهم بالأكثر هنا هو قصة **أرض الموعد** ومدى زيفها . . ترجع قصة أرض الميعاد إلى زمن أبي الآباء إبراهيم الخليل أي «**خليل الله**» الذي كان يتقي الله الواحد الأحد إله السموات والأرض «**الديان لكل الأرض ويعبده بأمانة وورع ، سالكا في مخافته تعالى بقلب مستقيم وضمير نقي ، بينما كان أهل مدينته أور ـ وهي إحدى مدن الكلدانيين ومكانها حاليا خرائب تدعى «المغير»** في منتصف المسافة بين بغداد والخليج العربي ، وعلى مسافة عشرة أميال شرقي مجرى نهر الفرات ـ وثنيين يعبدون الكواكب ، وعلى الأخص القمر وكان يسمى «**نانار**» .

وكان **لابد لأهل مدينته أن يبغضوه ويضطهدوه** ، حتى اضطروه أن يرحل هو وزوجته سارة وأبوه تارح ولوط ابن أخيه إلى مدينة أخرى من بلاد الآراميين (ولذلك سمي إبراهيم أرامياً في أرض ما بين النهرين) تسمى حاران وكانت تقع على نهر بليخ أحد فروع نهر الفرات على مسافة 280 ميلا إلى الشمال الشرقي من دمشق ، وهي الآن قرية صغيرة لا تزال محتفظة باسمها «**حاران**» وكان أهل هذه المدينة أيضا وثنيين يعبدون نانار إله القمر .

ورأى الله تعالى ما كان يعانيه إبراهيم الخليل من مضايقات أهل زمانه ، فأمره بالاعتزال عنهم ومغادرته لهم ، وقال له الرب «**انطلق من أرضك وعشيرتك وبيت أبيك إلى الأرض التي أريك وأنا أجعلك أمة كبيرة وأباركك وأعظم اسمك وتكون بركة وأبارك مباركيك ، ولاعنك ألعنه وتتبارك بك جميع قبائل الأرض**» (تكوين 12:1-3)«فأطاع إبراهيم الله خالقه وسيده وأخذ زوجته سارة وابن أخيه لوطا وعبيده وكل مقتنياته ومواشيه وعبر نهر الفرات ورحل إلى أرض «كنعان بن حام بن نوح» المعروفة اليوم بأرض فلسطين ، التي أطلق عليها العبرانيون اسم أرض إسرائيل والأرض المقدسة وأرض الموعد وأرض العبرانيين ، وكان إبراهيم ابن خمس وسبعين سنة لما خرج من حاران»(تكوين 12:4) .

ونزل إبراهيم أول ما نزل في مدينة شكيم ، وهي التي تسمى اليوم نابلس ، وتجلى الرب لإبراهيم وقال له «**لنسلك أعطي هذه الأرض**» ثم انتقل من هناك إلى

الجبل القائم بين «عاي» وبيت آيل في الشمال الشرقي من شاليم التي صارت تعرف فيما بعد باسم أورشليم أي مدينة السلام .

على أن الله تعالى كشف في عطائه لإبراهيم ونسله عن مبدأ مهم هو أن السبب في منح إبراهيم ونسله أرض كنعان هو أن يصون إبراهيم ونسله من أن يشقوا بعشرة الأشرار من تلك المدن والشعوب التي أجلى إبراهيم منها وأعني أور الكلدانيين ومدينة حاران وما إليها ما لم يختلط بهم ، ولا ينقل عنهم ويجعل من إبراهيم وذريته عينة مصونة يحوطها برعايته ويسوسها بتدبيره ، فتصير بذلك نموذجا وأمثولة بين الشعوب والأجناس لمعاملة الله مع البشر ، ومع ذلك أعلن الرب في أكثر من موضع في الكتاب المقدس أن بني إسرائيل لم يصونوا العهد ولم يكونوا أمناء لله ، بل انجرفوا وانحرفوا عن المسار الصحيح الذي طلبه الرب منهم ، ليحفظ عهده مع إبراهيم وإسحق ويعقوب ، فاستحق الغضب الإلهي عليهم لغلاظة قلوبهم وشراستهم وميلهم إلى الشهوات والشرور وعبادة الأصنام المحرمة . قال موسى النبي في سفر التثنية «**أعلم أنه ليس لأجل برك أعطاك إلهك هذه الأرض الصالحة لتملكها ، لأنك شعب قاسي الرقبة أذكر لا تنسى إسخاطك للرب إلهك في البرية ، فإنكم منذ يوم خروجكم من أرض مصر حتى جئتم هذا المكان لم تزالوا تعاصون الرب ، وفي حوريب أسخطتم الرب فغضب عليكم وكاد يفنيكم**» .

وفضلا عن هذا ، فإنه إذ انساق بعض ملوك بني إسرائيل في شر عظيم ، وانحرف وراءهم بنو إسرائيل إلى عبادات الأمم الوثنية التي اختلطوا بها ، وقعوا في خطايا الزنى والفسق والفساد الأخلاقي ، فاستوجبوا غضب الله عليهم .

وجاء أيضا في الكتاب المقدس أنهم «**لم يحفظوا عهد الله وأبوا أن يسيروا في شريعته ونسوا أعماله ومعجزاته التي أراهم ، لذلك سمع الرب فغضب واشتعلت النار في يعقوب ، وسخط أيضا صعد على إسرائيل لأنهم لم يؤمنوا بالله ولا اتكلوا على خلاصه ، فصعد عليهم غضب الله وقتل السمان منهم وصرع مختاري إسرائيل ، ومع هذا كله عادوا يخطئون ولم يؤمنوا بمعجزاته ، فأفنى**

أيامهم بالباطل وسنيهم بالرعب . . فخادعوا بأفواههم وبألسنتهم ، كذبوا عليه ، أما قلوبهم فلم تكن مستقيمة معه ، ولم يكونوا أمناء في عهده كم تمردوا عليه في البرية وأسخطوه في القفر ، وتمردوا على الله العلي ، ولم يحفظوا شهاداته ، بل ارتدوا وغدروا مثل آبائهم . . سمع الله فغضب ورذل إسرائيل جدا . . وسلم للسبي عزه وجلاله ليد العدو وسلم للسيف شعبه وغضب على ميراثه جعلهم عارا أبديا» (مزمور 77:5-66) .

وفي **العهد الجديد** ، كشف السيد المسيح بمثل توضيحي عن شر اليهود ونفاقهم هم وقادتهم ، وعصيانهم وتمردهم ، ولذلك كان لابد من معاقبتهم بالتخلي عنهم ورفضهم ورفع الحماية عنهم ، وقطع الشركة معهم وتركهم فريسة للغضب الإلهي فيهلكون ويتبددون .

يقول السيد المسيح في إنجيل القديس (لوقا 20:9-19) وإنجيل القديس (متى-46 32:21) «ثم أخذ يخاطب الشعب بهذا المثل قائلا : غرس رجل كرما وسلمه إلى كرامين ورحل زمانا طويلا وفي أوان الثمر أرسل إلى الكرامين خادما ليعطوه من ثمر الكرم ، ولكن الكرامين ضربوه وصرفوه فارغ اليدين ، فعاد وأرسل خادما آخر فضربوه أيضا وأهانوه وصرفوه فارغ اليدين ثم عاد فأرسل ثالثا فطرحوه أيضا في الخارج جريحا ، ومن ثم قال رب الكرم : ماذا أفعل ؟

أرسل ابني الحبيب لعلهم إذا رأوه يهابونه ، ولكن الكرامين حين رأوه تآمروا فيما بينهم قائلين : هوذا الوارث هلم نقتله فيصير الميراث لنا ، ومن ثم طرحوه خارج الكرم وقتلوه فماذا يفعل بهم رب الكرم(*)؟

إنه يأتي فيهلك أولئك الكرامين ، ويعطي الكرم لآخرين فلما سمعوا قالوا : معاذ الله .

وقال لهم أيضا السيد المسيح«**لذلك أقول لكم إن ملكوت الله سينزع منكم وتعطاه أمة تؤدي أثماره**» ، فلما سمع رؤساء الكهنة والفريسيون أمثاله ، عرفوا أنه

(*) المقصود بالكرم هنا هو الشعب الإسرائيلي الذي قتل ورجم الأنبياء وأذاقهم العذاب صنوفا وألوانا وصولا إلى التآمر على السيد المسيح لصلبه وقتله .

إنما كان يعنيهم بكلامه فاهتم رؤساء الكهنة والكتبة في تلك الساعة بأن يقبضوا عليه ، ولكنهم خافوا من الشعب ، إذ أدركوا أنه قال هذا المثل عليهم .

كان كلام السيد المسيح واضحا أن الكرم قد أُخذ منهم ، وأن منظومة أرض الموعد لم يعد لها وجود ، وأن الأمم التي تؤدي الأثمار هي التي ستخلف روحيا ودنيويا في هذه الأرض التي بدأت تأخذ أبعادا روحية أكثر منها جغرافيا .

لم يعد اليهود شعبا مختارا ، ولم تعد الأرض الموعودة لهم من قريب أو بعيد ، وإن كانت قد مرت فترة من الفترات على اليهود دعوا فيها شعب الله ، فقد عاد الله ورفضهم من أجل شرورهم ، ومن أجل نقضهم عهده وكسرهم وصاياه . والسيد المسيح نفسه أعلن رفضه لهذا الشعب في بكائه على أورشليم ، إذ قال لها : «أورشليم يا أورشليم يا قاتلة الأنبياء وراجمة المرسلين إليها ، كم من مرة أردت أن أجمع أولادك كما تجمع الدجاجة فراخها تحت جناحيها ، ولم تريدوا ، هوذا بيتكم يترك لكم خرابا» (لو 13:34-35) .

«وقد شبههم بولس الرسول بأغصان قد قطعت من الزيتونة لعدم إيمانهم» (رؤيا 11:19-20) بل إن السيد المسيح لما رآهم منتفخين من كبريائهم العنصرية أعاد إلى ذاكرتهم قصص العهد القديم ، مفضلا الأمم عليهم ، فقال «**الحق أقول لكم إن أرامل كثيرات كن في إسرائيل في أيام إيليا النبي ، حيث أغلقت السماء مدة ثلاث سنين وستة أشهر ، لما كان جوع عظيم في الأرض كلها ولم يرسل إيليا إلى واحدة منهن إلا إلى أرملة صرفة صيد**»«**وبرص كثيرون كانوا في إسرائيل في زمان اليشع النبي ولم يطهر واحد منهم إلا نعمان السرياني** » (لو 4:25-27) وقد فهم اليهود ما يقصده السيد المسيح من ذكر هاتين الواقعتين وكيف أنه يفضل الأمم عليهم(*) .

لم يعد اليهود على الإطلاق شعباً مختاراً لله ، لأنه لو كان اليهود إلى الآن

(*) كانت المرأة التي أنقذت إيليا غريبة عن بني إسرائيل ونعمان السرياني ، كان أيضا من الأمم وكلها دلالات تفيد أن الله لا يميز بين اليهود والأمميين .

شعب الله المختار ، لما كان بقية العالم أجمع من المؤمنين ، ذلك لأن كلنا من الأمم ولسنا يهودا ، فلو كان الله لا يقبل غير اليهود لما وجد واحداً منا مقبولا عند الله .

أما الوعد بالأرض فكما يقول مفسرو الكتاب المقدس في عهديه القديم والجديد قد تم منذ أربعة آلاف سنة ، وقد بته الله لذرية إبراهيم كلها ، أي على الأقل لابنيه ، أي لليهود بواسطة إسرائيل وأيضا **للعرب بواسطة إسماعيل** .

أما الآيات التي تشير إلى إسرائيل ، فلا تعني إسرائيل كدولة معنية قائمة في مكان معين لها كيانها السياسي والاقتصادي ، ولكنها تشير إلى جميع الشعب المؤمن إسرائيل الله أي شعب الله المؤمن .

ثم **إن نبوءة العودة إلى أرض الميعاد** ، قد تمت عندما عاد اليهود إلى بلاد اليهودية بعد سبيهم ، وأقاموا حائط أورشليم وأعادوا بناء الهيكل فلا يوجد في التوراة وعد برجوع ثان حتى **إن بعض اليهود المقيمين بفلسطين يعتبرون إنشاء إسرائيل والعودة إليها بعد ألفي سنة مخالف للوعد الذي جاء في الكتاب وبالتالي مخالف لإيمانهم ، وعلى رأسهم جماعة ناتوري كاراتا** .

كما لايخفي أن الوعد الذي بته الله مع إبراهيم ، قد نقض بجحود اليهود كما وضحنا سابقا في مثل الكرامين ، كما أن السيد المسيح قد كشف النقاب لرؤساء اليهود الحمقى عن المصير الهائل المريع الذي ستنتهي إليه أمتهم ، وهي التي بتحريض منهم سترتكب أكبر جريمة خيانة وقتل عرفها التاريخ أي جريمة خيانة دعوة السيد المسيح وقتله .

وقد تمت نبوءة السيد المسيح هذه عن رذل اليهود في السنة السبعين للميلاد ، عندما دمر الرومان أورشليم وأحرقوا الهيكل ، فنزع ملكوت الله من أيدي اليهود وأعطى للأمم ، وهنا يقول بولس الرسول عن اليهود في رسالته الأولى إلى أهل تسالونيكي «**إن اليهود قتلوا الرب يسوع والأنبياء واضطهدونا وهم لا يرضون الله ويقاومون جميع الناس ويمنعوننا أن نكلم الأمم لخلاصها حتى يتمموا خطاياهم كل حين ، فإن غضب الله قد حل عليهم إلى النهاية**» (1 تس 2:15-16)

ويتسق مع ما تقدم ، الاستشهاد بما ورد في سفر أشعياء النبي الإصحاح الأول (فقرات 2-7) حيث يشير إلى لعنات الله على الشعب اليهودي كشعب متمرد ، إذ يقول «اسمعي أيتها السماوات ، وأصغي أيتها الأرض ، لأن الرب يتكلم ربَّيْتُ بنين ونشَّأتُهم ، أما هم فعصوا عليَّ ، الثورُ يعرف قانيهُ والحمارُ معلَفُ صاحبه ، أما إسرائيل فَلاَ يَعرفُ ، شعبي لا يفهم ، ويلٌ للأمة الخاطئة ، الشعبَ الثقيل الإثم ، نسل فاعلي الشرِّ أولاد مُفسدين ، تركوا الرب ، استهانوا بقُدُّوسِ إسرائيل ، ارتدّوا إلى وراء علام تُضْربونَ بعد أن تزدادُوا زيغا .

كل الرأس مريض ، وكل القلب سقيم ، من أسفل القدم إلى الرأس ، ليس فيه صحة ، بل جرح وإحباط وضربة طرية لم تعصر ولم تعصب ولم تلن بالزيت ، بلادكم خربة ، مدنكم محرقة بالنار ، أرضكم تأكلها غرباء قدامكم وهي ضربة كانقلاب الغرباء . .»

وواضح من هذه النصوص ، أن الله لا يحابي هذا الشعب ، ففي هذا النص من سفر إشعياء ، نجد أنه سبحانه يُشْهدُ السماوات والأرض على مخالفات بني إسرائيل وخطاياهم ومخالفتهم لوصَاياه ، ربيت بنين ونشأتهم (يقصد بهم بني إسرائيل) أنفسهم عصوا الله ووصلوا إلى ماهو أحط من الثور ومن الحمار ، وقوله ارتدوا إلى الوراء ، يعني أن هذا الشعب بعد أن تقدم إلى الأمام في طريق الفضيلة وفي طريق المعرفة الإلهية ، بعد ذلك رجعوا عن هذا المستوى إلى الوراء ، أي ارتدوا إلى الخطيئة وإلى الفساد ، وقوله كل الرأس مريض ، وكل القلب سقيم من أسفل القدم إلى الرأس . . والمقصود بالرأس هنا رؤساء بني إسرائيل وقيادتهم ، فجميع شعب بني إسرائيل من القيادات إلى الشعب كله ، ضلوا وبعدوا عن طريق الرب .

فمن النصوص السابقة من التوراة نفهم أن بني إسرائيل شعب كسائر الشعوب ، إذا خالفوا الوصايا الإلهية ، فإن الله يتوعدهم بالعقاب الشديد وسوء المصير ، وإن كان الله قد أحسن إليهم وجعلهم شعبه المختار في زمن كانت الوثنية ضاربة جذورها في العالم ، وكان إله إسرائيل إله واحد ، إلا أن هذا الامتياز الوقتي قد سحب من تحت أرجلهم ، فصاروا كالأغصان المقطوعة من الزيتونة ، حتى إن

الله تعالى يرفض شفاعة الأنبياء فيهم ، وقد بلغ غضب الله في رفضه لهذا الشعب أنه رفض شفاعة الأنبياء ، فقال لأرميا النبي «**وأنت فلا تصل لأجل هذا الشعب ، ولا ترفع لأجلهم دعاء ولا صلاة ، ولا تلح عليَّ لأني لا أسمع لك**» (ار 16:7) .

وقال له أيضا «**لا تُصَل لأجل هذا الشعب للخير إنني أفنيهم**» (ار 11:14 ، 12) .

وقال الله أيضا «**وإن وقف موسى وصموئيل أمامي لا تكون نفسي نحو هذا الشعب**» (ار 1:15) .

لم يعد هناك من شك إذن في أن العلاقة التي كانت تربط هذا الشعب بالله تعالى من منطلق إيمانه بالوحدانية(*) قد تعرضت للانفصام من جراء أعماله ، ولم يعد هناك وعد وعهد ، بل عقاب مريع ودعوات بالفناء والهلاك الروحي والزمني ، وهو ما قد تحقق لاحقا في سنة 70 ميلادية في زمن الحكم الروماني ، ولم يعد هناك بالتبعية مجال للحديث عن أرض موعودة ، وأما يدور في فلكها فليس إلا زيف الحديث ، وهو ما لا يقبله عاقل ، ذلك لأنهم صاغوا أدلتهم في قالب لا يقبله إلا الجاهل والغافل عن الحقيقة ، أما الباحث المتيقظ فيمجه مجا ، ويغض طرفه عن التحذيرات التي أطلقها إله إسرائيل تجاه الشعب الذي يدعي حتى الساعة أنه مختاره بدءا من موسى مرورا بالأنبياء ، ومن ذلك قوله في عهد سليمان بن داؤد بعد أن بنى هيكل الرب «**وإن كنتم تنقلبون أنتم أو أبناؤكم من ورائي ، ولا تحفظون وصاياي وفرائضي التي جعلتها أمامكم ، بل تذهبون وتعبدون آلهة أخرى ، وتسجدون لها فإني أبيد بني إسرائيل عن وجه الأرض التي أعطيتهم إياها ، والبيت «الهيكل» الذي قدسته لاسمي أنفيه من حضرتي ، فيكون إسرائيل مثلا وأحدوثة بين جميع الشعوب ، وهذا البيت يكون عبرة . فكل من يمر عليه يتعجب ويقول لماذا فعل الرب هكذا بهذه الأرض ، وهذا البيت فيقولون من أجل أنهم تركوا الرب إلههم**» (الملوك الاول 6:9-9) .

(*) وكما أن بيت إسرائيل كان أول من عرف التوحيد من خلال موسى ، كان هو ذاته الذي عبد العجل الذهبي في برية سيناء .

وقد كان ما سبق وتنبأ به السيد المسيح عن خراب أورشليم عقب ثورة اليهود ضد الحكومة الرومانية ، حينما أرسل الإمبراطور الروماني حملة تأديبية بقيادة تيطس القائد الروماني لتأديب هذه الأمة فأحاط أورشليم بالمتاريس ، فانقطعت عنها المؤونة من البلاد المجاورة ، فهلك من الشعب اليهودي كثيرون بسبب الحرب وبسبب الجوع ، ودمر تيطس وجنوده الهيكل كما سبق وأنذرهم بذلك السيد المسيح بقوله «**لن يترك منها حجر على حجر لا يهدم**» (متى 2:24) .

وهنا يقول يوسيفوس المؤرخ اليهودي في كتابه «**حروب اليهود**» **إن مليونا من اليهود ومئة ألف قد ماتوا في الحرب ، ومليونا آخر ماتوا جوعا حتى أكل الناس الكلاب والقطط والجيف ، وأخيرا صنعوا ماهو أفظع ، فإن أيادي النساء الحنائن طبخت أولادهن كما يقول إرميا النبي في مراثيه الإصحاح الرابع العدد العاشر وأما الباقون من اليهود ، وهم نحو المليون الثالث ، فقد تشتتوا في العالم ، هذا الشتات الكبير «الدياسبورا» الذي دام نحو ألفي سنة** . وفي القرن السادس عشر كما سبق ورأينا بدأت تعلو من جديد رؤية الأمة اليهودية ، وكثر الحديث عن الدولة اليهودية ، وتم ربط ذلك بإسرائيل أرض الميعاد ، وغلفت كل تلك الأساطير بغلاف ثيؤلوجي مرجعه قصة الأرض الموعودة ، ووعود الله لبني إسرائيل ، وإكمال زمن النبوءات وتهيئة المسرح للمجئ الثاني ، وكل هذا يقودنا إلى تساؤل حيوي وفعال وأحسبه العصب الرئيسي للأزمة برمتها ، وهو هل قيام دولة إسرائيل من الله ؟ أم أنها من الصهيونية ؟

ثم هل دولة إسرائيل فعل نبوي لابد وأن يتحقق عبر الزمان؟ أم هو وعد بشري لا علاقة له بالرؤى النبوية وأحاديث أنبياء الله برمتهم ؟

وكيف ترى المسيحية الحقيقية غير الملوثة بالأكاذيب أو الملطخة بعار الخرافات اليمينية وزيف التفسيرات الأصولية قيام دولة إسرائيل ؟ .

الملحق الثاني

هل قيام دولة إسرائيل من الله؟

- قيام دولة إسرائيل عنصرية بغيضة على قلب الله
- قيام دولة إسرائيل من الصهيونية وليس من الله
- نبوءات المسيحية الصهيونية زمنية وليست إلهية
- السيد المسيح يقر بزوال دولة إسرائيل للأبد
- إسرائيل تتجمع ليوم انكسارها
- المسيحية الحقيقية ترفض قيام دولة إسرائيل

الملحق الثاني

هل قيام دولة إسرائيل من الله؟

تعرضنا في الفصل السابق لقضية الشعب المختار من جهة ، ولأرض الموعد من جهة أخرى ، والمؤكد أن ما أوردناه ليس إلا جزءا من الكل ، لكننا نحاول أن نصل إلى القارئ العادي الذي يسمعها وهو في أمس الحاجة إلى معرفة سريعة بأبعاد القضية بعيدا عن الطروحات الأكاديمية لهذه القضية والتي لها موقع وموضع آخر بإذن الله .

أما في هذا الملحق ، فنحن نسعى إلى إجابة عن التساؤل السابق : هل قيام دولة إسرائيل من الله ؟

وإن لم يكن . . فما مصير هذا الكيان ؟

يقول العلامة واللاهوتي المتنيح الأنبا إغريغوريوس أسقف الدراسات العليا والبحث العلمي في الكنيسة الأرثوذكسية ، تحت عنوان «**إسرائيل في ميزان الحق الإلهي**» : إن رأينا الواضح في إسرائيل أنها محاولة فاشلة من جانب اليهود ، ولا سيما الصهاينة للم شتاتهم وجمع فلولهم ، وإقامة دولتهم القديمة التي زالت وذهبت مع الريح ، عقابا على رفضهم للسيد المسيح الذي أنبأهم عن مجيئه أنبياؤهم . لقد نجحوا في إقامة دولة ما في ذلك شك ، لكنها دولة من غير رضى الله ، وإن كانت بسماحه فما من خير أو شر يحدث في الأرض بغير إذنه تعالى(*) .ولكن فرق بين أن

(*) كان موقف الفاتيكان أيضا رافضا لقيام دولة إسرائيل منذ اللحظة الأولى ، ففي عام 1904 رد البابا بيوس العاشر على تيودورهيرتزل الذي طلب دعم الفاتيكان لعمليات تهجير اليهود إلى فلسطين بقوله «**نحن لا نستطيع أبدا أن نتعاطف مع الحركة الصهيونية**» .

يكون أمر ما بإرادة الله وقصده ومشيئته وحسب رضاه ، وبين أن يكون ذلك بسماحه تعالى . ألا يحدث في الأرض قتل وظلم ونهب وشر؟

نعم إنه يحدث في كل يوم وفي كل ساعة ، ولكن هل يرضى الله عن القتل والظلم والنهب أو الشر؟

حاشا لله إن قيام دولة إسرائيل أمر يجري لا بتدبير الله ومشيئته ، ولكن لا بغير علمه ، ولا بد أن الله يتدخل في الوقت المناسب ليتمم به إرادته ومشيئته ، ولابد أن الله يحول الشر إلى خير ، لأنه أقوى من الشر .

والحقيقة هي أن الله لم يقم دولة إسرائيل ، لكن اليهود هم الذين أقاموها كمحاولة إنسانية وخطة بشرية ليس الله صاحبها ، أقاموها دفاعا عن كيانهم ، وإثباتا لوجودهم ، ومفلتا من الاضطهاد الذي وقع عليهم عدلا في سنة 70 ميلادية عندما قهرهم تيطس القائد الروماني .؟

ولقد أنبأ السيد المسيح أثناء إقامته على الأرض ، وقبل أن يصعد إلى السماء بخراب أورشليم ، وتشتيت شعبها عقابا على رفضهم لدعوته وعدم الإيمان به بوصفه المسيا المنتظر .

يقول إنجيل القديس لوقا ، وهو يروي دخول المسيح إلى أورشليم في يوم الأحد المعروف بأحد الشعانين «**ولما اقترب يسوع نظر إلى المدينة «أورشليم» وبكى عليها قائلا : لو أنك أنت أيضا كنت تدرين على الأقل في هذا اليوم الذي هو لك ماهو لأجل سلامك؟ ولكنه الآن محجوب عن عينيك ، لكن ستأتي عليك أيام يحيط بك فيها أعداؤك بالمتاريس ويطوقونك ويحاصرونك من كل جهة ، ويدكونك وبنيك فيك ، فلا يتركون فيك حجرا على حجر ، لأنك لم تعرفي زمان افتقادك**» (44-41:19) وهذا معناه أن المسيح قد جاء من أجل سلام القدس وأهلها ، وجاء من أجل خيرهم الروحي والأبدي ، ولكنهم لم يقبلوه ، بل قاوموه ، ولما كانوا قد رفضوا جميع الأنبياء من قبله ، وجاء هو أخيرا بنفسه لعلهم يهابونه ، فكان منهم أنهم أيضا تمردوا وتألبوا عليه ، لذلك كان لابد أن يعاقبهم بالتخلي عنهم ، ويتركهم إلى ذهن مرفوض ، ولابد أيضا أن يقطع صلته بهم وشركته معهم .

فالأمة اليهودية إذن قد انتهت ككنيسة الله ، ولم يعد لها وجود أمام الله ، لأنها تحت الغضب الإلهي ، ومادام اليهود الآن تحت غضب الله ، وقد حلت عليهم اللعنة ، فليس لهم أمام الله كيان معترف به ، وليس كل جهدهم إلا محاولة بشرية مصيرها الفشل المحقق .

لقد رفض اليهود السيد المسيح الذي جاء لخلاصهم ، لأنه جاء بشيرا بالسلام ، مناديا بالمحبة ، داعيا للصفح والغفران ، مطوبا الفقراء والمساكين بالروح ، شارحا محدثا عن ملكوت الله الروحي ، أما هم فقد كانوا ولا يزالون في ترقب لمسيح آخر على طراز شمشون الجبار وغيره من المحاربين الأشداء ، يخلصهم من أعدائهم الظاهرين ، ويؤسس منهم مملكة قوية تقهر غيرهم من الأمم ، فتتحقق أحلامهم في دولة كبرى تحكم العالم بأسره .

أما المتنيح الأنبا يوحنا كابس المعاون البطريركي السابق للأقباط الكاثوليك(*) ، **ففي بحث له عن كيان إسرائيل غير القانوني تاريخيا يقول** : إن الحركة الصهيونية قد مرت بأطوار مختلفة قبل أن تصل إلى مرحلتها السياسية الحاضرة ، وقد كان أول اساس أراد الصهيونيون الارتكاز عليه هو ترويج فكرة وجود شعب يهودي وجنس يهودي وأمة يهودية متسلسلة من العبرانيين القدماء ، وأن اليهود ليسوا مرتبطين ببعضهم بعضا برباط الدين فقط ، ولكنهم يكونون أمة مميزة عن غيرها .

إلا أن التاريخ يشهد بأن اليهود الحاليين لا علاقة لهم بسلالة العبرانيين ، وأنهم إذا كونوا في وقت من الأوقات أمة حقيقية ، فهذا الوقت كان وجيزا جدا وقد اضمحلت هذه الأمة واختفت تماما .

فمدة ملك داود وملك سليمان لم تدم إلا ثمان وسبعين سنة ، وحتى مملكتا يهوذا وإسرائيل اللتان أسستا على أنقاض المملكة الموحدة ، لم يلعبا في تاريخ

(*) الأقباط الكاثوليك هم المصريون الذين ينتمون إلى الكنيسة الكاثوليكية الرومانية تحت رئاسة خليفة القديس بطرس بابا روما ولهم بطريرك مصري هو الكاردينال إسطفانوس الثاني غطاس .

اليهودية إلا دورا محدودا وثانويا ، لذا فإن مملكة إسرائيل قد تلاشت في الإمبراطورية الآشورية منذ سنة 772 قبل الميلاد ، وسقطت مملكة يهوذا في أيدي الفرس سنة 587 قبل الميلاد ، ولم تبق ذكرى لهاتين المملكتين في التاريخ السياسي والاجتماعي ولكن فقط ذكرى دينية عابرة .

وإذا ألقينا نظرة على اليهود الذين نزحوا من البلاد المختلفة واستوطنوا في فلسطين ، نجزم أنهم ليسوا من سلالة العبرانيين القدماء الذين سكنوا الأراضي المقدسة ، فإنه قد حدث أن انضم عدد كبير في أوروبا إلى اليهودية في القرون الوسطى وفي عهد الأتراك الذين سادوا على روسيا الجنوبية الشرقية ، انضم عدد كبير إلى اليهودية وعلى رأسهم الملك «بولان» في سنة 740 ميلادية ، وفي القرن الثامن عشر انضم عدد كبير إلى اليهودية تحت تأثير اليهود البيزنطيين ، وكثر عدد المنضمين في القوقاز ، وانتشروا في أوروبا الوسطى وفي بروسيا وبولندا وروسيا ، وهاجر عدد كبير منهم إلى الولايات المتحدة ، منهم هؤلاء الذين نزحوا إلى إسرائيل أو بالأحرى سلالتهم ، وهم الذين يديرون سياستها الآن ، **كما لاننسى أنه لايوجد يهود صفر وسود وملابار وأحباش أشكيناز وسفارديم ، فهل يمكن بعد هذا أن يعتبر اليهود أمة حقيقية بينما الخلاف واضح في الجنس واللغة والأصل والتقاليد وحتى في المعتقد .**

ولعل التساؤل الذي يثير جماعة اللاهوتيين هو : هل من العدل الإلهي والحق الإنساني إبدال شعب يملك أرضا استوطن فيها منذ آلاف السنين ، ويُطرد منها ويُلقى في العراء في الصحراء لتحل محله جماعات غريبة من أجناس ولغات مختلفة وتقاليد بالية متباينة لا يربطهم إلا اسم اليهودية ؟

هل من العدل والحق الإنساني أن يُبرأ الظالم ويُحكم على المظلوم(*)؟

بكل تأكيد تجئ إجابة جمهور اللاهوتيين الأمناء على شرف الكلمة وسمو

(*) في أوائل الثمانينيات أصدرت الكنيسة الكاثوليكية وثيقة مهمة للغاية في تاريخ تحرير الشعوب من ربقة الظلم والاستعباد أطلق عليها وثيقة لاهوت التحرير والتي ترفض فيما ترفض الاستيلاء على أراضي الغير بالقوة .

الرسالة بالرفض الكامل ، فحاشا لله أن يكون غير عادل حسب المسوغات التي قدمتها الصهيونية لقيام دولة إسرائيل على حساب العرب الذين عاشوا فيها منذ آلاف السنين ، لذا فإن قيامها يتنافى شكلا وموضوعا مع عدل الله المطلق ، إذ إن الحق يعلو ولا يعلى عليه ، ولا يمكن أن ينضم إلى الظلم . **والواقع هو أنه من خلال الاطلاع على التوراة ، يمكن التثبت من أن العرب كانوا أول سكان لفلسطين منذ ثلاثة آلاف وخمسمائة سنة قبل الميلاد ، واستمر سكناهم فيها بعد الميلاد إلى اليوم . وإن تسمية فلسطين هي نسبة إلى القبيلة العربية «فلسيتيا» التي جاءت إلى الأرض التي كان يسكنها منذ فجر التاريخ الكنعانيون ، وهم عرب أيضا وأصبح اسم فلسطين يطلق على جميع الأراضي الساحلية والداخلية التي يسكنها الكنعانيون ، وظلت فلسطين عربية أصيلة لمدة خمسة آلاف سنة ، وأن مدة استعمار اليهود لفلسطين طبقا لنصوص التوراة لا تزيد على 380 سنة ، وكلها إقامات متفرقة وبصفة استعمار دخيل لا وجود أصيلاً .**

واحتلال بلد ما ثم الخروج منه لا يخوّل للشعب المحتل الدخيل ادعاء الملكية ، فضلا عن أنه من العبث بالتاريخ أن تصنع جنسية في ديانة .

ونأتي إلى ركيزة رئيسية أساسية توضح زيف دعوى إقامة إسرائيل من أجل مرضاة الله أو تحقيقا لوعوده ، مما يؤكد أن هذا الوجود ليس من الله في شئ ، وهو أن إسرائيل تستند في دعواها لإنشاء دولتها الصهيونية العدوانية التوسعية إلى ما ورد في سفر التكوين من وعد الله لإبراهيم «**لنسلك أعطى هذه الأرض من نهر مصر إلى النهر الكبير نهر الفرات**» .

وليس من رد على هذا الزعم الذي أثرت به الصهيونية على المسيحيين خاصة في الولايات المتحدة الأمريكية ، **غير أن التفسير الذي ورد في العهد القديم نسل ابراهيم يشمل العرب أيضا من مسلمين ومسيحيين ، لأنهم نسل إبراهيم من ابنه إسماعيل ، وكان إسماعيل أبا لعدد كبير من القبائل العربية ، وإسماعيل هو الابن الأكبر والأول لإبراهيم من امرأته المصرية هاجر ، كما أن إبراهيم تزوج قطورة أيضا ولإبراهيم منها قبائل كثيرة من عرب الشمال .**

والوعد الإلهي بإعطاء إبراهيم ونسله من بعده أرض كنعان ملكاً أبديا ، كان في أيام إسماعيل ، لأن الذي اختتن كان إسماعيل ، لأن إسحق لم يكن قد ولد بعد .

بل إن الموعد بالامتداد من النيل إلى الفرات ، حدث قبل أن يولد إسماعيل ، ولهذا فإن تفسيره بأنه يختص بالإسرائيليين دون غيرهم مغالطة دينية وتاريخية معا ، خاصة وأن هذه المنطقة كانت على الدوام يحكمها العرب الذين هم من نسل إسماعيل .

فضلا عن أن الترجمة للكلمة العربية في التوراة «**أبديا**» في الترجمات المختلفة غير دقيقة ، لأن المعنى الصحيح لهذه الكلمة في أصلها العبري «**حين من الدهر أو فترة من الزمن**» فالنبوءات التي وردت في التوراة ليست أبدية ، بل مشروطة بفترة معينة ، وقد تمت جميعا قبل مجئ السيد المسيح .

فالعودة تحققت في العهد القديم ، أي قبل الميلاد وليس من طبيعة النبوة أن تتحقق مرة أخرى ، كما لا تشير جميع أسفار العهد القديم إلى نبوءة تقول بعودة ثانية .

واليهود أنفسهم طبقا لما نشرته جريدة النيويورك تايمز في عددها الصادر في 18 نوفمبر سنة 1959 ، أعلنوا بلسان الدكتور إبراهام هيشيل أستاذ التصوف اليهودي في كلية اللاهوت اليهودية في نيويورك ، بأن هذه التنبؤات في العهد القديم قد تمت . . وأن الصهيونية التي تدعو إلى قيام إسرائيل جهاز سياسي ومنظمة عالمية لا صلة لها باليهودية ، بل إنها حقرت المعنى النبيل والوحي القديم للفظة إسرائيل ، والذي كان يدل على فكرة دينية روحية لها قدسيتها والتي نشأت من تقليد مقدس قديم لايجدونه في كيان دولة مدنية حديثة .

اليهودية في نظر المسيحية قد انتهت كدين وعقيدة ، وتحولت إلى مجرد مرحلة تاريخية ، وكلمة إسرائيل في الإنجيل تعني كنيسة الله وشعب الله ، **لذا فإن قيام دولة إسرائيل بزعم أنها من الله ، هو أمر مناف للمسيحية بالمرة ، كما أن**

تأييد إسرائيل هو عداء لشريعة المسيح ، فرسالة السيد المسيح وثبة بالإنسان إلى الأمام . . وتصفية للرجعية الدينية المتمثلة في منظومة الشعب المختار . فالاستعمار لا الدين هو الذي يتحمل المسؤولية الجنائية في إحياء دولة إسرائيل التي تعد المسيحية ثورة على قيامها واستمرارها ، والاستعمار هو المسؤول عن إنشاء وطن عنصري عدواني للشعب اليهودي في فلسطين ، على أساس الطرد الجماعي للشعب الأصلي ، أما الله فهو بريئ من قيام الدولة أو الملك الأرضي الزمنى الذي يبحثون عنه منذ أيام مملكة إسرائيل الأولى حين عبدوا الأصنام ، فيما تمسكت مملكة يهوذا قليلا بالرب ، ثم انجرفت هي الأخرى إلى عبادة الأصنام ، فأسلمها الرب كذلك إلى السبي وعندما أراد السيد المسيح أن يملك على قلوب الناس وأفكارهم وأن يملك على مشاعرهم وحواسهم ، وهكذا يقيم مملكة روحية رفضوه ، لأنه لم يأت بالقوة والسلطان ، بل بفكرة المملكة الروحية التي لم ترقهم ، فتضايقوا من رفضه للملك الأرضي ، وتذمروا من قوله **اعطوا ما لقيصر لقيصر وما لله لله** .

والحاصل أنه لا يمكن في ضوء الكتاب المقدس ، أن تعترف المسيحية لهم بمملكة(*) أو دولة ، فالله رفض فكرة المملكة منذ البدء كما رفض السيد المسيح أن يقيم لهم ملوكا ، كان الملك شخصية مقدسة لا تنطبق على يهود اليوم ، فالملك كان الله يختاره بنفسه ، ويأمر بمسحه ملكا بواسطة نبي أو رئيس كهنة ، وكان الملك يتلقى أوامره من الله ويستشيره في كل خطوة ، وكان محرما على ممالك اليهود أن تبرم تحالفات عسكرية أو اقتصادية مع دولة أخرى ، وإلا اعتبر ذلك اعتمادا على ذراع بشري يقتضي العقوبة من الله ، وليس شيئا من هذا ينطبق على دولة إسرائيل الحالية التي ليست من الله في شئ .

ومع انتهاء اليهودية كديانة وزوالها ككنيسة ، لم يعد لها أمام الله وجود

(*) هم كانوا يريدون مملكة أرضية حسية ، لذا فإن السيد المسيح عندما كان يجاهر بقوله إن مملكتي ليست من هذا العالم ، لم يكن يلقى أي ترحيب ، إلا أن ما جادت به القريحة اللوثرية كان خلاف ذلك .

معترف به ، أو كيان يستند إلى قوة إلهية كما كان الحال قبل صلب المسيح ، فإن كل تعبير يرد في العهد الجديد يشير إلى إسرائيل ، ليس المقصود به إسرائيل القديمة بل إسرائيل الجديدة ، وأعني به الكنيسة المسيحية التي حلت محل الكنيسة اليهودية ، وينسحب أيضا على اسم صهيون ، وكذلك أورشليم ، فصهيون في العهد الجديد صارت لقباً للكنيسة المسيحية ، وأورشليم الأرضية كناية عن أورشليم السمائية ورمزا لها .

إذن لقد فقدت كلمة صهيون في المفهوم المسيحي في العهد الجديد المعنى القديم الذي كان لها ، وكذلك أورشليم فقدت معناها الحرفي ، وصار لها مدلول معنوي وروحي وأبدي .

وفي هذا يخلص المتنيح الأنبا غريغوريوس في مؤلفه «**إسرائيل في الميزان من منظار مسيحي**» إلى أن اليهودية الآن هي ديانة الذين أنكروا المسيح يسوع ، ورفضوا دعوته ورسالته وخلاصه وتعاليمه الروحية ، متطلعين إلى مسيح آخر من طراز شمشون الجبار وغيره من المحاربين الأشداء ، الذين يقودون المعارك الحربية ليحققوا لشعبهم نصرا ماديا أرضيا ، ولا يزالون مرتبطين بفكرة المملكة الأرضية التي تقوم على التوسع المادي والاقتصادي ليسودوا العالم ، ويحكموا ويتسلطوا على غيرهم من الشعوب ، اعتقادا منهم أنهم هم وحدهم شعب الله المختار وأما غيرهم من البشر فهم حيوانات لها أشكال آدمية .

هذه النزعة الشريرة القاتلة التي أباحت لهم في كل العصور أن يضروا ويؤذوا كل من لم يكن يهوديا . . وهذا هو سر عدائهم للمسيح والمسيحية ، فكيف يستقيم إذن بعدما تقدم أن يكون قيام دولة إسرائيل من الله .

والشاهد أن إسرائيل الحالية لا علاقة لها إطلاقا بإسرائيل قديما التي ورد ذكرها في الكتب المقدسة ، بل هي عصابات صهيونية تمثل حركة استعمارية فاشية عنصرية تقوم على مذهبية ترتكز في مبادئها على الاستغلال والعدوان ، وتستند إلى نظريات التوسع والسيطرة ، وتستخدم العنف في وسائل تطبيقها

وممارساتها كأداة لتحقيق أهدافها ، وقد ارتكزت الصهيونية منذ نشأتها على فرضية خاطئة ابتكرها واضعوها ، وهي أن اليهود دين وقومية ، ولذا فمن الواجب إيجاد مكان يتكتل فيه اليهود ، ويقيمون في ربوعه دولة تعيد لإسرائيل القديمة التي استخرجوها من بطون التاريخ والتوراة مجدها وسيادتها ، وما أبعدها من دولة عن فكر الله جل وعلا .

ويتبقى لنا أن نبحث عن السر وراء تخلي الله عن هذا الشعب الذي عرفه وأعطاه الوصايا والشريعة ودعاه لوحدانيته قبل أي شعب آخر لكنه لم يكن أمينا على هذا العهد .

يقول الأب متى المسكين في كتابه «**تاريخ إسرائيل**» : إن الذي يتتبع تاريخ مملكة إسرائيل ومملكة يهوذا الذي انتهى بسقوطهما المريع في السبي وتشتيتهما في كل أنحاء العالم ، يظن أن انهيار إسرائيل كان كما يظهر لنا من سرد تاريخهما نتيجة مباشرة لازدياد قوة آشور من جهة ، ثم مصر من جهة أخرى ، مما أدى إلى التضييق عليها حتى وقعت صريعة بين الاثنتين (*) .

لكن **الحقيقة ليست كذلك** ، فدولة إسرائيل كانت دولة غير زمانية ، بل قصدها الله أن تكون دولة روحانية ، ولم تقم بالقوة البشرية حتى تنهار وتسقط بالقوة البشرية ، إسرائيل الأولى أقامها الله بنفسه ، والله هو الذي أسقطها بنفسه ، إن تحذير الله لإسرائيل كان مستمرا بأنها إذا زاغت من تحت تدبيره فهو حتما مزمع أن يرفضها ويتخلى عنها ، وذلك واضح كل الوضوح ، وقد جاء هذا التحذير مبكرا جدا في نفس وقت بداية إقامة العهد معهم على يد موسى النبي ، اسمع ما يقوله الله لشعب إسرائيل «**انظر قد جعلت اليوم أمامك الحياة والخير والموت والشر بما أني أوصيتك اليوم أن تحب الرب إلهك وتسلك في طرقه وتحفظ وصاياه وفرائضه وأحكامه لكي تحيا وتنمو ويباركك الرب إلهك في الأرض التي**

(*) الأب متى المسكين هو رئيس دير القديس أبو مقار ، وهو حجة في الكتاب المقدس وتاريخ بني إسرائيل ، وله مواقف عروبية وإيمانية مسيحية واضحة وجليلة .

أنت داخل إليها لكي تمتلكها ، فإن انصرف قلبك ولم تسمع ، بل غويت وسجدت لآلهة أخرى وعبدتها ، فإني أنبئكم اليوم أنكم لا محالة تهلكون ولا تطول أيامكم على الأرض التي أنت عابر الأردن لكي تدخلها وتمتلكها ، أشهد عليكم اليوم السماء والأرض قد جعلت قدامك الحياة والموت والبركة واللعنة» (تث 30:15-19) . ثم يضيف موسى النبي قبل موته هذه الكلمات الحزينة التي تكشف مقدار وضوح الرؤيا أمام هذا النبي العظيم ، وكيف أدرك المصير المحتوم الذي سيواجه شعب إسرائيل **«إنهم أمة عديمة الرأي ولا بصيرة فيهم لو عقلوا لفطنوا بهذه ، وتأملوا آخرتهم كيف يطرد الآن الواحد ألفا ويهزم اثنين ربياه لولا أن صخرهم باعهم والرب سلمهم»** (تث 32:28-30) .

وقد تكرر تحذير الله لهم في جميع المناسبات وعلى فم جميع الأنبياء معلنا لهم أنه المزمع أن يرفضهم ويسلمهم لأعدائهم ويتخلى عنهم بسبب فساد حياتهم الداخلية ، وتعديهم على جميع النواميس الأدبية والأخلاقية التي سلمها لهم علاوة على عبادتهم للأصنام .

وسنكتفي هنا بتصوير الصورة الأخيرة للحالة الروحية والأدبية والأخلاقية التي كان عليها شعب إسرائيل قبل انهيار مملكة إسرائيل مباشرة ، بينما كان الأعداء حول أورشليم ، حيث نستطيع من خلال هذه الصورة أن ندرك سر وقوع قضاء الله المحتوم عليها ، وانهيارها وزوال المملكة عنها ، وتبدد الشعب في السبي .

هذه الصورة يرسمها لنا إرميا النبي بقوله :

«أما ترى ماذا يعملون في مدن يهوذا وفي شوارع أورشليم ؟ الأبناء يلتقطون حطبا والآباء يوقدون نارا والنساء يعجن العجين ليصنعن كعكة لملكة السموات «عشتاروت» ولسكب سكائب لآلهة أخرى لكي يغيظوني . . . هذه هي الأمة التي لم تسمع لصوت الرب إلهها ولم تقبل تأديبا» (ار7:17 ، 18 ، 28)

ثم ينقل لنا إرميا النبي صورة فاجرة لحديث دار بينه وبين نساء الشعب ، وهن

في منفاهن عندما كان يوبخهن على عبادة الأصنام ويذكرهن بكلام الله ، قلن له «**إننا لا نسمع لك الكلمة التي كلمتنا بها باسم الرب ، بل سنعمل كل أمر خرج من فمنا فنبخر لملكة السموات «عشتاروت» ونسكب لها سكائب ، كما فعلنا نحن وآباؤنا وملوكنا ورؤساؤنا في أرض يهوذا وفي شوارع أورشليم ، فشبعنا خبزا وكنا بخير ولم نر شرا**» (ار 16:44 ، 17) وهذا بعينه سبق أن راه موسى بعين النبوة قبل ذلك بسبعمائة عام تقريبا ، فقد تمت رؤية موسى وترك الشعب عبادة الله ومخافته تركا كاملا بفجور وتحد .

ولكن لم تكن عبادتهم لعشتاروت ملكة السموات مجرد غواية دينية ، بل وقد امتد العفن إلى الأعماق ، وانضربت الحياة الداخلية بالفساد والانحلال الخلقي المريع .

وها هو **عاموس النبي** الذي تنبأ بقرب وقوع **السبي** ، يصف لنا درجة التسفل الخلقي والانحلال الأدبي في الأسرة اليهودية ، التي بلغت حد مشاركة الأب لابنه في اقتراف القبائح «**ويذهب رجل وأبوه إلى صبية واحدة حتى يدنسوا اسم قدسي**» (عا 7:2) ثم يعود عاموس النبي ويصف الهوة التي تفصل بين الأغنياء والفقراء ووقوع الفلاح الصغير تحت ظلم المرابين الذي يمكن أن ينتهي بالعبودية مع فساد الضمير ، وانهيار القيم الاقتصادية والعرف السائد فيقول :

«**القائلين لنصغر الايفة ونكبر الشاقل ونعوج موازين الغش لنشتري الضعفاء بفضة والبائس بنعلين ونبيع نفاية القمح قد اقسم الرب بفخر يعقوب إني لن أنسى إلى الأبد جميع أعمالهم**» (عا 5:8-7) ويأتي **هوشع النبي** ويصف حال إسرائيل بأوصاف تقشعر منها النفس الطيبة ، وأخيرا يجمل حالة أرض إسرائيل بهذه الكلمات «**لا أمانة ولا إحسان ولا معرفة الله في الأرض ، لعن وكذب وقتل وسرقة وفسق ودماء تلحق دماء . . روح الزنى قد أضلهم . . ولذلك تزني بناتكم وتفسق كناتكم . . وشعب لا يعقل يصرع**» (هو1:6و2و 12-14) .

ويضيف هوشع إلى هذه الصورة الحزينة منظرا آخر أشد إيلاما على النفس من كل ما سبق :

«وكما يكمن لصوص لإنسان كذلك زمرة الكهنة في الطريق يقتلون نحو شكيم ، إنهم قد صنعوا فاحشة في بيت إسرائيل رأيت أمرا فظيعا . .» (هو 6:9-10)

ونختم هذه الصورة بوصف إجمالي يقدمه إشعياء النبي لحالة إسرائيل كلها :

«تركوا الرب ، استهانوا بقدوس إسرائيل ، ارتدوا إلى وراء . . كل الرأس ليس فيه صحة ، بل جرح وإحباط وضربة طرية ، لم تعصر ولم تعصب ، ولم تلن بالزيت» (اش 1:5-6) .

هذه هي الصورة التي انتهت إليها حالة شعب إسرائيل قبل السقوط ، وانهيار المملكة ، وهي تكشف لنا الأسباب المباشرة التي جعلت الله يُفْرُطَ في إسرائيل ويكسر عهده معهم ، ويغلق رحمته عن إسرائيل فيتبددون في وسط شعوب الأرض كما يقول أشعياء النبي **«فيعبرون فيها مضايقين وجائعين ويكون حينما يجوعون أنهم يحنقون ويسبون ملكهم وإلههم ويلتفتون إلى فوق وينظرون إلى الأرض ، وإذا شدة وظلمة وقتام الضيق وإلى الظلام هم مطرودون»** (اش 8:21-22) .

وكما يجمع العديد من علماء المسيحية الحقيقيين ، فإن تجمع إسرائيل الآن ليس من إرادة الله في شئ ، لأنهم في سعيهم لذلك لا يطلبون وجه الله ولا يعتمدون على ذراع الرب ، إنهم مغمورون في جو قاتم من السياسة يتذللون للأمم الكبيرة في ضعة وفي مهانة ، يطلبون معونة يتطلعون من ورائها إلى السطوة وإلى الانتقام .

لقد ضلت إسرائيل وانخدع كثيرون من الكتاب العالميين والمسيحيين أنفسهم ، معتقدين أن في تجمع إسرائيل نصرة للرب ، وفي عودة الصهيونية تكميلا للنبوءات .

والذي لاشك فيه ، هو أن اسرائيل تجتمع ليوم انكسار فيه ستسحقها الأمم سحقا كما يرى الأب متى المسكين ، وفي سحقها تتذكر خطيئتها ، وفي ذلها ستندم في التراب .

إسرائيل فارقها روح الرب ، لذلك تطلب وطنا في فلسطين ، وإن كان على أشلاء العرب ، إنها تسعى إلى عزلتها الأولى ، وتنظر إلى يهوه كأنه منحصر في تخوم اليهودية تحيط به حدود بلاد يعقوب .

إسـرائيل في غـبـاوة الروح تريـد أن تؤسس لله وطنا على الأرض ، ولو على جثث الناس ، ولابد أن تفقد إسرائيل إسرائيليتها ، فهي ما زالت تنظر لنفسها كشعب مختار وحيد لله ، وهذه عنصرية هادمة لمعنى الإلوهية ولروح البشرية في آن واحد ، حيث إن في كل أمة الذي يتقي الله ويصنع البر مقبول عنده كما يقول بولس الرسول .

ولأن ليس عند الله محاباة ، من أجل هذا سيظل فرع إسرائيل يابسا غريبا عن شجرة الناس ، إلى أن تعلم أنه لا عنصرية بين الناس ولا تشيع في الله .

الملحق الثالث

بناء الهيكل وهدم الأقصى

- الملك الألفي - بناء الهيكل - هرمجدون.. ثلاثية أكاذيب
- هل حقاً الأقصى قائم مكان الهيكل؟
- السيد المسيح يتنبأ بزوال الهيكل وعدم بنائه إلى الأبد
- إشعال حرب نووية لبناء الهيكل
- لن تقوم للهيكل قائمة كما يرى علماء المسيحية الحقة
- الصراع الديني قادم لا محالة من جراء إسرائيل

الملحق الثالث

بناء الهيكل وهدم الأقصى

ويبقى حديث إعادة بناء الهيكل، الضلع الباقي في مثلث «هرمجدون - الملك الألفي - بناء الهيكل»(*)، وفي تقدير جماعة اليمين الأصولي أن بناءه هو العلامة النهائية لانقضاء الزمان، ومجيء السيد المسيح للأرض ثانية. وفي سبيل هذا، فإن العمل يجري على قدم وساق من أجل الإعداد لبنائه محل المسجد الأقصى. وفي ذلك الإعداد يلقى اليهود الإسرائيليون كل عون من أتباعهم، خاصة في الولايات المتحدة الأمريكية.

في سنة 1989 نشرت مجلة التايم الأمريكية تحقيقا تحت عنوان «هل آن أوان بناء الهيكل الجديد؟» ووضعت المجلة عنوانا فرعيا بلغة الكلام المزدوج التي تجيدها كتيبة الإعلام العالمي يقول «إن اليهود التقليديين يأملون في تشييد بنائهم المقدس، ولكن مسجدا وقرونا من العداء تقف في طريقهم».

والمعنى بكلمات أخرى، هي أن المتدينين الطيبين يأملون بدل أن يقول يخططون لتشييد البناء المقدس، لكن المسلمين بمسجدهم وعدائهم الديني الضارب في القدم، يقفون في طريق اليهود ويحرمونهم من تشييد بنائهم المقدس.

وفي تحقيقها قالت المجلة «إن اعادة بناء الهيكل لم تكن قضية مثارة إلى أن

(*) تمثل هذه المنظومة الثلاثية عماد الفكر الاسكاتولوجي المنحول، أي الذي يحاول التهيئة لقيام الساعة وإعداد البشر لها، فيما الحقيقة تتضح بعيدة كل البعد عما يقال وما يطرح من أكاذيب.

استولت إسرائيل في سنة 1967 على تل الهيكل ومدينة القدس القديمة وأن إسرائيل نظرا لحرصها على صون السلام ، واصلت السماح للمسلمين بإدارة الموقع ، غير أن المسلمين لا يسمحون ليهودي أو مسيحي بإقامة شعائر الصلاة علنا على الأرض المقدسة ، لذلك التل ولم يبدوا أدنى استعداد للسماح ببناء أبسط معبد يهودي أو كنيسة ، كما أن أقل حركة تشير إلى موضوع إعادة بناء الهيكل تثير استفظاع المسلمين الذين عقدوا العزم تبعا لما صرح به أحد مسؤولي المسجد الأقصى على الدفاع عن الأماكن الإسلامية المقدسة إلى آخر قطرة في دمائهم» .

وأضافت المجلة الأمريكية قائلة «**إن التراث الديني اليهودي مستقر على أن أمر الله في العهد القديم ببناء الهيكل هو أمر لارجعة فيه**» ، وأشارت إلى أن عدة منظمات يهودية في القدس تعتبر مسألة بناء الهيكل مسألة مقضيا بها ، وأن تلك المنظمات التي وصفتها المجلة بأنها تتحاشى العنف آخذة بحماس بالغ في الإعداد لبناء الهيكل الثالث ، بصرف النظر عن الخلافات في الرأي وحتمية ما سوف يثيره ذلك البناء للهيكل من غضب إسلامي عارم ، وبهذا الخصوص ، لاحظت المجلة أن تلك المنظمات شديدة التعصب ، البالغة الحماس ، النشطة في الإعداد لبناء الهيكل ، لم توضح ما الذي ينبغي عمله بشأن ما أسمته بالمزارات أو الأضرحة "Shrines" الإسلامية التي تحتل الآن تلك الأرض المقدسة في إشارة إلى المسجد الأقصى ، أما الذي لم تقله المجلة ، فقد قاله مهاجرون أوائل وحديثون ، ومنهم اليهودي بوبي براون المهاجر من بروكلين «إن كان هدم المسجد لبناء الهيكل مكانه سيشعل نيران حرب كبرى ، فليكن ، لأننا في البداية عندما جئنا إلى هنا ، واستخدمنا تكتيكات حرب العصابات في أخذ الأراضي من العرب ، وبناء مستوطناتنا عليها ، كان الأمر مثيرا ، لكننا الآن نشعر بالملل ، فنحن مسلحون تسليحا كاملا ، ونشعر أن وجود مسجد في وسطنا وصمة عار لأرضنا ، فالمرء لا يرى صورة لأورشليم إلا ويرى فيها ذلك المسجد ، ولذا يجب أن يزال ، ولسوف نبني هيكلنا الثالث مكانه في يوم من الأيام ، ونحن يجب أن نفعل ذلك لنجعل

العرب يرون ، ولنجعل العالم كله يرى ، أننا اصحاب السيادة على أورشليم ، وأصحاب السيادة على كل أرض إسرائيل» .

ما حقيقة الهيكل التاريخية؟ وأين تقف المسيحية من فكرة إعادة بنائه؟

وعندما أقول المسيحية ، أقصد بها مسيحية **«يسوع المسيح»** ، وليست مسيحية جيري فالويل وبات روبرتسون وأمثالهما من دعاة اليمين الأصولي المسيحي المتطرف .

أما الهيكل ، فهو ليس واحداً فقط ، بل هناك في التاريخ **ثلاثة هياكل** بنيت وهدمت ، ومحاولة أخرى عجيبة كل العجب لمحاولة إعادة البناء سنتعرض لها لاحقا :

1-الهيكل الأول : هيكل سليمان

بني لأول مرة في عهد الملك سليمان ابن داود ، وكان ذلك حوالي عام 1004 ق .م ، وهدم في حوالي عام606-587 ق .م على يد نبوخذ نصر ملك بابل ، حينما سقطت أورشليم في أيدي البابليين ، وقد تنبأ عن إعادة بنائه النبي زكريا حوالي عام 520-518 ق .م وتحققت النبوءة .

2-الهيكل الثاني : هيكل زروبابل

كان بناؤه عام 200-150 ق .م ،وبمعاونة النبي زكريا والنبي حجي ، وسمي هيكل زروبابل نسبة إلى زروبابل حاكم اليهودية آنذاك ، وكان ذلك بأمر الملك قورش ، وقد دمره أنطيوخوس الرابع 175-163 ق .م ، وكان عصر النبوءات قد انتهى ، فلم يوجد أنبياء لليهود حتى مجئ يوحنا المعمدان سنة 4 ق .م ، ولكن دانيال النبي تنبأ ضمنا بإعادة بنائه ضمن نبوءته عن المجئ الأول للمسيح .

3-الهيكل الثالث: هيكل هيرودس

وبني هيكل هيرودس على يد هيرودس الكبير ابتداء من سنة 19ق .م ، وظل يبنى حتى عام 64 بعد الميلاد ، ولم يمض بعد ذلك إلا 6 سنوات حتى دمره نهائيا القائد الروماني تيطس سنة 70 ميلادية ، وكان هذا تحقيقا لنبوءة السيد

المسيح الواردة في إنجيلي القديسين متى ومرقس «فتقدم تلاميذه لكي يروه أبنية الهيكل ، فقال لهم يسوع أما تنظرون جميع هذه ؟ الحق أقول لكم إنه لا يترك ها هنا حجر على حجر لا ينقض» (متى 24:1، 2) ، (مرقس 13:1) والأصل ألا ينقض المكتوب .

لكن ماذا عن الهيكل الجديد الذي يتكلم عنه يوحنا اللاهوتي في سفر الرؤيا ، وهل هو هيكل مادي وجب بناؤه في الأرض المقدسة؟

في رؤيا القديس يوحنا اللاهوتي ، وفي وصفه لأحداث الأيام الأخيرة ، ثم لأورشليم ، الجديدة النازلة من السماء ، لم يكن هناك أي ذكر لهيكل لليهود ، بل العكس ، قال صراحة «**ولم أر فيها هيكلا ، لأن الرب الله القادر على كل شئ هو والخروف هيكلها**» (رؤيا 22:21) .

فلم يعد في تدبير العهد الجديد للخلاص هيكل من حجارة ، بعد أن صنع الرب من جسد المسيح هيكله الجديد «يوحنا 12:2 » الذي يجمع البشرية كلها ، والتي يسكن الله في وسطها ، وهذا هو الهيكل الذي قيل عنه إنه «**مسكن الله مع الناس**» أي اتحاد الله مع البشرية الجديدة في المسيح .

ومن هنا أتت النبوءة القديمة «واجعل مقدسي في وسطهم إلى الأبد ، ويكون مسكني فوقهم ، وأكون لهم إلها ،ويكونون لي شعبا» « **حزقيال**» (26:37) والتي سمعها ، أيضا بعد ذلك يوحنا الرائي في رؤياه ، حين رأى مسكن الله الجديد والحقيقي مع الناس ، الذي هو جسد المسيح «**وسمعت صوتا عظيما من السماء قائلا هوذا مسكن الله مع الناس ، وهو سيسكن معهم ، وهم يكونون له شعبا ، والله نفسه يكون معهم إلها لهم**» (رؤيا 3:21) . وقد أعلن القديس يعقوب الرسول تحقيق النبوءة القديمة لعاموص النبي(11:9) في ذلك اليوم أ قيم خيمة داؤد الساقطة ، وأحصن شقوقها ، وأقيم ردمها وأبنيها كأيام الدهر «وذلك في مجمع الرسل بأورشليم ، حينما أعلن أنها تشير إلى كنيسة المسيح التي تجمع الأمم مع اليهود ليكون منها شعبه» (اعمال 15:13-18) . لكنه من المؤسف جدا أن يردد كل

الذين يكتبون ويعلمون عن أحداث الأيام الأخيرة مقولة بأن هناك نبوءات بإعادة بناء الهيكل المحكوم عليه بالاندثار إلى الأبد بأمر السيد المسيح الذي حكم عليه بأنه «**لن يقوم له حجر على حجر إلا وينقض**» ثم يتخذون من المحاولات الحديثة لليهود لبناء هيكلهم المندثر إلى الأبد «**عن عناد طبعا مع مشورة الله**» وكأن اليهود يحققون نبوءات الكتاب المقدس استعدادا للمجئ الثاني للمسيح .أما عن العناد ، فهو ممتد في تاريخ إسرائيل منذ زمان وزمانيين ، وقد كان السبب في هدم المعبد الثالث والأخير ـ والذي يهمنا أن نعرض له بصورة تفصيلية كما جاء في بعض المراجع ـ فقد قام اليهود بثورة ضد الحكومة الرومانية سنة 66 م فأرسل الإمبراطور الروماني نيرون (37-68م) حملة تأديبية بقيادة فيسباسيان FLAVIUS VESPASIANوابنه تيطس TITUSمساعده الحربي الرئيسي والأول ، حتى أنه بعد عودة الأب إلى روما وتسلمه مقاليد الحكم الإمبراطوري 69-79م بقى تيطس في الشرق إلى أن أنهى الحرب مع اليهود بالاستيلاء على أورشليم القدس وتدمير الهيكل سنة 70م .

ويتبين مما كتبه يوسيفوس المؤرخ اليهودي في كتابه «**حروب اليهود ـ الجزء السادس**» الفصلين الرابع والخامس «أنه لما استولى عساكر الرومان على المدينة أصدر تيطس أمره بأن يدمروا مدينة أورشليم ، وأن اليهود أنفسهم هم الذين أحرقوا أروقة الهيكل ، ثم قذف أحد جنود الرومان شعلة نار على الباب الذهبي للهيكل فاشتعلت فيه النيران والتهبت التهابا ، فأمر القائد الروماني تيطس بإطفائها ولكن بسبب شدة الاضطراب لم يلتفت أحد إلى أوامره ، ثم هجم العسكر الرومانيون على الهيكل ، ولم يثنهم عن ذلك وعد ولا وعيد ولا ضرب ولا تهديد ، وعلى الرغم من أن تيطس كان يرجو بقاء الهيكل ، وأرسل مرارا إلى يوسيفوس اليهودي يستعين به للتأثير على اليهود ، وإقناعهم بالتسليم والعدول عن اللدد والعناد لحفظ الهيكل ، لكن لم يأت كل ذلك بأي فائدة ، فاحترق الهيكل وتدمر عن آخره ، فقد كان الهيكل في نظر الرومان ليس مجرد معبد ديني ، لكنه كان لليهود قلعة وحصنا ، فلا سبيل لوقف عناد اليهود وتصلبهم في مقاومة الرومان إلا بتدمير الهيكل نفسه وهو مجد اليهود ورمز فخرهم وزهوهم

واستعلائهم على كل شعوب الأرض .وهكذا تم خراب الهيكل وتحققت نبوءة السيد المسيح (لن يترك فيه حجر على حجر لا يهدم) . وقد حاول اليهود بعد ذلك مرارا وتكرارا إعادة بناء الهيكل الذي تهدم ، فباءت كل محاولاتهم بالفشل . من ذلك على الخصوص هذه المحاولة في عهد الإمبراطور يوليانوس المرتد(*) JULIAN the APOSTATE والذي قرب اليهود إليه ، وخطط لإعادة بناء هيكلهم تكذيبا لنبوءة السيد المسيح ، وعهد بذلك إلى رجل يدعى البينوس ALBINUS وعينه حاكما على اليهودية وزوده بالأموال اللازمة لتحقيق هذا المشروع ، وأمره أن ينجز العمل في أسرع وقت ممكن ، ودعا أغنياء اليهود لمؤازرته ، فاجتمع منهم في أورشليم أعداد كبيرة ، وشرعوا يجرفون المكان ويحفرون الأرض ويقتلعون الأحجار من الأساسات القديمة حتى يضعوا الأساسات الجديدة ، وقد أخذوا ينقلون الأتربة والأحجار في المقاطف وأطراف أرديتهم في حماسة بالغة ، وعندما شرعوا في وضع الأساسات الجديدة ، بعد أن أزالوا بأيديهم جميع ما تبقى في الأساسات القديمة حدثت زلزلة عظيمة فامتلأ ما احتفروه بالتراب ، وتبددت أدوات البناء ومات كثير من العمال ، فلما أعادوا الكرة خرجت من الأرض كرات نارية رشقت وجوه العمال بالأحجار التي جمعوها ليضعوها في الأساسات الجديدة ، وحدث مثل هذا في كل مرة حاولوا فيها البناء ، وهكذا فشلوا فشلا ذريعا في إعادة بناء الهيكل ، بل إنهم بمحاولتهم تلك تمموا بأنفسهم نبوءة السيد المسيح التي يبدو أنها لم تكن قد تمت حرفيا إلا عندما أرادوا هم تكذيبها بأيديهم ، إذ بأيديهم رفعوا ما تبقى من الأحجار بعد أن دمر تيطس وجنوده الرومان الهيكل في سنة 70 ميلادية . وممن روى قصة هذا الفشل اليهودي في عهد الإمبراطور يوليانوس المرتد القديس غريغوريوس الثيؤلوجي والقديس يوحنا ذهبي الفم ، كما رواها المؤرخ اليهودي إميان .

ويقول أحد مؤرخي الكنيسة ويدعى سقراط : «**إنه في الليلة التالية لبدء اليهود عملهم ، حدث زلزال عظيم حطم الأحجار التي كانت لا تزال في**

(*) الكنيسة وقضايا الوطن والدولة والشرق الأوسط ـ الأنبا غريغوريس القاهرة 1975 .

الأساسات القديمة للهيكل الذي تدمر ، الأمر الذي روع له اليهود جدا ، فلما وصلت أنباء هذا الزلزال إلى اليهود المقيمين في الأماكن البعيدة ، هرعوا بأعداد كبيرة إلى مكان الهيكل ، حيث حدث الزلزال وشاء الله أن تحدث معجزة أخرى عظيمة ، فقد نزلت نار من السماء وأحرقت جميع أدوات البناء ، وظلت النار مشتعلة لمدة يوم كامل ، فأتلفت الفؤوس والأدوات الحديدية والمناشير والمطارق ، وبالإجمال دمرت النار مختلف الأدوات التي حصل عليها البناؤون لإنجاز العمل» . لم تعد هناك نبوءة تنتظر التحقيق بعد ، سوى نبوءة السيد المسيح بأن الهيكل اليهودي لن تقوم له قائمة إلى الأبد .

لكن على الجانب الآخر ، تجرى المحاولات على قدم وساق للعمل على إعادة بناء الهيكل ، والذي لابد وأن يتصادم مع وجود المسجد الأقصى ، ذلك لأنه حسب الادعاءات اليهودية ، قد بني فوق أساسات الهيكل الثاني ، وفي عملهم وادعاءاتهم يجدون كل الدعم من الأصوليين المسيحيين خاصة الأمريكيين ، الذين يؤمنون بأن نبوءات التوراة وكل العهد القديم تتطلب أن يقوم اليهود بتدمير المسجد الأقصى وبناء الهيكل اليهودي على الموقع الذي يشغله المسجد الآن ، ويعتبر اليهود الذين يهاجمونه ويريدون نسفه أبطالا عند كثيرين ، حتى من غير الأصوليين . وهؤلاء وأولئك قد ساعدوا بشكل أو بآخر على تأسيس **«مؤسسة هيكل أورشليم»** بغرض محدد هو مساعدة أولئك الذين ينتوون تدمير المسجد الأقصى وبناء الهيكل مكانه .

وفي تحقيقها السابق الإشارة إليه ، لم تشر مجلة التايم بطبيعة الحال إلى محاولات نسف المسجد الأقصى في الفترة من 1969 وقت الحريق الكبير حتى عام 1985 ، ولم تذكر أن من الخطط التي وضعت لنسف المسجد خطط عسكرية كاملة ، منها خطة وضعها الضابط الإسرائيلي **«مناحم ليفني»** أحد أعضاء كتلة المؤمنين ، وقائد كتيبة مهندسين في **«جيش الدفاع»** كما يلقبونه ، وفي الوقت نفسه قائد وحدة من وحدات الحركة الزيلوتية(حماة العقيدة) الإرهابية لمنظمة

غوش إيمونيم .فقد تمكن ليفني من الحصول على صور استطلاع جوي التقطت للموقع كله ، ثم جند أحد الطيارين العسكريين ، واتفق معه على قصف المسجد والموقع كله من الجو ، لكن السلطات العسكرية أوقفت التنفيذ ، لأن اشتراك أحد الطيارين العسكريين كان حريا بأن يكشف عن اشتراك حكومي في العملية ، وعندما أوقف التنفيذ ، وضع ليفني خطة بديلة لهجوم بري تقوم به وحدات مسلحة برشاشات العوزي المزودة بأجهزة كاتمة للصوت ، ومزودة بكميات من المتفجرات تكفي لنسف المسجد بشكل كامل ، طبقا للخطة التي روعي في وضعها ألا يتسبب نسف المسجد في أية أضرار لحائط المبكى أو لبيوت المستوطنين اليهود في الأحياء التي باتت تتحلق موقعه ، وقد تطلب ذلك بناء نموذج مصغر للمسجد وما حوله وإجراء تدريبات عسكرية على عملية النسف استغرقت شهورا بأكملها . وكما لم تشر المجلة إلى شئ من ذلك ، لم تشر أيضا إلى المستر «**يهودا اتزيون**» الفيلسوف الأيديولوجي للزيلوت الجدد أو إلى عظة جماعات «**مؤمني الهيكل**» بوجوب النهوض بواجبهم الديني وإزالة الحرم الشريف من الوجود ، لأنه مقام على أنقاض الهيكل الذي هدمه الرومان أو إلى نشاطه المتمثل في الإعداد العملي لبناء الهيكل الثالث ، وهو نشاط شمل الحصول على عدد من الدعامات الخشبية الضخمة التي يعتقد أنها استنقذت من أنقاض الهيكل سنة 70 ميلادية ، وخزنت انتظارا لاستخدامها تبركا لتكون بين دعامات الهيكل الجديد الذي يعرض المؤمنون نموذجه المصغر من الآن في إحدى قاعات فندق الأراضي المقدسة بالقدس ، والذي تعد رسومه الهندسية بنشاط بالغ . وفي السياق نفسه ، أشارت المجلة إلى أقوال عدد من الحاخامات الذين يؤكدون أنهم لن يستطيعوا مفارقة هذا العالم دون أن يؤمِّنوا لليهود الصلاة مجددا على تل الهيكل . وفي النهاية أشارت المجلة الأمريكية إلى قول المؤرخ اليهودي ديفيد سولومون «**إن كل يوم يمر على اليهود دون أن يبدأوا في بناء الهيكل يعتبر وصمة عار في جبين الأمة اليهودية**» . ومن هذا المنطلق كان العمل الجاري على قدم وساق لإقامة الهيكل

الذي قال عنه بن جوريون مؤسس دولة إسرائيل الحديثة «**لا معنى لوجود إسرائيل بدون القدس ، ولا معنى لوجود القدس بدون الهيكل**» . وقد كثرت الأقاويل في السنين الأخيرة حول أحجار الهيكل وطريقة بنائه وطقوس تقديم الذبائح فيه ، بل والذبيحة نفسها . أما ما يثير أشد المخاوف فهو الادعاء باكتشاف تابوت العهد(*) رمز حضور الله في وسط شعب إسرائيل في العهد القديم ، فبعد استيلاء إسرائيل على تل الهيكل عام 1967 ، قالوا إنهم اكتشفوا تحته وثائق تعلن عن طريقة قطع الأحجار الخاصة بالهيكل بطريقة دقيقة . ولقد تم فحص بعض الأحجار القديمة المستخرجة من أنقاض الهيكل القديم ، فوجدوا أن أكبر حجارة في الهيكل طولها 38 قدماً و9 بوصات وتزن 100 طن ، ووجدوا علامة صنع العمال الفينيقيين مازالت على هذه الأحجار . وقد تم قطع أحجار الهيكل الجديد تماما بنفس الحجم والمواصفات القديمة ، وهذه الأحجار مرقمة وهي تتجمع من خلال أربطة ، وقيل إنه تم تركيب الهيكل في ولاية إنديانا الأمريكية خلال خمسة أيام ، وبعد فكه تم شحنه بالفعل إلى أورشليم القدس .وفي عام 1970 أسس أحد الحاخامات اليهود مدرسة باسم Yeshiva Avodas Hakodish لتعليم ممارسات وطقوس تقديم الذبائح المقدسة في الهيكل ، وهي تقبل فقط الشباب من سبط لاوي والقادرين على أن يثبتوا انتسابهم إلى ذرية هارون أول كاهن يهودي ، وهؤلاء فقط هم الذين يقبلون في المدرسة ، ويتم تدريبهم على ممارسة طقوس الذبائح ، وقد تخرج إلى الآن حوالي 15 دفعة من هؤلاء الكهنة .

كما قيل إن الموسيقى اللازمة للعبادة في الهيكل قد أعيد صياغتها عام 1976 ، فقد نشرت جريدة جيروزاليم بوست في 3 فبراير من نفس العام ، مقالا تحت عنوان «**استعادة صوت الهيكل**» ، وأكدت الجريدة أن عالمة الموسيقى

(*) الأصل في هذه الرواية ما جاء في كتاب عودة السيد المسيح Christ Returns By Colin Deal P62 .New York 1988

الفرنسية سوزان هافك فينتورا ، قد أعلنت أنها حلت المشكلة المتعلقة بالعلامات الحركية المطبوعة في الكتاب المقدس العبري ، مؤكدة أن العلامات الحركية هذه مكنتها من وضع وصياغة الألحان والنغمات التي كانت مستخدمة في خدمة الهيكل في أورشليم منذ 2000 سنة مضت[*] .

أما عن تابوت العهد ، فهناك داخل إسرائيل من يقول : إن التابوت الذي كان رمزا لأمان وحماية الشعب وعلامة حضور الله في وسط شعبه ، قد وجد وأن وجوده لازم وحتمي لإتمام إعادة بناء الهيكل ، وإذا كان بن جوريون قد قال : إنه لا معنى للقدس دون الهيكل ، فإنه أيضا لا وجود للهيكل دون تابوت العهد ، والمعروف بحسب تاريخ الهياكل في العهد القديم ، أن تابوت العهد كان مختفيا منذ هيكل زروبابل .

وقد ذكر في سفر المكابيين الثاني (2:1-7) وهو أحد الأسفار غير القانونية ، أي المكتوبة خارج إسرائيل أيام السبي ، أن إرميا النبي قد خبأ تابوت العهد وأن مكان الإخفاء لن يعرف حتى يجمع الله اليهود . وفي هذا الإطار قالوا : إن الإمبراطور هيلاسلاسي الإمبراطور السابق لأثيوبيا والذي قيل إنه استطاع أن يثبت أن نسبه يرجع إلى الملك سليمان ، وكان معروفا عند شعبه «**كأسد يهوذا الغالب**» هذا الرجل قد صرح بإعلان خطير قبيل موته مباشرة ، أعلن أن تابوت العهد موجود بحوزته في كنيسة ما بالقرب من المدينة القديمة (إكسوم) في أثيوبيا .

وفي دائرة المعارف البريطانية تحت كلمة إكسوم نقرأ «إن هذه المدينة القديمة تحتوي على الكنيسة الأثرية والتي بحسب التقليد يوجد بها تابوت العهد الذي أحضر من إسرائيل من مدينة أورشليم بواسطة ابن الملك سليمان وملكة سبأ ومن المفترض أنه مازال مستقرا هناك» .

(*) في ديسمبر من عام 2004 أعلنت إسرائيل أن الرمانة العاجية وهي القطعة الأثرية الوحيدة الموجودة لديها من هيكل سليمان المزعوم مزورة وذكر بيان لمتحف إسرائيل أن التحاليل المختبرية والأبحاث الميدانية أكدت أن الرمانة العاجية التي لا يتجاوز حجمها أصبع الإبهام تعود إلى العصر البرونزي وهو ما يعني أنها أقدم كثيرا من تاريخ ما تزعم إسرائيل إنه أول هيكل يهودي .

وفي ضوء ما تقدم ، صار من الواضح للعيان أن إسرائيل وغلاة المتطرفين فيها لا يهزرون أو يضيعون الوقت ، بل هم في طريقهم لبناء الهيكل الجديد ، وليس من سبيل أمامهم لإزاحة المسجد الأقصى من طريقهم سوى احتمالين :

الأول : هو توقع حدوث زلزال في هضبة الجامع الأقصى ، وهذا التوقع مصدره أن هناك ضعفا شديدا في أساسات المسجد الأقصى ، بسبب أعمال الحفريات التي تقوم بها إسرائيل أسفل هضبة المسجد ، مما يجعل أقل هزة أرضية تؤدي إلى سقوطه مع الكنائس الأخرى المجاورة ، وقد أيد هذا الاحتمال أحد العلماء الأمريكيين من جامعة ستانفورد الذي أعلن عن اكتشاف شرخ في القشرة الأرضية تحت جبل الزيتون ، مما يمكن أن يسبب حدوث زلزال في وسط الجبل عن قريب .

أما الثاني : فهو قيام اليهود بهدم المسجد بطريق مباشر من خلال هجوم مباشر ، وهو السيناريو الذي تكرر مرات عديدة ولم تصل تلك المحاولات إلى المرحلة النهائية ، لكن إرهاصات الأيام الأخيرة تجعل من هذا السيناريو أمرا واردا وبشدة .

وإذا كان الحديث عن الأقصى ، فإننا لا يمكننا أن نغفل افتتاح رئيس الوزراء الإسرائيلي السابق بنيامين نتانياهو تحت هضبة المسجد الأقصى نفقا هو نفق البوراق ، مما أثار غضب العالمين العربي والإسلامي .

كان غرض نتانياهو الفعلي هو عمل استكشافات في مكان الهيكل القديم وهم يحفرون هذا النفق ، وقد أشارت بعض مصادر الأثريين اليهود ، إلى أنه في أيام حكومة رئيس الوزراء إسحق رابين ، كانوا قد اكتشفوا بجوار المجمع اليهودي وحائط المبكى والنفق «**قدس الأقداس**» ، الأمر الذي جعل اليهود يفرحون ويهللون وقضوا ليلة في الدموع والصلوات ، ثم في اليوم التالي ذهبوا إلى إسحق رابين وقالوا له وجدنا كل شئ ، وأن هذا هو مكان الهيكل فأعطنا أمرا بأن نهدم المسجد الأقصى ، وفي شهور قليلة والحجارة جاهزة سنبني الهيكل .

إلا أن إسحق رابين بعد حسابه لأبعاد المشكلة، أرسل قوات الأمن لطرد المتعصبين والمتطرفين من اليهود، وقاموا بعمل حائط خراساني على المدخل الذي اكتشفوه للهيكل، وهذا الحائط بعرض متر حتى لا يستطيع أحد أن يقوم بفتحه مرة أخرى ووضع عليه حراسا .

وقد استتبع افتتاح النفق تصريحات للرئيس الإسرائيلي السابق عزرا وايزمان قال فيها : «**لماذا كل هذا الغضب لإنشاء النفق، فنحن بصدد إقامة المعبد ـ الهيكل ـ اليهودي تحت هضبة المسجد الأقصى**» . والأمر الذي يعزز هذا القول ويؤكده هو أن جميع الحفريات حسب تصريحات وايزمان قد أثبتت أن المكان الأصلي للهيكل القديم هو أسفل هضبة الهيكل .

وأضاف أنهم اكتشفوا أن المدخل الرئيسي والأعمدة الرئيسية للهيكل وقدس الأقداس كلها موجودة أسفل الهضبة، وهذا دليل قاطع على أن مكان الهيكل الأصلي هو أسفل الهضبة وليس فوقها، حيث يوجد المسجد الأقصى، ولأن الشريعة تؤكد أن الهيكل يتحتم أن يبنى في مكانه الأصلي بالضبط، فهذا تأكيد آخر أنه لابد أن يبنى أسفل الهضبة .

وليس بعد تأكيدات الرئيس الإسرائيلي ورؤساء الوزارات بدءا من أيام بن جوريون إلى اليوم، من دليل على أن إسرائيل ماضية في غيها، ومصممة على بناء الهيكل وفقا لإرادتها هي، وليس تحقيقا لأي وعد أو إرادة إلهية .

ومهما يكن من أمر الإعدادات والتجهيزات، حتى ولو كانت مدعومة بكل ما أوتي اليمين الأصولي من قوة ونفوذ ومصادر دعم مادي، فإن إسرائيل التي تعيش زمان الفرع اليابس تحاول من تلقاء ذاتها إعادة رسم دور لها على خريطة العلاقات الإلهية البشرية، لكنه دور قد انتهى، ومخطط قد فرغ، وكل زعمهم هو باطل من أرض الموعد، وصولا إلى الهيكل الجديد وهي ادعاءات من قبيل ادعاء الابن المطرود من بيت أبيه، وقد فقد شرعيا كل حقوقه بعد أن جرده أبوه نهائيا .

لقد حمَّلهم السيد المسيح دم الأبرياء الذين قتلوهم من دم هابيل الصديق إلى دم زكريا بن براشيا الذي قتلوه بين الهيكل والمذبح .

لقد ضاع هيكل اليهود واندثرت آثاره كل آثاره مهما قالوا عن اكتشافات ، حتى إن أعظم عظماء المهندسين والمنقبين لم يستطيعوا أن يستردوا أي شكل من أشكاله ، إلا ما وجد من أوصافه المدونة في العهد القديم ، ولم يكن هذا مصادفة ، بل عن قصد إلهي محكم ومبيت ، حتى لا يكون لبيت الله شكل محدد يستعبد له الإنسان .

هكذا قال السيد المسيح إنه «**لا يبقى فيه حجر على حجر**» ، لذا فإنه من العبث الحديث عن هيكل جديد والأمر برمته حرث في الماء .

الملحق الرابع

مصر بين فكر اليمينيين الأمريكيين وأحقاد الإسرائيليين

- العداء اليهودي الأبدي لمصر... لماذا؟
- ماذا يريد اليهود من مصر حتى الآن رغم السلام؟ استراتيجية الثأر
- اليمين الأمريكي وقصة أول سفير يهودي لمصر من 200 عام
- حتمية الصراع بين مصر وإسرائيل رغم معاهدة السلام
- دور اليمين الأصولي في أمريكا في الرجوع للتنبوءات الكتابية ضد مصر

الملحق الرابع

مصر بين فكر اليمينيين وأحقاد الإسرائيليين

لا يمكن بحال من الأحوال، أن نتناول قصة الأصولية الأمريكية ذات الجذور اليهودية الضاربة في الأعماق، دون أن نتعرض إلى موقع وموضع مصر في ذلك الفكر، ذلك لأنها كانت على الدوام حاضرة سواء في الكتابات التوراتية التي انعكست على سياسات رؤساء أمريكا الواحد تلو الآخر، أو في صراعها مع إسرائيل عبر أكثر من خمسين سنة، وهو صراع ليس على الحدود، بل هو صراع على الوجود، فالشعب العبراني لا يستطيع أن يمحو من ذاكرته الجمعية أن مصر بالنسبة له تمثل أرض العبودية والشقاء والعذاب والاضطهاد، وأنها هي بذاتها تدخل في دائرة الوعد التاريخي للشعب المختار «**من الفرات إلى النيل**» لذا كانت دائما هي حجر العثرة الأول لبني إسرائيل في التاريخ القديم والحديث.

وهنا يذكر التاريخ الرئاسي الأمريكي اسم الرئيس الأمريكي جيمس إبراهام جارفيلد المنتخب والمتوفى عام 1881، ذلك لأنه اغتيل في نفس عام انتخابه، لكنه قبل ذلك كان قد عين المستر «**سيمون وولف**» قنصلا عاما للولايات المتحدة بمصر، وفي قرار تعيينه يقول بالنص «**إنه يشعر بسعادة غامرة لكونه عين سليل الشعب الذي استعبد في مصر قديما مبعوثا دبلوماسيا إلى ذلك البلد من الأمة الأمريكية الحرة العظيمة**».

ومعنى أن يصدر هذا التصريح المبكر جدا من الرئاسة الأمريكية، هو أن الجذور التوراتية كانت تضع مصر في منزلة العدو الذي استعبد شعب الله، لذا فإن كتابات أنبياء بني إسرائيل لم تقصر في رجم مصر بأثقل الأحجار من كلمات

وردت في نبوءات أشعياء النبي وسفر حزقيال ، وأشارت إليها في سفر الرؤيا نتناول بعضها كي نوضح إلى أي حد يبلغ العداء لمصر من جهة الفكر التوراتي مبعث اليمين المسيحي الأصولي في الولايات المتحدة الأمريكية ، ويضرب صفحا عن أية مواقع ذكرت مصر بصورة إيجابية .

نقرأ في الفصل التاسع عشر من نبوءات أشعياء بن أموص تحت عنوان **«وحي من جهة مصر»** ما نصه(*) :

«هوذا الرب راكب على سحابة سريعة وقادم إلى مصر ، فترتجف أوثان مصر من وجهه ، ويذوب قلب مصر في داخلها ، وأهيج مصريين على مصريين فيحارب كل واحد أخاه ، وكل واحد صاحبه ، مدينة مدينة ومملكة مملكة ، وتراق روح مصر داخلها ، وأفني مشورتها ، فيسألون الأوثان والعارفين وأصحاب التوابع والعرافين وأغلق على المصريين في يد مولى قاس فيتسلط عليهم ملك عزيز يقول السيد رب الجنود ، وتنشف المياه من البحر ، ويجف النهر وييبس وتنتن الأنهار وتضعف وتجف سواقي مصر ، ويتلف القصب والأسل والرياض على النيل على حافة النيل ، وكل مزرعة على النيل تتيبس وتتبدد ، ولا تكون والصيادون يئنون وكل الذين يلقون شصا في النيل ينوحون ، والذين يبسطون شبكة على وجه المياه يحزنون ، ويخزى الذين يعملون الكتان الممشط والذين يحيكون الأنسجة البيضاء ، وتكون عمدها مسحوقة وكل العاملين بالأجرة مكتئبي النفس . إن رؤساء صوعن أغبياء حكماء مشيري فرعون مشورتهم بهيمية ، كيف تقولون لفرعون أنا ابن حكماء ابن ملوك قدماء ، فأين هم حكماؤك فيخبرونك ليعرفوا ماذا قضى به رب الجنود على مصر ، ورؤساء صوعن صاروا أغبياء ، رؤساء نوف انخدعوا وأضل مصر وجوه أسباطها مزج الرب في وسطها روح غي فأضلوا مصر في كل عملها كترنح السكران في قيئه ، فلا يكون لمصر عمل يعمله رأس أو ذنب نخلة أو أسلة في ذلك اليوم تكون مصر

(*) الكتاب المقدس ـ مطبعة الآباء اليسوعيين ـ بيروت 1960 .

كالنساء فترتعد وترتجف من هزة يد رب الجنود التي يهزها عليها وتكون أرض يهوذا رعبا لمصر ، كل من تذكرها يرتعب من أمام قضاء رب الجنود الذي يقضي به عليها» .

هذه بعض السطور من نبوءات المتنبئين أو النبيين جهة مصر ، وكما يرى القارئ ، فإن كم الأحقاد التاريخية تجاه مصر غير طبيعي ، لكن الأدهى والأخطر هو الحديث عن أرض يهوذا (إسرائيل) التي ستكون بمثابة الرعب لمصر ، لا في القديم فقط بل عبر التاريخ ، ذلك لأن «من يتذكر» والتذكر عملية مستمرة حتى من خلال قراءة أوراق الأولين ، يدرك أن يهوذا كانت بمثابة قضاء رب الجنود على مصر(*) .

ويذهب أصحاب اليمين المسيحي في هذا النحو إلى أنه في ذلك اليوم ـ وهو يوم رمزي وليس حصرياً ـ يهز رب الجنود _لاحظ المسمى العسكري للألوهية_ يده عليها فتسري في أوصالها رجفات الخوف والجزع ، وتنخلع قلوب رجالها انخلاع قلوب النساء على فلذات أكبادهن ، وتكون أرض يهوذا رعبا لها باعتبار كونها المكان الذي تصدر عنه هذه النبوءات التي لها مصداقيتها واحترامها ، ويضيف اليمينيون في فهمهم للوحي من جهة مصر ، أن الخوف في حد ذاته ضربة قد تكون قاتلة إذا سرى في أمة أصابها بالشلل وأربكها ، فتتخبط وتصبح كمركب بغير دفة أو شراع في بحر غاضب مزبد ، ويصلون إلى نتيجة مؤداها أنه مسكين شعب مصر . ترى هل سيعي الدرس؟ هل سيفطن لكلمات النبي المفتوح العينين ، ورجل الدولة الأريب الذي يلم بأطراف السياسة ويعرف مقومات الحكم الصالح ، وأسس القيادة الرشيدة ، ويفهم أصول الحكم الوطنية الحقة والمواطنة الصالحة؟

ألا يلاحظ القارئ هنا قدر الشبه بين الرائي في العهد القديم والصورة التي قدم بها الرئيس بوش نفسه على أنه مبعوث العناية الإلهية؟

(*) كثيرا ما حاول أصحاب الفكر المسيحي المخترق ، استخدام تلك الإصحاحات إبان الصراع المصري الإسرائيلي لكسب تاييد اليمين الأصولي المؤمن بحرفية الكلمة أو تحييده إن لم يكن بالإمكان اكتسابه إلى صفوفهم .

ومن أشعياء بن آموص ، ننتقل إلى حزقيال بن بوزي المولود حوالي سنة 623 ق .م ، والذي يتنبأ على مصر في الإصحاح الثلاثين من سفره فيقول كلمات تقطر بالرعب والدمار والهلاك ويبدأها بذكر الآتي :

«**وأوحى اليَّ الرب بكلمته قائلا يا ابن آدم تنبأ وقل هذا ما يعلنه السيد الرب**» وولوا قائلين يا لليوم الرهيب إن يوم الرب بات وشيكا ، يوم الرب قريب ، إنه يوم مكفهر بالغيوم ساعة دينونة للأمم ، إذ يجرد سيف على مصر فيعم الذعر الشديد إثيوبيا عندما يتهاوى قتلى مصر ، ويستولى على ثروتها وتنقض أسسها ثم تسقط معهم بالسيف إثيوبيا ، فوط ولود وشبه الجزيرة العربية وشعوب الأرض المتحالفة معهم . حقا يسقط مناصر مصر ، وتذل كبرياء عزتها ، فيتهاوى بالسيف سكانها من مجدل إلى أسوان . يقول السيد الرب فتصبح مدنها أكثر المدن خرابا ، فيدركون أني أنا الرب حين اضرم نارا في مصر ، وينهار جميع حلفائها ، في ذلك اليوم يسرع رسلي إلى إثيوبيا المطمئنة ليثيروا فيها الرعب في يوم هلاك مصر ، الذي لابد أن يتحقق لأني سأفني جماهير مصر بيد نبوخذ ناصر ملك بابل ، إذ يقبل هو وجيشه أعتى جيوش الأمم لخراب ديار مصر ، فيجردون عليها سيوفهم ، ويملأون أرضها بالقتلى ، وأجفف مجاري نهر النيل ، وأبيع الأرض لقوم أشرار وأخرب البلاد فيها بيد غرباء أنا الرب قضيت» .

ويمضي في هذه التصورات الدموية الكارهة لمصر والمصريين فيقول :

«ثم أحطم الأصنام وأزيل الوثان من ممفيس ، ولا يبقى بعد رئيس في ديار مصر ، وألقي فيها الرعب ، وأضرب فتروس وأضرم نارا في صوعن ، وأنفذ أحكاما في طيبة ، وأصب غضبي على سين حصن مصر ، وأبيد أهل طيبة وأضرم نارا في مصر ، فتقاسي سين أشد الألم وتتمزق طيبة شر تمزيق ، وتتعرض ممفيس للرعب في كل يوم ، ويتساقط بالسيف شبان آون وفيبسته ويسبى بقية سكانها ، ويظلم النهار في تحفنحيس عندما أحطم أنيار مصر هناك ، وتتلاشى كبرياء عزتها أما هي(أي مصر) فتغشاها سحابة وتسبى بناتها ، وهكذا أنفذ أحكاما في مصر ، فيدركون أني أنا الرب» .

والواقع أن كثيرين من مفسري الكتاب المقدس والعهد القديم ، قد حاولوا تفسير النبوءات السابقة على أنها لا تخص مصر بمفردها ، ذلك لأن الرب حينما طلب من حزقيال النبي التنبؤ ضد فرعون مصر ، لم يوجه الدعوة إلى فرعون . إن يولول ولا إلى كل شعب مصر ، إنما وجهها دعوة عامة إلى العالم الوثني كله ، بكون فرعون مصر يمثله في ذلك الحين ، وفي هذا يقول اللاهوتي والعلامة الإسكندري أوريجانوس أن بعض أسماء الشعوب أو الملوك التي نقرأ عنها في الكتاب المقدس تخص بلاشك الملائكة الأشرار أو السلاطين المضادة مثل فرعون ملك مصر ، ونبوخذ نصر ملك بابل وآشور ، أي أن المعنى رمزي أكثر منه حصري .

لكن مع وجود جماعات التفسير الحرفي في موقع القيادة والسيادة داخل الولايات المتحدة ، من خلال جماعات اليمين المسيحي ، تصبح النبوءات هنا حرفية ، وإذا كانت من أحاديث الماضي فإنها تلقى لديهم ظلالا على المستقبل الممتد الذي يرى في مصر عدو رب الجنود ، والذي حطمها قديما ولابد لأنصار الرب من الإيمان بامتداد الرؤية في الحاضر ، كما كانت في المستقبل ، ذلك لأن الفرعون الرمز لحاكم مصر هو ذاته الذي يقول عنه حزقيال في بقية الإصحاح ما نصه :

«أوحى إليَّ الرب بكلمته قائلا يا ابن آدم إني حطمت ذراع فرعون ملك مصر ، ولن تجبر بالرفائد أو العصائب ، فتجرد سيفا وها أنا انقلب على فرعون ملك مصر ، وأحطم ذراعيه السليمة والمكسورة ، وأسقط السيف من يده ، وأشتت المصريين بين الأمم وأفرقهم في البلدان ، وأشدد ذراعي ملك بابل ، وأضع سيفي في يده ، وأحطم ذراع فرعون فيئن أمامه أنين الجريح وأشدد ذراعي ملك بابل ، أما ذراعا فرعون فتتهاويان فيدركون أني أنا الرب حين أضع سيفي في يد ملك بابل فيجرده على ديار مصر ، وأبدد المصريين بين الأمم وأفرقهم في البلدان فيدركون أني أنا الرب» .

هذه هي إذن مكنونات قلب بيت إسرائيل تجاه شعب مصر من خلال

استعداء رب الجنود على المصريين ، حتى يصيروا مشتتين في أرجاء العالم ، ولا أدري كيف انقلبت الآية وصار الشتات مصير بني إسرائيل عبر آلاف السنين ولم يدركوا الرب بعد؟

وما بين كتابات أشعياء بن آموص وحزقيال بن بوزي الكثير من الكتابات التي تناول فيها أنبياء بني إسرائيل مصر بأبشع قدر ممكن من التشويه ، لكن تظل العقدة الرئيسية والحبكة الدرامية - إن جاز التعبير - في العداء الدفين داخل الشخصية الإسرائيلية تجاه مصر والمصريين منشأها أنها النقطة السوداء الأولى في تاريخهم إنها أرض العبودية ، وهو ما نجده يتجلى بوضوح في سفر الخروج الإصحاح الأول(*) .

يقول الكاتب «إن هذه هي أسماء أبناء إسرئيل الذين قدموا مع يعقوب إلى مصر ، كل واحد منهم مع أهل بيته راوبين وشمعون ولاوي ويهوذا ويساكر وزبولون وبنيامين ودان ونفتالي وجاد وآشير وكانت جملة النفوس المولودين من صلب يعقوب سبعين نفسا ، أما يوسف فقد كان في مصر ثم مات يوسف وأخوته جميعا وكذلك سائر ذلك الجيل ونما بنو إسرائيل وتوالدوا وتكاثروا وعظموا جدا حتى اكتظت بهم الأرض» .

«وما لبث أن قام ملك جديد على مصر لم يكن يعرف يوسف ، فقال لشعبه ها بنو إسرائيل أكثر منا وأعظم قوة فلنتآمر عليهم لكيلا يتكاثروا وينضموا إلى أعدائنا إذا نشب قتال ويحاربونا ثم يخرجوا من الأرض فعهدوا بهم إلى مشرفين عتاة ليسخروهم بالأعمال الشاقة ، فبنوا مدينتي فيثوم ورعمسيس لتكونا مخازن لفرعون ، ولكن كلما زادوا من إذلالهم ازداد تكاثرهم ونموهم ، فتخوفوا من بني إسرائيل ، فتفاقم عنف استعباد المصريين لبني إسرائيل وأتعسوا حياتهم بالأعمال الشاقة في الطين واللبن كادحين في الحقول ، وسخرهم المصريون بعنف في كل اعمالهم الشاقة» .

(*) رغم الاحترام الشديد لما ورد في الكتب المقدسة لماذا لم يفكر أحد في طرح أن مصر كانت الملاذ الوحيد لبني إسرائيل من الهلاك جوعا بدلا من التفكير في أنها كانت أرض العبودية ؟

«ومن ذلك الوقت ، بدأت الأحقاد اليهودية تجاه الدولة المصرية تتأصل ، حتى إن قصة خروج العبرانيين من مصر التي تستعرضها التوراة في سفر الخروج في الإصحاح الثاني عشر من السفر ذاته ، تفيض حنقا وغضبا وكراهية وحقدا على الشعب المصري ، وما قصة الضربات الانتقامية إلا صورة من صور التنكيل التي قالوا بأنهم استمطروها من السماء على المصريين ، وقد كانت فكرة الضربات الانتقامية هي الباعث الأول لجماعة المحافظين الجدد ، وفكرهم العسكري لما عرف فيما بعد بالضربات الاستباقية التي تحمل تقريبا نفس المسمى وذات الروح وعين المنهج الانتقامي من الأعداء .وفي الفكر اليهودي أن الرب من خلال الضربات ضد المصريين كان يكرس فكرة **«الشعب المختار»** من جهة ، ويعزز **«قدرته على الانتقام من الأعداء»** من جهة أخرى ، وهو الأمر الذي ينكره وبشدة عالم النفس الأشهر اليهودي سيجموند فرويد في كتابه **«اليهودية - موسى والتوحيد»** فيقول إن ادعاءات اليهود بالتمايز والقداسة إنما ضرب من ضروب الخرافة ، ذلك لأنها حالة لا نظير لها على الإطلاق في تاريخ العقائد الدينية ، فلم يحدث قط أن اختار الله عابديه(*) .

والحاصل أن بني إسرائيل الذين فرحوا أعظم فرح بالضربات العشر ، كانوا يعبرون في أبشع صورة عن نكران الجميل على إقامتهم نحو خمسة قرون نعموا فيها بخيرات مصر ، وأقوالهم لاحقا تؤكد أن قصة إذلالهم وعبوديتهم مشكوك فيها ، ذلك لأنهم في مسيرتهم في صحراء سيناء عبر أكثر من أربعين سنة ندموا على تركهم للخيرات في أرض مصر عندما عانوا الأهوال والجوع والتشرد والتيه وهو ما قالوه لموسى« لماذا أتيت بنا إلى هنا ؟ كان خير لنا أن نخدم المصريين من أن نموت في البرية » .

وفي موضع آخر يقولون «ليتنا متنا بيد الرب في أرض مصر ، حيث كنا

(*) وهنا تتجلى المكاسب الحقيقية لحرب السادس من أكتوبر من عام 1973 فبالإضافة إلى أنها كسرت أسطورة إسرائيل التي لاتهزم عسكريا ، خلخلت أيضا وهزت يقينا ثابتا لايتزعزع بأن إسرائيل مكفولة إلهيا بالانتصار على أي من أعدائها إلى الأبد .

نجلس عند قدور اللحم ونأكل من الطعام ، لقد شبعنا فلِمَ أخرجتمانا إلى هذه البرية؟

لتقتلا هذا الجمهور كله بالجوع؟»

والحديث هنا موجه إلى موسى وأخيه هارون .

ولكي يكتمل المشهد المؤامراتي ضد المصريين ، فإنهم عمدوا إلى سرقتهم ليلة رحيلهم من أرض مصر ، ونسبوا السرقة إلى الله وحاشا لله هذا ، إذ يقول سفر الخروج في الإصحاح الثاني عشر « . . . **وصنع بني إسرائيل - كما أمر موسى - فطلبوا من المصريين أمتعة فضة وأمتعة ذهب وثيابا وأتى الرب الشعب حظوة في عيون المصريين فأعاروهما لهم وسلبوا المصريين**» .

ومما لاشك فيه ، أن قضية مصر والمصريين في الفكر الإسرائيلي سواء القديم أو المعاصر ، في حاجة إلى أبحاث ومؤلفات بمفردها ، وما هذه السطور إلا قبس من شعاع أردنا من خلاله أن نوضح كيف أضفى اليهود على تطلعاتهم وشهوات قلوبهم غير المشروعة «**قدسية إلهية**» تستر ما يخفونه من تآمر وحقد دفين ضد الشعب المصري ، خاصة وشعوب العالم عامة ، ولا يزال الفكر الصهيوني المغرق في عدائه للتاريخ وتسخيره لخدمة الأهداف الصهيونية مازال يعمل على بث مفاهيم وادعاءات زائفة باستخراج نصوص توراتية يبرر بها جرائمه والتوظيف السياسي للتاريخ والألوهية عند بني إسرائيل قاعدة ثابتة في الفكر الإسرائيلي المعاصر ولمصر دائما النصيب الأكبر من هذا الزيف وتلك الكراهية .

وفي هذا المقام ، نذكّر بما قاله الكاتب الإسرائيلي «آشير جنزبرج» من أنه «**سيسود شعبنا كل الشعوب الأخرى ، لأن إسرائيل هي الأمة العليا التي تملك القدرة على التوسع ، وعلى أن تصبح سيدة العالم ، وما خلقت الأمم الأخرى إلا لتخدم هذه النخبة المختارة**»(*) .

(*) ومن هنا يأتي التمايز بين الشعب المختار على حد زعمهم وبين الجوييم أو الأغيار أي كل من ولد من أم غير يهودية فهؤلاء قد خلقوا بعد أن هيأ الله لليهود السيادة والريادة وما هؤلاء إلا الخدم والخدام .

أما الفيلسوف «هربرت شيفي» فلا يكتفي بهذا الفكر المتواضع من وجهة نظره ، فيذهب إلى القول بأن «**إسرائيل هي الخالق الثاني للعالم ، إلا أن الإسرائيليين يعملون بصورة جوهرية وبسرعة أكبر من سرعة الإله عند الخلق الأول للعالم**» إلى هذا الحد يعتقد اليهود أن قدرتهم تفوق قدرة الله ، فكيف لا يسكنهم فكر التفوق على المصريين ، الكبوة الأولى لهم في تاريخهم القديم؟ .

وإذا كانت إسرائيل قد تخلصت في عام 2003 ولو على نحو نسبي من نظام آخر ، كان يذكرها بكبوتها الثانية ، ونعني بذلك تخلصها من النظام العراقي ، وعلى رأسه صدام حسين ، الذي أعاد إلى أذهانها ذكريات السبي البابلي وانكسار روح إسرائيل داخلها حتى الساعة ، من جراء هذا الفكر الانهزامي الذي دام مئات الأعوام ، فلماذا نستبعد أن يكون قلب إسرائيل حتى الساعة ، يحمل ذات الضغائن لمصر والمصريين ، رغم معاهدة السلام القائمة بين الجانبين؟

وإذا كانت إسرائيل تؤمن بالسلام المؤبد ، فلماذا لا تزال اللوحة الجدارية «**حدودك يا إسرائيل من الفرات إلى النيل**» ، مرتفعة ليس فقط على رأس منصة الكنيست الإسرائيلي ، بل في عقول وقلوب بني إسرائيل خاصة التيارات اليمينية المتشددة منهم ، التي تجد صدى كبيرا وتأيدا واسعا لما تؤمن به إيمانا مقدسا يقينيا لا يهتز داخل الولايات المتحدة الأمريكية من خلال جماعات اليمين المسيحي المتطرف؟

ولعل أصدق تعبير عن دور ذلك اليمين في تحول السياسة الأمريكية لمزيد من الانحياز لإسرائيل ، هو ما جاء على لسان رئيس الوزراء الإسرائيلي السابق بنيامين نتانياهو حين قال «**ليس لدينا أصدقاء أو حلفاء أعظم من اليمينيين المسيحيين الأمريكيين**» .

وبانتقالنا من ناحية الكتابات النبوية إلى جهة المواقف السياسية لكل من إسرائيل وجماعات المحافظين الجدد ، وكشف نوايا قلوبهم جهة مصر ، فإن المكان أيضا لا يتسع لذلك ، لكن بحال من الأحوال ، لا يمكننا أن نغفل تصريحات رئيس وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية CIA السابق جيمس وولسي التي قالها

صراحة خلال مناظرة كبيرة نظمها اتحاد الطلبة في جامعة أكسفورد البريطانية منذ بضع سنوات ، حين هاجم الحكومات العربية قائلا «**ما أن ننتهي من الصدّاميين حتى ننتقل إلى المباركيين**» في إشارة إلى مصر ، ومن ثم إلى السعودية ، وذات الكلام صاغه بطريقة أخرى هي أن العراق هو الهدف التكتيكي ، **بينما السعودية هي الهدف الاستراتيجي ، فيما مصر تبقى دائما الجائزة الكبرى** .

ولا نذيع سرا عندما نشير إلى أن العلاقة المميزة بين الائتلاف اليميني الحاكم في الدولة العبرية والمحافظين الجدد الذين يضطلعون بدور كبير في صنع القرار الأمريكي ، سيما بعد احتلال العراق ، هي حجر الأساس في المخطط الإسرائيلي في توثيق العلاقة بينهما وبين جماعات خارجة عن الأوطان وتعمل في الخارج خاصة في الولايات المتحدة لشحذ همم هؤلاء ضد مصر ، وليس سرا أيضا أن لقاءات كثيرة تتم بين أعضاء من الكونجرس وممثلين عن تلك الجماعات بهدف استخدامهم كمخلب قط من أجل إضعاف صورة مصر أمام الرأي العام الأمريكي وإظهارها في صورة المضطهد للآخرين دينيا من جهة وأيديولوجيا من جهة ثانية ، ولم يكن هدف تلك الجماعات بعيدا عن العمل المستمر من أجل إضعاف العلاقات بين الولايات المتحدة ومصر والتأثير سلبا عليها بقدر ما يمكن .

وفي هذا يقول وزير الخارجية الإسرائيلي سيلفان شالوم : إنه يتوجب استثمار ذلك إلى أبعد حد ، أما ذلك الذي لم يفصله شالوم فهو علاقة تلك الجماعات الخارجة بجماعات الضغط الإسرائيلية في واشنطن ونيويورك ، لتحقيق أهداف إسرائيل من خلالهم .

أما الوزير الإسرائيلي «**عوزي لاندوا**» المسؤول عن التنسيق بين الأجهزة الاستخبارية الإسرائيلية والذي شغل في الحكومة السابقة في إسرائيل منصب وزير الأمن الداخلي ، فقد اعتبر أن على إسرائيل توثيق علاقاتها مع أي طرف عربي أو إسلامي بإمكانه أن يؤثر سلبا على تماسك الأنظمة المعادية لإسرائيل ، وإذا قلنا إن الرجل يبحث عن مصلحة بلاده بالأسلوب الذي اعتادت إسرائيل عليه ، فماذا عن مصر البلد الذي يرتبط معها بمعاهدة سلام؟

وهنا أحسب أن النوايا تتبدى بشكل أو بآخر من خلال تصريحات غير مغلفة بأي شكل من أشكال الدبلوماسية ، وبخاصة تلك الصادرة عن «**افيجدور ليبرمان**» وزير البنية التحتية الإسرائيلي الذي يرى أن «**العداء المصري لإسرائيل فاق كل تصور**» هذا في الوقت الذي لا تقوم فيه مصر إلا بكل جهد ممكن لإعادة الطرفين الإسرائيلي والفلسطيني إلى المسار السلمي لعملية السلام .

ويضيف ليبرمان «**إنه لم يعد هناك مبرر للتعامل مع هذا العداء بأسلوب تقليدي منضبط . . . فالمصريون يبصقون في وجوهنا ونحن نقول إن هذا مطر**» على حد وصفه .

وليبرمان نفسه هو الذي دعا من قبل إسرائيل إلى **قصف السد العالي** في مصر ، ولوح بالحرب ردا على تأييد مصر لقضايا الفلسطينيين العادلة .

وإذا كانت الذاكرة العربية الجمعية تتذكر خبرة أليمة ترجع إلى عام 1967 ، ونعني بها سحب قوات الطوارئ الدولية من منطقة مضايق تيران في خليج العقبة ، فإن الحديث الذي جرى منذ فترة عن سحب القوات الدولية المرابطة في سيناء ، يشير بشكل ما إلى النوايا الإسرائيلية التي تتكشف يوما بعد آخر ، وبحال لا تكون الأيدي الأمريكية الفاعلة بعيدا عن التأثير ، ذلك لأنها صاحبة القرار الأكبر ، وكانت القصة قد بدأت من الجانب الأمريكي ، حينما فكرت إدارة الرئيس بوش في سحب القوات التي تسهم بها في القوة الدولية لمراقبة تنفيذ اتفاق السلام المصري الإسرائيلي التي تتمركز في وسط شبه جزيرة سيناء .

وإذا كانت مصادر الحكومة الأمريكية ترى أن مثل هذا الإجراء ، يتم دوريا ، ومن ثم فإنه من المنطقي أن يحدث مع قدوم إدارة جديدة إلى البيت الأبيض ، إلا أن بحثه في هذه الظروف التي تحتد فيها درجة التوتر في منطقة الشرق الأوسط بسبب القمع الصهيوني لانتفاضة الأقصى الفلسطينية ، يثير تساؤلات عديدة حول ما إذا كان ذلك مرتبطا بمخططات أخرى مشبوهة ، من بينها التمهيد لمواجهة مصرية إسرائيلية جديدة ، ربما تكون حكومة أرييل شارون تدبر لها .

وهنا نتساءل : هل يشير التلويح بسحب القوات الأمريكية في هذا التوقيت بالذات ، إلى أن واشنطن في الوقت الذي يتصاعد فيه التوتر ، تحاول التخلص من مسؤولياتها تجاه عملية السلام في الشرق الأوسط ، وتفسح الطريق أمام إسرائيل لاقتراف اعتداءات إضافية؟

هل تستخدم الولايات المتحدة التلويح بسحب قوات حفظ السلام ، كتحذير لمصر بسبب مواقفها السياسية المؤيدة للحق الفلسطيني ؟

والواقع هو أن مصر ترغب دائما في الإبقاء على مواقفها السياسية المؤيدة والداعمة للشعب الفلسطيني ، لا تتطلع إلى حد التصعيد والمواجهة العسكرية المباشرة مع إسرائيل ، لأنها تؤمن بجدوى السلام ، وتعلم مرارة الحرب ، في حين أن إسرائيل هي التي تهدد على الدوام بالتصعيد ، سواء من خلال تصريحات افيجدور ليبرمان أو رحبعام زئيفي «**وكلاهما وزراء من أقصى اليمين**» المتعلقة بالسد العالي أو ما نقل عن شارون نفسه بشأن أفكار سوداء تراوده عن سيناء مرة أخرى .

وإذا كانت مصر قد رفضت فكرة انسحاب القوات الأمريكية المشاركة في سيناء ، فإن الرفض هنا مبرره إقفال الباب أمام إسرائيل التي تريد خلق مبررات للتصعيد مع مصر ، لتحويل الأنظار عن الصعوبات التي تعانيها في مواجهة انتفاضة الأقصى ، إلا أن النوايا الإسرائيلية في رفضها أيضا لسحب القوات الأمريكية وكما أخبر شارون وزير الدفاع الأمريكي دونالد رامسفيلد تكشف عما هو كائن في مكنونات نفسه تجاه مصر ، وهو أن الرفض سببه عدم إفساح المجال أمام مصر لتعزيز وجودها العسكري في سيناء .

ولا يحتاج الأمر إلى كثير من الفطنة ليفهم القارئ أن إسرائيل تحاول استعمال مبررات مختلقة لتصعيد الموقف ، بينما تريد مصر تهدئة الأوضاع على حدودها من أجل تكريس جميع الجهود على ما يجري فوق الأراضي الفلسطينية المحتلة .

وإذا كانت النوايا الأمريكية صادقة في تخفيض أعبائها العسكرية ، فلماذا لا

تنظر في التكلفة الهائلة لوجود أعداد كبيرة من قواتها في منطقة الخليج ، أم أنها لا تهتم بذلك كثيرا ، لأن تكلفة هذا الوجود يجري تحميلها بشكل مباشر أو غير مباشر لدول في المنطقة ، كما أنه يحقق لها مصالح استراتيجية ، بينما يعتبر انسحابها من القوات الدولية في سيناء أمراً أقل أهمية ، ويتماشى مع الخط العام للدولة الصهيونية ، التي تحميها وتدعم سياساتها دعما أعمى لا نقاش فيه .

وإذا كان شارون قد أعلن مرات عديدة أن العدو الاستراتيجي لإسرائيل هو مصر ، فإن مصر في حكمة بالغة تحسب للرئيس مبارك ، تفوت الفرصة الواحدة تلو الأخرى على شارون ، ذلك لأنها لو سارت وسايرت شارون ردا برد ، لكان ذلك بمثابة رسالة لإسرائيل بأن مصر تستعد للدخول في حرب معها ، ولأعطاها بذلك المبرر لشن العدوان الذي تدبر له وتتحين الفرصة لتنفيذه .

ولا يغيب عن فهم اللبيب ضرورة فضح الممارسات الإسرائيلية التي تسعى للتصادم والمواجهة ، لإفشال أي مشروع نهضوي تنموي لأي دولة عربية ، ومصر على رأس تلك الدول ، لذا فإن شارون وحلفاءه من جماعات اليمين ، يحاولون إضعاف بنية الاقتصاد المصري ، حتى ولو كلفهم ذلك اللجوء إلى خيار ضربة عسكرية لتخويف المستثمرين الأجانب وردعهم عن التواجد في مصر ، مما يترتب عليه عجز مصر عن التوصل إلى وزن يمكنها من إجبار إسرائيل على احترام دورها في عملية السلام ، ومن ثم يظل التفاوض العربي مع إسرائيل من موقف ضعف ، وتستطيع الدولة الصهيونية انتزاع الميزات التي تريدها لنفسها على حساب الدول العربية .

والواضح للعيان أن مصر بحجمها السياسي وثقلها التاريخي ، تدرك ما يبغيه شارون وصحبه ومن نهج نهجه ، لذا فإنها تحاول ممارسة دبلوماسية الاحتواء والفتور تجاه الدولة الصهيونية ، وفضح زيف دعاواها أمام العالم الخارجي ، لدرجة تصل إلى إدانة المجتمع الدولي لها ، وهو ما يجعل إسرائيل تصل إلى درجة الجنون من نجاح مصر في تحقيق هذه المعادلة الصعبة ـ ما بين الحفاظ على السلام ولو كان باردا من جهة ، والعمل على تخطي موقف الادانة إلى درجة العقاب

الدولي لها على إخلالها بتوفير الأجواء المناسبة للسلام من جهة أخرى ـ ومن ثم تحاول الضغط من خلال الولايات المتحدة لكي تتماشى مصر مع مقتضيات السلام كما تراه إسرائيل .

وفي هذا الإطار ، فإن حديث واشنطن عن سحب قواتها من سيناء يعكس رغبة أمريكية بالتخلي عن مسؤولياتها في رعاية عملية السلام ، ومراقبة تنفيذ الالتزامات المترتبة على الاتفاقات الناشئة عنها على نحو يتيح لإسرائيل فرض تفسيراتها الخاصة بما يجري على الأرض ، ويفهم كثيرون ذلك في إطار الرغبة الإسرائيلية في تخفيض الدور الأمريكي ، لكنه في الوقت نفسه ، يعني مزيدا من التحيز الأمريكي للدولة الصهيونية ، والاستجابة لمطالبها على حساب المقتضيات الضرورية لإقامة السلام الدائم والعادل .

وعودة إلى العنوان الرئيسي لهذا الفصل ، فإن الأحقاد الإسرائيلية قديمها وجديدها ، إنما تتسق وبشكل كبير ـ خاصة في الأيام الأخيرة ـ مع الضغوط التي يقف خلفها رجال إدارة بوش ، من منطلق قضية الإصلاح الكبرى التي كثر الحديث عنها . فها هي صحيفة الواشنطن بوست الأمريكية تدعو الرئيس الأمريكي جورج بوش لمطالبة الرئيس مبارك خلال لقائهما في مزرعة الرئيس الأمريكي في تكساس في 2004/4/12 بتحديد جدول زمني للقيام بإصلاحات سياسية في مصر ، وإلى تغيير سياسة واشنطن التقليدية تجاه مصر ، معتبرة أن مواقف وسياسات القاهرة تشكل أكبر عقبة أمام مشروع الشرق الأوسط الكبير ، الذي طرحته واشنطن للإصلاح في الدول العربية .

والواشنطن بوست هي الجناح اليميني في الإعلام الأمريكي المسيطر في العاصمة الأمريكية ، والصوت الصارخ لتيار المحافظين الجدد داخل إدارة بوش .

تقول الواشنطن بوست تحت عنوان «**رجلنا في القاهرة**»في مقالها الافتتاحي «**إنه ربما يكون رئيس مصر حسني مبارك أكبر عقبة أمام مبادرة الرئيس الأمريكي جورج بوش للديمقراطية في الشرق الأوسط**» .

وتدعو الصحيفة بوش لأن يخبر مبارك ليس فقط بشكل خاص فيما بينهما ،

ولكن بشكل علني ، بأنه يؤيد ما يدعو إليه المصريون من رفع قانون الطوارئ ، وإعادة تشكيل الدستور بما يسمح بانتخابات ديمقراطية حقيقية .

بل تزيد في ذلك باتهام مصر بعرقلة خطة بوش من أجل دعم الحريات السياسية في المنطقة ، من خلال التأكيد على عدم إمكانية تطبيق إصلاحات مستوردة من الخارج ، وعلى ربط هذه الإصلاحات بتسوية الصراع الفلسطيني الإسرائيلي ، وأخيرا تتساءل الصحيفة : هل سيؤكد الرئيس بوش خلال لقائه مع الرئيس مبارك على أن الرئيس المصري يقف معرقلا للتغيير السياسي في بلده وفي المنطقة؟

ونخلص مما تقدم في الواشنطن بوست ، أن مصر هي سبب الخراب الأعظم والدمار الأشمل الذي حاق بالمنطقة من احتلال فلسطين وغزو العراق ، وصولا إلى قمع الحريات ووئد الديمقراطيات ، ولم تتبق تهمة في كتاب الجرائم لم تتهم بها مصر ورئيسها وليس بعد الكفر قول .

هل يدرك القارئ جيدا أن مصر ما بين مطرقة الأحقاد الإسرائيلية وسندان المطالبات والضغوط الأمريكية ، تعيش حالة من الصمود الداخلي والخارجي ، تعززها خبرتها الحضارية وآلياتها السياسية المعتدلة التي كسبت احترام العالم كله ، فيما عدا المغردين خارج السرب؟

لكن الخطر بحال من الأحوال ، لا يحلق فوق مصر وإن حلق زمانا ، فإنه سرعان ما تنقشع سحبه ، ذلك أن الشاهد هنا هو من رؤيا أشعياء بن آموص نفسه الذي يقر رغم العداوة التي تحدث عنها **«إنه مبارك شعبي مصر»** بركة لا تستطيع جحافل الجيوش أن تهددها ، ولا مشروعات الإصلاح أن تدركها مهما كانت الضغوط الأمريكية أو المكائد الإسرائيلية(*)؟

(*) والغريب حقا أن تذكر الأبواق اليمينية الأصولية مصر في جميع المواقع والمواضع السلبية التي تبرزها الآيات التوراتية وتغفل عمدا عن البركات التي منحت لها وعلى رأسها أنها كانت الأرض الوحيدة في جميع دول الجوار التي زارها السيد المسيح لاجئا وهاربا من ظلم وبطش الملك اليهودي هيرودس الظالم ، وبقيت فيها العائلة المقدسة ردحا من الزمن حتى توفى هيرودس وملك أرشيلاوس ابنه الذي ورث عنه الحكم والملك والقساوة والإثم .

مفاهيم ومصطلحات

(بحسب ترتيب الفصول)

* **البتولية** : هي عدم الزواج ، وقد وجدَت في العديد من الأديان قبل المسيحية . وفي المسيحية البتولية هي امتناع عنَ الزواج ليس لأنه شيء دنس ، بل لتكريس النفس والجسد والفكر لله تعالى ، دون أن ينشغل المتبتل بأي أمر آخر .

* **الأكليروس** : كلمة مشتقة من لفظة «**أكليرونوميا**» ، ومعناها الميراث . أي أن هؤلاء الناس قد اختاروا الله نصيباً وميراثاً لهم ، وتطلق على جميع رجال الدين المسيحي من أصغر الرتب الكهنوتية إلى أكبرها .

* **ضد المسيح** : ويطلق عليه أيضاً النبي الكذاب ، أو المسيح الدجال ، وهو الذي ينكر لاهوت الابن .

* **يهود الشتات** : إشارة إلى الجنس اليهودي الذي تشتت في العالم كله بعد أن استولى تيتوس القائد الروماني على أورشليم ودمرّ هيكلها تماماً في أغسطس عام 70 م ، وهكذا قضى على الكيان الذاتي لليهود في فلسطين ، وهو ما كان باقياً بعد القضاء على الكيان السياسي لهم على يد البابليين والأشوريين ، ونشبت بعد ذلك ثورة اليهودية الثانية (132 ـ 135م) ضد الرومان ، ولكن القائد الروماني هارديان استطاع إخماد هذه الثورة بعد أن قتل أعداداً كبيرة من اليهود وقام بتغيير اسم أورشليم إلى «**إيليا كابيتولينا**» بعد تشييدها ، وأقام معبد لجوبيتر كبير آلهة الرومان محل الهيكل ، وتشتت اليهود في شمال أفريقيا ووصلوا إلى أوروبا والشتات الكبير . (راجع د . سيد فرج راشد : القدس عربية إسلامية ص 124 ـ 129 ، الرياض ، 1986م) .

* **الأمميين** : تعبير يطلقه اليهود على كل من سواهم من الأمم ، ويقال له بالإنجليزية Gentiles ، ويُستخدم أحياناً للدلالة على «**الجوييم**» أي الأغيار ، بمعنى المغايرين لليهود .

* **الرهبنة الفرنسيسكانية** : قام على تأسيسها القديس الإيطالي فرانسيس الإسيزي في أوائل القرن الثالث عشر الميلادي ، وحمل دعوة السلام والحب للبشرية كافة ، ودعا للاتحاد مع مخلوقات الله في الطبيعة .

* **محاكم التفتيش** : نشأت محكمة التفتيش بالمعنى الدقيق في السنين من 1220-1230 حين تعاونت السلطة المدنية والسلطة الدينية في البحث المنظم (**التفتيش**) عن الهراطقة ، أي أصحاب البدع التي تخالف الإيمان المسيحي للكنيسة الكاثوليكية ، وكانت عبارة «**العقوبة المطلوبة**» تعني الموت حرقاً .

* **الفكر الإسكاتولوجي** : هو الفكر المرتبط بالنهايات ، أي نهاية العالم وقيام الساعة ، وهو معروف في جميع الأديان . حيث يبدو الحساب والعقاب مسألة تشكل النهاية المحتومة للإنسان ، ولكنه انسحب في الأيام الأخيرة على مفاهيم لاهوتية مسيحية ، ومحاولة تفسيرها على ضوء أحداث دنيوية تسبق القيامة .

* **منظور الدوجما** : أي المنظور الصادر عن هيئة خارجية لها سلطة مطلقة وتأمر الآخر بالاعتقاد الذي تقرره ، وهذا لا يتوافر إلا في المجال الديني .

* **البيوريتانيون** : أي المتطهرون الأنقياء ، وقد رأوا أنهم الورثة المختارون (وإن كانوا هم الذين اختاروا أنفسهم ولم يخترهم الإله) لعهد إبراهيم مع الله ، واعتبروا أنهم التجسد الحي لأنبياء إسرائيل ، أو بلطة حرب الرب كما أسماهم إرميا النبي ، واستمدوا من أولئك الأنبياء هديهم ، ومن المزامير منعتهم وراحة نفوسهم ، وبذا فإن تقواهم وطاعتهم لم تعد للإله «**الأب الذي في السموات**» الذي تحدث عنه السيد المسيح ، بل ليهوه رب الجنود .

* **مارانوس** : تعددت الروايات التي تؤصل للكلمة ، إذ قيل إنها مشتقة من كلمة قاران آثان والتي وردت في رسالة القديس بولس الأولى إلى أهل كورنثوس

الإصحاح السادس عشر الآية 22 والتي يقول فيها «**إن كان أحد لا يحب الرب يسوع فليكن أناثيما**» . ماران آثان وأناثيما تعني محروم أو مقطوع من شركة القديسين أي الكنيسة ، أما قاران آثان فتعني «**الرب آت**» أو «**رب هلم**» .

ويروى أنه كان محتماً على اليهودي الأندلسي الأصل ، أن ينطق بها كثيراً لإبعاد الشبهة عن نفسه ، ثم حُرِّفت إلى أن وصلت إلى ماراناس ثم مارانوس . وهناك رأي آخر يقول إن «**مارانو**» باللهجة العامية الإسبانية القديمة معناها «**الخنزير**» فتكون «**مارانوس**» صفة ذم لليهود المتنصرين الذين حامت حولهم الشبهات على الدوام .

* **الدياسبورا** : مصطلح يعني التهجير أو الشتات ، ويشير تحديداً إلى المناطق التي كان اليهود يقطنونها خارج فلسطين ، وبمعناها الأوسع تعني الشتات اليهودي في بقاع العالم بأكمله .

* **الحروب الصليبية** : انطلقت في مدينة كليرمونت الفرنسية في السابع والعشرين من نوفمبر من العام 1095 تحت دعاوى تخليص الأراضي المقدسة في فلسطين من سيطرة العرب والمسلمين ، وتمت في صورة عدة حملات متصلة .

* **الفولجاتا "Vulgate"** : كلمة لاتينية تعني «**الدارجة**» ، وهي الترجمة الأولى للكتاب المقدس من اللغة اليونانية إلى اللغة اللاتينية ، وقام بها العالم الكتابي الفذ القديس إيرونيموس (جيروم) عام 383م ، وهي الترجمة المعتمدة لدى الكنيسة الكاثوليكية الرومانية .

* **العشور المقدسة** : تنفيذ الوصية السادسة من وصايا الكنيسة «**أوف البركة أي العشر**» ، بمعنى إخراج عُشر الأرباح المتحققة عن أعمال الإنسان ، وتنفق في سبيل البر والخير .

* **ثورة المكابيين** : (165-160 ق . م) ، أمام التهديد والأعمال الاستفزازية التي كان يمارسها انطيوخوس إيبيفانيوس الملك السلوقي (175-164 ق . م) مع اليهود وتدنيسه الهيكل ، ومنعه اليهود من ممارسة عبادتهم ، وقد ثار عدد من

اليهود بقيادة كاهن اسمه «متاتيا بن سمعان» على جنود الوالي ، فألف متاتيا جيشاً وهجم على مذابح الأوثان وهدمها ، واختتن كل الأولاد الغلف في تخوم إسرائيل ، وكان لمتاتيا خمسة بنين هم يوحنا ، سمعان ، يهوذا . «**الملقب بالمكابي**» ، اليعازر ، ويوناثان .

وقد ورث يهوذا المكابي عن أبيه القوة والشجاعة ، واستطاعت قواته أن تحطم المذابح الوثنية والتماثيل اليونانية وزوّدوا المعبد بمذبح طاهر جديد وأعيد فتح الهيكل في القدس للشعائر اليهودية وقُدمت القرابين وأصبح عيدا القديسين أو الحانوكة (2 ملوك 10:1-7) . (راجع د . سيد فرج راشد : القدس عربية إسلامية) .

* **إسرائيل** : كلمة عبرية مكونة من مقطعين «**يسرا**» معناها «**الذي يحارب**» وإيل أصلها سامي معناها الله . وكلمة إسرائيل تعني حرفياً «**الله يحارب**» أو «**المدافع عن الله**» ، وقد اكتسب يعقوب هذا الاسم «**إسرائيل**» بعد أن تصارع مع المَلَكْ عند مخاضة «**السيبوق**» (سفر التكوين 32 25L-29) ، فيما بعد أطلق الاسم على الدولة اليهودية لتصبح دولة إسرائيل (د . سيد فرج راشد) .

* **يهوه** : كلمة يهوه هي أحد أسماء الله العلم في اليهودية ، والتي تعني الكائن الذي كان والذي سيأتي ، القادر على كل شيء ، وبمعنى آخر إنه أزلي لا بداية له ولا نهاية .

* **الكنيسة الإنجليكانية** : وتُسمى كذلك الكنيسة الإنجليزية ، ولها أتباع في أمريكا ، وتتبع هذه الكنيسة النظام الأسقفي على أنه نظام إلهي خلافاً لسائر الفرق البروتستانتية ، ويرأس ملوك انجلترا الكنيسة الإنجليزية ، ويلقب رئيس الكنيسة وأسقفها بلقب «**لورد**» ، ورئيس أساقفة كانتربري هو رأس الكنيسة فيها .

* **المدراش** : كتب أحبار اليهود نصوصاً أخرى بالآرامية عُرفت بالمدْراش ، وهو مجموعة تفاسير آرامية على أسفار العهد القديم (التوراة وأسفارَ الأنبياء وكتب الحكمة) ، (د . سيد فرج راشد : الكتابة من أقلام الساميين إلى الخط العربي ، ص 150 ، القاهرة 1994) .

* **الصهيونية** : حركة سياسية عنصرية متطرفة ، ترمي إلى إقامة دولة لليهود في فلسطين تحكم من خلالها العالم ، واشتقت الصهيونية من اسم «جبل صهيون» في القدس ، حيث أقام داود قصره بعد انتقاله من حبرون (الخليل) إلى بيت المقدس (القدس) في القرن الحادي عشر قبل الميلاد ، وقد وردت لفظة «صهيون» لأول مرة في العهد القديم عندما تعرض للملك داود الذي أسس مملكته (1000-960 ق . م) .

* **الهجنوت** : مجموعات بروتستانتية ذات ميول صهيونية وجدت في فرنسا من المؤمنين بالعصر الألفي السعيد . وكان ممثلهم البارز هو إسحاق دي لاميير (1594-1676) الذي كتب دعوة اليهود Rappel des Juifs ودعا إلى إحياء إسرائيل بتوطين الشعب اليهودي في الأرض المقدسة .

* **كنعان الجديدة** : أصبحت الأرض الجديدة «أمريكا» بالنسبة للمتطهرين والفارين من انجلترا بمثابة كنعان الجديدة ، أما القديمة فهي أرض فلسطين ، حيث فر العبرانيون من أرض مصر عائدين إلى كنعان حسب رؤيتهم .

* **التأثيرات الثيؤلوجية** : كلمة ثيؤلوجي مشتقة من لفظ اللاهوت أو الإلهيات ، وتعني هنا التأثيرات ذات المرجعيات الدينية والأفكار اللاهوتية الضاربة في الجذور .

* **الدين الطبيعي** : تعتبر الأخلاق من منظور معاصر ، هي الدين الطبيعي Natural Religion الذي يعتنقه كل الناس ، وأن القيم الأخلاقية هي ما يجسده الفرد سلوكاً ومنهاجاً وليس ما يدعيه .

* **طائفة الكويكرز** : أنشأها چورچ فوكس في انجلترا سنة 1650م . ولم يكن من أهل العلم ، وقداستخف بأمرين هما المعرفة والاستعداد العقلي لبشارة الإنجيل ، ثم انقسمت طائفته إلى غير مستقيمي الرأي ، ويؤمنون بأن الديانة لا تحتاج مطلقاً للوحي ، وإلى مستقيمي الرأي الذين يسلمون بأكثر الحقائق الجوهرية في المسيحية ، غير أنهم يهملون أسرار الكنيسة ، ويحسبون أنه لا حاجة

للقسوس ، معتمدين على مخاطبة الروح القدس لهم رأساً بما يسمونه **«نوراً داخلياً»** .

* **المورمونيون** : ويسمون كنيسة يسوع المسيح لقديسي الأيام الأخيرة ، ومؤسس هذه البدعة المنشقة يدعى **جوزيف سميث** ، والذي لم تكن له علاقة بالمسيحية قبل تأسيسه للمورمونية ، ويعتبر نفسه رسولاً للقارة الأمريكية ، ويوحى إليه من السماء ، وفي معتقدهم أن يسوع المسيح ليس سوى أحد الملائكة أو الملاك ميخائيل على الأرجح .

* **الكنيسة الميثودية** : كنيسة بروتستانتية ،نشأت في القرن الثامن عشر على إثر نهضة قامت في كنيسة انجلترا بمبادرة من الأخوين **جون وتشارلز ويسلي** ، وفي نهج التقوية الألمانية نظمت هذه الحركة في أول أمرها في جمعيات منفصلة عن الإنجليكانية ، وتقوم بخدمة رسولية مستقلة عن الخلافة الرسولية (الأسقفية الإنجليكانية) ترفض الميثودية أن تكون لها عقيدة خاصة ، وليس لها شهادة إيمان غير قانون الرسل (مع أنه لايتوجب على كل واحد أن يقبل ما فيه من بنود) ، وهي تقوم قبل كل شيء على الخبرة الروحية التي يشعر بها شخصيا في الاهتداء على وجه يماثل الأخوين ويسلي ، وإليها ينتمي الرئيس الأمريكي **جورج بوش الابن** ، وتفسر كيفية رؤيته للأحداث الدنيوية من منظور الهداية التي عرف طريقه إليها بعد سنوات من الضلال .

* **يوحنا اللاهوتي** : ويُسمى يوحنا الحبيب ، كان أصغر وأقرب الحواريين إلى قلب السيد المسيح ، وهو صاحب الإنجيل الرابع وكاتب سفر الرؤية ، ويطلق عليه شهيد المحبة من كثرة ما تناول تلك الفضيلة الثمينة في كتاباته .

* **أوغسطينوس** : قديس وفيلسوف ومعلم في الكنيسة الكاثوليكية ، من مواليد شمال أفريقيا سنة 354 ، بدأ حياته ضالاً وبعيداً عن الإيمان ، لكنه عاد وانتظم في السلك الرهباني مكرساً حياته لله ، ومن أهم كتاباته مدينة الله والاعترافات .

* **بطرس الرسول** : كبير حواريي السيد المسيح ، ومؤسس الكنيسة الكاثوليكية ، وهو الذي أشار في رسالته الثانية الفصل الثالث الأعداد من 10-12 إلى انحلال العناصر ، بما يعني حدوث تفجيرات نووية ، وهو مالم يكن معروفاً في زمانه وعُرف لاحقاً عندما أعلن ألبرت أينشتاين عن تفتيت الذرة في القرن العشرين وانحَلال عناصرها .

* **بيلي جراهام** : أحد قادة التيارات اليمينية الإنجيلية ، وله دور فاعل في الولايات المتحدة منذ الأربعينيات ، وهو الرجل الذي أثر في حياة الرئيس چورچ بوش الدينية ، ونقله جذرياً من حياة الإدمان إلى حياة الإيمان والأصولية المسيحية ، ولا يقول عنه بوش إلا أستاذي وشيخي ، وأشار إليه أكثر من مرة على أنه الرجل الذي قادني إلى الرب ، وهو الذي شهد على قسم بوش كرئيس لأمريكا .

* **عاصفة الصحراء** : في السابع عشر من يناير/ كانون الثاني من عام 1991 ، شنت طائرات أمريكية وبريطانية وأخرى حليفة ، حملة مكثفة من القصف الجوي والضربات الصاروخية على العراق ، إيذاناً بانطلاق عملية عاصفة الصحراء لطرد القوات العراقية من الكويت بعد احتلالها لها .

* **الجبرية الإلهية المنحولة** : الجبرية تعني أن كل ما يحدث للإنسان قد قُدِّر عليه أزلاً ، فهو مسيَّر لا مخير ، وهو ما تقول به **الأشاعرة** ، والمعنى هنا إظهار الأمور كأنها من قبيل الأقدار الإلهية غير الممكن تجنبها ، وهي في حقيقتها أقدار منحولة .

* **الأبوكريفا** : ويسميها بعض اليهود **«الكتابات الخارجة»** ويعنون بذلك أنها نصوص مروية على أنها مقدسة ، ولكنها لم تُقبل عندما تقرر تسجيل أسفار العهد القديم في وضعها الحالي كأجزاء معتمدة من هذا الكتاب المقدس . (د . سيد فرج راشد) .

* **اللوبي** : تعني جماعات الضغط أو أصحاب المصالح ، وتتنوع ما بين السياسة والاقتصاد والمال والأعمال ، وكذلك الإعلام ، وتنسحب على اللوبي

اليهودي في الولايات المتحدة الأمريكية بصورة أشمل ، نظراً لما لجماعات الضغط هناك من قوة مؤثرة على سير الحياة السياسية لصالح دولة إسرائيل .

* **عماليق** : هم الشعب الذي انتصر عليه يشوع بن نون في عهد موسى النبي ، ويحكي عنهم سفر الخروج «أن موسى أمر يشوع أن يختار لمحاربة العماليق رجالاً من شعبه بينما يقف موسى على رأس التل وعصا الله في يده ، ففعل يشوع ما أمر به موسى وذهب برجاله لقتال العماليق ، أما موسى ومعه هارون وحور فصعد إلى التل ، وأخذ يراقب سير القتال ، فكان إذا رفع موسى يده يغلب بنو إسرائيل ، وإذا أنزلها تغلب العمالقة ، ولما تعب موسى وثقلت يداه أخذ هارون وحور حجراً وأجلساه عليه وأسند هارون وحور يديه فكانت يداه ثابتتين إلى مغيب الشمس ، فهزم يشوع عماليق وقومه بحد السيف» .

* **المعمدانيون** : إحدى الجماعات البروتستانتية التي تقول إن الكتاب المقدس وحده هو المصدر الكافي للعقيدة والعمل ، ويشكلون إحدى أقوى الجماعات المؤيدة للأمة الإسرائيلية ، ويقولون إن حبنا لإسرائيل حب عميق جداً ، وهو جزء لا يتجزأ من إيماننا ، ويضيفون أن كتابنا المقدس يتألف من العهد القديم والعهد الجديد ، وعهدنا القديم هو نفس توراتكم اليهودية ، ولما كان حجم العهد القديم ضعف العهد الجديد ثلاث مرات ، فإن 75٪ من كتابنا المقدس من كتابكم أي التوراة وذلك كثير من التراث المشترك ، وهو ذات الحديث الذي ألقاه الرئيس الأمريكي كارتر المعمداني من على منبر الكنيست الإسرائيلي .

* **إيباك** : المؤسسة التي تضم بين طياتها جميع المنظمات اليهودية العاملة والفاعلة في الولايات المتحدة الأمريكية ، وهي التي تحدد للسياسات الأمريكية الخطوط والخيوط جهة علاقتها مع إسرائيل ، وتجتمع مرة كل عام في الولايات المتحدة من خلال مؤتمرها السنوي الذي يحرص الساسة الأمريكيون على إلقاء كلمات فيه ، وعادة ما يحضر رئيس وزراء إسرائيل هذا المؤتمر .

* **الولادة الجديدة أو الولادة الثانية** : يؤكد السيد المسيح في حديثه مع

نيقوديموس في إنجيل القديس يوحنا ، أن المعمودية هي ولادة جديدة ، إذ يسأله نيقوديموس وكان من علماء الناموس عند بني إسرائيل ، «**كيف يستطيع إنسان أن يولد إذا كان شيخاً؟ أو يقدر أن يلج بطن أمه ثانية ويولد؟ فيجيبه يسوع شارحاً الولادة بالماء والروح : الحق الحق ، أقول لك ليس أحداً يقدر أن يدخل ملكوت السموات مالم يولد من الماء والروح**» .

وينسحب المفهوم الخاص بالولادة الجديدة عند الأصوليين الجدد إلى أبعد من ذلك ، حيث يلزم الإيمان بحرفية النصوص المقدسة دون روحها ، وهو ما قاد المولودين ثانية أو المولودين من جديد بعيداً عن قصد السيد المسيح .

* **الرقم 7** : يكاد الرقم سبعة أن يكون أشهر وأهم رقم في الكتاب المقدس ، حتى إن البعض وضع كتاباً اسمه «**سباعيات الكتاب**» شرح فيه تركيب أجزاء كثيرة من الكتاب على الرقم سبعة ، وبه يبدأ أول سفر في الكتاب سفر التكوين ، حيث يتحدث عن خلق الله للعالم في سبعة أيام ، وكذلك ينتهي به سفر الرؤيا ، آخر أسفار الكتاب المقدس ، والذي يكثر فيه استخدام وصف سبع كنائس وسبعة ملائكة وسبع جامات .

* **مدينة الله** : هو كتاب القديس أوغسطينوس السابق الإشارة إليه ، وهو أقرب ما يكون إلى كتب اليوتوبيات ، حيث المدينة الفاضلة ، وهو طرح روحي أكثر منه مادي ، إلهي أقرب منه إلى البشرى .

* **قورش** : ظهرت فارس كقوة كبرى بزعامة الملك قورش الثاني (559-530 ق . م) متحدية القوى الكبرى في الشرق القديم وعلى رأسها بابل ،ففي عام 539 ق . م حاصر قورش - وهو بالفارسية كوروش - بابل واستولى عليها . وأصدر أوامره بعودة اليهود من السبي إلى أورشليم ويهوذا مع السماح بإعادة بناء الهيكل . (عزرا 1:2-4) ، (راجع د . مصطفى كمال عبد العليم ، ود . سيد فرج راشد ، اليهود في العالم القديم ص 172) .

* **الشعب الأغلف** : الأغلف في اللغة العربية هو غير «**المختون**» ، وكان

اليهود يطلقون على الفلسطينيين القدماء الشعب الأغلف ، وكذلك على الكثيرين ، بل على غالبية الأمم ، وعندهم أن الختان هو عهد الله مع إبراهيم ونسله فقط من اليهود دون سائر شعوب الأرض .

* **CRUSADE الحروب الصليبية** : تعبر عن الحملات العسكرية التي تعهدت بالإيفاء بالنذر الديني المقدس لتخليص الأراضي المقدسة من استبداد «**المحمديين**» كما جاء التعريف في عدد من الموسوعات الغربية . وأصل الكلمة ربما جاء من إشارة الصليب التي حيكت على الملابس والإشارات الخارجية للمشاركين في تلك الحروب .

* **الإسلاموفوبيا** : مرض كراهية الإسلام كما يسميه بعض الكتاب ، وهو مرض ثقافي واجتماعي تظهر أعراضه في أفكار المرضى به وفي مواقفهم السياسية والاجتماعية ، وانتشاره في بعض المواقع أو المواضع ولدى البعض في الغرب ، إنما راجع لاعتقادهم بأنهم ينحدرون من أجناس أرقى وأكثر تحضراً ، أي من منطلق استعلائي عنصري ، واضعين الإسلام والمسلمين كعدو حاضر على الدوام .

* **PAX AMERICANA الباكسا أمريكانا** : تعني السلام الأمريكي باللغة اللاتينية ، وهي على وزن PAX ROMANA أي السلام الروماني . ويفيد هذا المصطلح بأن العالم عليه أن يقبل المنظور الأمريكي للسلام كما كان الحال في أيام الإمبراطورية الرومانية وقت سيادتها ، وهو مصطلح يستخدم للدلالة على السيادة الإمبراطورية الأمريكية أكثر ما ينسحب على الحديث عن السلام ، ويزعم أصحاب «**الباكسا أمريكانا**» أن الهدف من هذا المنظور هو خدمة توازن القوى لتحقيق الحرية والسلام في العالم .

* **كارل رؤف** : أخطر وأهم رجل في إدارتي الرئيس چورچ بوش الأولى والثانية ، فهو عقله المفكر ، ولسانه الناطق وصانع مجده ، يوصف بأنه صانع انتصارات بوش بدءاً من حاكمية تكساس ، وصولاً إلى الرئاسة الأمريكية ، وهو صاحب أهم مكتب للاستشارات السياسية في الولايات المتحدة الأمريكية ، يضم

في صفوفه 7 **آلاف** خبير في فن المشورة السياسية ، منتشرين في جميع أنحاء الولايات المتحدة ، حتى أصبح اسمه بين أبناء مهنته «**الجورو**» أي الخبير والمرجعية . يفضل چورج بوش أن يناديه «**بالفتى العبقري**» .

* **يوليانوس المرتد** : هو الإمبراطور الروماني FLAVIUS CLAUDIUS JULI ANUS الأخ غير الشقيق للإمبراطور الروماني الأشهر قسطنطين الكبير ، الذي انتصر على داريوس ملك الفرس ، وأعلن المسيحية دين الإمبراطورية الرومانية ، إلا أن يوليانوس عاد وارتد إلى عبادة الأوثان ، لذا سمي يوليانوس المرتد .

المراجع الأساسية

باللغة العربية

* الكتاب المقدس ـ المطبعة الكاثوليكية ـ بيروت ـ 1960
* عيسى ولد يهوديا ـ مارتن لوثر ـ ألمانيا ـ 1523
* اليهود وأكاذيبهم ـ مارتن لوثر ـ ألمانيا ـ 1544
* البعث العالمي العظيم ـ هنري فنش ـ لندن ـ 1620
* حال اليهود وآمالهم ـ إيرل شافتسبري ـ لندن ـ 1839
* الكوكب الوضاح في تاريخ الإصلاح ـ فان هام اليسوعي ـ بيروت ـ 1876
* المسيح آت ـ وليم بلاكستون ـ نيويورك ـ 1891
* بيوريتانيو ماساشوستس ـ ترومان نيلسون ـ نيويورك ـ 1892
* الفردوس المفقود ـ جون ملتون ـ لندن ـ 1957
* الكتاب المقدس والسيف ـ بربارة توخمان ـ لندن ـ 1957
* الكنيسة وقضايا الوطن والدولة والشرق الأوسط - الأنبا غريغوريس - القاهرة ـ 1975
* إسرائيل في ذاكرة أمريكا ـ بيتر جروس ـ نيويورك ـ 1983
* تاريخ الكنيسة ـ الأب جان كمبي ـ بيروت ـ 1986
* الصهيونية غير اليهودية ـ ريجينا الشريف ـ الكويت ـ 1985
* اللوبي اليهودي وسياسة أمريكا الخارجية ـ إدوارد تيفن ـ بيروت ـ 1988

* المسيحية والتوراة ـ شفيق مقار ـ لندن ـ 1992

* تاريخ بني إسرائيل ـ الأب متى المسكين ـ وادي النطرون ـ 1997

* الأساطير المؤسسة للسياسة الإسرائيلية ـ روجيه جارودي ـ باريس ـ 1997

* النبوءة والسياسة ـ جريس هالسل ـ القاهرة ـ 1998

* يد الله ـ جريس هالسل ـ القاهرة ـ 2000

* الشعب المختار ـ كليفورد لونجلي ـ القاهرة ـ 2001

* قصة الحضارة ـ وول ديورانت ـ القاهرة ـ 2002

باللغة الإنجليزية

*J. Dow,"Hebrew and Puritan " New York 1891

*Reuben Fink "America and Palestine " New York 1945

*Grose "Isreal In The Mind of America " New York 1950

*David Ben Gurion " The Rebirth & Destiny of Isreal New York 1954

*America and The Holy land " Jewish Quarterly 1972

*Isaac Asimov "Asimov's Guid to The Bible New York 1980

*Hal Lindsay "The Late Great Planet Earth "

*Jerry Falwell " Listen , America " New York 1980

*Haddad , H. "Christian Zionism America " Massa Chusetts 1982

*Irving Kristol , "Reflections of A Neoconservatives " New York 1983

باللغة الفرنسية

* Le Monde Secret de Bush, Eric Laurent CPLON 2003

*Les Fous de La Paix , Marek Halter, Eric Laurent , 2003

*Pour quoi Sommes - nous en guerre? Norman Mailer Denoil, 2003

*La nouvelle Puissance americaine, Henry Kissinger , Fayard , 2003

هذا كتاب يبحث فى الأصول، ويُنقب في حفريات الشواهد التاريخية، الظاهرمنها ، وذلك القابع تحت القشرة الخارجية لجسد هذا التاريخ، الذي يتحرك الآن بعنف ،ضارباً في كل الأنحاء شرقاً وغرباً ،شمالاً وجنوباً .

هذا التاريخ هو قصة الأصولية الأمريكية ، التي نشأت من خلفية الاختراق اليهودي لبعض أوجه الفكر المسيحي ـ كما يدلّل على ذلك المؤلف. والخطر الذي يُنبه عنه أن هذا الاختراق الذي ينطوي في جذوره وأصوله على مناهضة ثأرية لكل مذاهب الاعتدال في المسيحية والإسلام ، سوف ينسحب على الخريطة الأمريكية التي هي الآن أقرب إلى الخريطة الإمبراطورية في الأيام الحالية.

هذا الكتاب يتعامل مع الصراع الحادث الآن ، الذي هو ـ كما يقول المؤلف ـ صراع المطلق والنسبي " من ليس معنا فهو مع الإرهاب " كما أطلقها جورج بوش الابن ، عشية إزاحة القشرة الواهية عن الجسد الذي يكبر وينموحاملاً في إهابه وداخله تلك الينابيع الأصولية الرافضة لما سواها .إنها أصولية جديدة لا مجال للتعددية فيها ، ولذا فصراع المطلقات واحد وحتمي .

أصولية يكشف هذا الكتاب عن جذورها، ويتعامل معها بنفس عنفها، ولكنه عنف الفكر والتحليل .

هذا الكتاب ، كتاب لهذا الوقت الآني ، وللزمان الآتي ، إذا ما سارت الأمور ومعطيات الحاضر بما هي سائرة وقادمة إليه ، إنه يعلّق الجرس - ليس في رقبة القط - ولكن فِي رقبة كل منّا ، فهل نسمع صوت الجرس ؟!

الناشر